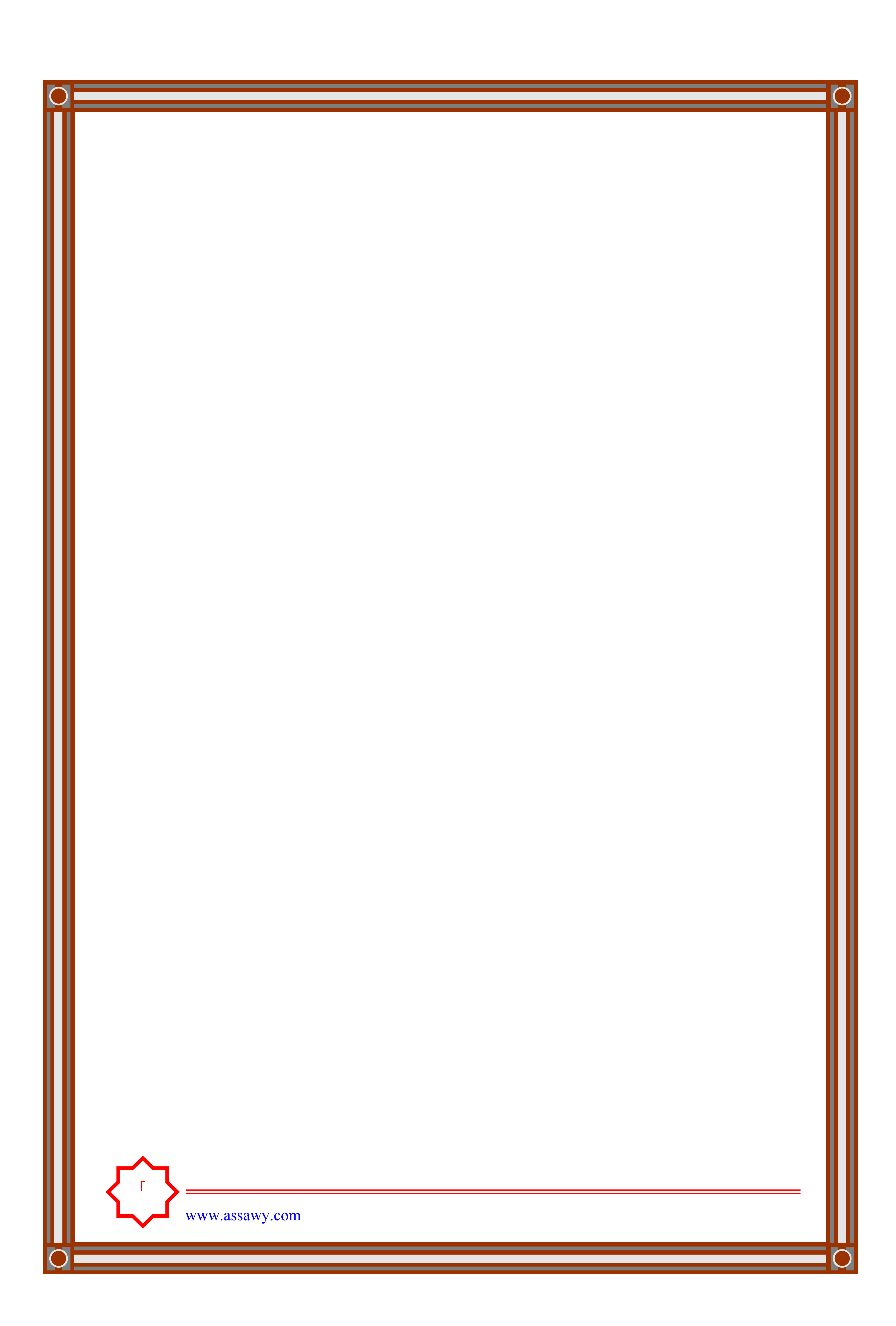
تهذيب شرح العقيدة الطحاوية

إعــــــداد

الأســـتاذ الدكـــــتور/

صــلاح الصــــاوي


www.assawy.com

الهدف العام

إن شرح الرسالة الطحاوية للإمام ابن أبي العز الحنفى -رحمه الله تعالى- من أوثق كتب العقائد، وأكثرها قبولاً في الأوساط الإسلامية، حيث اشتملت على عقيدة أهل السنة والجماعة. لذا فقد اعتمدت الجامعة تقريب الكتاب، وتهذيبه ليسهل في تناوله. وقد اتبعت في القيام بهذا التهذيب ما يلي:

اختصار مادة الكتاب، لا سيما مواطن الإطناب في عرض شبهات ومبادئ الفرق الضالة، والرد عليها، مع حذف ما جاء فيه من الاستطرادات الكلامية.

إعادة ترتيب متن الإمام الطحاوى -رحمه الله تعالى- مع موضوعات شرح الكتاب وفقاً لما جاء في حديث جبريل عن أركان الإيمان، مع وضع العناوين الجانبية المناسبة لفقرات الكتاب، وجمع المتفرقات في باب واحد في نهاية الكتاب.

التعليق على بعض المواطن التي تحتاج إلى تعقيب أو مزيد بيان في هامش الكتاب مع الإحالة إلى مصادرها، بجانب تخريج الأحاديث الواردة في الكتاب.

التقديم لكل وحدة بالأهداف الخاصة بمحتويات مباحثها، والرسم التوضيحي المشتمل على متن الإمام الطحاوىَ المتعلق بموضوعاتها، وإنهاء الوحدة بالخلاصة الهامة لمحتوياتها، مع أسئلة التقويم الذاتي والتدريبات البعدية لها.

وإنني لأرجو أن ينفع الله الدارسين الكرام بهذا الكتاب.

والله من وراء القصد، وهو الهادي إلى سواء السبيل.

الوحدة الأولى : التوحيد

الأهداف الخاصة

يتوقع منك عزيزى الدارس بعد دراستك لهذا الباب أن تكون ملماً بما يلي :

(١) حقيقة الإيمان عند أهل السنة ومن خالفهم.

(٢) العلاقة بين الإسلام والإيمان.

(٣) حقيقة الإسلام.

(٤) زيادة الإيمان ونقصانه.

(٥) حكم الاستثناء في الإيمان.

(٦) الحكم بالإسلام والحكم بالكفر، والربط بين الظاهر والباطن.

(٧) الكبائر والصغائر.

(٨) حكم الشهادة لمعين بالجنة أو النار.

(٩) صحة الاقتداء بأهل القبلة.

(١٠) أركان الإيمان.

تمهيد

مما ينبغي تقريره بين يدي مباحث الإيمان: أن حقيقة الإيمان مركبة من قول وعمل:

أما القول فقسمان: قول القلب وهو: الاعتقاد والتصديق، وقول اللسان وهو: التكلم بكلمة الإسلام.

وكذا العمل قسمان: عمل القلب وهو: المحبة والانقياد، وعمل الجوارح.

فإذا زالت هذه الأربعة زال الإيمان بكماله، وإذا زال تصديق القلب لم تنفع بقية الأجزاء؛ فإن تصديق القلب شرط في اعتبارها وكونها نافعة، وإذا زال عمل القلب مع اعتقاد الصدق فهنا موضع المعركة بين المرجئة وأهل السنة، فأهل السنة مجمعون على زوال الإيمان وأنه لا ينفع التصديق مع انتفاء عمل القلب[1].

ولا شك أنه يلزم من عدم طاعة القلب عدم طاعة الجوارح، إذ لو أطاع القلب وانقاد لأطاعت الجوارح وانقادت، ففي الصحيحين أن النبي ﷺ قال((:ألا إن في الجسد مضغة إذا صلحت صلح لها سائر الجسد، وإذا فسدت فسد لها سائر الجسد، ألا وهي القلب)) ، فمن صلح قلبه صلح جسده قطعاً، بخلاف العكس. ويلزم من عدم طاعة القلب وانقياده عدم التصديق المستلزم للطاعة وهو حقيقة الإيمان، فإن الإيمان ليس مجرد التصديق إنما هو التصديق المستلزم للطاعة والانقياد[2].

---

[1] إشارة إلى قاعدة التلازم بين الظاهر والباطن، وهي من أعظم أصول أهل السنة. وانظر المبحث السادس.

[2] يقول ابن تيمية : (وأيضاً فقد جاء نفر من اليهود إلى النبي صلى الله عليه وسلم فقالوا : نشهد إنك لرسول –ولم يكونوا مسلمين بذلك لأنهم قالوا ذلك على سبيل الإخبار عما في أنفسهم، أي: نعلم ونجزم أنك رسول الله –قال : "فلم لا تتبعوني ؟" قالوا : نخاف من يهود . فعُلِم أن مجرد العلم والإخبار عنه ليس بإيمان حتى يتكلم بالإيمان على وجه الإنشاء المتضمن للالتزام والانقياد مع تضمن ذلك الإخبار عما في أنفسهم . فالمنافقون قالوها مخبرين كاذبين فكانوا كفاراً في الباطن، وهؤلاء قالوها غير ملتزمين ولا منقادين فكانوا كفاراً في الظاهر والباطن). الفتاوى (٧/٥٦١).

المبحث الأول:الخلافة في مسمى الإيمان

قال المصنف رحمه الله: والإيمان هو الإقرار باللسان والتصديق بالجنان.

اختلف الناس فيما يقع عليه اسم الإيمان اختلافاً كثيراً:[1]

- **مذهب جمهور السلف من الأئمة الثلاثة: مالك والشافعي وأحمد وغيرهم إلى أنه: ما يقوم بالقلب واللسان والجوارح، فهو تصديق بالجنان، وإقرار باللسان، وعمل بالجوارح.**
- **مذهب أبي حنيفة وأصحابه في الإيمان ما ذكره الطحاوي من أنه: ما يقوم بالقلب واللسان دون الجوارح، فهو إقرار باللسان، وتصديق بالجنان**[2].
- **وذهب الكرَامية إلى أن: الإيمان هو ما يقوم باللسان فقط، فهو الإقرار باللسان، وقولهم ظاهر الفساد لأنه يترتب عليه أن المنافقين مؤمنون كاملو الإيمان وإن كانوا يستحقون الوعيد الذي أوعدهم الله به.**
- **وذهب الجهم بن صفوان والماتريدى إلى أنه: ما يقوم بالقلب وحده، وهو: إما المعرفة كما قال جهم، أو التصديق كما قاله الماتريدى. وهو أظهر فساداً مما قبله:**

فإنه يترتب عليه أن فرعون وقومه كانوا مؤمنين؛ فإنهم عرفوا صدق موسى وهارون عليهما الصلاة والسلام ولم يؤمنوا بهما ولهذا قال موسى لفرعون:

﴿ قَالَ لَقَدْ عَلِمْتَ مَآ أَنزَلَ هَـٰٓؤُلَآءِ إِلَّا رَبُّ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ﴾ [الإسراء:١٠٢]،

---

[1] قال ابن تيمية: (والمرجئة ثلاثة أصناف: الأول: الذين يقولون الإيمان مجرد ما في القلب، ثم من هؤلاء من يدخل فيه أعمال القلوب، وهم أكثر فرق المرجئة..، ومنهم من لا يدخلها، كجهم ومن اتبعه كالصالحي..، والقول الثاني: من يقول هو مجرد قول اللسان، وهذا لا يعرف لأحد قبل الكرامية، والثالث: تصديق القلب وقول اللسان، وهذا هو المشهور عن أهل الفقه والعبادة منهم). انظر الفتاوى (١٩٥/٧).

[2] قال الشيخ ابن باز رحمه الله تعالى: هذا التعريف فيه نظر وقصور، والصواب الذي عليه أهل السنة والجماعة أن الإيمان قول وعمل واعتقاد، يزيد بالطاعة، وينقص بالمعصية.. وإخراج العمل من الإيمان هو قول المرجئة..). انظر العقيدة الطحاوية، تعليق ابن باز، ص٢٢، مكتبة السنة.

وقال تعالى: ﴿ وَجَحَدُواْ بِهَا وَٱسْتَيْقَنَتْهَآ أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا ۚ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَـٰقِبَةُ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴾ [النمل:١٤].

وأهل الكتاب كانوا يعرفون النبي صلى الله عليه وسلم كما يعرفون أبناءهم ولم يكونوا مؤمنين به بل كافرين به معادين له. ﴿ ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَـٰهُمُ ٱلْكِتَـٰبَ يَعْرِفُونَهُۥ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَآءَهُمْ ۖ ﴾ [البقرة: ١٤٦].

وكذلك أبو طالب عند الجهم يكون مؤمناً فإنه قال:

ولقد علمت بأن دين محمد من خير أديان البرية دينا

لولا الملامة أو حذار مسبة لوجدتني سمحاً بذاك مبينا

بل إبليس يكون عنده مؤمناً كامل الإيمان فإنه لم يجهل ربه بل هو عارف به ﴿ قَالَ رَبِّ فَأَنظِرْنِىٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴾ [ص: ٧٩].

فالكفر عند الجهم هو الجهل بالله تعالى، وسبحان الله، ما أجهله هو بربه إذ جعله الوجود المطلق، وسلب عنه صفاته. ولا شك أن فساد قوله ظاهر.

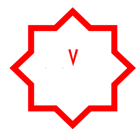
الخلاف بين أبي حنيفة والجمهور:

والاختلاف الذي بين أبي حنيفة والأئمة الباقين من أهل السنة اختلاف صوري، ونزاع لفظي[1] لا يترتب عليه فساد اعتقاد:

فلا خلاف بين أهل السنة أن الله تعالى أراد من العباد القول والعمل، وأعني بالقول التصديق بالقلب والإقرار باللسان، وهذا الذي يعنى به عند إطلاق قولهم الإيمان قول وعمل.

لكن هذا المطلوب من العباد: هل يشمله اسم الإيمان ؟ أم الإيمان أحدهما وهو القول وحده والعمل مغاير له لا يشمله اسم الإيمان عند إفراده بالذكر وإن أطلق عليهما كان مجازاً ؟ هذا محل النـزاع.

[1] قال الشيخ ابن باز رحمه الله: وإخراج العمل من الإيمان هو قول المرجئة، وليس الخلاف بينهم وبين أهل السنة فيه خلافاً لفظياً، بل هو لفظي ومعنوي، ويترتب عليه أحكام كثيرة يعلمها من تدبر كلام أهل السنة وكلام المرجئة..). انظر العقيدة الطحاوية، تعليق ابن باز، ص٢٢، مكتبة السنة.



وقد أجمعوا على أنه لو صدق بقلبه وأقر بلسانه وامتنع عن العمل بجوارحه أنه عاص لله ورسوله مستحق للوعيد.[1]

وقد وقع الاتفاق على أن مرتكب الكبيرة لا يخرج من الإيمان بل هو في مشيئة الله إن شاء عذبه وإن شاء عفا عنه، وإلا فقد نفى النبي صلى الله عليه وسلم الإيمان عن الزاني والسارق وشارب الخمر والمنتهب ولم يوجب ذلك زوال اسم الإيمان[2] عنهم بالكلية اتفاقاً.

ثم كان الخلاف بعد ذلك حول أعمال الجوارح، هل هي لازمة لإيمان القلب أو جزء منه؟ وهذا الخلاف بعد الاتفاق على المسائل السابقة لا يعدو أن يكون خلافا لفظياً لا محذور فيه إلا ما قد يقع بسببه من العداء، أو أن يصير ذلك ذريعة إلى بدع أهل الكلام المذموم من أهل الإرجاء ونحوهم وإلى ظهور الفسق والمعاصي بأن يقول أنا مؤمن حقا كامل الإيمان والإسلام، ولي من أولياء الله. فلا يبالي بما يكون منه من المعاصي، وبهذا المعنى قالت المرجئة: لا يضر مع الإيمان ذنب لمن عمله[3]، وهذا باطل قطعاً.

فالإمام أبو حنيفة رضي الله عنه نظر إلى حقيقة الإيمان لغةً مع أدلة من كلام الشارع، وبقية الأئمة رحمهم الله نظروا إلى حقيقته في عرف الشارع فإن الشارع ضم إلى التصديق أوصافا وشرائط كما في الصلاة والصوم والحج ونحو ذلك.

أدلة أبي حنيفة وأصحابه:

أن الإيمان في اللغة عبارة عن التصديق، ومنهم من ادعى إجماع أهل اللغة على ذلك،

قال تعالى مُخْبِرًا عن إخوة يوسف: ﴿ وَمَآ أَنتَ بِمُؤْمِنٍ لَّنَا وَلَوْ كُنَّا صَٰدِقِينَ ﴾ [يوسف:١٧].

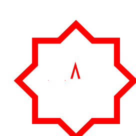
أي بمصدق لنا.

---

[1] قال ابن تيمية: (قال حنبل: حدثنا الحميدي: أخبرت أن أناسا يقولون: إن من أقر بالصلاة والزكاة والصوم والحج و لم يفعل من ذلك شيئا حتى يموت ويصلي مستدبر القبلة حتى يموت فهو مؤمن ما لم يكن جاحدا إذا علم أن ترك ذلك فيه إيمانه، وإذا كان مقرًا بالفرض واستقبال القبلة. فقلت: هذا الكفر الصراح وخلاف كتاب الله وسنة رسوله وعلماء المسلمين، قال الله تعالى: ﴿**وما أمروا إلا ليعبدوا الله مخلصين له الدين**﴾ الآية. وقال حنبل: سمعت أبا عبدالله أحمد بن حنبل يقول: من قال هذا فقد كفر بالله ورد عليه أمره وعلى الرسول ما جاء به عن الله). الفتاوى (٧/٢٠٩).

[2] بل قد نفى النبي صلى الله عليه وسلم عنهم اسم الإيمان، والمقصود أنه قد زال عنهم الإيمان الواجب فرجع إلى دائرة الإيمان المجمل والإسلام.

[3] قال ابن تيمية: (وبعض الناس يحكى هذا عنهم.. وهذا قد يكون قول الغالية الذين يقولون لا يدخل النار من أهل التوحيد أحد، لكن ما علمت معينا أحكى عنه هذا القول وإنما الناس يحكونه فى الكتب ولا يعينون قائله وقد يكون قول من لا خلاق له). الفتاوى (٧/١٨١).



ثم هذا المعنى اللغوي وهو التصديق بالقلب هو الواجب على العبد حقا لله وهو أن يصدق الرسول فيما جاء به من عند الله، فمن صدق الرسول فيما جاء به من عند الله فهو مؤمن فيما بينه وبين الله تعالى والإقرار شرط إجراء أحكام الإسلام في الدنيا هذا على أحد القولين.

ولأنه ضد الكفر وهو التكذيب والجحود وهما يكونان بالقلب فكذا ما يضادهما.

وقوله: ﴿ إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُۥ مُطْمَئِنٌّۢ بِٱلْإِيمَـٰنِ ﴾ [النحل:١٠٦]. يدل على أن القلب هو موضع الإيمان لا اللسان.

ولأنه لو كان مركباً من قول وعمل لزال كله بزوال جزئه.

ولأن العمل قد عطف على الإيمان والعطف يقتضي المغايرة، كما يتكرر كثيراً في قوله تعالى:

﴿ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ ﴾ .

مناقشة أدلة أبي حنيفة:

اعترض على الاستدلال بأن الإيمان في اللغة عبارة عن التصديق:

- بمنع الترادف بين التصديق والإيمان: وهب أن الأمر يصح في موضع، فلم قلتم إنه يوجب الترادف مطلقا ؟ وكذلك اعترض على دعوى الترادف بين الإسلام والإيمان. ومما يدل على عدم الترادف:

أنه يقال للمخبر إذا صدق صدّقه، ولا يقال آمنه، ولا آمن به، بل يقال آمن له كما قال تعالى:

﴿ فَـَٔامَنَ لَهُۥ لُوطٌ ﴾ [العنكبوت:٢٦]،

وقوله: ﴿ فَمَآ ءَامَنَ لِمُوسَىٰٓ إِلَّا ذُرِّيَّةٌ مِّن قَوْمِهِۦ ﴾ [يونس:٨٣]، وقوله: ﴿ يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَيُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴾ [التوبة:٦١]، ففرق بين المعدّى بالباء والمعدّى باللام فالأول يقال للمخبَر به، والثاني للمخبر، فالحاصل أنه لا يقال قد آمنته، ولا صدقت له، إنما يقال آمنت له كما يقال أقررت له فكان تفسيره بأقررت أقرب من تفسيره بصدّقت مع الفرق بينهما.

ومن ناحية أخرى فإن الفرق بينهما ثابت في المعنى؛ فإن كل مخبر عن مشاهد أو غيب يقال له في اللغة صدقت كما يقال له كذبت. أما لفظ الإيمان فلا يستعمل إلا في الخبر عن الغائب، فيقال لمن قال:

طلعت الشمس: صدَّقناه ولا يقال آمنا له ؛ فإن فيه أصل معنى الأمن، والائتمان إنما يكون في الخبر عن الغائب فالأمر الغائب هو الذي يؤتمن عليه المخبر، ولهذا لم يأت في القرآن وغيره لفظ آمن له إلا في هذا النوع.

ولأنه لم يقابل لفظ الإيمان قط بالتكذيب كما يقابل لفظ التصديق وإنما يقابل بالكفر، والكفر لا يختص بالتكذيب، بل لو قال أنا أعلم أنك صادق ولكن لا أتبعك بل أعاديك وأبغضك وأخالفك لكان كفرا أعظم، فعلم أن الإيمان ليس التصديق فقط ولا الكفر التكذيب فقط، بل إذا كان الكفر يكون تكذيبا ويكون مخالفة ومعاداة بلا تكذيب فكذلك الإيمان يكون تصديقا وموافقة وموالاة وانقيادا ولا يكفي مجرد التصديق فيكون الإسلام جزء مسمى الإيمان.

-ولو سلم الترادف: فالتصديق يكون بالأفعال أيضا كما ثبت في الصحيح: ((العينان تزنيان وزناهما النظر...)) إلى أن قال: ((والفرج يصدق ذلك ويكذبه)) [1]. وقال الحسن البصري رحمه الله: ليس الإيمان بالتحلي ولا بالتمني ولكنه ما وقر في الصدور وصدقته الأعمال.

ولو كان تصديقا فهو تصديق مخصوص كما في الصلاة ونحوها كما قد تقدم، وليس هذا نقلاً للفظ ولا تغييرًا له فإن الله لم يأمرنا بإيمان مطلق بل بإيمان خاص وصفه وبينه، فالتصديق الذي هو الإيمان أدنى أحواله أن يكون نوعا من التصديق العام فلا يكون مطابقا له في العموم والخصوص، بل يكون الإيمان في كلام الشارع مؤلفا من العام والخاص كالإنسان الموصوف بأنه حيوان ناطق.

ولأن التصديق التام القائم بالقلب مستلزم لما وجب من أعمال القلب والجوارح فإن هذه من لوازم الإيمان التام وانتفاء اللازم دليل على انتفاء الملزوم، ونقول: إن هذه اللوازم تدخل في مسمى اللفظ تارة[2]، وتخرج عنه أخرى[3]، أو إن اللفظ باق على معناه في اللغة ولكن الشارع زاد فيه أحكاما، أو أن يكون الشارع استعمله في معناه المجازي فهو حقيقة شرعية مجاز لغوي، أو أن يكون قد نقله الشارع.

أما قولهم: إن التصديق هو الواجب حقا لله وإن من صدق الرسول فيما جاء به فهو مؤمن على الحقيقة، فمردود؛ لأننا قد علمنا يقينا من سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم أن من صدّق ولم يتكلم بلسانه بالإيمان مع قدرته على ذلك، وترك العمل بالفرائض، وأبغض الرسول وعاداه فليس بمؤمن. كما قد علمنا أيضا أنه رتب الفوز والفلاح على التكلم بالشهادتين مع الإخلاص والعمل بمقتضاهما.

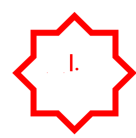
وقد قال النبى صلى الله عليه وسلم: ((الإيمان بضع وسبعون شعبة، أعلاها قول لا إله إلا الله،

---

[1] متفق عليه. خ: الاستئذان، ب١٢، ح٥٨٨٩. م: القدر، ب:٥، ح٢٠ و٢١ - عن أبي هريرة.

[2] عند الإطلاق والتجريد.

[3] عند الاقتران و التقييد.



وأدناها إماطة الأذى عن الطريق، والحياء شعبة من الإيمان)) [١].

فالإيمان أصل[٢] له شعب متعددة وكل شعبة منها تسمى إيمانا، فالصلاة من الإيمان وكذلك سائر الفرائض كالزكاة والصوم والحج وغيرها، والأعمال الباطنة كالحياء والتوكل والخشية من الله والإنابة إليه[٣]، حتى تنتهي هذه الشعب إلى إماطة الأذى عن الطريق فإنه من شعب الإيمان. وهذه الشعب منها ما يزول الإيمان بزوالها إجماعا كشعبة الشهادتين، ومنها ما لا يزول بزوالها إجماعا كترك إماطة الأذى عن الطريق. وبينهما شعب متفاوتة تفاوتاً عظيماً منها ما يَقْرُبُ من شعبة الشهادة ومنها ما يقرب من شعبة إماطة الأذى [٤].

وكذلك الكفر[٥] أصلٌ وفروع، وكما أن شعب الإيمان إيمان فكذا شعب الكفر كفر، فالحكم بما أنزل الله من شعب الإيمان، والحكم بغير ما أنزل الله كفر.

وقد قال صلى الله عليه وسلم: ((من رأى منكم منكرا فليغيره بيده، فإن لم يستطع فبلسانه، فإن لم يستطع فبقلبه، وذلك أضعف الإيمان)) [٦]، وفي حديث آخر: ((ليس وراء ذلك من الإيمان حبة خردل)) .[٧] وقال: ((من أحب لله، وأبغض لله، وأعطى لله، ومنع لله فقد استكمل الإيمان)) [١]، إلى غير

(١) متفق عليه. خ: الإيمان، ب٣، ح٩. م: الإيمان، ب١٢، ح٥٧ و ٥٨ – عن أبي هريرة.

(٢) أصل الإيمان هو الإيمان المجمل بما جاء به الرسول تصديقاً وانقياداً ؛ تصديق الخبر، والانقياد للأمر،وهو ما يلزم– عند الخلو من النواقض المكفرة– لثبوت حكم الإسلام في الدنيا والنجاة من الخلود في النار يوم القيامة.
يقول ابن تيمية: (إن الإيمان ثلاث درجات:﴿ ثم أورثنا الكتاب الذين اصطفينا من عبادنا فمنهم ظالم لنفسه ومنهم مقتصد ومنهم سابق بالخيرات بإذن الله ﴾ [فاطر: ٣٢] إيمان السابقين المقربين، وهو ما أتى فيه بالواجبات والمستحبات من فعل وترك، وإيمان المقتصدين أصحاب اليمين وهو ما أتى فيه بالواجبات من فعل وترك، وإيمان الظالمين وهو ما يترك فيه بعض الواجبات أو يفعل فيه بعض المحظورات، فأما أصل الايمان الذي هو الإقرار بما جاءت به الرسل عن الله تصديقاً به وانقياداً له فهذا أصل الايمان الذي من لم يأت به فليس بمؤمن). الفتاوى (١٢/٤٧٤).

(٣) كل عمل من أعمال القلوب له أصل لا يصح الإيمان بدونه، وله كمال واجب لا يتم الإيمان الواجب إلا به، وله كمالات فوق ذلك تعلو بها المقامات. وفي ضوء ذلك تفهم شروط لا إله إلا الله.. راجع معارج القبول (١/ ٣٣٣) دار الكتب العلمية.

(٤) فأعمال الظاهر والباطن تسمى إيمانا، منها ما يعد شرط صحة، ومنها ما يعد شرط كمال. فكل قول أو فعل تركه كفر فالقيام به شرط لصحة الإيمان، وكذلك كل قول أو فعل هو كفر فتركه يعتبر شرطا لصحة الإيمان.

(٥) يقول ابن تيمية: (والكفر هو عدم الإيمان، سواء كان معه تكذيب أو استكبار أو إباء أو إعراض، فمن لم يحصل في قلبه التصديق والانقياد فهو كافر). الفتاوى (٧/٦٣٩).

(٦) رواه مسلم،ب٢٠، ح٧٨ – عن أبي سعيد الخدرىّ.

(٧) رواه مسلم، ٨٠ جـ١ ص٢١٤.

ذلك من الأحاديث الدالة على قوة الإيمان وضعفه بحسب العمل.

وأما كونه يلزم من زوال جزئه زوال كله: فإن أريد أن الهيئة الاجتماعية لم تبق مجتمعة كما كانت فمسلّم ؛ ولكن لا يلزم من زوال بعضها زوال سائر الأجزاء فيزول عنه الكمال فقط.[٢]

وأما كون عطف العمل على الإيمان يقتضي المغايرة: فلا يكون العمل داخلا في مسمى الإيمان: فاعلم أن عطف الشيء على الشيء يقتضي المغايرة بين المعطوف والمعطوف عليه مع الاشتراك في الحكم الذي ذكر لهما. والمغايرة على مراتب نذكرها فيما يلي:

أعلاها أن يكونا متباينين ليس أحدهما هو الآخر ولا جزءا منه ولا بينهما تلازم، كقوله تعالى: ﴿ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَجَعَلَ ٱلظُّلُمَـٰتِ وَٱلنُّورَ ﴾ [الأنعام:١] وهذا هو الغالب.

أن يكون بينهما تلازم، كقوله تعالى: ﴿ أَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُوا۟ ٱلرَّسُولَ ﴾ [النساء:٥٩]

عطف بعض الشيء عليه، كقوله تعالى: ﴿ حَـٰفِظُوا۟ عَلَى ٱلصَّلَوَٰتِ وَٱلصَّلَوٰةِ ٱلْوُسْطَىٰ ﴾ [البقرة: ٢٣٨]، وقوله: ﴿ مَن كَانَ عَدُوًّا لِّلَّهِ وَمَلَـٰٓئِكَتِهِۦ وَرُسُلِهِۦ وَجِبْرِيلَ وَمِيكَىٰلَ ﴾ [البقرة:٩٨]. وفي مثل هذا وجهان:

أحدهما: أن يكون داخلا في الأول فيكون مذكورا مرتين.

والثاني: أن عطفه عليه يقتضي أنه ليس داخلا فيه هنا وإن كان داخلا فيه منفردا كما قيل مثل ذلك في لفظ الفقراء والمساكين ونحوهما مما تتنوع دلالته بالإفراد والاقتران.

عطف الشيء على الشيء لاختلاف الصفتين، كقوله تعالى: ﴿ غَافِرِ ٱلذَّنۢبِ وَقَابِلِ ٱلتَّوْبِ ﴾ [غافر:٣]، وقد جاء في الشعر العطف لاختلاف اللفظ فقط كقوله:

فألفَى قولَها كذباً وميناً[٣]

فإذا كان العطف في الكلام يكون على هذه الوجوه نظرنا في كلام الشارع كيف ورد فيه الإيمان، فإنه

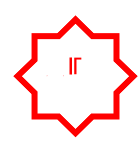
---

[١] ت: القيامة، ب٦٠، ح٢٥٢١ عن معاذ بن أنس الجهنيّ، وقال: حسن . وأيضاً د: السنة، ب١٦، ح٤٦٨١. صححه الألباني برقم (٥٩٦٥) صحيح الجامع (١٠٣٤/٢) ط المكتب الإسلامي.

[٢] يقول ابن تيمية: (وأما قول القائل: إن الإيمان إذا ذهب بعضه ذهب كله، فهذا ممنوع، وهذا هو الأصل الذى تفرعت عنه البدع فى الإيمان ؛ فإنهم ظنوا أنه متى ذهب بعضه ذهب كله لم يبق منه شيء). الفتاوى (٢٢٣/٧). ويلاحظ أن الإيمان حقيقة مركبة، إذا زال ركن فيها لم يصح الإيمان وإن لم تزل سائر الأجزاء.

[٣] مثل قول الشاعر: ألا حبذا هند وأرض بها هند وهند أتى من دونها النأي والبعد

الفتاوى (١٧٧/٧).



تارة يذكر مطلقا عن العمل وعن الإسلام، وتارة يذكر مقرونا بالعمل أو بالإسلام على ما سيأتي في المبحث التالي :

المبحث الثاني : الإيمان والإسلام

مما ينبغي أن يعلم أن الألفاظ الواردة في كلام الله ورسوله، بل في كلام كل أحد، تتنوع دلالاتها بالإطلاق والتقييد، والاقتران والتجريد.

فلا شك أن الإيمان:

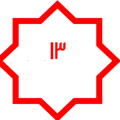
- تارة يذكر مطلقاً عن العمل وعن الإسلام.
- وتارة يذكر مقروناً، إما بالإسلام، وإما بالعمل الصالح.

فالإيمان المطلق مستلزم للأعمال:

وإذا أطلق الإيمان يراد به ما يراد بلفظ البر والتقوى والدين ودين الإسلام. والكتاب والسنة مملوءان بما يدل على أن الرجل لا يثبت له حكم الإيمان إلا بالعمل مع التصديق، وهذا أكثر من معنى الصلاة والزكاة؛ فإن ألفاظ الصلاة والزكاة قد فسرتها السنة والإيمان بين معناه الكتاب والسنة:

فمن الكتاب: قوله تعالى: ﴿ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ ﴾ [الأنفال:٢]، وقوله: ﴿ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا۟ ﴾[الحجرات:١٥]، وقوله: ﴿ فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا۟ فِىٓ أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا۟ تَسْلِيمًا ﴾ [النساء:٦٥].. فنفي الإيمان حتى توجد هذه الغاية دل على أن هذه الغاية فرض على الناس، فمن تركها كان من أهل الوعيد، ولم يكن قد أتى بالإيمان الواجب الذي وعد أهله بدخول الجنة بلا عذاب.

وأما السنة: فقد فسر النبي الإيمان في حديث وفد عبد القيس المتفق على صحته بما فسر به الإسلام في حديث جبريل، حيث قال لهم: ((آمركم بالإيمان بالله وحده.أتدرون ما الإيمان بالله وحده ؟



شهادة أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وإقام الصلاة، وإيتاء الزكاة، وأن تؤدوا خمس ما غنمتم)) [(١)].

ومعلوم أنه لم يرد أن هذه الأعمال تكون إيماناً بالله بدون إيمان القلب لما قد أخبر في مواضع أنه لا بد من إيمان القلب، فعلم أن هذه مع إيمان القلب هو الإيمان. وأي دليل على أن الأعمال داخلة في مسمى الإيمان فوق هذا الدليل؟ فإنه فسر الإيمان بالأعمال ولم يذكر التصديق للعلم بأن هذه الأعمال لا تفيد مع الجحود.

ولا يقال إن بين تفسير النبي صلى الله عليه وسلم الإيمان في حديث جبريل وتفسيره إياه في حديث وفد عبد القيس معارضة، لأنه فسر الإيمان في حديث جبريل بعد تفسير الإسلام فكان المعنى أنه الإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر مع الأعمال التي ذكرها في تفسير الإسلام، كما أن الإحسان متضمن للإيمان الذي قدم تفسيره قبل ذكره، بخلاف حديث وفد عبد القيس لأنه فسره ابتداءً لم يتقدم قبله تفسير الإسلام. ولكن هذا الجواب لا يتأتى على ما ذكره الشيخ رحمه الله من تفسير الإيمان فحديث وفد عبد القيس مشكل عليه.

وقال: ((الإيمان بضع وسبعون شعبة أعلاها قول لا إله إلا الله وأدناها إماطة الأذى عن الطريق، والحياء شعبة من الإيمان)) [(٢)].

وقال: ((لا يزني الزاني حين يزني وهو مؤمن.)).[(٣)]

وأما عند الاقتران:فإذا عطف العمل الصالح على الإيمان:

فقد تقدم الكلام عليه في المبحث الأول عند مناقشة أدلة أبي حنيفة وأصحابه عن مراتب عطف الشيء على الآخر.فإذا قرن الإيمان بالإسلام:

فقد فسر النبي الإسلام بالأعمال الظاهرة والإيمان بالإيمان بالأصول الستة، فليس لنا إذا جمعنا بينهما أن نجيب بغير ما أجاب به النبي صلى الله عليه وسلم.

---

(١) متفق عليه. خ: الإيمان، ب٣٨، ح٥٣، والعلم: ب:٢٥، ح٨٧، والمواقيت، ب١، ح٥٠٠، والتوحيد: ب٥٦، ح٧١١٧ . م: الإيمان، ب٦، ح٢٣ – عن ابن عباس.

(٢) متفق عليه.(سبق تخريجه).

(٣) متفق عليه. خ: المظالم، ب٣٠، ح٢٣٤٣. م: الإيمان، ب٢٤، ح١٠٠-١٠٥. عن أبي هريرة.

قال ابن تيمية: (والمقصود هنا أن كل ما نفاه الله ورسوله من مسمى أسماء الأمور الواجبة، كاسم الإيمان والإسلام والدين والصلاة والصيام والحج وغير ذلك، فإنما يكون لترك واجب في ذلك المسمى). الفتاوى (٧/ ٣٧).

ويبينه قوله في حديث سؤالات جبريل في معنى الإسلام والإيمان، وقد قال فيه النبي صلى الله عليه وسلم: ((هذا جبرائيل أتاكم يعلمكم دينكم)) . فجعل الدين هو الإسلام والإيمان والإحسان، فهو يجمع هذه الثلاثة، لكنه درجات ثلاث: إسلام، ثم إيمان، ثم إحسان. والمراد بالإيمان ما ذكر مع الإسلام قطعاً، كما أنه أريد بالإحسان ما ذكر مع الإيمان والإسلام لا أن الإحسان يكون مجرداً عن الإيمان هذا محال. فالإحسان أعم من جهة نفسه وأخص من جهة أهله من الإيمان، وكذا الإيمان مع الإسلام. وهذا كالرسالة والنبوة، فالنبوة داخلة في الرسالة، والرسالة أعم من جهة نفسها، أخص من جهة أهلها. فكل رسول نبي ولا ينعكس. وهذا كما قال تعالى: ﴿ ثُمَّ أَوْرَثْنَا ٱلْكِتَـٰبَ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا ۖ فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ وَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌۢ بِٱلْخَيْرَٰتِ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۚ ﴾ [فاطر: ٣٢]، فالمقتصد والسابق كلاهما يدخل الجنة بلا عقوبة، بخلاف الظالم لنفسه فإنه معرض للوعيد. وهكذا من أتى بالإسلام الظاهر مع التصديق بالقلب لكن لم يقم بما يجب عليه من الإيمان الباطن فإنه معرض للوعيد. فحقيقة العلاقة بين الإسلام والإيمان: أنهما إذا اجتمعا افترقا، وأصبح يراد من أحدهما ما لا يراد من الآخر، وإذا افترقا اجتمعا، أي: إذا انفرد أحدهما شمل معنى الآخر.

وفي المسند: ((الإسلام علانية والإيمان في القلب)) [1] وفي هذا الحديث دليل على المغايرة بين الإسلام والإيمان.

ويشهد للفرق بين الإسلام والإيمان قوله تعالى: ﴿ قَالَتِ ٱلْأَعْرَابُ ءَامَنَّا ۖ قُل لَّمْ تُؤْمِنُوا۟ وَلَـٰكِن قُولُوٓا۟ أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ ٱلْإِيمَـٰنُ فِى قُلُوبِكُمْ ۖ ﴾ [الحجرات: ١٤-١٨] إلى آخر السورة. وقد اعترض على هذا بأن معنى الآية ﴿ قُولُوٓا۟ أَسْلَمْنَا ﴾ انقدنا بظواهرنا فهم منافقون في الحقيقة، وهذا أحد قولي المفسرين في هذه الآية الكريمة. وأجيب عنه من وجوه:

أولاً: بالقول الآخر في هذه الآية ورجّح وهو أنهم ليسوا بمؤمنين كاملي الإيمان لا أنهم منافقون كما نفى الإيمان عن القاتل والزاني والسارق ومن لا أمانة له. ويؤيد هذا سياق الآية فإن السورة من أولها إلى هنا في النهي عن المعاصي وأحكام بعض العصاة ونحو ذلك وليس فيها ذكر المنافقين. ثم قال بعد ذلك:

---

[1] حم: ٣/١٣٤. عن أنس بن مالك . قال الهيثمي في المجمع ١/٥٢. رواه أحمد وأبو يعلى بتمامه والبزار باختصار، ورجاله رجال الصحيح، ما خلا عليّ بن مسعدة، وقد وثقه ابن حبان وأبو داود وأبو حاتم وابن معين، وضعفه آخرون.

﴿ وَإِن تُطِيعُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ لَا يَلِتۡكُم مِّنۡ أَعۡمَٰلِكُمۡ شَيۡـًٔا ﴾ ولو كانوا منافقين ما نفعتهم الطاعة. ثم قال: ﴿ إِنَّمَا ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ثُمَّ لَمۡ يَرۡتَابُواْ ﴾ يعني والله أعلم أن المؤمنين الكاملي الإيمان هم هؤلاء لا أنتم بل أنتم منتف عنكم الإيمان الكامل.

ثانياً: أنه أذن لهم أن يقولوا أسلمنا والمنافق لا يقال له ذلك.

ثالثاً: أنه أثبت لهم إسلاماً، ونهاهم أن يمنوا به على رسوله، ولو لم يكن إسلاما صحيحا لقال: لم تسلموا بل أنتم كاذبون، كما كذب المنافقين في قولهم: ﴿ نَشۡهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ ٱللَّهِ ﴾ [المنافقون:١].

رابعاً: دلالة السياق؛ فإن السورة من أولها إلى هنا في النهي عن المعاصي، وأحكام بعض العصاة، وليس فيها ذكر للمنافقين

وقال تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلۡمُسۡلِمِينَ وَٱلۡمُسۡلِمَٰتِ وَٱلۡمُؤۡمِنِينَ وَٱلۡمُؤۡمِنَٰتِ ﴾ [الأحزاب:٣٥] فجعلهما غيرين.

وقال صلى الله عليه وسلم: ((اللهم لك أسلمت وبك آمنت)) .[1]

وفي حديث سعد بن أبي وقاص: قيل للرسول صلى الله عليه وسلم: مالك عن فلان، والله إني لأراه مؤمناً. فقال صلى الله عليه وسلم: (أو مسلماً) قالها ثلاثاً[2]. فأثبت الرسول للرجل الإسلام وتوقف في اسم الإيمان.

وأما قوله تعالى: ﴿ فَأَخۡرَجۡنَا مَن كَانَ فِيهَا مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ﴿٣٥﴾ فَمَا وَجَدۡنَا فِيهَا غَيۡرَ بَيۡتٖ مِّنَ ٱلۡمُسۡلِمِينَ ﴾ [الذاريات:٣٥-٣٦]،

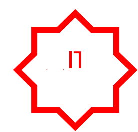
فلا حجة فيه على ترادف الإسلام والإيمان لأن أهل البيت المخرج كانوا متصفين بالإسلام والإيمان ولا يلزم من الاتصاف بهما ترادفهما.

وقد ثبت في الصحيح عنه صلى الله عليه وسلم أنه كان يقرأ في ركعتي الفجر تارة بسورتي الإخلاص: ﴿ قُلۡ يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡكَٰفِرُونَ ﴾، و﴿ قُلۡ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ﴾؛ وتارة بآيتي الإيمان والإسلام: التي في سورة البقرة ﴿ قُولُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيۡنَا﴾، والتي في آل عمران ﴿ قُلۡ يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ تَعَالَوۡاْ إِلَىٰ كَلِمَةٖ سَوَآءِۭ بَيۡنَنَا وَبَيۡنَكُمۡ﴾.

---

[1] مسلم بلفظ "اللهم لك ركعت وبك أمنت ولك أسلمت خشع سمعي وبصري ومخي وعظمي وما استقل به قدمي" مسلم برقم (٢٧١٧) ط: المكتبة التوفيقية تحقيق طه عبد الرؤوف سعد (٩/ ٣٤).

[2] متفق عليه. خ: الإيمان، ب١٧، ح٢٧ . م: الإيمان، ب٦٨، ح٢٣٧ – عن سعد بن أبي وقاص.



فالحاصل: أن حالة اقتران الإسلام بالإيمان غير حالة إفراد أحدهما عن الآخر، وإذا انفرد أحدهما شمل معنى الآخر وحكمه. فلا إيمان لمن لا إسلام له، ولا إسلام لمن لا إيمان له، إذ لا يخلو المؤمن من إسلام به يحقق إيمانه، ولا يخلو المسلم من إيمان به يصح إسلامه. ونظائر ذلك في كلام الله ورسوله وفي كلام الناس كثيرة، أعني في الإفراد والاقتران:

- كمثل الشهادتين إحداهما من الأخرى فشهادة الرسالة غير شهادة الوحدانية فهما شيئان في الأعيان وإحداهما مرتبطة بالأخرى في المعنى والحكم كشيء واحد، وحالة الاقتران غير حالة الإفراد، فالشهادتان إذا اجتمعتا كان المراد من شهادة أن لا إله إلا الله إثبات التوحيد ومن شهادة أن محمدا رسول الله إثبات الرسالة. أما إذا انفردت إحداهما، كقوله صلى الله عليه وسلم: ((أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا لا إله إلا الله)) [1] فإنها تشمل الأخرى، فإنهم لو أقروا بالتوحيد وأنكروا الرسالة ما كانوا يستحقون العصمة، بل لا بد أن يقولوا لا إله إلا الله قائمين بحقها ولا يقوم بحقها إلا من صدق بالرسالة، وكذا من شهد بالرسالة لا يكون قائما بهذه الشهادة حق القيام إلا من صدق هذا الرسول في كل ما جاء به فتضمنت التوحيد.

- ومن ذلك لفظ الكفر والنفاق، وكذلك لفظ البر والتقوى، ولفظ الإثم والعدوان، ولفظ التوبة والاستغفار، ولفظ الفقير والمسكين إذا اجتمعا افترقا وإذا افترقا اجتمعا، وأمثال ذلك.

وأما إذا أفرد اسم الإيمان: فإنه يتضمن الإسلام.

وإذا أفرد الإسلام: فقد يكون مع الإسلام مؤمنا بلا نزاع وهذا هو الواجب،وهل يكون مسلما ولا يقال له مؤمن ؟ وقد تقدم الكلام فيه.

وكذلك هل يستلزم الإسلام الإيمان ؟ فيه نزاع. وإنما وعد الله بالجنة في القرآن وبالنجاة من النار باسم الإيمان، وأما اسم الإسلام مجردا فما علق به في القرآن دخول الجنة لكنه فرضه وأخبر أنه دينه الذي لا يقبل من أحد سواه وبه بعث النبيين، فقد قال تعالى:

﴿وَمَن يَبۡتَغِ غَيۡرَ ٱلۡإِسۡلَٰمِ دِينٗا فَلَن يُقۡبَلَ مِنۡهُ﴾ [آل عمران:٨٥].

---

[1] متفق عليه. خ: الجهاد، ب١٠١، ح٢٧٨٦ . م: الإيمان، ب٨، ح٣٢و٣٣ – كلهم عن أبي هريرة.

المبحث الثالث : حقيقة الإسلام

صار الناس في مسمى الإسلام على ثلاثة أقوال:

فطائفة جعلت الإسلام هو الكلمة.[1]

وطائفة أجابوا بما أجاب به النبي حين سئل عن الإسلام والإيمان، حيث فسر الإسلام بالأعمال الظاهرة والإيمان بالإيمان بالأصول الستة، وقد تقدم أنه الحق.

وطائفة جعلوا الإسلام مرادفا للإيمان وجعلوا معنى قوله: ((الإسلام شهادة أن لا إله إلا الله وإقام الصلاة..)) شعائر الإسلام، والأصل عدم التقدير مع أنهم قالوا إن الإيمان هو التصديق بالقلب ثم قالوا الإسلام والإيمان شيء واحد فيكون الإسلام هو التصديق وهذا لم يقله أحد من أهل اللغة، وإنما هو الانقياد والطاعة.

ومما يسأل عنه: أنه إذا كان ما أوجبه الله من الأعمال الظاهرة أكثر من الخصال الخمس التي أجاب بها النبي صلى الله عليه وسلم في حديث جبريل المذكور فلم قال إن الإسلام هذه الخصال الخمس؟

وقد أجاب بعض الناس بأن هذه أظهر شعائر الإسلام وأعظمها وبقيامه بها يتم استسلامه وتركه لها يشعر بانحلال قيد انقياده.

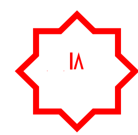
والتحقيق أن النبي صلى الله عليه وسلم ذكر الدين الذي هو: استسلام العبد لربه مطلقا، الذي يجب لله عبادة محضة على الأعيان، فيجب على كل من كان قادرا عليه أن يعبد الله مخلصا له الدين. وهذه هي الخمس.

وما سوى ذلك فإنما يجب بأسباب المصالح، فلا يعم وجوبها جميع الناس، بل:

إما أن يكون فرضا على الكفاية، كالجهاد والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وغير ذلك.

---

[1] قال ابن تيمية: (فالإسلام أن تعبد الله وحده لا شريك له مخلصا له الدين، وهذا دين الله الذي لا يقبل دينا غيره لا من الأولين ولا من الآخرين. ولا تكون عبادته مع إرسال الرسل إلينا إلا بما أمرت به رسله لا بما يضاد ذلك.. وقد ختم الله الرسل بمحمد صلى الله عليه وسلم، فلا يكون مسلما إلا من شهد أن لا إله إلا الله وأن محمدا عبده ورسوله، وهذه الكلمة بها يدخل الإنسان في الإسلام؛ فمن قال الإسلام الكلمة وأراد هذا فقد صدق. ثم لا بد من التزام ما أمر به الرسول من الأعمال الظاهرة كالمباني الخمس..). الفتاوى (٧/٢٦٩).



وإما ما يجب بسبب حق الآدميين، فيختص به من وجب له وعليه، وقد يسقط بإسقاطه ؛ من قضاء الديون، ورد الأمانات والغصوب، والإنصاف من المظالم من الدماء والأموال والأعراض، وحقوق الزوجة والأولاد، وصلة الارحام ونحو ذلك. بخلاف هذه الخمس. ولهذا وجبت فيها النية ولم يجز أن يفعلها غيره بلا إذنه، ولم تطلب من الكفار.

والواجب رد موارد النـزاع إلى الله ورسوله[1]، وقد يتراءى في بعض النصوص معارضة ولا معارضة بحمد الله ولكن الشأن في التوفيق، وبالله التوفيق.

---

(1) قال ابن تيمية: ومما ينبغي أن يعلم أن الألفاظ الموجودة في القرآن والحديث إذا عُرِف تفسيرها وما أريد بها من جهة النبيّ صلى الله عليه وسلم، لم يحتج في ذلك إلى الاستدلال بأقوال أهل اللغة ولا غيرهم. (الفتاوى ٧/٢٧١).

المبحث الرابع : زيادة الإيمان ونقصانه

قال المصنف رحمه الله: والإيمان واحد وأهله في أصله سواء، والتفاضل بينهم بالخشية والتقى ومخالفة الهوى وملازمة الأولى.

إن الكفر مع الإيمان كالعمى مع البصر، ولا شك أن البصراء يختلفون في قوة البصر وضعفه، فمنهم الأخفش والأعشى ومن يرى الخط الثخين دون الدقيق إلا بزجاجة ونحوها.

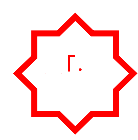
ولهذا والله أعلم قال الشيخ: (وأهله في أصله سواء) يشير إلى أن التساوي إنما هو في أصله[(١)] ولا يلزم منه التساوي من كل وجه، بل تفاوت درجات نور لا إله إلا الله في قلوب أهلها لا يحصيه إلا الله تعالى ؛ فمن الناس من نور لا إله إلا الله في قلبه كالشمس، ومنهم من نورها في قلبه كالكوكب الدري، وآخر كالمشعل العظيم، وآخر كالسراج المضيء، وآخر كالسراج الضعيف.

ولهذا تظهر الأنوار يوم القيامة بأيمانهم وبين أيديهم على هذا المقدار بحسب ما في قلوبهم من نور الإيمان والتوحيد علما وعملا وكلما اشتد نور هذه الكلمة وعظم أحرق من الشبهات والشهوات بحسب قوته بحيث إنه ربما وصل الى حال لا يصادف شهوة ولا شبهة ولا ذنبا إلا أحرقه. وهذه حال الصادق في توحيده فسماء إيمانه قد حرست ((بالنُّجُوم)) من كل سارق.

ومن عرف هذا عرف معنى قول النبي صلى الله عليه وسلم: ((إن الله حرم على النار من قال لا إله إلا الله يبتغي بذلك وجه الله)) [(٢)]، وما جاء من هذا النوع من الأحاديث التي أشكلت على كثير من

[(١)] فيه نظر. يقول د. سفر الحوالي في رسالة (ظاهرة الإرجاء): قوله:(وأهله في أصله سواء) يدل على أن للإيمان أصلاً، وفرعاً أو فروعاً هو أعمال الجوارح وأعمال القلب. فيقال: إن كان الفرع داخلاً في مسمى الأصل كما هو الشرع واللغة والعرف، لم يعد الإيمان واحداً، بل متفاوتاً متفاضلاً كإثباته التفاضل في الخشية والتقى. وإن كان غير داخل في مسماه، فقوله: (أهله في أصله سواء) غير دقيق، فينبغي أن يقول: وأهله فيه سواء. والذي دفعه –رحمه الله– إلى الوقوع في هذا هو محاولته الجمع بين مذهبي السلف وأبي حنيفة، لأن الرجل حنفي سلفي، وكذا شارح عقيدته، فإنه حاول ذلك أيضاً وأراده، ولهذا قال في شرح العبارة: (ولهذا –والله أعلم– قال الشيخ رحمه الله: (وأهله في أصله سواء) يشير إلى أن التساوي إنما هو في الأصل، ولا يلزم منه التساوي من كل وجه). (انظر الجزء الثاني من رسالة: ظاهرة الإرجاء ص٤١٣).

[(٢)] متفق عليه. خ: المساجد، ب١٤، ح٤١٥، والمرتدين، ب٨، ح٦٥٣٩ . م: المساجد، ب٤٧، ح٢٦٣، والإيمان، ب١٠، ح٥٤ – كلهم عن عتبان بن مالك.



الناس؛ حتى ظنها بعضهم منسوخة، وظنها بعضهم قبل ورود الأوامر والنواهي، وحملها بعضهم على نار المشركين والكفار، وأوّل بعضهم الدخول بالخلود، ونحو ذلك.

والشارع صلوات الله وسلامه عليه لم يجعل ذلك حاصلا بمجرد قول اللسان فقط فإن هذا من المعلوم بالاضطرار من دين الإسلام فإن المنافقين يقولونها بألسنتهم وهم تحت الجاحدين في الدرك الأسفل من النار، فإن الأعمال لا تتفاضل بصورها وعددها وإنما تتفاضل بتفاضل ما في القلوب. وتأمل حديث[١] البطاقة التي توضع في كفة ويقابلها تسعة وتسعون سجلا كل سجل منها مد البصر فتثقل البطاقة وتطيش السجلات فلا يعذب صاحبها ومعلوم أن كل موحد له مثل هذه البطاقة وكثير منهم يدخل النار. وتأمل ما قام بقلب قاتل[٢] المائة من حقائق الإيمان التي لم تشغله عند السياق عن السير إلى القرية وحملته وهو في تلك الحال أن جعل ينوء بصدره وهو يعالج سكرات الموت. وتأمل ما قام بقلب البغي من الإيمان[٣] حيث نزعت موقها وسقت الكلب من الركية فغفر لها.[٤]

وهكذا العقل أيضا فإنه يقبل التفاضل وأهله في أصله سواء متساوون في أنهم عقلاء غير مجانين وبعضهم أعقل من بعض.

وكذلك الإيجاب والتحريم فيكون إيجاب دون إيجاب وتحريم دون تحريم، هذا هو الصحيح وإن كان بعضهم قد طرد ذلك في العقل والوجوب.

وأما زيادة الإيمان من جهة الإجمال والتفصيل[٥]

فمعلوم أنه لا يجب في أول الأمر ما وجب بعد نزول القرآن كله ولا يجب على كل أحد من الإيمان المفصل مما أخبر به الرسول ما يجب على من بلغه خبره كما في حق النجاشي وأمثاله.[٦]

وأيضا فمن وجب عليه الحج والزكاة مثلا يوجب عليه الإيمان أن يعلم ما أمر به ويؤمن بأن الله

---

(١) رواه الترمذي وقال حديث حسن غريب وابن ماجة وأحمد وابن حبان والبيهقي والحاكم وصححه.
(٢) صحيح مسلم وأحمد.
(٣) مسلم كتاب الحيوان باب فضل ساقي البهائم والمحترمة وإطعامها رقم (٢٢٤٥) (٥٨٢٢)، (٥٨٢١). البخاري (٣٢٨٠)
(٤) انظر مدارج السالكين (١/٣٣٢).
(٥) زيادة الإيمان من جهة الإجمال والتفصيل من وجهين:
- من جهة ما أمر العباد به.
- ومن جهة ما يقع منهم من الأقوال والأعمال الظاهرة والباطنة.
(٦) عذره من وجهين: عدم بلوغه الخطاب الشرعي الذي يلزمه بالعمل، وعجزه عن العمل فيما قد بلغه من العلم. وقد أثنى عليه الرسول بوصفه أخا صالحا وصلى عليه بعد وفاته.

أوجب عليه ما لا يجب على غيره الإيمان به إلا مجملا وهذا يجب عليه فيه الإيمان المفصل.

وكذلك الرجل أول ما يسلم إنما يجب عليه الإقرار المجمل[1] ثم إذا جاء وقت الصلاة كان عليه أن يؤمن بوجوبها ويؤديها فلم يتساو الناس فيما أمروا به من الإيمان.

والتصديق المستلزم لعمل القلب والجوارح أكمل من التصديق الذي لا يستلزمه، فالعلم الذي يعمل به صاحبه أكمل من العلم الذي لا يعمل به فإذا لم يحصل اللازم دل على ضعف الملزوم[2]، ولهذا قال النبي صلى الله عليه وسلم: ((ليس المخبر كالمعاين))، وموسى عليه السلام لما أخبر أن قومه عبدوا العجل لم يلق الألواح فلما رآهم قد عبدوه ألقاها وليس ذلك لشك موسى في خبر الله لكن المخبَر وإن جزم بصدق المخبر فقد لا يتصور المخبر به نفسه كما يتصوره إذا عاينه، كما قال إبراهيم الخليل صلوات الله على نبينا محمد وعليه:

﴿ وَإِذۡ قَالَ إِبۡرَٰهِـۧمُ رَبِّ أَرِنِي كَيۡفَ تُحۡيِ ٱلۡمَوۡتَىٰۖ قَالَ أَوَلَمۡ تُؤۡمِنۖ قَالَ بَلَىٰ وَلَٰكِن لِّيَطۡمَئِنَّ قَلۡبِي ﴾ [البقرة:٢٦٠].

ولا شك أن من قام بقلبه التصديق الجازم[3] الذي لا يقوى على معارضته شهوة ولا شبهة لا تقع معه معصية ولولا ما حصل له من الشهوة والشبهة أو إحداهما لما عصى بل يشتغل قلبه ذلك الوقت بما يواقعه من المعصية فيغيب عنه التصديق والوعيد فيعصي.

ولهذا والله أعلم قال صلى الله عليه وسلم: ((لا يزني الزاني حين يزني وهو مؤمن))[4] فهو حين يزني يغيب عنه تصديقه بحرمة الزنا وإن بقي أصل التصديق في قلبه ثم يعاوده، فإن المتقين كما وصفهم الله بقوله:

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوۡاْ إِذَا مَسَّهُمۡ طَـٰٓئِفٞ مِّنَ ٱلشَّيۡطَٰنِ تَذَكَّرُواْ فَإِذَا هُم مُّبۡصِرُونَ ﴾ [الأعراف:٢٠١]، قال ليث عن مجاهد: هو الرجل يهم بالذنب فيذكر الله فيدعه، والشهوة والغضب مبدأ السيئات فإذا أبصر رجع. ثم قال تعالى: ﴿ وَإِخۡوَٰنُهُمۡ يَمُدُّونَهُمۡ فِي ٱلۡغَيِّ ثُمَّ لَا يُقۡصِرُونَ ﴾[الأعراف:٢٠٢]، أي وإخوان الشياطين

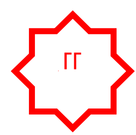
---

(١) الإقرار الخبري الالتزامي، تصديق الخبر جملة وعلى الغيب، والتزام الأمر جملة وعلى الغيب.

(٢) للتلازم بين الظاهر والباطن.

(٣) التصديق النافع في الإيمان هو المستلزم للطاعة والانقياد. والأولى أن يقول: (الإيمان الجازم) بدلاً من (التصديق الجازم).

(٤) متفق عليه. (سبق تخريجه).



تمدهم الشياطين في الغي ثم لا يقصرون. فإذا لم يبصر بقي قلبه في عمى والشيطان يمده في غيه وإن كان التصديق في قلبه لم يكذب، فذلك النور والإبصار وتلك الخشية والخوف تخرج من قلبه، وهذا كما أن الإنسان يغمض عينه فلا يرى وإن لم يكن أعمى فكذلك القلب بما يغشاه من رين الذنوب لا يبصر الحق وإن لم يكن أعمى كعمى الكافر، وقد جاء هذا المعنى مرفوعاً في قول النبىّ صلى الله عليه وسلم: ((إذا زنا العبد نَزِع منه الإيمان، فإذا تاب أعيد إليه)) [1].

والأدلة على زيادة الإيمان ونقصانه:

أولاً: من القرآن: منها قوله تعالى: ﴿ وَإِذَا تُلِيَتۡ عَلَيۡهِمۡ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتۡهُمۡ إِيمَٰنٗا ﴾ [الأنفال:٢]، وقوله:

﴿ وَيَزِيدُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ٱهۡتَدَوۡاْ هُدٗى ﴾ [مريم:٧٦]، وقوله: ﴿ وَيَزۡدَادَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِيمَٰنٗا ﴾ [المدثر:٣١]، وقوله: ﴿ هُوَ ٱلَّذِيٓ أَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ فِي قُلُوبِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ لِيَزۡدَادُوٓاْ إِيمَٰنٗا مَّعَ إِيمَٰنِهِمۡ ﴾ [الفتح:٤]، وقوله: ﴿ ٱلَّذِينَ قَالَ لَهُمُ ٱلنَّاسُ إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدۡ جَمَعُواْ لَكُمۡ فَٱخۡشَوۡهُمۡ فَزَادَهُمۡ إِيمَٰنٗا وَقَالُواْ حَسۡبُنَا ٱللَّهُ وَنِعۡمَ ٱلۡوَكِيلُ ﴾ [آل عمران:١٧٣]،

وكيف يقال في هذه الآية والتي قبلها إن الزيادة باعتبار زيادة المؤمن به؟ فهل في قول الناس:

﴿ قَدۡ جَمَعُواْ لَكُمۡ فَٱخۡشَوۡهُمۡ ﴾ زيادة مشروع وهل في إنزال السكينة على قلوب المؤمنين زيادة مشروع

وإنما أنزل الله السكينة في قلوب المؤمنين عند مرجعهم من الحديبية ليزدادوا طمأنينة ويقينا. ويؤيد ذلك قوله تعالى:

﴿ وَإِذَا مَآ أُنزِلَتۡ سُورَةٞ فَمِنۡهُم مَّن يَقُولُ أَيُّكُمۡ زَادَتۡهُ هَٰذِهِۦٓ إِيمَٰنٗاۚ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ فَزَادَتۡهُمۡ إِيمَٰنٗا وَهُمۡ يَسۡتَبۡشِرُونَ ﴿١٢٤﴾ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٞ فَزَادَتۡهُمۡ رِجۡسًا إِلَىٰ رِجۡسِهِمۡ وَمَاتُواْ وَهُمۡ كَٰفِرُونَ ﴾ [التوبة: ١٢٤-١٢٥].

ثانيا: من السنة: وصف النبي صلى الله عليه وسلم النساء بنقصان العقل والدين[2]، وقال: ((لا

---

[1] د: السنة، ب١٦، ح٤٦٩٠، ك: الإيمان، ١/٢٢، وقال: صحيح على شرط الشيخين، وهو عن أبي هريرة، وهو صحيح.

[2] متفق عليه. خ: الصوم، ب٤٠، ح١٨٥٠، م: الإيمان، ب٣٤، ح١٣٢- عن أبي سعيد الخدرىّ.

يؤمن أحدكم حتى أكون أحب إليه من ولده ووالده والناس أجمعين)) [1] والمراد نفي الكمال[2] ونظائره كثيرة، وحديث شعب الإيمان، وحديث الشفاعة وأنه يخرج من النار من في قلبه أدنى أدنى أدنى مثقال ذرة من إيمان. فكيف يقال بعد هذا أن إيمان أهل السموات والأرض سواء. وإنما التفاضل بينهم بمعان أخر غير الإيمان؟

أما ما روي أن وفد ثقيف جاء إلى النبى فقالوا: يا رسول الله الإيمان يزيد وينقص؟ فقال: ((لا، الإيمان مكمل في القلب، زيادته كفر، ونقصانه شرك)) [3]. فليس بصحيح؛ ففي إسناده مجهولون، ومن هو ضعيف، بل ومن هو متهم بالوضع.

ثالثاً: من الآثار: وكلام الصحابة رضي الله عنهم في هذا المعنى كثير أيضا منه: قول أبي الدرداء رضي الله عنه: من فقه العبد أن يتعاهد إيمانه وما نقص منه ومن فقه العبد أن يعلم أيزداد هو أم ينتقص. وكان عمر رضي الله عنه يقول لأصحابه: هلموا نزدد إيمانا، فيذكرون الله تعالى عز وجل. وكان ابن مسعود رضي الله عنه يقول في دعائه: اللهم زدنا إيمانا ويقينا وفقها. وكان معاذ بن جبل رضي الله عنه يقول لرجل: اجلس بنا نؤمن ساعة. ومثله عن عبد الله بن رواحة رضي الله عنه. وصح عن عمار بن ياسر رضي الله عنه:أنه قال: ثلاث من كن فيه فقد استكمل الإيمان ؛ إنصاف من نفسه، والإنفاق من إقتار، وبذل السلام للعالم. وفي هذا المقدار كفاية وبالله التوفيق.

وقوله: (وأهله في أصله سواء والتفاضل بينهم بالحقيقة ومخالفة الهوى وملازمة الأولى) وفي بعض النسخ (بالخشية والتقى) بدل قوله: (بالحقيقة)

ففي العبارة الأولى يشير إلى أن الكل مشتركون في أصل التصديق ولكن التصديق يكون بعضه أقوى من بعض وأثبت كما تقدم تنظيره بقوة البصر وضعفه. وفي العبارة الأخرى يشير إلى أن التفاوت بين المؤمنين بأعمال القلوب وأما التصديق فلا تفاوت فيه. والمعنى الأول أظهر قوة والله أعلم بالصواب.

---

[1] متفق عليه. خ: الإيمان، ب٧، ح١٥، م: الإيمان، ب١٦، ح٦٩و٧٠ – عن أنس بن مالك.

[2] إن أراد نفي الكمال الواجب فصحيح كما تقدم.

[3] الألباني في الموضوعة: ١/٤٧٨، ح٤٦٤. عن أبي هريرة، وهو حديث ضعيف.

المبحث الخامس : حكم الإستثناء في الإيمان

وهو أن يقول الرجل : أنا مؤمن إن شاء الله، وهو من ثمرات الاختلاف في مسمى الإيمان. والناس فيه على ثلاثة أقوال : طرفان ووسط : منهم من يوجبه، ومنهم من يحرمه، ومنهم من يجيزه باعتبار ويمنعه باعتبار وهذا أصح الأقوال :

أولا : الموجبون للاستثناء :

أما من يوجبه فلهم مأخذان :

الأول : وهو مأخذ كثير من الكلابية وغيرهم، أن الإيمان هو ما مات الإنسان عليه والإنسان إنما يكون عند الله مؤمنا أو كافرا باعتبار الموافاة وما سبق في علم الله أنه يكون عليه وما قبل ذلك لا عبرة به، فالإيمان الذي يعقبه الكفر فيموت صاحبه كافرا ليس بإيمان كالصلاة التي أفسدها صاحبها قبل الكمال والصيام الذي يفطر صاحبه قبل الغروب. وعند هؤلاء أن الله يحب في الأزل من كان كافرا إذا علم منه أنه يموت مؤمنا. وليس هذا قول السلف ولا كان يقول بهذا من يستثني من السلف في إيمانه. ثم صار إلى هذا القول طائفة غلوا فيه حتى صار الرجل منهم يستثني في الأعمال الصالحة يقول : صليت إن شاء الله يعني القبول، ثم صار كثير منهم يستثنون في كل شيء فيقول أحدهم هذا ثوب إن شاء الله هذا حبل إن شاء الله، فإذا قيل لهم : هذا لا شك فيه، يقولون : نعم لكن إذا شاء الله أن يغيره غيره.

الثاني : وهو مأخذ عامة السلف الذين كانوا يستثنون وإن جوزوا تركه بمعنى آخر، أن الإيمان المطلق يقتضي فعل ما أمر الله به عبده كله وترك ما نهاه عنه كله، فإذا قال الرجل : أنا مؤمن بهذا الاعتبار فقد شهد لنفسه أنه من الأبرار المتقين القائمين بذلك، وهذا مع تزكية الإنسان لنفسه. ولو كانت هذه الشهادة صحيحة لكان ينبغي أن يشهد لنفسه بالجنة إن مات على هذه الحال. ويحتجون أيضا بجواز الاستثناء فيما لا شك فيه كما قال تعالى :

﴿ لَتَدۡخُلُنَّ ٱلۡمَسۡجِدَ ٱلۡحَرَامَ إِن شَآءَ ٱللَّهُ ءَامِنِينَ ﴾ [الفتح:٢٧].

وقال صلى الله عليه وسلم حين وقف على المقابر : ((وإنا إن شاء الله بكم لاحقون)) [١].

[١] م: الجنائز، ب٣٥، ح١٠٢- عن عائشة رضى الله عنها. س الجنائز ب (١٠٣). ق: الجنائز ب ٣٦ ح ١٥٤٦ كلهم عن عائشة.

ثانيا : المحرمون للاستثناء :

وأما من يحرمه : فكل من جعل الإيمان شيئاً واحداً، فيقول : أنا أعلم أني مؤمن كما أعلم أني تكلمت بالشهادتين فمن استثنى في إيمانه فهو شاك فيه. وأجابوا عن الاستثناء الذي في قوله تعالى :

﴿ لَتَدْخُلُنَّ ٱلْمَسْجِدَ ٱلْحَرَامَ إِن شَآءَ ٱللَّهُ ءَامِنِينَ ﴾، بأنه يعود إلى الأمن والخوف، فأما الدخول فلا شك فيه. وقيل المعنى: أو لتدخلن جميعكم أو بعضكم لأنه علم أن بعضهم يموت. وأجيب بأنه لا شك في ذلك أيضاً لأن الله قد علم مَنْ يدخل فكان قول إن شاء الله هنا تحقيقا للدخول كما يقول (العازم على الفعل) فيما عزم على شيء أن يفعله لا محالة والله لأفعلن كذا إن شاء الله، لا يقولها لشك في إرادته وعزمه ولكن لتوقي الحنث عند عدم التمكن، أو هو تعليم لنا كيف نستثني إذا أخبرنا عن مستقبل وفيه نظر، فإن الكلام ما سيق لذلك.

ثالثا : المفصلون :

وأما من يجوز الاستثناء وتركه: فهو أسعد بالدليل من الفريقين فإن أراد المستثني الشك في أصل إيمانه منع من الاستثناء وهذا ما لا خلاف فيه. وإن أراد كمال الإيمان وأنه من الذين وصفهم الله في قوله:

﴿ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ ﴾ [الأنفال:٢]، وقوله: ﴿ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُواْ ﴾ [الحجرات:١٥].

فالاستثناء حينئذ جائز.وكذلك من استثنى وأراد عدم علمه بالعاقبة، وكذلك من استثني تعليقا للأمر بمشيئة الله لا شكًا في إيمانه.

المبحث السادس

الحكم بالاسلام والحكم بالكفر والربط بين الظاهر والباطن

الحكم بالإسلام في الدنيا[1]، ودلالة الظاهر على الباطن :

قال المصنف رحمه الله: ونسمى أهل قبلتنا مسلمين مؤمنين، ماداموا بما جاء به النبي صلى الله عليه وسلم معترفين، وله بكل ما قاله وأخبر مصدقين.

وقوله: ولا نشهد عليهم بكفر ولا بشرك ولا بنفاق ما لم يظهر منهم شيء من ذلك، ونذر سرائرهم إلى الله تعالى.

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : ((من صلى صلاتنا واستقبل قبلتنا وأكل ذبيحتنا فهو المسلم له ما للمسلم وعليه ما على المسلم))[2].

ويشير الشيخ رحمه الله بهذا الكلام إلى أن الإسلام والإيمان واحد[3].

والمراد بقوله: (أهل قبلتنا) من يدعي الإسلام ويستقبل الكعبة وإن كان من أهل الأهواء أو من أهل المعاصي، فلا يخرج من الإسلام بارتكاب الذنب ما لم يستحله، أو يكذب بشيء مما جاء به الرسول[4].

---

[1] يثبت حكم الإسلام لكل من أقر بالشهادتين حتى يتلبس بناقض جلي من نواقض الإسلام، وذلك باعتبار دلالتهما على الإقرار المجمل بالإسلام والبراءة المجملة من الشرك ؛ فإذا حدث **لوث** في دلالتهما على ذلك وجب حينئذ التبين. انظر: الأم (١٥٨/٦، ١٥٩)، مسلم بشرح النووي (٢٠٧/١،٢٠٦)، نيل الأوطار (٩/٨، ١٠).

[2] فيه أن أمور الناس محمولة على الظاهر، فمن أظهر شعار الدين أجريت عليه أحكام أهله ما لم يظهر خلاف ذلك. (فتح الباري- المجلد الأول، كتاب الصلاة).

[3] راجع المبحث الثاني.

[4] الكفر لا ينحصر في التكذيب كما تقدم في الرد على أبي حنيفة في المبحث الأول.

فنحن قد أمرنا بالحكم بالظاهر[1]،ونهينا عن الظن واتباع ما ليس لنا به علم. قال تعالى:

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱجْتَنِبُواْ كَثِيرًا مِّنَ ٱلظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ ٱلظَّنِّ إِثْمٌ ﴾ [الحجرات:١٢]، وقال تعالى :

﴿ وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ ۚ إِنَّ ٱلسَّمْعَ وَٱلْبَصَرَ وَٱلْفُؤَادَ كُلُّ أُوْلَٰٓئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْـُٔولًا ﴾ [الإسراء:٣٦].

الحكم بالكفر وضوابطه :

قال المصنف رحمه الله: ولا نكفر أحداً من أهل القبلة بذنب ما لم يستحله، ولا نقول لا يضر مع الإيمان ذنب لمن عمله.

وقوله: ولا يخرج العبد من الإيمان إلا بجحود ما أدخله فيه[2]

اعلم رحمنا الله وإياك أن باب التكفير وعدم التكفير باب عظمت الفتنة والمحنة فيه وكثر فيه الافتراق وتشتتت فيه الأهواء والآراء وتعارضت فيه دلائلهم، فالناس فيه -في جنس تكفير أهل المقالات والعقائد الفاسدة : المخالفة للحق الذي بعث الله به رسوله في نفس الأمر، أو المخالفة لذلك في اعتقادهم- على طرفين ووسط، من جنس الاختلاف في تكفير أهل الكبائر العملية.

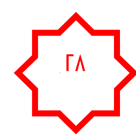
تكفير أصحاب الكبائر (الرد على الخوارج والمرجئة) :

فالخوارج تقول نكفر المسلم بكل ذنب أو بكل ذنب كبير، وكذلك المعتزلة تقول يحبط إيمانه كله بالكبيرة فلا يبقى معه شيء من الإيمان، لكن الخوارج تقول يخرج من الإيمان ويدخل في الكفر، والمعتزلة تقول يخرج من الايمان ولا يدخل في الكفر وهذه المنـزلة بين المنـزلتين، وبقولهم بخروجه من الإيمان أوجبوا له الخلود في النار.

---

[1] مدار الحكم إيمانا وكفراً على الظاهر، و لم نؤمر أن ننقب عن قلوب الناس ولا أن نشق بطونهم. يقول الشاطبي : (ولهذا جعلت الأعمال الظاهرة في الشرع دليلاً على ما في الباطن، فإن كان الظاهر منخرما حكم على الباطن بذلك، أو مستقيما حكم على الباطن بذلك أيضا..) انظر الموافقات (٢٣٣/١)، الفتاوى (٥٤١/٧ ؛ ١٢١/١٤، ١٢٠)، جامع العلوم والحكم (ص٦٦،٦٥).

[2] قال الشيخ ابن باز رحمه الله : (هذا الحصر فيه نظر ؛ ثم قال: وقد يخرج من الإسلام بغير الجحود لأسباب كثيرة بينها أهل العلم في باب حكم المرتد). انظر العقيدة الطحاوية، تعليق ابن باز، ص٢١، مكتبة السنة.



والمرجئة تقول لا نكفر من أهل القبلة أحداً، وتقول لا يضر مع الإيمان ذنب كما لا ينفع مع الكفر طاعة[1]، فينفون التكفير نفياً عاماً، مع العلم بأن في أهل القبلة المنافقين الذين فيهم من هو أكفر من اليهود والنصارى بالكتاب والسنة والإجماع وفيهم من قد يظهر بعض ذلك حيث يمكنهم وهم يتظاهرون بالشهادتين.

فلا خلاف بين المسلمين أن الرجل لو أظهر إنكار الواجبات الظاهرة المتواترة والمحرمات الظاهرة المتواترة ونحو ذلك فإنه يستتاب فإن تاب وإلا قتل كافرا مرتدا.[2]

والنفاق والردة مظنتهما البدع والفجور، كما ذكره الخلال في كتاب السنة بسنده إلى أحمد بن سيرين أنه قال : إن أسرع الناس ردة أهل الأهواء، وكان يرى هذه الآية نزلت فيهم :

﴿ وَإِذَا رَأَيْتَ ٱلَّذِينَ يَخُوضُونَ فِيٓ ءَايَٰتِنَا فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ حَتَّىٰ يَخُوضُوا۟ فِى حَدِيثٍ غَيْرِهِۦ ﴾ [الأنعام: ٦٨].

ولهذا امتنع كثير من الأئمة عن إطلاق القول بأنا لا نكفر أحداً بذنب، بل يقال: لا نكفرهم بكل ذنب كما تفعله الخوارج، وفرق بين النفي العام ونفي العموم، والواجب إنما هو نفي العموم مناقضة لقول الخوارج الذين يكفرون بكل ذنب.[3]

وإذا اجتمعت نصوص الوعد التي استدل بها المرجئة ونصوص الوعيد التي استدل بها الخوارج والمعتزلة تبين لك فساد القولين ولا فائدة في كلام هؤلاء سوى أنك تستفيد من كلام كل طائفة فساد مذهب الطائفة الأخرى.

فقوله : (ولا نكفر أحدا من أهل القبلة بذنب ما لم يستحله) رد على الخوارج، وقوله : (ولا نقول لا يضر مع الإيمان ذنب لمن عمله) رد على المرجئة، وشبهتهم كانت قد وقعت لبعض الأولين فاتفق

---

[1] قال ابن تيمية: وهذا القول محكي عنهم، ولا يعلم له قائلاً بعينه ولا ينسب لأحد بعينه إنما يحكى عنهم المجلد السابع بتصرف.

[2] الردة : الرجوع عن الإسلام إلى الكفر وقطع الإسلام. والإيمان ينتقض بالردة كما ينتقض الوضوء بالحدث. والردة كما تكون بمفارقة ملة الإسلام إلى ملة أخرى أو إلى الإلحاد البحت تكون أيضا بعدم الإقرار بشيء مما أنزل الله تكذيبا أو ردا. وتكون بالقول أو الفعل أو الاعتقاد.

[3] المراد بالذنب ما دون الكفر ؛ قال ابن تيمية : (و نحن إذا قلنا : أهل السنة متفقون على أنه لا يكفر بالذنب، فإنما نريد به المعاصي كالزنا والشرب). (الفتاوى ٣٠٢/٧). فإذا كان الذنب كفرا أكبر – قولا أو فعلا- كفر صاحبه، استحل أو لم يستحل.

الصحابة على قتلهم إن لم يتوبوا من ذلك،كما وقع لقدامة بن مظعون[1].. وهذا الذي اتفق عليه الصحابة هو متفق عليه بين أئمة الإسلام.

تكفير أهل الأهواء والبدع:

وطوائف من أهل الكلام والفقه والحديث لا يقولون بقول الخوارج في الأعمال لكن في الاعتقادات البدعية وإن كان صاحبها متأولا، فيقولون: يكفر كل من قال هذا القول لا يفرقون بين المجتهد المخطئ وغيره أو يقولون يكفر كل مبتدع. والمقصود هنا أن البدع هي من هذا الجنس، فإن الرجل يكون مؤمنا باطنا وظاهرا لكن تأول تأويلا أخطأ فيه إما مجتهدا وإما مفرطا مذنبا:

فلا يقال إن إيمانه حبط لمجرد ذلك إلا أن يدل على ذلك دليل شرعي بل هذا من جنس قول الخوارج والمعتزلة.

ولا نقول لا يكفر.

بل العدل هو الوسط، وهو : أن الأقوال الباطلة المبتدعة المحرمة المتضمنة نفي ما أثبته الرسول أو إثبات ما نفاه أو الأمر بما نهى عنه أو النهي عما أمر به يقال فيها الحق ويثبت لها الوعيد الذي دلت عليه النصوص ويبين أنها كفر ويقال من قالها فهو كافر ونحو ذلك كما يذكر من الوعيد في الظلم في النفس والأموال وكما قد قال كثير من أهل السنة المشاهير بتكفير من قال بخلق القرآن وأن الله لا يرى في الآخرة.

وأما الشخص المعين إذا قيل: هل تشهدون أنه من أهل الوعيد وأنه كافر[2]؟ فهذا لا نشهد عليه إلا بأمر تجوز معه الشهادة فإنه من أعظم البغي أن يشهد على معين أن الله لا يغفر له ولا يرحمه بل يخلده في النار، فإن هذا حكم الكافر بعد الموت، وانظر إلى الذي قال لأخيه:[3] والله لا يغفر الله لك فأدخل النار وغفر للآخر.

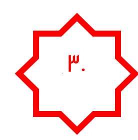
ولأن الشخص المعين يمكن أن يكون مجتهدا مخطئا مغفورا له، ويمكن أن يكون ممن لم يبلغه ما وراء ذلك من النصوص، ويمكن أن يكون له إيمان عظيم وحسنات أوجبت له رحمة الله، كما غفر للذي

---

[1] في وقوع شبهة الإرجاء لهذا الصحابي نظر ؛ إذ إنهم قد شربوا الخمر معتقدين حلها – تأولاً– لا على أن الشرب ذنب لا يضر مع الإيمان.

[2] فرق بين الحكم عليه بالكفر في الدنيا بضوابط ذلك و بين الشهادة له بالنار فلا تصح إلا إذا ختم له بالكفر. انظر المبحث الثامن.

[3] سنن أبي داود رقم (٤٩٠١) باب في النهي عن البغي. وعند أحمد المجلد الثاني من حديث أبي هريرة.



ظن أن الله لا يقدر على جمعه وإعادته[١] أو شك في ذلك.

فإنه من كفَّر كل من قال القول المبتدع في الباطن[٢] يلزمه أن يكفر أقواما ليسوا في الباطن منافقين بل هم في الباطن يحبون الله ورسوله ويؤمنون بالله ورسوله وإن كانوا مذنبين، كعبد الله الذي كان يلقب حمارا. وهذا أمر متيقن به في طوائف كثيرة وأئمة في العلم والدين وفيهم بعض مقالات الجهمية أو المرجئة أو القدرية أو الشيعة أو الخوارج ولكن الأئمة في العلم والدين لا يكونون قائمين بجملة تلك البدعة. فمن عيوب أهل البدع تكفير بعضهم بعضا ومن ممادح أهل العلم أنهم يخطئون ولا يكفرون[٣].

لكن هذا التوقف في أمر الآخرة لا يمنعنا أن نعاقبه في الدنيا لمنع بدعته وأن نستتيبه فإن تاب وإلا قتلناه، ثم إذا كان القول في نفسه كفرا قيل إنه كفر والقائل له يكفر بشروط[٤] وانتفاء موانع.

ولا يكون ذلك إلا إذا صار منافقا زنديقا، فلا يتصور أن يكفر أحد من أهل القبلة المظهرين الإسلام إلا من يكون منافقا زنديقا[٥]. وكتاب الله يبين ذلك؛ فإن الله صنَّف الخلق فيه ثلاثة أصناف:

صنف المؤمنين باطنا وظاهرا

وصنف كفار من المشركين ومن أهل الكتاب وهم الذين لا يقرون بالشهادتين

وصنف أقروا به ظاهرا لا باطنا.

وهذه الأقسام الثلاثة مذكورة في أول سورة البقرة.

وكل من ثبت[٦] أنه كافر في نفس الأمر وكان مقرا بالشهادتين فإنه لا يكون إلا زنديقا والزنديق هو المنافق.

---

[١] أي إذا هو ظل بهذه الكيفية، لا مطلق قدرة الله على البعث.

[٢] الحكم بالكفر منوط بالظاهر إذ جعله الشارع دالا على الباطن.

[٣] إلا بضوابط التكفير المعلومة. (راجع : أصول الإيمان/٣).

[٤] حاصلها بلوغ الحجة الشرعية بطريقة يندفع بها الجهل عند المخالف.

[٥] فيما قاله نظر، ففرق بين المنافق والزنديق من جهة وبين المرتد من جهة أخرى. وأين يقع المرتد في الأصناف الثلاثة المذكورة ؟. وانظر في الكلام على الزنديق : الفتاوى (٧/٤٧١،٢١٥).

[٦] ببينات الكفر الظاهرة.

الكفر الأصغر، أو كفر دون كفر[1]

بقي هنا إشكال يرد على كلام الشيخ رحمه الله وهو أن الشارع قد سمى بعض الذنوب[2] كفرا :

قال تعالى: ﴿ وَمَن لَّمۡ يَحۡكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡكَٰفِرُونَ ﴾ [المائدة:٤٤]، وقال صلى الله عليه وسلم: ((بين المسلم وبين الكفر ترك الصلاة)) [3]، وقال: ((من حلف بغير الله فقد كفر)) ،[4] وقال: ((من أتى كاهنا فصدقه أو أتى امرأة في دبرها فقد كفر بما أنزل على محمد)) ،[5] وقال: ((ثنتان في أمتي بهم كفر الطعن في الأنساب والنياحة على الميت)) ،[6] وقال: ((سباب المسلم فسوق وقتاله كفر))،[7] وقال: ((لا ترجعوا بعدي كفارا يضرب بعضكم رقاب بعض)) ،[8] وقال: ((إذا قال الرجل لأخيه يا كافر فقد باء بها أحدهما)) ،[9] ونظائر ذلك كثيرة.

والجواب : إن أهل السنة متفقون كلهم على أن مرتكب الكبيرة لا يكفر كفرا ينقل عن الملة بالكلية كما قالت الخوارج فلا يخرج من الإيمان والإسلام ولا يدخل في الكفر، ولا يستحق الخلود مع الكافرين كما قالت المعتزلة.

إذ لو كان كفره كفرا ينقل عن الملة لكان مرتدا يقتل على كل حال ولا يقبل عفو ولي القصاص ولا تجري الحدود في الزنا والسرقة وشرب الخمر وهذا القول معلوم بطلانه وفساده بالضرورة من دين الإسلام.

وقد جعل الله مرتكب الكبيرة من المؤمنين، قال تعالى: ﴿ فَمَنۡ عُفِيَ لَهُۥ مِنۡ أَخِيهِ شَيۡءٞ ﴾ [البقرة: ١٧٨]، فلم يخرج القاتل من الذين آمنوا، وجعله أخا لولي القصاص والمراد أخوة الدين بلا ريب. وقال تعالى:

---

(١) انظر فتح الباري : باب كفران العشير وما بعده.

(٢) أي التي هي دون الكفر الأكبر.

(٣) على قول من قال بعدم كفر تاركها.

(٤) الترمذي (٣/ ١٥٧٤) قالا: حديث حسن.

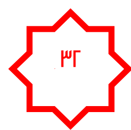
(٥) ابن ماجة والترمذي باب ما جاء في كراهية إتيان الحائض.

(٦) الجامع الصغير للسيوطي.

(٧) متفق عليه.

(٨) متفق عليه.

(٩) صحيح البخاري عن أبي هريرة.



﴿ وَإِن طَآئِفَتَانِ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱقْتَتَلُواْ ﴾ ﴿ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُواْ بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ ﴾ [الحجرات:٩].

ونصوص الكتاب والسنة والإجماع تدل على أن الزاني والسارق والقاذف لا يقتل بل يقام عليه الحد فدل على أنه ليس بمرتد.

وقد ثبت أن الظالم يكون له حسنات يستوفي المظلوم منها حقه، كما في حديث المفلس.

وقد قال تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلْحَسَنَـٰتِ يُذْهِبْنَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ ﴾[هود:١١٤]**، فدل ذلك على أنه في حال إساءته يعمل حسنات تمحو سيئاته وهذا مبسوط في موضعه.**

وأهل السنة أيضا متفقون على أنه يستحق الوعيد المرتب على ذلك الذنب كما وردت به النصوص.

ثم بعد هذا الاتفاق تبين أن أهل السنة[1] اختلفوا خلافاً لفظياً لا يترتب عليه فساد وهو : أنه هل يكون الكفر على مراتب كفرا دون كفر كما اختلفوا هل يكون الإيمان على مراتب إيمانا دون إيمان. وهذا الاختلاف نشأ من اختلافهم في مسمى الإيمان هل هو قول وعمل يزيد وينقص أم لا، بعد اتفاقهم على أن من سماه الله تعالى ورسوله كافرا نسميه كافرا إذ من الممتنع أن يسمي الله سبحانه الحاكم بغير ما أنزل الله كافرا ويسمي رسوله من تقدم ذكره كافرا ولا نطلق عليهما اسم الكفر. ولكن من قال إن الإيمان قول وعمل يزيد وينقص قال : هو كفر عملي لا اعتقادي، والكفر عنده على مراتب كفر دون كفر كالإيمان عنده. ومن قال إن الإيمان هو التصديق ولا يدخل العمل في مسمى الإيمان والكفر هو الجحود ولا يزيدان ولا ينقصان قال : هو كفر مجازي غير حقيقي نظير قوله في تسمية بعض الأعمال بالإيمان كقوله تعالى: ﴿ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَـٰنَكُمْ ﴾ [البقرة:١٤٣]**، أي صلاتكم إلى بيت المقدس أنها سميت إيمانا مجازا.**

فليس بين فقهاء الأمة نزاع في أصحاب الذنوب إذا كانوا مقرين باطنا وظاهرا بما جاء به الرسول وما تواتر عنه أنهم من أهل الوعيد.

مراتب الحكم بغير ما أنزل الله :

---

[1] الذي عليه أهل السنة أن العمل داخل في مسمى الإيمان ؛ فالقول الآخر من أقوال المرجئة.

وهنا أمر يجب أن يتفطن له وهو أن الحكم بغير ما أنزل الله قد يكون كفرا ينقل عن الملة وقد يكون معصية كبيرة أو صغيرة يسمى كفراً مجازيا أو كفرًا أصغر على القولين المذكورين وذلك بحسب حال الحاكم ؛ فإنه: إن اعتقد[1] أن الحكم بما أنزل الله غير واجب وأنه مخير فيه أو استهان به مع تيقنه أنه حكم الله فهذا كفر أكبر[2].

وإن اعتقد وجوب الحكم بما أنزل الله وعلمه في هذه الواقعة وعدل عنه مع اعترافه بأنه مستحق للعقوبة فهذا عاص ويسمى كافرا كفرا مجازيا أو كفرا أصغر وإن جهل حكم الله فيها مع بذل جهده واستفراغ وسعه في معرفة الحكم وأخطأه فهذا مخطىء له أجر على اجتهاده وخطؤه مغفور.

رد حكم الكتاب:

وقال المصنف رحمه الله : ومن رد حكم الكتاب كان من الكافرين.[1]

لا شك في تكفير من رد حكم الكتاب، ولكن من تأول حكم الكتاب لشبهة عرضت له بين له الصواب ليرجع إليه، فالله سبحانه وتعالى لا يسأل عما يفعل لكمال حكمته ورحمته وعدله لا لمجرد قهره وقدرته كما يقول جهم وأتباعه، وقد تقدم بيان ذلك.

---

[1] الاعتقاد أمر باطن لا يعلمه إلا الله، دليلنا إليه **لسان القال** أو **لسان الحال والعمل**، فالظاهر بريد الباطن ومرآة له.

[2] مناط الكفر الأكبر في هذا الباب يتناول ما يلي : **أولا** : التشريع بغير ما أنزل الله. **ثانيا** : طاعة المبدلين للشرع مع علمهم بأنهم خالفوا دين الرسل، ويكون ذلك بإحدى الحالات التالية :

١- رفض حكم الله بالتحريم، وذلك الاستحلال القولي أو العملي.

٢- رفض حكم الله بالإيجاب، وذلك بالإباء من قبول الفرائض.

٣- التحاكم إلى شريعة أخرى غير شريعة الله أو إلى حكم آخر غير الله ورسوله عن رضا واختيار.

٤- التحكيم : وضع الشريعة أو الشخص موضع الحكم ليرجع إليه أو إليها عند التنازع.

٥- الحكم بموجب شريعة أخرى غير شريعة الله، وهو القضاء بها في مواضع النزاع وإجراؤها عليهم في معاملاتهم و حياتهم اليومية. (انظر حقيقة الإيمان عند أهل السنة والجماعة ص٨٤).

[1] إن التولي عن الحكم بالشريعة كالتكذيب بها سواء، كلاهما كفر أكبر. والمقصود برد الحكم الشرعي: عدم قبوله والامتناع عن التزامه دينا يعبد الله به وحكما واجب الاتباع في موارد النزاع. ولهذا يفرق بينه وبين الإصرار الذي هو مجرد المداومة على المعصية وعدم التوبة منها. يقول الجصاص في قوله تعالى : ﴿**فلا وربك لا يؤمنون**..﴾ الآية : (وفيها دلالة على أن من رد شيئا من أوامر الله تعالى أو أوامر رسوله فهو خارج من الإسلام، سواء رده من جهة الشك فيه أو من جهة ترك القبول والامتناع عن التسليم. وذلك يوجب صحة ما ذهب إليه الصحابة في حكمهم بارتداد من امتنع من أداء الزكاة وقتلهم وسبي ذراريهم، لأن الله تعالىحكم بأن من لم يسلم للنبي قضاءه وحكمه فليس من أهل الإيمان). أحكام القرآن (١٨/٣). (انظر الثوابت والمتغيرات للمؤلف ص٩١ الطبعة الثانية- دار الإعلام الدولي)

ما يحل به دم المسلم :

قال المصنف رحمه الله: ولا نرى السيف على أحد من أمة محمد صلى الله عليه وسلم إلا من وجب عليه السيف.

في صحيح مسلم عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : لا يحل دم امرىء مسلم يشهد أن لا إله إلا الله وأني رسول الله إلا بإحدى ثلاث الثيب الزاني والنفس بالنفس والتارك لدينه المفارق للجماعة)) [١].

[١]م: باب ما يباح به دم المسلم رقم (١٦٧٦)، راجع أبواب الردة في فتح الباري وكتب الفقه

المبحث السابع : الكبائر والصغائر

قال المصنف رحمه الله تعالى: وأهل الكبائر من أمة محمد صلى الله عليه وسلم في النار، لا يخلدون إذا ماتوا وهم موحدون، وإن لم يكونوا تائبين بعد أن لقوا الله عارفين، وهم في مشيئته وحكمه إن شاء غفر لهم وعفا عنهم بفضله كما ذكر عز وجل في كتابه ﴿ وَيَغۡفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ ﴾ وإن شاء عذبهم في النار بعدله ثم يخرجهم منها برحمته وشفاعة الشافعين من أهل طاعته ثم يبعثهم إلى جنته. وذلك بأن الله تعالى تولى أهل معرفته ولم يجعلهم في الدارين كأهل نكرته الذين خابوا من هدايته ولم ينالوا من ولايته. اللهم يا ولي الإسلام وأهله ثبتنا على الإسلام حتى نلقاك به.

تعريف الكبيرة والصغيرة .

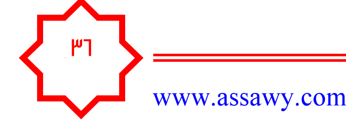
إختلف العلماء في الكبائر على أقوال :

فقيل : سبعة، وقيل : سبعة عشر، وقيل : إنها إلى السبعين أقرب،وهذا كله مجرد دعوى.

وقيل : ما اتفقت الشرائع على تحريمه، وهذا يقتضي أن شرب الخمر والفرار من الزحف والتزوج ببعض المحارم والمحرم بالرضاعة والصهرية ونحو ذلك ليس من الكبائر، وأن سرقة الحبة من مال اليتيم والكذبة الواحدة الخفيفة ونحو ذلك من الكبائر، وهذا فاسد.

وقيل : ما يسد باب المعرفة بالله.

وقيل : ذهاب الأموال والأبدان، وكلاهما يقتضي أن شرب الخمر وأكل الخنزير والميتة والدم وقذف المحصنات ليس من الكبائر، وهو فاسد.



وقيل : كل ما نهى الله عنه فهو كبيرة، وهذا يقتضي أن الذنوب لا تنقسم في نفسها إلى قسمين : صغائر، وكبائر، وهو فاسد لأنه خلاف النصوص.

وقيل : لا تعلم أصلا أو أنها أخفيت كليلة القدر، ومن قال هذا فإنما أخبر عن نفسه أنه لا يعلمها فلا يمنع أن يكون قد علمها غيره.

وقيل : هي ما يترتب عليها حد أو توعد عليها بالنار أو اللعنة أو الغضب وهذا أمثل الأقوال.

وهذا الضابط يسلم من القوادح الواردة على غيره فإنه يدخل فيه كل ما ثبت بالنص أنه كبيرة كالشرك والقتل والزنا والسحر وقذف المحصنات الغافلات المؤمنات ونحو ذلك كالفرار من الزحف وأكل مال اليتيم وأكل الربا وعقوق الوالدين واليمين الغموس وشهادة الزور وأمثال ذلك.

وترجيح هذا القول من وجوه :

أحدها : أنه هو المأثور عن السلف كابن عباس وابن عيينة وابن حنبل وغيرهم

الثاني : أن الله تعالى قال: ﴿ إِن تَجْتَنِبُوا۟ كَبَآئِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ وَنُدْخِلْكُم مُّدْخَلًا كَرِيمًا ﴾ [النساء:٣١]. فلا يستحق هذا الوعد الكريم من أوعد بغضب الله ولعنته وناره، وكذلك من استحق أن يقام عليه الحد لم تكن سيئاته مكفرة عنه باجتناب الكبائر.

الثالث : أن هذا الضابط مرجعه الى ما ذكره الله ورسوله من الذنوب فهو حد متلقى من خطاب الشارع.

الرابع : أن هذا الضابط يمكن الفرق به بين الكبائر والصغائر.

واختلفت عبارات السلف في تعريف الصغائر :

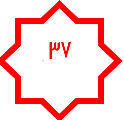
منهم من قال : الصغيرة ما دون الحدين حد الدنيا وحد الآخرة.

ومنهم من قال : كل ذنب لم يختم بلعنة أو غضب أو نار.

ومنهم من قال : الصغيرة ما ليس فيها حد في الدنيا ولا وعيد في الآخرة والمراد بالوعيد الوعيد الخاص بالنار أو اللعنة أو الغضب ؛ فإن الوعيد الخاص في الآخرة كالعقوبة الخاصة في الدنيا أعني المقدرة فالتعزير في الدنيا نظير الوعيد بغير النار أو اللعنة أو الغضب.

حكم أصحاب الكبائر :

أشار بقوله : (وأهل الكبائر من أمة محمد صلى الله عليه وسلم في النار لا يخلدون إذا ماتوا وهم موحدون) إلى الرد علىقول الخوارج والمعتزلة القائلين بتخليد أهل الكبائر في النار. وتخصيصه أمة



محمد صلى الله عليه وسلم يفهم منه أن أهل الكبائر من غيرهم قبل نسخ تلك الشرائع به حكمهم مخالف، وفيه نظر، فإن النبي صلى الله عليه وسلم أخبر أنه يخرج من النار من كان في قلبه مثقال ذرة من إيمان ولم يخص أمته بذلك بل ذكر الإيمان مطلقا.

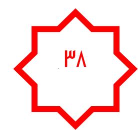
وقوله : (وإن لم يكونوا تائبين) لأن التوبة لا خلاف أنها تمحو الذنوب وإنما الخلاف في غير التائب.

وقوله : (بعد أن لقوا الله تعالى عارفين) لو قال مؤمنين بدل قوله عارفين كان أولى، لأن من عرف الله ولم يؤمن به فهو كافر وإنما اكتفى بالمعرفة وحدها الجهم وقوله مردود باطل كما تقدم. وكأن الشيخ رحمه الله أراد المعرفة الكاملة المستلزمة للاهتداء التي يشير إليها أهل الطريقة وحاشا أولئك أن يكونوا من أهل الكبائر بل هم سادة الناس وخاصتهم.

وقوله : (وهم في مشيئة الله وحكمه إن شاء غفر لهم وعفا عنهم بفضله..) فصل الله تعالى بين الشرك وغيره لأن الشرك أكبر الكبائر كما قال صلى الله عليه وسلم، وأخبر الله تعالى أن الشرك غير مغفور وعلق غفران ما دونه بالمشيئة، والجائز يعلق بالمشيئة دون المتنع. ولو كان الكل سواء لما كان للتفصيل معنى. ولأنه علق هذا الغفران بالمشيئة وغفران الكبائر والصغائر بعد التوبة مقطوع به غير معلق بالمشيئة كما قال تعالى : ﴿ قُلْ يَـٰعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا۟ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًا ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴾ [الزمر:٥٣]. فوجب أن يكون الغفران المعلق بالمشيئة هو غفران الذنوب سوى الشرك بالله قبل التوبة.

لكن ثم أمر ينبغي التفطن له وهو أن الكبيرة قد يقترن بها من الحياء والخوف والاستعظام لها ما يلحقها بالصغائر، وقد يقترن بالصغيرة من قلة الحياء وعدم المبالاة وترك الخوف والاستهانة بها ما يلحقها بالكبائر. وهذا أمر مرجعه إلى ما يقوم بالقلب وهو قدر زائد على مجرد الفعل. والإنسان يعرف ذلك من نفسه وغيره.

وأيضا فإن فاعل السيئات يسقط عنه عقوبة جهنم بنحو عشرة أسباب عرفت بالاستقراء من الكتاب والسنة.



الأسباب التي تسقط عقوبة السيئات :

(١) التوبة: قال تعالى : ﴿ إِلَّا مَن تَابَ ﴾، ﴿ إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُواْ ﴾ وغيرها.والتوبة النصوح هي الخالصة لا يختص بها ذنب دون ذنب. والصحيح أنه لا يتوقف قبولها على كونها عامة. ولابد مع الإسلام من توبة عامة من كل ذنب. وكون التوبة سببا لغفران الذنوب وعدم المؤاخذة بها مما لا خلاف فيه بين الأمة وليس شيء يكون سببا لغفران جميع الذنوب إلا التوبة، قال تعالى :

﴿ قُلْ يَٰعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُواْ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًا ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴾ وهذا لمن تاب، ولهذا قال: ﴿ لَا تَقْنَطُواْ ﴾ وقال بعدها: ﴿ وَأَنِيبُوٓاْ إِلَىٰ رَبِّكُمْ ﴾

الاستغفار: قال تعالى : ﴿ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ﴾ [الأنفال:٣٣]. والاستغفار تارة يذكر وحده وتارة يقرن بالتوبة، فإن ذكر وحده دخلت معه التوبة كما إذا ذكرت التوبة وحدها شملت الاستغفار فالتوبة تتضمن الاستغفار، والاستغفار يتضمن التوبة وكل واحد منهما يدخل في مسمى الآخر عند الإطلاق وأما عند اقتران إحدى اللفظتين بالأخرى فالاستغفار طلب وقاية شر ما مضى والتوبة الرجوع وطلب وقاية شر ما يخافه في المستقبل من سيئات أعماله، ونظير هذا الفقير والمسكين، والكفر والنفاق، والإيمان والإسلام.[١]

(٣) الحسنات: فإن الحسنة بعشر أمثالها والسيئة بمثلها فالويل لمن غلبت آحاده عشراته. قال تعالى : ﴿ إِنَّ ٱلْحَسَنَٰتِ يُذْهِبْنَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ ﴾ [هود:١١٤]، وقال صلى الله عليه وسلم: ((وأتبع السيئة الحسنة تمحها))[٢].

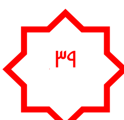
(٤) المصائب الدنيوية: قال صلى الله عليه وسلم : ((ما يصيب المؤمن من وصب ولا نصب ولا غم ولا هم ولا حزن حتى الشوكة يشاكها إلا كفر بها من خطاياه))[٣]. فالمصائب نفسها مكفرة وبالصبر عليها يثاب العبد، وبالسخط يأثم، والصبر والسخط أمر آخر غير المصيبة، فالمصيبة من فعل الله لا من

---

[١] راجع المبحث الثاني.

[٢] ت: البر والصلة، ب٥٥، ح١٩٧٨ – عن أبي ذر الغفاري، وقال: حسن.

[٣] متفق عليه. خ: المرضى، ب١، ح٥٣١٨. م: البر والصلة، ب١٤، ح٥٢ – عن أبي سعيد الخدرى، وأبي هريرة.



فعل العبد وهي جزاء من الله للعبد على ذنبه ويكفر ذنبه بها وإنما يثاب المرء ويأثم على فعله والصبر والسخط من فعله.

(٥) عذاب القبر.

(٦) دعاء المؤمنين واستغفارهم في الحياة وبعد الممات.

(٧) ما يهدى إليه بعد الموت من ثواب صدقة أو قراءة أو حج ونحو ذلك.

(٨) أهوال يوم القيامة وشدائده.

(٩) ما ثبت في الصحيحين أن المؤمنين إذا عبروا الصراط وقفوا على قنطرة بين الجنة والنار فيقتص لبعضهم من بعض فإذا هذبوا ونقوا أذن لهم في دخول الجنة.

(١٠) شفاعة الشافعين.

(١١) عفو أرحم الراحمين من غير شفاعة. كما قال تعالى: ﴿ وَيَغۡفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ ﴾ [النساء:٤٨]، فإن كان ممن لم يشأ الله أن يغفر له لعظم جرمه فلا بد من دخوله إلى الكير ليخلص طيب إيمانه من خبث معاصيه فلا يبقى في النار من في قلبه أدنى أدنى أدنى مثقال ذرة من إيمان بل من قال لا إله إلا الله كما تقدم من حديث أنس رضي الله عنه.

وإذا كان الأمر كذلك امتنع القطع لأحد معين من الأمة غير من شهد له الرسول صلى الله عليه وسلم بالجنة، ولكن نرجو للمحسنين ونخاف عليهم، على ما سيأتي في المبحث التالي.

وقوله: (اللهم يا ولي الإسلام وأهله مَسِّكنا بالإسلام) وفي نسخة: (ثبتنا على الإسلام حتى نلقاك به) مناسبة ختم الكلام المتقدم بهذا الدعاء ظاهرة. وبمثل هذا الدعاء دعا يوسف الصديق صلوات الله عليه حيث قال:

﴿ رَبِّ قَدۡ ءَاتَيۡتَنِي مِنَ ٱلۡمُلۡكِ وَعَلَّمۡتَنِي مِن تَأۡوِيلِ ٱلۡأَحَادِيثِۚ فَاطِرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ أَنتَ وَلِيِّۦ فِي ٱلدُّنۡيَا وَٱلۡأٓخِرَةِۖ تَوَفَّنِي مُسۡلِمٗا وَأَلۡحِقۡنِي بِٱلصَّٰلِحِينَ ﴾ [يوسف:١٠١]، وبه دعا السحرة الذين كانوا أول من آمن بموسى صلوات الله على نبينا وعليه حيث قالوا: ﴿ رَبَّنَآ أَفۡرِغۡ عَلَيۡنَا صَبۡرٗا وَتَوَفَّنَا مُسۡلِمِينَ ﴾ [الأعراف:١٢٦]. ومن استدل بهاتين الآيتين على جواز تمني الموت فلا دليل له فيه فإن الدعاء إنما هو بالموت على الإسلام لا بمطلق الموت ولا بالموت الآن والفرق ظاهر.

المبحث الثامن : حكم الشهادة لمعين بالجنة أو النار[١]

قال المصنف رحمه الله: ولا نُنزلُ أحدا منهم جنة ولا نارا.

أى : لا نشهد لأحد معين من أهل القبلة[١] إنه من أهل الجنة أو من أهل النار إلا من أخبر الصادق صلى الله عليه وسلم أنه من أهل الجنة كالعشرة رضي الله عنهم[٢]. وإن كنا نقول : إنه لا بد أن يدخل النار من أهل الكبائر من شاء الله إدخاله النار ثم يخرج منها بشفاعة الشافعين.

ولكنا نقف في الشخص المعين فلا نشهد له بجنة ولا نار إلا عن علم، لأن الحقيقة باطنة، وما مات عليه لا نحيط به[٣]، لكن نرجو للمحسنين ونخاف على المسيئين.

وللسلف في الشهادة بالجنة ثلاثة أقوال :

أحدها: أن لا يشهد لأحد إلا للأنبياء، وهذا ينقل عن محمد بن الحنفية والأوزاعي.

والثاني: أنه يشهد بالجنة لكل مؤمن جاء فيه النص، وهذا قول كثير من العلماء وأهل الحديث.

والثالث: أنه يشهد بالجنة لهؤلاء ولمن شهد له المؤمنون[٤]، كما في الصحيحين أنه مر بجنازة فأثنوا عليها بخير، فقال النبي صلى الله عليه وسلم: ((وجبت))، ومر بأخرى فأثني عليها بشر، فقال : ((وجبت))، وفي رواية كرر وجبت ثلاث مرات فقال عمر: يا رسول الله ما وجبت؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : ((هذا أثنيتم عليه خيرا وجبت له الجنة، وهذا أثنيتم عليه شرا وجبت له النار. أنتم شهداء الله في الأرض))[٥]

---

[١] أما الكافرون فمن مات منهم على الكفر ــ فيما ظهر لنا ــ فإنا نتزله النار، للحديث : (حيثما مررت بقبر كافر فبشره بالنار)، وكذا خطابه أهل القليب من قتلى الكفار يوم بدر بأسمائهم وأسماء آبائهم، وكذا إلزام أبي بكر للمرتدين أن يشهدوا أن قتلاهم في النار كشرط لقبول توبتهم.

[٢] وغيرهم كثير ومنهم عائشة وبلال و الحسن والحسين وأمهما فاطمة وعكاشة وأهل بدر وبيعة الشجرة رضى الله عنهم أجمعين.

[٣] انظر فتح الباري : باب لا يقال فلان شهيد.

[٤] لا غيرهم فإن شهادتهم لا تعتبر.

[٥] متفق عليه. خ: الجنائز، ب٨٤، ح١٣٠١. م: الجنائز، ب٢٠، ح٦٠ — عن أنس بن مالك.

المبحث التاسع : صحة الإقتداء بأهل القبلة

قال المصنف رحمه الله : ونرى الصلاة خلف كل بر وفاجر من أهل القبلة وعلى من مات منهم.

قال صلى الله عليه وسلم: ((صلوا خلف كل بر وفاجر)) [1]**، وقال صلى الله عليه وسلم: ((الصلاة واجبة عليكم على كل مسلم براً كان أو فاجراً، وإن عمل بالكبائر))** [2]**. وكان عبد الله بن عمر، وأنس بن مالك يصليان خلف الحجاج، وقد كان فاسقاً ظالما**[3]**.**

الصلاة خلف مستور الحال :

الصلاة خلف من لم يعلم منه بدعة ولا فسقا جائزة باتفاق الأئمة، وليس من شرط الائتمام أن يعلم المأموم اعتقاد إمامه ولا أن يمتحنه فيقول : ماذا تعتقد، بل يصلي خلف مستور الحال.[4]

الصلاة خلف الفجار والمبتدعة :

ولو صلى خلف مبتدع يدعو إلى بدعته أو فاسق ظاهر الفسق وهو الإمام الراتب الذي لا يمكنه الصلاة إلا خلفه كإمام الجمعة والعيدين والإمام في صلاة الحج بعرفة ونحو ذلك فإن المأموم يصلي خلفه عند عامة السلف والخلف، ومن ترك الجمعة والجماعة خلف الإمام الفاجر فهو مبتدع عند أكثر

---

[1] قط: ٢/٥٧، ح١٠ – عن واثلة بن الأسقع، وهو حديث ضعيف. ضعيف الجامع الصغير (٣٤٧٨) ص٥٠٩ ط: المكتب الإسلامي.

[2] د: الصلاة، ب٦٤، ح٥٩٤، والجهاد، ب٣٥، ح٢٥٣٣ – عن أبي هريرة.

[3] السنن الكبرى للبيهقي ٣/١٢١و١٢٢.

[4] قال ابن تيمية : (وكان بعض الناس إذا كثرت الأهواء يحب ألا يصلي خلف من لا يعرفه على سبيل الاستحباب كما نقل ذلك عن أحمد أنه ذكره لمن سأله، ولم يقل أحمد أنه لا تصح إلا خلف من عرف حاله. ولما قدم أبو عمرو عثمان بن مرزوق إلى ديار مصر–وكان ملوكها في ذلك الزمان مظهرين للتشيع، وكانوا باطنية ملاحدة، وكان بسبب ذلك قد كثرت البدع وظهرت بالديار المصرية– أمر أصحابه أن لا يصلوا إلا خلف من يعرفونه لأجل ذلك، ثم بعد موته فتحها ملوك السنة مثل صلاح الدين وظهرت فيها كلمة السنة المخالفة للرافضة، ثم صار العلم والسنة يكثر بها ويظهر. فالصلاة خلف المستور جائزة باتفاق علماء المسلمين، ومن قال إن الصلاة محرمة أو باطلة خلف من لا يعرف حاله فقد خالف إجماع أهل السنة والجماعة ... إلى أن قال: وكان عبد الله بن عمر وغيره من الصحابة يصلون خلف الحجاج بن يوسف، وكان الصحابة والتابعون يصلون خلف ابن أبي عبيد، وكان متهماً بالإلحاد وداعياً فيها إلى الضلال. (الفتاوى ٣/ ٢٨١).

العلماء. والصحيح أنه يصليها ولا يعيدها، فقد قال صلى الله عليه وسلم : ((يصلون لكم، فإن أصابوا فلكم ولهم وإن أخطأوا فلكم وعليهم))[1].

وكان الصحابة رضي الله عنهم يصلون الجمعة والجماعة خلف الأئمة الفجار ولا يعيدون : كما كان عبد الله بن عمر يصلي خلف الحجاج بن يوسف وكذلك أنس رضي الله عنه، وكان الحجاج فاسقا ظالما.وكذلك عبد الله بن مسعود رضي الله عنه وغيره يصلون خلف الوليد بن عقبة بن أبي معيط وكان يشرب الخمر حتى إنه صلى بهم الصبح مرة أربعا ثم قال : أزيدكم ؟ فقال له ابن مسعود : ما زلنا معك منذ اليوم في زيادة. وفي الصحيح أن عثمان بن عفان رضي الله عنه لما حصر صلى بالناس شخص فسأل سائل عثمان : إنك إمام عامة وهذا الذي صلى بالناس إمام فتنة. فقال : يا ابن أخي إن الصلاة من أحسن ما يعمل الناس فإذا احسنوا فأحسن معهم وإذا أساؤوا فاجتنب إساءتهم.

والفاسق والمبتدع صلاته في نفسها صحيحة فإذا صلى المأموم خلفه لم تبطل صلاته لكن إنما كره من كره الصلاة خلفه لأن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر واجب.

ومن ذلك أن من أظهر بدعة وفجورا لا يرتب إماما للمسلمين فإنه يستحق التعزير حتى يتوب، فإن أمكن هجره حتى يتوب كان حسنا، وإذا كان بعض الناس إذا ترك الصلاة خلفه وصلى خلف غيره أثر ذلك في إنكار المنكر حتى يتوب أو يعزل أو ينتهي الناس عن مثل ذنبه فمثل هذا إذا ترك الصلاة خلفه كان في ذلك مصلحة شرعية ولم تفت المأموم جمعة ولا جماعة. وأما إذا كان ترك الصلاة خلفه يفوت المأموم الجمعة والجماعة فهنا لا يترك الصلاة خلفه إلا مبتدع مخالف للصحابة رضي الله عنهم وكذلك إذا كان الإمام قد رتبه ولاة الأمور ليس في ترك الصلاة خلفه مصلحة شرعية فهنا لا يترك الصلاة خلفه بل الصلاة خلفه أفضل.

فإذا أمكن الإنسان ان لا يقدم مظهرا للمنكر في الإمامة وجب عليه ذلك لكن إذا ولاه غيره ولم يمكنه صرفه عن الإمامة أو كان لا يتمكن من صرفه عن الإمامة إلا بشر أعظم ضررا من ضرر ما أظهر من المنكر فلا يجوز دفع الفساد القليل بالفساد الكثير ولا دفع أخف الضررين بحصول أعظمهما فإن الشرائع جاءت بتحصيل المصالح وتكميلها وتعطيل المفاسد وتقليلها بحسب الإمكان، فتفويت الجمع

---

[1] خ: الصلاة، ب٢٧، ح٦٦٢ – عن أبي هريرة.

والجماعات أعظم فسادا من الاقتداء فيهما بالإمام الفاجر لا سيما إذا كان التخلف عنها لا يدفع فجورا فيبقى تعطيل المصلحة الشرعية بدون دفع تلك المفسدة.

وأما إذا أمكن فعل الجمعة والجماعة خلف البر فهذا أولى من فعلها خلف الفاجر، وحينئذ فإذا صلى خلف الفاجر من غير عذر فهو موضع اجتهاد العلماء منهم من قال يعيد ومنهم من قال لا يعيد، وموضع بسط ذلك في كتب الفروع.

حكم نسيان الإمام أو خطئه :

وأما الإمام إذا نسي أو أخطأ ولم يعلم المأموم بحاله فلا إعادة على المأموم للحديث المتقدم، وقد صلى عمر رضي الله عنه وغيره وهو جنب ناسيا للجنابة فأعاد الصلاة ولم يأمر المأمومين بالإعادة. ولو علم أن إمامه بعد فراغه كان على غير طهارة أعاد عند أبي حنيفة خلافا لمالك والشافعي وأحمد في المشهور عنه. وكذلك لو فعل الإمام ما لا يسوغ عند المأموم وفيه تفاصيل موضعها كتب الفروع. ولو علم أن إمامه يصلي على غير وضوء فليس له أن يصلي خلفه لأنه لاعب وليس بمصل.

وجوب طاعة ولي الأمر في مواضع الاجتهاد :

وقد دلت نصوص الكتاب والسنة وإجماع سلف الأمة على وجوب طاعة ولي الأمر، وإمام الصلاة، والحاكم، وأمير الحرب، وعامل الصدقة في مواضع الاجتهاد، فإن مصلحة الجماعة والائتلاف ومفسدة الفرقة والاختلاف أعظم من أمر المسائل الجزئية، ولهذا لم يجز للحكام أن ينقض بعضهم حكم بعض، والصواب المقطوع به صحة صلاة بعض هؤلاء خلف بعض.

يروى عن أبي يوسف أنه لما حج مع هارون الرشيد فاحتجم الخليفة وأفتاه مالك بأنه لا يتوضأ وصلى بالناس فقيل لأبي يوسف: أصليت خلفه ؟ قال : سبحان الله! أمير المؤمنين. يريد بذلك أن ترك الصلاة خلف ولاة الأمور من فعل أهل البدع.

وحديث ((.يصلون لكم)) نص صحيح صريح في أن الإمام إذا أخطأ فخطؤه عليه لا على المأموم، والمجتهد غايته أنه أخطأ بترك واجب اعتقد أنه ليس بواجب أو فعل محظور اعتقد أنه ليس بمحظور، ولا يحل لأحد يؤمن بالله واليوم الآخر أن يخالف هذا الحديث الصريح الصحيح بعد أن يبلغه، وهو حجة على من يطلق من الحنفية والشافعية والحنبلية أن الإمام إذا ترك ما يعتقد المأموم وجوبه لم يصح

اقتداؤه به، فإن الاجتماع والائتلاف مما يجب رعايته وترك الخلاف المفضي إلى الفساد.

الصلاة على من مات من أهل البدع والفجور.

وقوله : (وعلى من مات منهم) أي ونرى الصلاة على من مات من الأبرار والفجار، وإن كان يستثنى من هذا العموم البغاة وقطاع الطريق وكذا قاتل نفسه خلافا لأبي يوسف والشهيد خلافا لمالك والشافعي رحمهما الله. لكن الشيخ إنما ساق هذا لبيان أنا لا نترك الصلاة على من مات من أهل البدع والفجور لا للعموم الكلي.

ولكن المظهرون للإسلام قسمان : إما مؤمن وإما منافق. فمن علم نفاقه لم تجز الصلاة عليه والاستغفار له، ومن لم يعلم ذلك منه صُلي عليه. فإذا علم شخص نفاق شخص لم يصل هو عليه وصلى عليه من لم يعلم نفاقه، وكان عمر رضي الله عنه لا يصلي على من لم يصل عليه حذيفة لأنه كان في غزوة تبوك قد عرف المنافقين.

وقد نهى الله سبحانه وتعالى رسوله صلى الله عليه وسلم عن الصلاة على المنافقين، وأخبر أنه لا يغفر لهم باستغفاره، وعلل ذلك بكفرهم بالله ورسوله.

فمن كان مؤمنا بالله ورسوله لم ينه عن الصلاة عليه ولو كان له من الذنوب الاعتقادية البدعية أو العملية أو الفجور ما له بل قد أمره الله تعالى بالاستغفار للمؤمنين فقال تعالى: ﴿ فَٱعْلَمْ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ وَٱسْتَغْفِرْ لِذَنۢبِكَ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ﴾ فأمره سبحانه بالتوحيد والاستغفار لنفسه وللمؤمنين والمؤمنات فالتوحيد أصل الدين والاستغفار له وللمؤمنين كَمَالُهُ فالدعاء لهم بالمغفرة والرحمة وسائر الخيرات إما واجب وإما مستحب وهو على نوعين عام وخاص أما العام فظاهر كما في هذه الآية وأما الدعاء الخاص فالصلاة على الميت. فما من مؤمن يموت إلا وقد أمر المؤمنون أن يصلوا عليه صلاة الجنازة وهم مأمورون في صلاتهم عليه أن يدعو له.

المبحث العاشر: أركان الإيمان

قال المصنف رحمه الله: والإيمان هو الإيمان بالله، وملائكته، وكتبه، ورسله، واليوم الآخر، وبالقدر خيره وشره، حلوه ومره، من الله تعالى.

وقوله: (ونؤمن بالملائكة، والنبيين، والكتب المنزلة على المرسلين ونشهد أنهم على الحق المبين).

هذه الخصال هي أركان الإيمان وأصول الدين، وبها أجاب النبي صلى الله عليه وسلم عندما سئل عن الإيمان في حديث جبريل المشهور المتفق عليه.

وقال تعالى : ﴿ ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيۡهِ مِن رَّبِّهِۦ وَٱلۡمُؤۡمِنُونَۚ كُلٌّ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ ﴾ [البقرة:٢٨٥].

وقال تعالى : ﴿ لَّيۡسَ ٱلۡبِرَّ أَن تُوَلُّواْ وُجُوهَكُمۡ قِبَلَ ٱلۡمَشۡرِقِ وَٱلۡمَغۡرِبِ وَلَٰكِنَّ ٱلۡبِرَّ مَنۡ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلۡكِتَٰبِ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ ﴾ [البقرة:١٧٧].

فجعل سبحانه الإيمان هو الإيمان بهذه الجملة[(١)] وسمى من آمن بهذه الجملة مؤمنين، كما جعل الكافرين من كفر بهذه الجملة بقوله : ﴿ وَمَن يَكۡفُرۡ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ فَقَدۡ ضَلَّ ضَلَٰلَۢا بَعِيدًا ﴾[النساء:١٣٦].

فهذه هي أصول الدين الستة التي بعث بها الرسول، وهي الأصول التي اتفقت عليها الأنبياء والرسل صلوات الله عليهم وسلامه ولم يؤمن بها حقيقة الإيمان إلا أتباع الرسل.

---

(١) إن عني بذلك ما قاله في موضع آخر: (وأما الإيمان بمحمد فتصديقه واتباع ما جاء به من الشرائع إجمالا وتفصيلا.. وأما الإيمان بالقرآن فالإيمان به واتباع ما فيه) فلا إشكال.

تحريف المبطلين لأصول الدين :

أما أعداء الرسل، ومن سلك سبيلهم من الفلاسفة وأهل البدع فهم متفاوتون في جحدها وإنكارها :

أولا : الفلاسفة : فهم أعظم الناس إنكارا لها ؛ فحقيقة قولهم أنهم لا يؤمنون بالله، ولا برسله، ولا بكتبه، ولا بملائكته، ولا باليوم الآخر :

- فالله عندهم موجود لا ماهية له ولاحقيقة، لا يفعل بقدرته ومشيئته، وهم ينفون عنه سمعه وبصره وسائر صفاته، فهذا إيمانهم بالله.

- وأما كتبه عندهم فهم لا يصفونها بالكلام، والقرآن عندهم فيض فاض من العقل الفعال على قلب بشر طاهر متميز عن النوع الإنساني بثلاث خصائص: قوة الإدراك (لينال من العلم أعظم مما يناله غيره)، وقوة النفس (ليؤثر بها في هيولى العالم يقلب صورة إلى صورة)، وقوة التخييل (ليخيل بها القوى العقلية في أشكال محسوسة).

- والملائكة عندهم أمور ذهنية لا وجود لها في الأعيان.

أما اليوم الآخر ومشاهده فما هى إلا أمثال مضروبة لتفهيم العوام، لا حقيقة لها في الخارج.

فهذا إيمان هذه الطائفة الضالة بأصول الدين الستة.

ثانيا: المعتزلة: فقد أبدلوا هذه الأصول بأصولهم الخمسة التي هدموا بها كثيرا من الدين:

فنفوا عن الله كل صفة تشبيها بالصفات الموجودة في الموصوفات التي هي الأجسام، وسموا ذلك توحيدا (هم نفوا زيادة الصفات عن الذات).

- ثم تكلموا بعد ذلك في أفعاله التي هي القدر، وسموا ذلك العدل.

- ثم تكلموا في مسائل الأسماء والأحكام التي هي المنـزلة بين المنـزلتين.

ومسألة إنفاذ الوعيد.

ثم تكلموا في إلزام الغير بذلك الذي هو الأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر.

فهذه أصولهم الخمسة التي وضعوها بإزاء أصول الدين الخمسة التي بعث بها الرسول صلى الله عليه وسلم.

ثالثا : الرافضة المتأخرون : فقد جعلوا الأصول أربعة : التوحيد، والعدل، والنبوة، والإمامة.

أما أهل السنة والجماعة : فأصولهم تابعة لما جاء به الرسول، وأصل الدين: الإيمان بما جاء به الرسول كما تقدم بيان ذلك، ولهذا كانت الآيتين من آخر سورة البقرة لما تضمنتا هذا الأصل لهما شأن عظيم ليس لغيرهما : ((من قرأ الآيتين من آخر سورة البقرة في ليلة كفتاه)) .

وقول المصنف رحمه الله: ونحن مؤمنون بذلك كله لا نفرق بين أحد من رسله ونصدقهم كلهم على ما جاؤوا به.

فقوله : (لا نفرق بين أحد من رسله) أي لا نفرق بينهم بأن نؤمن ببعض، ونكفر ببعض، بل نؤمن بهم، ونصدقهم كلهم، فإن من آمن ببعض، وكفر ببعض كافر بالكل. قال تعالى :

﴿ وَيَقُولُونَ نُؤْمِنُ بِبَعْضٍ وَنَكْفُرُ بِبَعْضٍ وَيُرِيدُونَ أَن يَتَّخِذُواْ بَيْنَ ذَالِكَ سَبِيلاً ﴾.

فإذا لم يؤمن ببعض المرسلين كان كافرا بمن في زعمه أنه مؤمن به، لأن ذلك الرسول قد جاء بتصديق المرسلين كلهم، فكان كافرا حقا وهو يظن أنه مؤمن، فكان من الأخسرين أعمالا الذين ضل سعيهم في الحياة الدنيا وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعا.

الخلاصة

- حقيقة الإيمان مركبة من قول (القلب واللسان)، وعمل (القلب والجوارح). فالإيمان هو التصديق المستلزم للطاعة والانقياد باطنا وظاهرا.

- لفظ الإيمان إما أن يذكر فى النصوص مطلقا (فهو حينئذ مستلزم للأعمال وهي داخلة في مسماه)، أو يذكر تارة مقرونا بالإسلام (فيتقيد الإيمان بأصوله الستة، والإسلام بالأعمال الظاهرة)، وتارة يعطف عليه العمل الصالح فيكون من باب عطف بعض الشىء على كله.

- الأعمال الظاهرة دليل الباطن وفرع له وليست كلها شرط في كمال الإيمان بل بعضها شرط صحة وكثير منها شرط كمال.

- الإيمان يزيد وينقص من جهة ما أمر العباد به، ومن جهة ما يقع منهم من الأقوال والأعمال الظاهرة والباطنة.

- الاستثناء فى الإيمان جائز فى الكمال الواجب والمستحب، وغير جائز فى أصل الإيمان.

- تفرقت مذاهب المرجئة إلى ثلاثة أصناف مخالفة لأهل السنة فى تعريف الإيمان، من ضمنها مذهب المرجئة الفقهاء من أصحاب أبى حنيفة الذين أخرجوا العمل من مسمى الإيمان، واستدلوا على ذلك بجملة أدلة، وهى مردودة عند أهل السنة والجماعة.

- تسقط عقوبة جهنم عن فاعل السيئات بنحو عشرة أسباب عرفت بالاستقراء من الكتاب و السنة.

- اتفق أهل السنة - خلافا لما ذهبت إليه الخوارج و المرجئة - أن أصحاب الكبائر وأهل البدع لا يكفرون بنقلهم عن الملة إلا بالاستحلال، وهم معرضون للوعيد مالم يتوبوا، مع كونهم تحت المشيئة إذا ماتوا و هم موحدون.

- الكبائر هى ما يترتب عليها حدود، أو يتوعد عليها بالنار أو اللعنة أو الغضب. والصغائر هى ما

ليس فيها حد فى الدنيا وهى دون ما سبق من الوعيد في الآخرة

- في الأحكام الشرعية: يحكم على الناس بظواهرهم التي ناط بها الشارع الأحكام (لقاعدة التلازم بين الظاهر والباطن). ولا يحكم بالكفر على معين ثبت له الإسلام بيقين إلا بعد ثبوت شروط التكفير في حقه وانتفاء موانعه.

- لانشهد لشخص معين بجنة ولا نار إلا عن علم، و لكن من مات على الكفر فيما ظهر لنا فإننا ننزله النار.

- الصلاة جائزة باتفاق خلف مستور الحال الذي لم يعلم منه بدعة ولا فسق، كما أنها جائزة خلف الفجار و المبتدعة مالم يبلغ حالهم الكفر الذى ينقل عن الملة، والأولى : الصلاة خلف البر.

- أركان الإيمان هي المذكورة في حديث جبريل حين سأل النبي صلى الله عليه وسلم عن الإسلام و الإيمان والإحسان.

الاختبار البعدي للوحدة

س١: ((حقيقة الإيمان مركبة من قول و عمل)). وضح ذلك مع بيان ضرورة اجتماع عناصر الإيمان كشرط لصحته؟

س٢: الخلاف في مسمى الإيمان من أقدم الخلافات التي وقعت بين أهل القبلة فى مسائل أصول الدين. وضح ذلك، مع بيان المذاهب المختلفة التي حادت عن الصواب في تعريف الإيمان، وأوجه بطلان ما ذهبت إليه كل منها؟

س٣: الاختلاف بين أبىحنيفة وأهل السنة في تعريف الإيمان اختلاف صوري ونزاع لفظي. بيّن مدى صحة هذه العبارة مع توضيح مواضع الاتفاق والاختلاف بين كلا الفريقين؟

س٤: الإيمان مغاير للتصديق لفظا و معنى. وضح ذلك؟

س٥: ما أدلة أبي حنيفة وأصحابه على مذهبهم في تعريف الإيمان؟ وكيف يمكن الرد عليها في قواعد مختصرة؟

س٦: تتنوع دلالة لفظ الإيمان في النصوص بالإطلاق والتقييد، وبالاقتران والتجريد. وضح ذلك مع بيان مختلف دلالات لفظ الإيمان إذا جاء مطلقا، أو مقرونا بالإسلام، أو مقرونا بالعمل الصالح؟

س٧: هل الإسلام منحصر في مبانيه الخمسة؟ ولم خصها النبي صلى الله عليه وسلم بالذكر حين سئل عن الإسلام ؟ علل لما تقول؟

س٨: قال المصنف رحمه الله: ﴿والإيمان واحد، وأهله في أصله سواء ﴾. ما مدى دقة هذا القول؟ وما أوجه تفاضل الإيمان ؟ اذكر الأدلة و الآثار على ذلك.

س٩: ما حكم الاستثناء فى الإيمان ؟

س١٠: الناس في تكفير أصحاب الكبائر وأهل البدع على طرفين ووسط. من هم الطرفان ؟ وما أقوالهم في ذلك؟ وبم أجاب عليهم أهل السنة ؟

س١١: كيف تجيب على شبهة تكفير أصحاب الكبائر حيث إن الشارع قد سمى بعض الذنوب كفراً ؟

س١٢: ما تعريف الكبيرة و الصغيرة؟ و ماحكم مرتكب الكبيرة إذا مات موحدا ولكن دون توبة من كبيرته؟

س١٣: ما الأسباب التي تسقط عن فاعل السيئات عقوبة جهنم؟ دلل على ما تقول.

س١٤: ما الحالات التي نشهد فيها على شخص معين بالجنة أو النار؟

س١٥: متى يكون الخوف و الرجاء محمودا؟ و كيف يصير مذموما؟

س١٦: ما حكم الصلاة خلف مستور الحال و المبتدع؟ وما حكم الصلاة على من مات منهم ؟

س١٧: الفلاسفة والمعتزلة والرافضة فرق ضلت في فهم أركان الإيمان. وضح الأصول الفاسدة لكل منهم مع بيان الحق الذى عليه أهل السنة و الجماعة فى ذلك؟

س١٨: بالنظر إلى الحكم الشرعي، هل يكفي في إثبات أصل الإيمان اعتقاد الحكم ؟ وضح ذلك في ضوء فهمك لعناصر الإيمان عند أهل السنة، موازنا بينها وبين عناصر الإيمان عند أهل الإرجاء. ثم طبق ذلك على مسألة الحكم بغير ما أنزل الله.

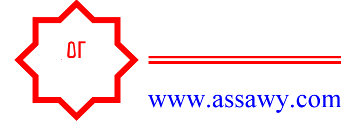
س١٩: وقع في تعريف الإمام الطحاوي –رحمه الله – للإيمان شبهة الإرجاء. وضح ذلك على ضوء تعريفات الإيمان المتنوعة عند السلف والخلف من أهل السنة والجماعة؟

س٢٠: متى نشأ الخلاف في مسمى الإيمان؟ ومن أول من قال بقول المرجئة الفقهاء؟ وكيف أنكر علماء السلف حينئذ هذا القول ؟

س٢١:للإيمان درجات ثلاثة. اذكرها، و بيّن حد كل منها، ومآل أهل كل درجة في الآخرة، مع سوق الأدلة من الكتاب والسنة؟

س٢٢: تحت ظلال الجهل بالدين، اختلط في أذهان كثير من عوام المسلمين معنى الإيمان و الإسلام. ادرس هذه الظاهرة، ثم وضح على ضوء دراستك اختلاف دلالات الإيمان والإسلام؟

س٢٣: كيف ترد على شبهة كون الإيمان معان قلبية لايمكن تقييدها بحدود وأحكام لأنها لا تنضبط بنصوص ظاهرة؟ عضد قولك بأدلة الكتاب والسنة وأقوال السلف.



الوحدة الأولي : التوحيد

الأهداف العامة

تنقسم هذه الوحدة إلى ثلاثة فصول، ويتوقع منك عزيزي الدارس بعد دراستك لها أن تكون ملماً بما يلي:

الفصل الأول: توحيد الربوبية:

المقصود من توحيد الربوبية، وفطر القلوب عليه.

معرفة بعض صور الشرك التي وقعت في الربوبية.

المقصود من الميثاق الذى أخذه الله من آدم وذريته.

الفصل الثاني: توحيد الإلهية:

المقصود من توحيد الإلهية، وبيان أنه مقصد دعوة الرسل.

معرفة الضوابط الشرعية في الدعاء، والاستشفاع، والتوسل.

أحكام الكهانة، والسحر، والتنجيم.

مراتب الولاية، والفرق بين المعجزة والكرامة، وتفضيل الأنبياء على الأولياء.

حتمية التسليم والاستسلام لنصوص الكتاب والسنة، وفساد منهج المتكلمين.

الفصل الثالث: توحيد الأسماء والصفات:

بعض القواعد الكلية فى باب الأسماء والصفات.

المقصود من بعض أسمائه تعالى: كالأول، والآخر، والحى، والقيوم.

المقصود من بعض صفاته تعالى: كصفة الكلام، والعلوّ، والعلم، والقدرة.

بيان فساد المذاهب الباطلة في هذا الباب: كالمشبهة، والمعطلة، والمعتزلة ..

تمهيد

التوحيد

التوحيد أول واجب على المكلف، وهو أول دعوة الرسل، وأول منازل الطريق، وأول مقام يقوم به السالك إلى الله عز وجل.

قال تعالى: ﴿ وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِيٓ إِلَيۡهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعۡبُدُونِ ﴾ [الأنبياء: ٢٥]،

وقال: ﴿ وَلَقَدۡ بَعَثۡنَا فِي كُلِّ أُمَّةٖ رَّسُولًا أَنِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ وَٱجۡتَنِبُواْ ٱلطَّٰغُوتَ ﴾ [النحل: ٣٦].

وقال النبي صلى الله عليه وسلم: ((أمرت أن أقاتل الناس حتى يشهدوا أن لا إله إلا الله، وأن محمداً رسول الله)) .[١]

ولهذا فإن أول واجب[٢] يجب على المكلف شهادة أن لا إله إلا الله.[٣]

فقد اتفق أئمة السلف على أن أول ما يؤمر به العبد: الشهادتان، وأن من فعل ذلك قبل البلوغ لم يؤمر بتجديد عقيب البلوغ.

- ### والتوحيد الذي دعت إليه الرسل نوعان:

- **توحيد الإثبات والمعرفة: وهو معرفة الله عز وجل بأسمائه وصفاته وأفعاله، كما أخبر به عن نفسه، وأخبر به عنه رسوله، وهو التوحيد العلمي والخبري، ويشمل توحيد الربوبية: وتوحيد الأسماء والصفات. وذلك مثل ما تضمنته سورة الإخلاص، وأول سور: الحديد، وآل عمران، والسجدة، وآخر سورة الحشر، وغير ذلك.**

- **توحيد القصد والطلب: وهو عبادة الله وحده، وخلع ما يُعبد من دونه، وهو التوحيد العملي**

---

[١] رواه البخاري،في كتاب الإيمان، باب الأمر بقتال الناس حتى يقولوا لا إله إلا الله محمد رسول الله. (انظر الفتح ج١٢ ص: ٨٨٢، شرح النووي ج١ ص: ٢٠١-٢١١)

[٢] الواجب هنا يمتد ليشمل: النطق بها، وفهمها، والعمل بمدلولها، واجتناب نواقضها.

[٣] كما جاء في البخاري من حديث معاذ حين أرسله النبي صلى الله عليه وسلم إلى اليمن: "فليكن أول ما تدعوهم إليه عبادة الله عز وجل". وفي هذا رد على ما ذهب إليه أهل الكلام المذموم من المعتزلة والأشاعرة، من أن أول واجب على المكلف هو النظر، أو مقدمات النظر، أو الشك. (انظر شرح الأصول الخمسة للقاضي المعتزلي عبد الجبار، والإنصاف للقاضي الأشعري الباقلاني، والإرشاد للجويني).

الإرادي، ويتمثل في توحيد الألوهية، وذلك مثل ما تضمنته سورة الكافرون، وأول سور: الأعراف، ويونس، والزمر، وجملة سورة الأنعام، وغيرها.

وبناء على ذلك فإننا سوف نتناول في الفصول الثلاثة التالية أقسام التوحيد على النحو التالي:

الفصل الأول: توحيد الربوبية.

الفصل الثاني: توحيد الإلهية.

الفصل الثالث: توحيد الأسماء والصفات.

الفصل الأول : توحيد الربوبية

الأهداف الخاصة

يتوقع منك عزيزي الدارس بعد دراستك لهذا الفصل أن تكون ملما بما يلي :

⋆ فطر القلوب على هذا التوحيد .

⋆ الميثاق الذي أخذه الله من آدم وذريته.

⋆ الخلاف في أول هذا العالم.

المبحث الأول: فطر القلوب علي هذا التوحيد

قال المصنف رحمه الله تعالى: نقول في توحيد الله، معتقدين بتوفيق الله: إن الله واحد لا شريك له.

توحيد الربوبية كالإقرار بأن الله خالق كل شيء، وأنه ليس للعالم صانعان متكافئان في الصفات والأفعال. وقد فُطرت القلوب على الإقرار بهذا التوحيد، ولم يذهب إلى نقيضه طائفة معروفة من بني آدم، حتى إن فرعون كان يستيقن به مع ما عرف عنه من تظاهره بإنكار الصانع. قال تعالى : ﴿ قَالَ لَقَدْ عَلِمْتَ مَآ أَنزَلَ هَٰٓؤُلَآءِ إِلَّا رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ بَصَآئِرَ ﴾ [الإسراء: ١٠٢]. **وقال تعالى- عنه وعن قومه:** ﴿ وَجَحَدُواْ بِهَا وَٱسْتَيْقَنَتْهَآ أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا ﴾ [النمل: ١٤]. **ولم يُعرف عن أحد من الطوائف المختلفة أنه أثبت للعالم صانعين متماثلين في الصفات والأفعال:**

فالثنوية من المجوس، والمانوية [١] القائلين بالأصلين: النور والظلمة، وأن العالم صدر عنهما متفقون على أن النور خير من الظلمة، وأنه الإله المحمود، فلم يثبتوا ربين متماثلين.

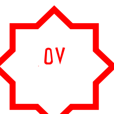
والنصارى مع قولهم بالتثليث لم يثبتوا ثلاثة أرباب منفصلة، بل اتفقوا على أن صانع العالم واحد، واضطربوا في فهم التثليث، فلا يكاد يتفق اثنان منهم على معنى واحد، فهم يقولون : واحد بالذات ثلاثة بالأقنوم! ويضطربون في تفسير الأقانيم، فتارة يفسرونها بالخواص، وتارة بالصفات، وتارة بالأشخاص. وبالجملة فهم لم يقولوا بإثبات خالقين متماثلين.

ومشركو الأمم السابقة كانوا يقرون بالصانع [٢]، وأنه ليس للعالم صانعان متماثلان، ولكنهم كانوا

---

[١] المانوية : نسبة إلى (ماني) الفارسي، كان في الأصل مجوسياً، فأحدث ديناً ودعا إليه، وزعم أن صانع العالم اثنان : أحدهما : فاعل الخير وهو نور، وثانيهما: فاعل الشر وهو ظلمة، وهما قديمان لم يزالا ولن يزالا، وهما مختلفان في النفس والصورة، متضادان في الفعل والتدبير، وقد ظهر في أيام (سابور بن أردشير)، وتبعه خلق عظيم من المجوس، وادعوا له النبوة، وما زال إلى أن قتل في زمان (سابور بن بهرام).

[٢] الأولى استخدام اسم "الخالق" بدلاً من لفظ "الصانع" إذ إن أسماء الله تعالى توقيفية، و"الصانع" ليس من أسمائه تعالى فهو من قبيل



يتخذون من آلهتهم شفعاء إلى الله. قال تعالى في قصة صالح عليه السلام : ﴿ قَالُوا۟ تَقَاسَمُوا۟ بِٱللَّهِ لَنُبَيِّتَنَّهُۥ وَأَهْلَهُۥ ﴾ الآية [النمل: ٤٩]، فهؤلاء المفسدون المشركون تحالفوا بالله على قتل نبيهم وأهله، وهذا يبين أنهم كانوا مؤمنين بالله إيمان المشركين.

فإذا عُلم أن هذا التوحيد قد فُطرت القلوب على الإقرار به، أعظم من كونها مفطورة على الإقرار بغيره من الموجودات، وأنه لم يذهب إلى نقيضه طائفة معروفة من بني آدم، وأنه قد يوجد مع الشرك في العبادة، فقد عُلم أن التوحيد المطلوب هو توحيد الإلهية الذي يتضمن توحيد الربوبية، فلو أقر رجل بتوحيد الربوبية، ولم يعبد الله وحده، ويتبرأ من عبادة ما سواه، كان مشركاً من جنس أمثاله من المشركين.

الشرك في بعض الربوبية ونقضه :

وإذا كان الناس لم يشركوا في الربوبية بالمعنى السابق ((إثبات متماثلين))، فقد ذهب بعض المشركين إلى أن ثمَّ خالقاً خلق بعض العالم، كما يقول الثنوية في الظلمة، والقدرية في أفعال الحيوان. فقد كان هؤلاء يثبتون أموراً محدثة بدون إحداث الله لها، فهم مشركون في بعض الربوبية. كذلك كان الحال عند كثير من مشركي العرب وغيرهم، فقد كانوا يظنون شيئاً من نفع أو ضر بدون أن يخلق الله ذلك.

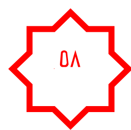
وقد بين القرآن الكريم بطلان ذلك : قال تعالى : ﴿ مَا ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ مِن وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُۥ مِنْ إِلَٰهٍ ۚ إِذًا لَّذَهَبَ كُلُّ إِلَٰهٍۭ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَا بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ﴾ [المؤمنون: ٩١].

فالإله الحق لابد أن يكون خالقاً فاعلاً، يوصل إلى عباده النفع، ويدفع عنهم الضر، فلو كان معه سبحانه وتعالى إله آخر، لكان له خلق وفعل، وحينئذٍ فلا يرضى الشركة، بل إن قدر قهر شريكه وتفرد بالملك، وإلا انفرد بخلقه وذهب به كما ينفرد ملوك الدنيا بعضهم عن بعض بملكه.

وإن انتظام أمر العالم ليدل على أن مدبره واحد، وإلهه واحد، لا إله غيره، ولا رب سواه، فلو كان له إلهان معبودان، لفسد نظامه كله.

فالآية الكريمة موافقة لما استقر في الفطر من توحيد الربوبية، دالة مثبتة مستلزمة لتوحيد الإلهية.

الخبر لا الإنشاء.



المبحث الثاني : الميثاق الذي أخذه الله من آدم وذريته

قال المصنف رحمه الله تعالى: والميثاق الذي أخذه الله تعالى من آدم وذريته حق.

قال تعالى : ﴿ وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنۢ بَنِىٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ ۖ قَالُوا۟ بَلَىٰ ۛ شَهِدْنَآ ۛ أَن تَقُولُوا۟ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَٰذَا غَٰفِلِينَ ﴿١٧٢﴾ أَوْ تَقُولُوٓا۟ إِنَّمَآ أَشْرَكَ ءَابَآؤُنَا مِن قَبْلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِّنۢ بَعْدِهِمْ ۖ أَفَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ ٱلْمُبْطِلُونَ ﴿١٧٣﴾ وَكَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ وَلَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴾

[الأعراف: ١٧٢- ١٧٤] أخبر الله عز وجل أنه استخرج ذرية بني آدم من أصلابهم، شاهدين على أنفسهم أن الله ربهم لا إله إلا هو.

معنى قوله: ﴿شَهِدْنَا ﴾ في الآية الكريمة :

أي قالوا : شهدنا أنك ربنا، وهذا قول ابن عباس وأبيّ بن كعب، وقال ابن عباس أيضاً: أشهد بعضهم على بعض. والرأي الأول هو الأظهر.

وقيل: ﴿ شَهِدْنَا ﴾ من قول الملائكة. والوقف على قوله: (بَلَىٰ). وهو قول مجاهد والضحاك والسديّ. وقال السدىّ أيضاً: هو خبر من الله عن نفسه وملائكته أنهم شهدوا على إقرار بني آدم.

بعض ما جاء في السنة متعلقاً بهذا الميثاق :

وردت أحاديث في أخذ الذرية من صلب آدم عليه السلام، وتمييزهم إلى أصحاب اليمين وأصحاب الشمال، وفي بعضها الإشهاد عليهم بأنه ربهم :

روى الإمام أحمد عن ابن عباس رضي الله عنهما عن النبى ﷺ قال: ((إن الله أخذ الميثاق من ظهر آدم عليه السلام بنعمان يوم عرفة، فأخرج من صلبه كل ذرية ذرأها، فنثرها بين يديه، ثم كلمهم

قبلاً، قال :﴿ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُواْ بَلَىٰ ﴾- إلى قوله- ﴿ٱلْمُبْطِلُونَ﴾)) [1].

وروى الإمام أحمد أيضاً عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه، أنه سئل عن هذه الآية، فقال : سمعت رسول الله ﷺ سئل عنها، فقال: ((إن الله خلق آدم عليه السلام ثم مسح ظهره بيمينه فاستخرج منه ذرية، قال: خلقت هؤلاء للجنة وبعمل أهل الجنة يعملون، ثم مسح ظهره فاستخرج منه ذرية، قال: خلقت هؤلاء للنار وبعمل أهل النار يعملون..)) الحديث[2].

وفي الصحيحين عن أنس بن مالك رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: ((يقال للرجل من أهل النار يوم القيامة : أرأيت لو كان لك ما على الأرض من شيء أكنت مفتدياً به ؟ قال : فيقول : نعم. قال : فيقول : قد أردت منك أهون من ذلك، قد أخذت عليك في ظهر آدم أن لا تشرك بي شيئاً، فأبيت إلا أن تشرك بي[3])).

فالآثار المروية في ذلك إنما تدل على القدر السابق، وبعضها يدل على أنه استخرج أمثالهم وصورهم، وميز أهل السعادة من أهل الشقاء، وأما الإشهاد عليهم هناك، فإنما في حديثين موقوفين على ابن عباس وابن عمر رضي الله عنهم[4].

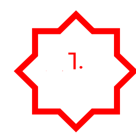
---

(1) س: تفسير سورة الأعراف، ح : ٢١١ . ط : القدر، ب ١، ح٢ . ك : ٥٤٤/٢ . حم : ٢٧٢/١ – كلهم عن ابن عباس . وهو حديث صحيح، راجع شرح المسند للشيخ أحمد شاكر ١٥١/٤، ح ٢٤٥٥ . ورواه النسائي أيضاً، وابن جرير، وابن أبي حاتم، والحاكم في المستدرك، وقال : صحيح الإسناد و لم يخرجاه . ومدار طرقه عند هؤلاء جميعاً على كلثوم بن جبير، وقد احتج به مسلم . انظر: ابن كثير ٥٠١/٣ . وصحح ابن كثير أنه موقوف على ابن عباس، فلا يعارض الأحاديث الصحيحة التي لم يذكر فيها الإشهاد . والله أعلم .

(2) د : السنة، ب١٧، ح٤٧٠٣ . ت: تفسير سورة الأعراف، ح٣٠٧٥ . س: تفسير سورة الأعراف، ح٢١٠ . ط: القدر، ب ١، ح ٢ . حب:١٤/٨، ح ٦١٣٣ . حم:٤٤/١ – كلهم عن عمر بن الخطاب، وقال الترمذي: حسن. وراجع شرح المسند للشيخ أحمد شاكر ٢٨٩/١، ح ٣١١.

(3) وهذا القول لأهون أهل النار عذاباً لا يفهم منه أنه مخلد في النار لمجرد مخالفته لحجة الميثاق فحسب، من دون قيام حجة الرسل عليه، وبخاصة أن أهون أهل النار عذاباً هو "أبو طالب" الذي أقام عليه النبي ﷺ الحجة بنفسه، فغيره ممن هو أشد منه عذاباً أولى أن تكون قد بلغته نذارة الرسل فقابلها بالجحود والعناد .

(4) الظاهر أن الأحاديث التي ذكرها الشارح والحكم عليها، منقولة من تفسير الحافظ ابن كثير.
انظر : (٥٠٠/٣-٥٠٦) . وقد سبق بيان أن حديث ابن عباس موقوف، وأما حديث ابن عمر، فهو منقطع في رواية أحمد، ضعيف في رواية غيره، فصّل ذلك ابن كثير (٥٠٣/٣-٥٠٤)، وفي كلامه ما لم يفطن له الأستاذ شعيب الأرناؤوط حيث حكم بأنه صحيح لغيره، وأما حديث أنس، فرواه البخارى ومسلم، لكن ليس فيه الإشهاد .



خلاف العلماء في المراد من الإشهاد في آية الميثاق :

اختلف العلماء في فهم هذه الآية :

فقال قوم: إن المراد بالإشهاد في هذه الآية، هو فطرتهم على التوحيد، فقام ذلك مقام الإشهاد عليهم، كما قال تعالى في السماوات والأرض: ﴿ قَالَتَا أَتَيْنَا طَآئِعِينَ ﴾ [فصلت:١١].

وقال آخرون: إنه إشهاد حقيقي مقالي، وإن الله أخرج الأرواح قبل خلق الأجساد، وجعل فيها من المعرفة ما علمت به من خاطبها. وعلى هذا يكون الناس قد تكلموا حينئذ، وأقروا بالإيمان، فتقوم بذلك عليهم الحجة يوم القيامة.

والراجح أن الآية الكريمة لا تدل على هذا الرأي الأخير، وذلك من عدة أوجه:

فقد قال تعالى: ﴿ مِنۢ بَنِيٓ ءَادَمَ ﴾،ولم يقل:(من آدم)، وقال: ﴿مِن ظُهُورِهِمۡ ﴾ ولم يقل : (من ظهره)، وقال : (ذرياتهم)، ولم يقل : (ذريته).

ولأن الله عز وجل ذكر الحكمة من هذا الإشهاد، وهي : لئلا يَدَّعوا الغفلة، أو يَدَّعوا التقليد، ولا تترتب هاتان الحكمتان إلا على ما قامت به الحجة من الرسل والفطرة، أما هذا الإشهاد، فإن الناس غافلون عنه، ولا يذكره أحد منهم، فلا تقوم به حجة.

ومن ناحية أخرى، فإن الله عز وجل جعل ذلك من آياته، والآية هي الدلالة الواضحة البينة المستلزمة لمدلولها، وإنما ذلك بالفطرة التي فطر الناس عليها.

من أجل ذلك مال كثير من العلماء إلى تفسير الإشهاد في هذه الآية بالفطر على التوحيد

الفرق بين تقليد الآباء في العادات الدينية، والدنيوية :

ولاشك أن الإقرار بالربوبية: أمر فطري، والشرك: حادث طارئ، فإذا احتج الناس يوم القيامة بأن آباءهم كانوا مشركين، وأنهم قلدوهم في ذلك،كما قلدوهم في عاداتهم الدنيوية من المطاعم والملابس، قيل لهم: لقد كنتم معترفين بالصانع، وقد شهدتم بذلك على أنفسكم، أي: أقررتم به، فلِمَ عدلتم عما أقررتم به على أنفسكم-وهو العلم المتيقن-إلى ما لا تعلم له حقيقة-وهو الشرك-تقليداً لمن لا حجة معه؟

أما تقليدهم في العادات الدنيوية: فلم يكن عندهم ما يعلم به فسادها، بخلاف الشرك، فقد كان

عندهم من المعرفة ما يبين فساده. فالصبي يأخذ عن أبويه دين التربية والعادة، وهذا لا يعاقبه الله عليه – على الصحيح- فإذا بلغ وعقل، وقامت عليه الحجة، فعليه أن يتبع دين العلم والعقل، وهو الذي يعلم بعقله أنه صحيح، وإن كان مخالفاً لما عليه آباؤه قال تعالى :

﴿ وَإِن جَٰهَدَاكَ عَلَىٰٓ أَن تُشْرِكَ بِى مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا ﴾ [لقمان: ١٥]. فمن اتبع دين آبائه بغير بصيرة ولا علم، كان ممن اتبع هواه. قال تعالى : ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱتَّبِعُوا۟ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ قَالُوا۟ بَلْ نَتَّبِعُ مَآ أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَآ ۗ أَوَلَوْ كَانَ ءَابَآؤُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ شَيْـًٔا وَلَا يَهْتَدُونَ ﴾ [البقرة : ١٧٠]

وهذا حال كثير ممن ولدوا على الإسلام، يتبع أحدهم أباه في اعتقاده ومذهبه، وإن كان خطأً. فهو من مسلمة الدار لا من مسلمة الاختيار، وهذا إذا قيل له في قبره: مَن ربك ؟ قال : هاه لا أدري ! سمعت الناس يقولون شيئاً فقلته ! فليحذر الإنسان لنفسه وكل امرئ حسيب نفسه !

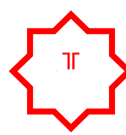
هو الخالق الرازق.

قال المصنف رحمه الله تعالى : خالق بلا حاجة، رازق بلا مؤنة.

قال تعالى : ﴿ وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ۝٥٦ مَآ أُرِيدُ مِنْهُم مِّن رِّزْقٍ وَمَآ أُرِيدُ أَن يُطْعِمُونِ ۝٥٧ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلرَّزَّاقُ ذُو ٱلْقُوَّةِ ٱلْمَتِينُ ﴾ [الذاريات: ٥٦- ٥٨].

وروى الإمام مسلم عن أبي ذر رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال فيما يرويه عن ربه: ((يا عبادي لو أن أولكم وآخركم، وإنسكم وجنكم، قاموا في صعيد واحد، فسألوني، فأعطيت كل إنسان مسألته، ما نقص ذلك مما عندي إلا كما ينقص المخيط إذا دخل في البحر)).

وقوله : (بلا مؤنة) أى : بلا ثقل ولاكلفة.



المبحث الثالث: الخلاف في أول هذا العالم وتقدير الأقدار

قال المصنف رحمه الله تعالى : خلق الخلق بعلمه، وقدّر لهم أقداراً.

قال تعالى : ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ وَكَانَ عَرْشُهُۥ عَلَى ٱلْمَآءِ ﴾

[هود : ٧].

وروى البخاري وغيره عن عمران بن حصين قال : قال أهل اليمن للنبي صلى الله عليه وسلم: جئناك لنتفقه في الدين، ولنسألك عن أول هذا الأمر، فقال: ((كان الله ولم يكن شيء قبله -وفي رواية- ولم يكن شيء معه -وفي رواية- غيره، وكان عرشه على الماء، وكتب في الذكر كل شيء، وخلق السماوات والأرض، وفي لفظ : ثم خلق السماوات والأرض))[(١)].

اختلف الناس في فهم هذا الحديث على قولين:

أحدهما: كان الله موجوداً وحده، ولم يزل كذلك دائماً، ابتدأ إحداث جميع الحوادث، فصار فاعلاً بعد أن لم يكن يفعل شيئاً.

الثاني: المراد إخباره عن مبدأ خلق هذا العالم المشهود، الذي خلقه في ستة أيام ثم استوى على العرش، وهذا هو الصحيح.

ودليل هذا الرأي الثاني من وجوه:

- أن قول أهل اليمن: جئناك لنسألك عن أول هذا الأمر، هو إشارة إلى حاضر مشهود موجود، فأجابهم صلى الله عليه وسلم عن ذلك.

- أن الله لم يخبرهم عن خلق العرش، وهو مخلوق قبل السماوات والأرض.

- أن الله قد ذكر السماوات والأرض بما يدل على خلقها، وذكر ما قبلها بما يدل على كونه ووجوده، ولم يتعرض لابتداء خلقه، فلا يجوز أن يظن أن معناه: الإخبار بتعطيل الرب دائماً عن الفعل حتى خلق السماوات والأرض. بل لا يصح أن يكون معناه أنه تعالى كان موجوداً وحده لا خلق

---

(١) كتاب بدء الخلق : (٢٨٦/٦)، وكتاب التوحيد : (٤٠٣/١٣)، وانظر الهامش الآتي .

معه أصلاً، بدلالة قوله : ((وكان عرشه على الماء))، فعلم أن المراد لم يكن معه شيء من العالم المشهود.

- أنه قال : ((كان الله ولم يكن شيء قبله))، وقد روي : ((معه))، وروي: ((غيره)). والمجلس كان واحداً، فعلم أنه قال أحد الألفاظ، والآخران رويا بالمعنى[1]. ولفظ : (قبل) قد ثبت في غير هذا الحديث، كما عند مسلم من حديث أبي هريرة أنه ﷺ كان يقول في دعائه : ((اللهم أنت الأول فليس قبلك شيء))[2]. ولم يثبت أي من اللفظين الآخرين في موضع آخر، فعلم أنه ليس في هذا الحديث - على هذا اللفظ الراجح- تعرض لابتداء الحوادث، ولا لأول مخلوق.

- أنه قال ﷺ : ((كان الله ولم يكن شيء قبله،)) أو: ((معه)) أو: ((غيره))، وكان عرشه على الماء، وكتب في الذكر كل شيء)). فأخبر عن هذه الثلاثة بالواو، ((وخلق السماوات والأرض))، روي بالواو، وبثم، فظهر أن مقصوده إخبارهم ببدء خلق السماوات والأرض وما بينهما، لا ابتداء خلق ما خلقه الله قبل ذلك[3].

تقدير الأقدار .

قال المصنف رحمه الله تعالى : وقدّر لهم أقداراً.

قال تعالى: ﴿ إِنَّا كُلَّ شَيۡءٍ خَلَقۡنَٰهُ بِقَدَرٖ ﴾ (القمر: ٤٩).

وفي صحيح مسلم من رواية عبد الله بن عمرو رضى الله عنه، قال صلى الله عليه وسلم: ((قدَّر الله مقادير الخلائق قبل أن يخلق السماوات والأرض بخمسين ألف سنة، وكان عرشه على الماء))[4].

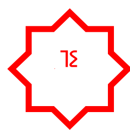
---

(١) رواية : "غيره"، في كتاب بدء الخلق، ورواية : "قبله" في كتاب التوحيد، أما رواية : "معه" فقد ذكر الحافظ ابن حجر أنها رواية غير البخاري: (٦/٢٨٩) و لم يـبينه . ولا أدري على أى شيء اعتمد الأستاذ الأرناؤوط في نفي ورودها مطلقاً . ولعله لم يطلع على كلام الحافظ، ولا أرى التسرع بتوهيم شيخ الإسلام ابن تيمية في قوله : إنها في البخاري، فكم من مواضع في البخاري خفيت على بعض الحفاظ لا سيما مع اختلاف النسخ .

(٢) رقم : ٢٧١٣.

(٣) تفصيل هذا الموضوع في : (شرح حديث عمران بن حصين) لشيخ الإسلام ابن تيمية، وهى رسالة مطبوعة في مجموعة الرسائل والمسائل ج ٥، ومجموع الفتاوى ج٢١ /١٨ فما بعدها، ويلاحظ أن معظم كلام شارح الطحاوية منقول منها.

(٤) رقم : ٢٦٥٣.



أسئلة التقويم الذاتي

س١: أهل الشرك متفقون على الإقرار ببعض صفات الربوبية من جانب، ولكنهم يشركون فى بعضها من جانب آخر. وضح ذلك مع ضرب الأمثلة على الجانبين؟

س٢: ما المراد بالميثاق الذى أخذه الله عز وجل من بني آدم ؟ وهل هو حجة عليهم يوم القيامة ؟ دلل على ما تقول .

س٣ : آية الميثاق أبطلت حجة المشركين في أنهم تقلدوا شركهم من آبائهم، وضح ذلك على ضوء تفسير هذه الآية ؟

س٤: هل يصح قياس تقليد الآباء في العادات الدينية الفاسدة على تقليدهم فى العادات الدنيوية ؟ وما الفرق بين تقليدهم فى الحالتين ؟

س٥: ما الرأى الراجح في المراد من حديث النبي صلى الله عليه وسلم : ((كان الله، ولم يكن شىء قبله)) ؟ اذكر أدلة صحة هذا الرأي .

الفصل الثاني توحيد الإلهية

الأهداف الخاصة

يتوقع منك عزيزى الدارس بعد دراستك لهذا الفصل أن تكون ملماً بما يلي:

١ - توحيد الإلهية هو مقصد دعوة الرسل.

٢ - الدعاء وأثره فى جلب المنافع ودفع المضار.

٣ - حكم الاستشفاع بالنبى ﷺ.

٤ - أحكام الكهانة ، والسحر ، والتنجيم.

٥ - الولاية ومراتبها.

٦ - المعجزة والكرامة.

٧ - المفاضلة بين الأنبياء والأولياء.

٨ - دور العقل مع النقل ، وفساد منهج المتكلمين.

٩ - حجية أخبار الآحاد.

المبحث الأول : التوحيد الذي دعت اليه الرسل

قال المصنف رحمه الله تعالى: ولا إله غيره.

هذه كلمة التوحيد التي دعت إليها الرسل كلهم. وإثبات التوحيد بهذه الكلمة باعتبار النفي والإثبات المقتضي للحصر، فإن الإثبات المجرد قد يتطرق إليه الاحتمال، ولهذا لما قال تعالى:﴿ وَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ ﴾ [البقرة: ١٦٣]، قال بعده ﴿ لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلرَّحۡمَٰنُ ٱلرَّحِيمُ ﴾ [البقرة: ١٦٣]. فإنه قد يخطر ببال أحد هذا الخاطر الشيطاني: هب أن إلهنا واحد فلغيرنا إله غيره، فقال: ﴿ لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلرَّحۡمَٰنُ ٱلرَّحِيمُ﴾

توحيد الربوبية مستلزم لتوحيد الإلهية:

والقرآن مملوء من تقرير هذا التوحيد، فهو يـبين أنه لا خالق إلا الله، وأن ذلك مستلزم ألا يعبد إلا الله، فيجعل من توحيد الربوبية دليلاً على توحيد الإلهية، إذ كانوا يسلّمون بالأول وينازعون في الثاني.
قال تعالى: ﴿ قُلِ ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ وَسَلَٰمٌ عَلَىٰ عِبَادِهِ ٱلَّذِينَ ٱصۡطَفَىٰٓۗ ءَآللَّهُ خَيۡرٌ أَمَّا يُشۡرِكُونَ ۝٥٩ أَمَّنۡ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَنۢبَتۡنَا بِهِۦ حَدَآئِقَ ذَاتَ بَهۡجَةٍ مَّا كَانَ لَكُمۡ أَن تُنۢبِتُواْ شَجَرَهَآۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِۚ بَلۡ هُمۡ قَوۡمٌ يَعۡدِلُونَ ﴾ [النمل:٥٩-٦٠].

فهذا استفهام إنكار، فقد كانوا مقرين أنه لم يفعل ذلك غير الله، فاحتج عليهم بذلك، أي: إنَّ من خلق هو الذي يستحق أن يكون إلهاً، وأن يتوجه إليه وحده بالعبادة. ونفس المعنى أيضاً في قوله تعالى:

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعۡبُدُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِي خَلَقَكُمۡ وَٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَتَّقُونَ ﴾ [البقرة: ٢١].

توحيد الإلهية متضمن لتوحيد الربوبية:

وتوحيد الإلهية متضمن لتوحيد الربوبية، دون العكس، فمن لا يقدر على الخلق، يكون عاجزاً، والعاجز لا يصلح أن يكون إلهاً. قال تعالى:﴿ أَيُشۡرِكُونَ مَا لَا يَخۡلُقُ شَيۡـًٔا وَهُمۡ يُخۡلَقُونَ ﴾ [الأعراف: ١٩١]، فالإقرار

بأن الله وحده هو الذي يستحق أن يعبد، يتضمن الإقرار بأنه وحده الخالق والمحي والمميت.

أما توحيد الربوبية، فلا يتضمن توحيد الإلهية[1] لأنه قد يقر بأن الله هو الخالق وحده، والمدبر وحده، ثم يعبد من دونه آلهة يزعم أنها تقربه إليه.

وقد شهد الله لنفسه بهذا التوحيد، وشهدت له به ملائكته وأنبياؤه ورسله.

قال تعالى: ﴿ شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَأُو۟لُوا۟ ٱلْعِلْمِ قَآئِمًۢا بِٱلْقِسْطِ ۚ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴾ [آل عمران: ١٨].

مراتب الشهادة:

والشهادة لها أربع مراتب:

(١)مرتبة العلم: وإلا كان الشاهد شاهداً بما لا علم له به. قال تعالى: ﴿ إِلا مَن شَهِدَ بِٱلْحَقِّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴾ [الزخرف: ٨٦]. وقال صلى الله عليه وسلم وقد أشار إلى الشمس: ((على مثلها فاشهد))[2].

(٢)مرتبة التكلم والخبر: قال تعالى: ﴿ وَجَعَلُوا۟ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ ٱلَّذِينَ هُمْ عِبَٰدُ ٱلرَّحْمَٰنِ إِنَٰثًا ۚ أَشَهِدُوا۟ خَلْقَهُمْ ۚ سَتُكْتَبُ شَهَٰدَتُهُمْ وَيُسْـَٔلُونَ ﴾ [الزخرف: ١٩]. فجعل ذلك منهم شهادة وإن لم يتلفظوا بها، ولم يؤدوها عند غيرهم.

(٣)مرتبة الإعلام والإخبار، وهو نوعان:

(أ) إعلام بالقول.

(ب) إعلام بالفعل: فمن جعل داره مسجداً، وفتح بابها، فقد أعلم أنها وقف، وإن لم يتلفظ به، ومن تودد إلى غيره بأنواع المسار، فقد أعلم بأنه يحبه وإن لم يتلفظ بذلك، ومما يدل على أن الشهادة قد

---

[1] قال الشيخ محمد بن عبد الوهاب: فاعلم أن الربوبية و الألوهية يجتمعان ويفترقان، **فعند الإفراد يجتمعان** كما في قول الملكين للرجل في القبر: من ربك ؟ معناه: من إلهك، لأن الربوبية التي أقر بها المشركون لايمتحن بها أحد في قبره، وكذلك قوله تعالى: **﴿إن الذين قالوا ربنا الله ثم استقاموا ﴾** فالربوبية في هذا هي الألوهية ليست قسيمة لها كما تكون **قسيمة لها عند الاقتران،** فينبغي التفطن لهذه المسألة.

[2] قال الحافظ في بلوغ المرام في باب الشهادات ح ١٢٠٦: أخرجه ابن عدى بإسناد ضعيف، وصححه الحاكم فأخطأ.

تكون بالفعل، قوله تعالى: ﴿ مَا كَانَ لِلْمُشْرِكِينَ أَن يَعْمُرُوا مَسَاجِدَ اللَّهِ شَاهِدِينَ عَلَىٰ أَنفُسِهِم بِالْكُفْرِ ﴾ [التوبة: ١٧]. وشهادة الله عز وجل بالتوحيد إما بالقول، وهو ما أرسل به رسله، وأنزل به كتبه. وإما بالفعل، وذلك من خلال تدبيره العجيب، وآياته المبثوثة في الكون.

(٤)مرتبة الأمر والإلزام: ومجرد الشهادة لا يستلزم ذلك، ولكن الشهادة في هذا الموضع تدل عليه وتتضمنه. فقد شهد به شهادة من قضى بذلك وألزم به عباده. قال تعالى:

﴿ وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا ﴾ [الإسراء: ٢٣].

وقال تعالى: ﴿ وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ ﴾ [البينة: ٥].

طرق بيان الشهادة:

بيَّن الله هذه الشهادة للناس بطرق ثلاثة: السمع، والبصر، والعقل.

- فبالسمع يسمع آيات الله المتلوة، المثبتة لصفات كماله وجلاله تعالى.

- وبالعين يبصر آيات الله، المبثوثة أمامه.

- ويجمع العقل بين هذه وتلك، فيشهد بصحة ما جاءت به الرسل، فتتفق شهادة هذه الأدوات جميعاً.

ومن تمام رحمة الله وعدله، أنه لم يبعث نبياً إلا ومعه آية تدل على صدقه. قال تعالى: ﴿ لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ ﴾ [الحديد: ٢٥]. ومن أسمائه تعالى: المؤمن، وهو المصدق الذي يصدق الصادقين بما يقيم لهم من شواهد صدقهم. كما قال تعالى:

﴿ سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ ﴾ [فصلت: ٥٣]. فقد وعد بأن يري العباد من آياته الفعلية والخلقية ما يشهد بحقية القرآن، وهذا استدلال بأفعاله ومخلوقاته. ثم قال

﴿ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴾[فصلت: ٥٣] أي: مطلع على كل شيء. وهذا استدلال بأسمائه وصفاته.

الاستدلال بأسماء الله وصفاته:

فإن قيل: كيف يستدل بأسمائه وصفاته وهو غير معهود في الاصطلاح؟

فالجواب: أن الله قد أودع في الفطرة النقية أنه سبحانه الكامل في أسمائه وصفاته، ومن كماله المقدس شهادته على كل شيء، ومَن هذا شأنه لا يليق بالعباد أن يشركوا به، ولا يليق بكماله أن يقر من يكذب عليه أعظم الكذب، ثم ينصره على ذلك مع كذبه وافترائه، ولاشك أن شهادة الله على كل شيء وقدرته وحكمته، وكماله المقدس، يأبى ذلك.

وهذه طريقة الخواص في الاستدلال حيث يستدلون بالله على أفعاله، وما يليق به أن يفعله أو لا يفعله. قال تعالى: ﴿ وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ ٱلْأَقَاوِيلِ ﴿٤٤﴾ لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِٱلْيَمِينِ ﴿٤٥﴾ ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ ٱلْوَتِينَ ﴿٤٦﴾ فَمَا مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَـٰجِزِينَ ﴾ [الحاقة: ٤٤-٤٧]. وأما طريقة الجمهور فهي الاستدلال بالآيات الشاهدة، لاتساعها وسهولة تناولها.

بطلان تقسيم التوحيد إلى: توحيد عامة، وخاصة، وخاصة الخاصة:

وإذا كان توحيد الإلهية هو التوحيد الذي أرسلت به الرسل وأنزلت به الكتب فلا التفات إلى من قسم التوحيد إلى ثلاثة أقسام:

فجعل هذا النوع: توحيد العامة.

والنوع الثاني: توحيد الخاصة. وهو الذي يثبت بالحقائق.

والنوع الثالث: توحيداً قائماً بالقدم. وهو توحيد خاصة الخاصة.

لأن ذلك ينتهي بأصحابه إلى الفناء الذي يسير إليه غالب الصوفية، وهو درب خطر يفضي إلى الاتحاد، فضلاً عن كونه لا دليل عليه من كتاب ولا سنة، ولا كلام أحد من محققي الأئمة.

فلا توحيد أكمل من الذي قامت به الرسل ودعوا إليه، وجاهدوا الأمم عليه، فهم أكمل الخلق إيماناً وتوحيداً؛ لأنهم قاموا في التوحيد بما لم يقم به غيرهم علماً، ومعرفة، ودعوة للخلق، وتضحية، ومعاناة، من أجل إظهار التوحيد، وإبطال عبادة الطواغيت.

المبحث الثاني : الدعاء وأثره في جلب المنافع ودفع المضار

قال المصنف رحمه الله تعالى: والله تعالى يستجيب الدعوات، ويقضي الحاجات.

الذي عليه أكثر الخلق من المسلمين وغيرهم أن الدعاء من أقوى الأسباب في جلب المنافع، ودفع المضار. قال تعالى: ﴿ وَقَالَ رَبُّكُمُ ٱدْعُونِيٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْ ﴾ [غافر: ٦٠]. وقال تعالى: ﴿ وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌۖ أُجِيبُ دَعْوَةَ ٱلدَّاعِ إِذَا دَعَانِ ﴾ [البقرة: ١٨٦]. وقد أخبر الله عن الإنسان، أنه إذا مسه الضر دعاه لجنبه أو قاعداً أو قائماً، وأخبر عن الكفار أنهم إذا مسهم الضر في البحر، دعوا الله مخلصين له الدين.

وإجابة الله لدعاء العبد، مسلماً كان أو كافراً، من جنس رزقه لهم، وهو مما توجبه الربوبية للعبد مطلقاً، ثم قد يكون ذلك فتنة في حقه إذ كان كفره وفسوقه يقتضي ذلك.

وذهب قوم من المتفلسفة وغالية المتصوفة، إلى أن الدعاء لا فائدة فيه؛ لأن المشيئة إذا كانت قد اقتضت وجود المطلوب فلا حاجة إلى الدعاء، وإن لم تقتضيه فلا فائدة في الدعاء!

وقولهم هذا معلوم الفساد بضرورة العقل والشرع. والجواب عنه: أنه ثمَّ قسمٌ ثالث، وهو أن تقتضيه بشرط لا تقتضيه مع عدمه، وقد يكون الدعاء من شرطه،كما توجب الثواب مع العمل الصالح ولا توجبه مع عدمه، وكما توجب الشبع والرِّى عند الأكل والشرب، ولا توجبه مع عدمهما، فإذا قدر وقوع المدعو به بالدعاء، لم يصح أن يقال لا فائدة في الدعاء،كما لا يقال لا فائدة في الأكل والشرب وسائر الأسباب.

وكذلك قولهم: إن اقتضت المشيئة المطلوب فلا حاجة إلى الدعاء. يرد عليه بأنه قد تكون إليه حاجة من تحصيل مصلحة أخرى عاجلة أو آجلة، أو دفع مضرة أخرى عاجلة أو آجلة، بل لو لم يكن فيه إلا افتقار العبد إلى ربه، ولجوئه إليه، لكفى.

إذا كان إعطاء الله معللاً بفعل العبد، فهل يكون السائل قد أثَّر في المسئول حتى أعطاه؟

الجواب: إن الله هو الذي حرك العبد إلى هذا الدعاء، وجعله سبباً للخير الذي يعطيه إياه، فكما وفق إلى التوبة، ثم قبلها، ووفق للعمل الصالح، ثم أثابه عليه- فهو الذي وفق للدعاء ثم أجابه. فلم يؤثر فيه شيء من المخلوقات- بل هو جعل ما يفعله سبباً لما يفعله.

قال عمر: إني لا أحمل هم الإجابة، وإنما أحمل هم الدعاء.

وقال مطرف بن عبد الله: نظرت في هذا الأمر، فوجدت مبدأه من الله، وتمامه على الله، ووجدت مِلاك ذلك الدعاء.

وقال تعالى: ﴿ يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ إِلَى ٱلْأَرْضِ ثُمَّ يَعْرُجُ إِلَيْهِ ﴾ الآية [السجدة: ٥]. فأخبر سبحانه أنه يبتدئ بتدبير الأمر، ثم يصعد إليه الأمر الذي دبره.

الذي يسأل الله فلا يُعطَى، أو يُعطَى غير ما سأل!

هذه مسألة معروفة، وقد أجيب عنها بعدة أجوبة منها:

إن النصوص لم تتضمن عطية السائل مطلقاً، وإنما تضمنت إجابة الداعي، وإجابة الداعي أعم، ولهذا قال صلى الله عليه وسلم: ((ينـزل ربنا كل ليلة إلى السماء الدنيا، فيقول من يدعوني فأستجيب له؟ من يسألني فأعطيه؟))[١]. ففرق بين الداعي والسائل، وبين الإجابة والإعطاء.

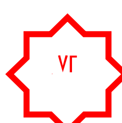
فالدعاء: منه دعاء عبادة، ومنه دعاء مسألة، لأنه اسم يجمع بين العبادة والاستعانة.

إن إجابة دعاء السائل أعم من إعطاء المسئول، كما فسره النبي صلى الله عليه وسلم في ما رواه مسلم في صحيحه أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: ((ما من رجل يدعو الله بدعوة ليس فيها إثم ولا قطيعة رحم، إلا أعطاه بها إحدى ثلاث خصال: إما أن يعجل دعوته، أو يدخر له من الخير مثلها، أو يصرف عنه من الشر مثلها))، قالوا: يا رسول الله إذاً نكثر، قال: ((الله أكثر)).[٢] فأخبر أنه لابد في الدعوة الخالية عن العدوان من إعطاء السؤال معجلاً، أو مثله من الخير مؤجلاً، أو يصرف عنه من السوء مثله.

إن الدعاء سبب مقتض لنيل المطلوب، والسبب له شروط وموانع، فإذا حصلت شروطه وانتفت

(١) خ: التهجد، ب ١٤، ح ١٠٩٤، والدعوات، ب ١٢، ح ٥٦٦٦، والتوحيد، ب٣٥، ح ٧٠٥٦. م: المسافرين، ب٢٤، ح١٦٨- ١٧١. د: الصلاة، ب ٣١١، ح٣١٥، والسنة، ب ٢١، ح ٤٧٣٣. ت: الصلاة، ب٣٢٩، ح ٤٤٦، والدعوات، ب ٧٩، ح ٣٤٩٨. ق: الإقامة، ب١٨٢، ح ١٣٦٦. م: الصلاة، ب١٦٨، ح ٤٨٧ ١. حم: ٢/٢٦٤- كلهم عن أبي هريرة.

(٢) م: الذكر، ب ٢٥، ح ٩٢ عن أبي هريرة بغير هذا اللفظ، حم: ٣/١٨- عن أبي سعيد الخدرى.



موانعه حصل المطلوب.

فالأدعية والتعوذات والرقى بمنزلة السلاح، والسلاح بضاربه لا بحده فقط، فمتى كان السلاح سلاحاً تاما، والساعد قويا، والمحل قابلاً، والمانع مفقوداً: حصلت النكاية في العدو، ومتى تخلف واحد من هذه الثلاثة تخلف التأثر. فإذا كان الدعاء في نفسه غير صالح، أو الداعي لم يجمع بين قلبه ولسانه في الدعاء، أو كان ثمَّ مانع من الإجابة: لم يحصل الأثر.

الأخذ بالأسباب:

الالتفات إلى الأسباب شرك في التوحيد: والالتفات إلى السبب، بمعنى: اعتماد القلب عليه، ورجائه، والاستناد إليه: شرك في التوحيد. فليس هناك سبب مستقل، بل لابد له من شركاء وأضداد، ومع هذا فإن لم يُسَخِّره مسبب الأسباب،لم يُسَخر.

والإعراض عن الأسباب قدح في الشرع: فكما أن الالتفات إلى الأسباب شرك في التوحيد، فإن الإعراض عنها بالكلية قدح في الشرع.

ومحو الأسباب أن تكون أسباب نقص في العقل: لأن المطلوب لا ينال إلا بمراعاة أسبابه التي تؤدي إليه، وذلك معلوم بداهة بالضرورة.

ومعنى التوكل والرجاء يتألف من وجوب التوحيد، والعقل، والشرع.

المبحث الثالث : الإستشفاع بالنبي صلى الله عليه وسلم

الاستشفاع بالنبي صلى الله عليه وسلم، وغيره، في الدنيا، إلى الله تعالى في الدعاء على تفصيل:

التوسل المحذور:

فإن قال الداعي: بحق فلان. يقسم على الله بأحد من مخلوقاته، فهذا محذور من وجهين

الأول: أنه أقسم بغير الله، وهذا لا يجوز، لأن الإقسام بالمخلوق على المخلوق لا يجوز فكيف بالإقسام به على الخالق؟

قال صلى الله عليه وسلم: ((من حلف بغير الله فقد أشرك)).[1]

الثاني: اعتقاده أن لأحد على الله حقا، وليس لأحد على الله حق إلا ما أحقه الله على نفسه، كقوله تعالى: ﴿ وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ [الروم:٤٧]. كقوله صلى الله عليه وسلم لمعاذ في الصحيحين:

((أتدري ما حق الله على عباده؟)) قلت: الله ورسوله أعلم. قال: ((حقه عليهم أن يعبدوه ولا يشركوا به شيئاً، أتدري ما حق العباد على الله، إذا فعلوا ذلك؟)) قلت: الله ورسوله أعلم. قال: ((حقهم عليه ألا يعذبهم)).

فهذا حق وجب بكلماته التامة ووعده الصادق.

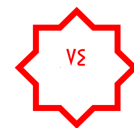
وأما ما روي في المسند عن أبي سعيد عن النبي صلى الله عليه وسلم في قول الماشي إلى الصلاة: ((أسألك بحق ممشاي هذا وبحق السائلين عليك)) [2]، فإن الله عز وجل هو الذي أحق للسائلين أن يجيبهم وللعابدين أن يثيبهم.

الفرق بين قول الداعي: بحق السائلين عليك، وبين قوله بحق النبي صلى الله عليه وسلم:

---

(١) د: الأيمان، ب ٥، ح ٣٢٥١. ت: الأيمان، ب ٨، ح ١٥٣٥. حم: ٢/٢٥ -١ كلهم عن ابن عمر، وقال الترمذي: حسن.

(٢) ق: المساجد، ب ٤ ١، ح ٧٧٨. حم: ٣/٢١ ، الألباني في الموضوعة ١/٣٤، ح ٢٤، كلهم عن أبي سعيد، وهو حديث ضعيف لا يليق الاحتجاج به.



إن معنى قوله الأول: أنت وعدت السائلين بالإجابة، وأنا من جملتهم فأجب دعائي، وأما الثاني: فلا مناسبة بين قوله بحق فلان، وإجابة دعاء هذا السائل، فكأنه يقول: لكون فلان من عبادك الصالحين فأجب دعائي، ولا مناسبة في هذا ولا ملازمة، بل هو من الاعتداء في الدعاء، فضلاً عن أنه لم ينقل مثل ذلك عن رسول الله صلى الله عليه وسلم، ولا عن أحد من السلف الصالح، وإنما يوجد مثله في الحروز والهياكل التي يكتبها الجهال والطرقية. ولهذا كره أبو حنيفة وصاحباه، قول الداعي: أسألك بحق فلان، أو بحق أنبيائك ورسلك، وحق البيت الحرام، والمشعر الحرام، ونحو ذلك. بل كره أبو حنيفة ومحمد، قول الداعي: أسألك بمعقد العز من عرشك، ولم يكرهه أبو يوسف لما بلغه الأثر فيه.

وتارة يقول: بجاه فلان، ويقول نتوسل إليك بأنبيائك ورسلك، ومراده: لأن هؤلاء ذوو وجاهة عندك وشرف، فأجب دعاءنا. وهذا أيضا محذور، لأنه لو كان هذا هو التوسل الذي كان يفعله الصحابة في حياته صلى الله عليه وسلم لفعلوه بعد موته، وإنما كانوا يتوسلون في حياته بدعائه صلى الله عليه وسلم، يطلبون منه الدعاء وهم يؤمِّنون،كما في الاستسقاء وغيره، فلما مات صلى الله عليه وسلم، قال عمر- لما خرجوا يستسقون-: اللهم إنا كنا إذا أجدبنا نتوسل إليك بنبينا فتسقينا، وإنا نتوسل إليك بعم نبينا. يعني: بدعائه، وليس المراد: إننا نقسم عليك به، أو نسألك بجاهه عندك، إذ لو كان ذلك مراداً، لكان جاهه صلى الله عليه وسلم أعظم من جاه العباس.

التوسل المشروع:

وتارة يقول: باتباعي لرسولك، ومحبتي له، وإيماني به، فهذا من أحسن ما يكون من الدعاء والتوسل والاستشفاع. فلفظ التوسل بالشخص فيه إجمال:

فإن أريد التسبب به لكونه داعياً وشافعاً- وذلك إنما يكون في حياته- أو يكون الداعي محباً ومتبعاً له فذلك حسن مشروع.

وإن أريد الإقسام به، أو التوسل بذاته فذلك مكروه ممنوع. وكذلك السؤال بالشيء :

إن قصد به التسبب به لكونه سبباً، كدعاء الثلاثة الذين سدت عليهم الصخرة باب الغار، بصالح أعمالهم، فانفرجت عنهم، فذلك حسن مشروع، لأن الأعمال الصالحة هى أعظم ما يتوسل به العبد إلى ربه.

وإن أريد به الإقسام به، فذلك هو المنهي عنه.

الفرق بين الشفاعة عند الله وبين الشفاعة عند البشر:

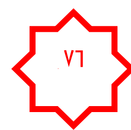
والحاصل أن الشفاعة عند الله ليست كالشفاعة عند البشر. فالشفيع عند البشر قد شفع الطالب في طلبه، فأصبح به شفعا بعد أن كان وترا، وشفع المطلوب منه؛ لأن بشفاعته قد صار فاعلا للمطلوب. والله عز وجل وتر لا يشفعه أحد، فلا يشفع عنده أحد إلا بإذنه، فسيد الشفعاء يوم القيامة عندما يسجد بين يدي الله يوم القيامة، ويسأله الشفاعة، يحد الله له حدا، فيدخلهم الجنة،[1] فالأمر كله لله.

قال تعالى: ﴿ قُلۡ إِنَّ ٱلۡأَمۡرَ كُلَّهُۥ لِلَّهِ ﴾ [آل عمران: ١٥٤]. **وقال تعالى:** ﴿ لَيۡسَ لَكَ مِنَ ٱلۡأَمۡرِ شَيۡءٌ ﴾ [آل عمران: ١٢٨].

وإذا شفع عنده الشفيع، فقبل شفاعته لم يكن هذا هو المؤثر فيه كما يؤثر المخلوق في المخلوق، لأنه سبحانه هو الذي وفق للشفاعة، وأذن بها، وهو الذي أجاب الشفيع وقبل شفاعته، وهو سبحانه الخالق لكل شيء.

---

(١) خ: تفسير سورة البقرة، ح ٤٢٠٦، والرقاق، ب ٥١، ح ٦١٩٧، والتويد، ب ١٩، ح ٦٩٧٥، ب ٢٤، ب ٣٧، ح ٧٠٧٨. م: الإيمان، ب ٨٤، ح ٣٢٢- ٣٢٤- كلهم عن أنس بن مالك.



المبحث الرابع : الكهانة والتنجيم

قال المصنف رحمه الله تعالى: ولا نصدق كَاهِنًا ولا عَرَّافًا، ولا من يدعي شَيْئًا يخالف الكتاب والسنة وإجماع الأمة.

حرمة صناعة التنجيم:

مضمون صناعة التنجيم، هو الاستدلال بالأحوال الفلكية على الحوادث الأرضية، وهي محرمة بالكتاب والسنة، بل هي محرمة على لسان جميع المرسلين.

قال صلى الله عليه وسلم: ((من أتى عَرَّافًا فسأله عن شيء لم يقبل له صلاة أربعين ليلة)) [١]

وقال صلى الله عليه وسلم: ((من أتى عَرَّافًا أو كَاهِنًا فصدقه بما يقول فقد كفر بما أنزل على محمد)) [٢].

فإذا كانت هذه هي حال السائل فكيف بالمسئول؟

عن عائشة قالت: سئل رسول الله صلى الله عليه وسلم عن الكهان؟. فقال: ((ليسوا بشيء)) فقالوا يا رسول الله: إنهم أحيَانًا يحدثون عن شيء يكون حقًّا. فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: ((تلك الكلمة من الحق يخطفها الجني فيقرها في أذن وليه، فيخلطون فيها أكثر من مائة كذبة)). متفق عليه.

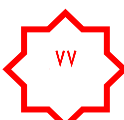
قال صلى الله عليه وسلم: ((ثمن الكلب خبيث، ومهر البغي خبيث، وحُلوان الكاهن خبيث)) [٣].

وحلوانه: الذي تسميه العامة حلاوته.

وفي صحيح البخاري: أنه كان لأبي بكر غلام يأكل من خراجه، فجاء يَوْمًا بشيء، فأكل منه أبو بكر، فقال له الغلام تدرى مم هذا؟ قال: وما هو؟ قال: كنت تكهنت لإنسان في الجاهلية وما أحْسِن الكهانة، إلا أني خدعته فلقيني فأعْطَانِي بذلك، فهذا الذي أكلت منه، فأدخل أبو بكر يده، فقاء كل

---

(١) م: السلام، ب ٣٥، ح ١٢٥. حم: ٤/٦٨ و ٥/٣٨٠ عن بعض أَزْوَاج النبي ﷺ. رواه مسلم وأحمد.
(٢) ك: ١/٨. حم: ٢/٤٢٩- كلاهما عن أبي هريرة، وهو حديث صحيح. رواه أحمد.
(٣)ك: ١/١٥٥ عن أبي مَسْعُود وقال: خرجته لشدة الحاجة إليه. وهو حديث ضعيف، ولكن معناه صحيح.



شيء في بطنه.

ويدخل في هذا المعنى ما يتعاطاه المنجم، وصاحب الأزلام التي يستقسم بها، والضارب بالحصى، والذي يخط في الرمل، وما يتعاطاه هؤلاء فهو حرام.

حكى الإجماع على تحريمه غير واحد من العلماء.

فالواجب على ولي الأمر أن يسعى في إزالة هؤلاء المنجمين والكهان، ومن كان على شاكلتهم، وحَسْبُ مَنْ علم بتحريم ذلك ولم يسع في إزالته مع قدرته على ذلك قوله تعالى: ﴿ كَانُواْ لَا يَتَنَاهَوْنَ عَن مُّنكَرٍ فَعَلُوهُ ﴾ [المائدة: ٧٩]. وقوله صلى الله عليه وسلم: ((إن الناس إذا رأوا المنكر فلم يُغَيِّرُوهُ، أوشك أن يعمهم الله بعقاب منه)).[1]

أنواع الكهان والعرافين:

وهؤلاء الذين يفعلون هذه الأفعال الخارجة عن الكتاب والسنة أنواع:

نوع منهم أهل تلبيس وخداع، الذين يظهر أحدهم طاعة الجن له، وهؤلاء يستحقون العقوبة البليغة، التي تردعهم عن ذلك، وقد يكون فيهم من يستحق القتل، كمن يدعي النبوة بهذه الخزعبلات، أو يطلب تغيير شيء من الشريعة، ونحو ذلك.

ونوع يتكلم في هذه الأمور على سبيل الجد والحقيقة بأنواع السحر.

وقد تنازع العلماء في حقيقة السحر وأنواعه: الجمهور على أنه يؤثر في موت المسحور ومرضه من غير وصول شيء ظاهر إليه. وزعم بعضهم أنه مجرد تخييل.

أما حكم السحر فقد اتفق الجميع على أن ما كان من جنس دعوة الكواكب والتقرب إليها فهو كفر. وأن كل رقية وتعزيم، أو قسم فيه شرك، فإنه لا يجوز التكلم به، وإنْ أطاعته به الجن. كذلك كل كلام فيه كفر، وكل كلام لا يعرف معناه، لا يجوز التكلم به، لاحتمال أن يكون فيه شرك لا يعرف. ولهذا قال

(١) د: الملاحم. ب ١٧، ح ٤٣٣٨. ت: تفسير سورة الملك، ح ٣٠٥٧، والفتن، ب ٨، ح ٢١٦٨. ق: الفتن، ب ٢٠، ح ٤٠٠٥. كلهم عن أبي بكر، وقال الترمذي: حسن صحيح.

صلى الله عليه وسلم: ((لا بأس بالرقى ما لم تكن شِرْكًا))[1].

أما حكم الساحر، فإن جمهور العلماء يوجبون قتله، واختلفوا في استتابته وكفره. وقالت طائفة: إن قتل بالسحر يقتل، وإلا عوقب بما دون القتل إذا لم يكن في قوله وعمله كفر، وهو المنقول عن الشافعي وقول في مذهب أحمد.

ونوع منهم يتكلم بالأحوال الشيطانية، ومخاطبة رجال الغيب، وأن لهم خوارق تقتضي أنهم أولياء الله! وأهل العلم فيهم على ثلاثة أحزاب:

- حزب يكذبون بوجود رجال الغيب، ولكن قد عاينهم الناس، وَهَؤُلَاءِ إذا رأوهم وتيقنوا من وجودهم خضعوا لهم.

- وحزب عرفوهم ورجعوا إلى القدر، واعتقدوا أن ثم في الباطن طَرِيقًا إلى الله غير طريق الأنبياء.

- وحزب ما أمكنهم أن يجعلوا ذلك خَارِجًا عن دائرة الرسول صلى الله عليه وسلم فقالوا: يكون الرسول هو ممداً للطائفتين، وهؤلاء معظِّمون للرسول صلى الله عليه وسلم جاهلون بدينه وشرعه.

والحق: أن هؤلاء من أتباع الشياطين، وأن رجال الغيب هم الجن، ويسمون رجالاً. قال تعالى:

﴿ وَأَنَّهُۥ كَانَ رِجَالٌ مِّنَ ٱلْإِنسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِّنَ ٱلْجِنِّ فَزَادُوهُمْ رَهَقًا ﴾ [الجن: ٦]. وإلا فالإنس يؤنسون، أى: يظهرون ويرون، ومن ظن أنهم من الإنس فمن غلطه وجهله.

وسبب الخلاف في هؤلاء: عدم الفرقان بين أولياء الشيطان وأولياء الرحمن.

وقولُ البعض: الفقراء يَسْلَم إليهم حالهم، باطلٌ، بل تعرض أفعالهم وأحوالهم على الشريعة، فما وافقها قبل، وما خالفها رد. قال صلى الله عليه وسلم: ((من أحدث في أمرنا هذا ما ليس منه فهو رد))[2]. فلا طريق إلا طريقته، ولا حقيقة إلا حقيقته، ولا شريعة إلا شريعته، ولا يصل أحد من الخلق إلى رضوان الله إلا بمتابعته، بَاطِنًا وَظَاهِرًا، فمن لم يفعل ذلك فليس بمؤمن، فضلاً عن أن يكون ولياً، ولو طار في الهواء، ومشى على الماء. فإنه لا يكون مع تركه للشرائع إلا من أهل الأحوال الشيطانية المبعدة لأصحابها عن الله، المقربة لسخطه وعذابه.

---

(١) م: السلام، ب ٢٢، ح ٦٤. د: الطب، ب ١٨، ح ٣٨٨٦- كلاهما عن ابن مالك الأشجعي.

(٢) متفق عليه.

استعاذة الإنس والجن واستمتاع بعضهم ببعض:

ولا تجوز الاستعاذة بالجن، فقد ذم الله الكافرين على ذلك.

قال تعالى: ﴿ وَأَنَّهُۥ كَانَ رِجَالٌ مِّنَ ٱلْإِنسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِّنَ ٱلْجِنِّ فَزَادُوهُمْ رَهَقًا ﴾ [الجن: ٦] . **قالوا:**

كان الإنسي إذا نزل بالوادي يقول: أعوذ بعظيم هذا الوادي من سفهائه، فيبيت في أمن وجوار حتى يصبح، (فزادوهم رَهَقاً): زاد الإنس الجن باستعاذتهم بهم رهقاً، أى: طُغْيَانًا وَإِثمًا وشراً، فالجن تعاظم في أنفسها يقولون: سدنا الإنس والجن. قال تعالى:

﴿ وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا يَـٰمَعْشَرَ ٱلْجِنِّ قَدِ ٱسْتَكْثَرْتُم مِّنَ ٱلْإِنسِ ۖ وَقَالَ أَوْلِيَآؤُهُم مِّنَ ٱلْإِنسِ رَبَّنَا ٱسْتَمْتَعَ بَعْضُنَا بِبَعْضٍ وَبَلَغْنَآ أَجَلَنَا ٱلَّذِىٓ أَجَّلْتَ لَنَا ﴾ [الأنعام: ١٢٨].

فاستمتاع الإنسي بالجني: في قضاء حوائجه، وامتثال أوامره، وإخباره بشيء من المغيبات. واستمتاع الجني بالإنسي تعظيمه إياه، واستعانته به وخضوعه له.

المبحث الخامس : الولاية ومراتبها

قال المصنف رحمه الله تعالى: والمؤمنون كلهم أولياء الرحمن.

الولي: من الولاية، بالفتح. وهي ضد العداوة. فالولي: خلاف العدو، وهو مُشْتقّ من الولاء، وهو الدنو والتقرب. فولي الله: من والى الله بموافقته في محبوباته، والتقرب إليه بمرضاته. وهؤلاء كما قال الله فيهم: ﴿ وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مَخْرَجًا ﴾[الطلاق: ٢]

قال أبو ذر: لما نزلت هذه الآية قال النبي صلى الله عليه وسلم: ((يا أبا ذر لو عمل الناس بهذه الآية لكفتهم .))[1] فالمتقون يدفع الله عنهم المضار، ويجلب لهم المنافع، ويعطيهم من فضله ما يشاء. والمؤمنون أولياء الله، والله وليهم، والمؤمنون بعضهم أولياء بعض. قال تعالى: ﴿ ٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا يُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ ﴾ [البقرة: ٢٥٧]. وقال تعالى: ﴿ أَلَآ إِنَّ أَوْلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ۝ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ ﴾ [يونس: ٦٢، ٦٣]. وقال تعالى: ﴿ وَٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ ﴾ [التوبة: ٧١] فالله يتولى عباده المؤمنين فيحبهم ويحبونه، ويرضى عنهم ويرضون عنه، ومن عادى الله فقد بارزه بالمحاربة.

الفرق بين ولاية الله لعباده، وبين ولاية المخلوقين بعضهم لبعض:

وولاية الله لعباده من رحمته وإحسانه، وليست كولاية المخلوق للمخلوق، لذلّه وحاجته إلى ولي ينصره. قال تعالى: ﴿ وَقُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ شَرِيكٌ فِى ٱلْمُلْكِ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ وَلِيٌّ

(١) س ت تفسير سورة الطلاق، ح ٦١٥. ك: ٢/٤٩٣. حب: ٨/٢٤٢، ح ٦٦٥٠. حم: ٥/١٧٨- عن أبي ذر الغفاري، وهو حديث ضعيف الإسناد.

﴿مِّنَ ٱلذُّلِّۖ وَكَبِّرۡهُ تَكۡبِيرَۢا﴾ [الإسراء: ١١١]. وقال تعالى: ﴿فَلِلَّهِ ٱلۡعِزَّةُ جَمِيعًا﴾ [فاطر: ١٠].

مراتب الولاية:

والولاية: نظير الإيمان، فأهلها في أصلها سواء(١)، وتكون كاملة وناقصة، فالكاملة للمؤمنين المتقين. قال تعالى: ﴿أَلَآ إِنَّ أَوۡلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوۡفٌ عَلَيۡهِمۡ وَلَا هُمۡ يَحۡزَنُونَ ۝٦٢ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَكَانُواْ يَتَّقُونَ ۝٦٣ لَهُمُ ٱلۡبُشۡرَىٰ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَفِي ٱلۡأٓخِرَةِ﴾ [يونس: ٦٢- ٦٤].

فالولاية لأهل الإيمان والتقوى، وهى عبارة عن موافقة الله الولي الحميد في محابِّه ومساخطه وليست بكثرة صوم ولا صلاة ولا تملق.

أولاً: الولاية الكاملة:

وأولياء الله الكاملون هم المذكورون في الآية السابقة. والتقوى هي المذكورة في قوله تعالى: ﴿لَّيۡسَ ٱلۡبِرَّ أَن تُوَلُّواْ وُجُوهَكُمۡ قِبَلَ ٱلۡمَشۡرِقِ وَٱلۡمَغۡرِبِ وَلَٰكِنَّ ٱلۡبِرَّ مَنۡ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلۡكِتَٰبِ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ وَءَاتَى ٱلۡمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ ذَوِي ٱلۡقُرۡبَىٰ وَٱلۡيَتَٰمَىٰ وَٱلۡمَسَٰكِينَ وَٱبۡنَ ٱلسَّبِيلِ وَٱلسَّآئِلِينَ وَفِي ٱلرِّقَابِ وَأَقَامَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَى ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلۡمُوفُونَ بِعَهۡدِهِمۡ إِذَا عَٰهَدُواْۖ وَٱلصَّٰبِرِينَ فِي ٱلۡبَأۡسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَحِينَ ٱلۡبَأۡسِۗ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُواْۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُتَّقُونَ﴾ [البقرة: ١٧٧].

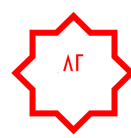
وهم قسمان:

مقتصدون: وهم الذين يتقربون إلى الله بالفرائض.

ومقربون: وهم الذين يتقربون إلى الله بالنوافل بعد الفرائض. قال صلى الله عليه وسلم: يقول الله تعالى: ((من عادى لي ولياً فقد بَارَزني بالمحاربة، وما تقرب إليَّ عبدي بمثل أداء ما افترضته عليه. ولا يزال عبدي يتقرب إليَّ بالنوافل حتى أحبه، فإذا أحببته كنت سمعه الذي يسمع به، وبصره الذي

---

(١) ولاية الله تعالى للمؤمنين ليست سواء أو على درجة واحدة، وإنما تكون بحسب إيمانهم قوة وضعفاً؛ فولايته سبحانه وتعالى للأنبياء والرسل هي أعلى من ولايته لمن هم دونهم، وولايته لأهل الطاعات والاستقامة هي أعلى من ولايته لأهل المعاصي والذنوب، وولايته لأهل المعاصي والذنوب هي أعلى من ولايته لأهل الكبائر والفجور، ولا ولاية لكافر، قال تعالى: ﴿وأن الكافرين لا مولى لهم﴾.



يبصر به، ويده التي يبطش بها، ورجله التي يمشى بها، ولئن سألني لأعطينه، ولئن استعاذني لأعيذنه وما ترددت عن شيء أنا فاعله ترددي عن قبض نفس عبدي المؤمن يكره الموت وأكْرَهُ مساءته)) (رواه البخاري عن أبي هريرة).

ثانياً: الولاية الناقصة:

وقد تجتمع في العبد ولاية من جهة، وعداوة من جهة[1]،كما قد يكون فيه شرك وتوحيد، كفر وإيمان[2]، وإن كان في هذا الأصل نزاع لفظي بين أهل السنة، ونزاع معنوي بينهم وبين أهل البدع، ولكن موافقة الشارع في اللفظ والمعنى، أولى من موافقته في المعنى وحده. قال تعالى: ﴿ قُل لَّمۡ تُؤۡمِنُواْ وَلَٰكِن قُولُوٓاْ أَسۡلَمۡنَا ﴾ الآية [الحجرات: ١٤]

وقد تقدم الكلام في هذه الآية، وأنهم ليسوا منافقين على أصح القولين. قال صلى الله عليه وسلم: ((أربع من كن فيه كان مُنَافِقاً خَالِصًا، ومن كانت فيه خصلة منهن كانت فيه خَصلة من النفاق حتى يدعها: إذا حدث كذب، وإذا عاهد غدر، وإذا وعد أخلف، وإذا خاصم فجر)).[3] متفق عليه. وقال صلى الله عليه وسلم: ((يخرج من النار من كان في قلْبه مثقال ذرة من إيمان)).[4] فعلم أن من كان معه من

---

(١) وبالتالي تجب موالاته وإكرامه بقدر ما عنده من إيمان وطاعة واستقامة، ومعاداته ومجافاته وإهانته بقدر ما عنده من فسق ومعصية وانحراف، حيث لا يجوز إكرامه وموالاته على الإطلاق، كما لا تجوز معاداته ومجافاته على الإطلاق، وإنما بين بين، وبالقدر الذي تجيزه الشريعة وتأمر به من غير جنوح إلى إفراط أو تفريط.

قال ابن تيمية في الفتاوى (٢٨/ ٢٠٩): إذا اجتمع في الرجل الواحد خير وشر، وفجور وطاعة، ومعصية وسنة وبدعة استحق من الموالاة والثواب بقدر ما فيه من الخير، واستحق من المعاداة بحسب ما فيه من الشر، فيجتمع في الشخص موجبات الإكرام والإهانة، فيجتمع له من هذا وهذا.

(٢) الكفر هنا يراد به الكفر الأصغر الذي لا يخرج من الملة، لأن الكفر الأكبر لا يجوز افتراض اجتماعه مع الإيمان النافع في قلب رجل واحد، لأن الكفر ينفي مطلق الإيمان، ويحبط عن صاحبه جميع العمل، وقد صح عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: "لا يجتمع الإيمان والكفر في قلب امرئ".

وكذلك الشرك هنا يراد به الشرك العملي الأصغر، أو الشرك الخفي الذي لا ينقض مطلق الإيمان، ولا يجوز حمله على الشرك الأكبر المخرج لصاحبه عن الملة، فهذا الشرك والتوحيد ضدان لا يجتمعان، وحضور أحدهما يستلزم انتفاء الآخر.

(٣) خ: الإيمان، ب ٢٣، ح ٣٤ والمظالم، ب ١٨، ح ٢٣٢٧، وا لجزية، ب ١٧، ح ٣٠٠٧. م: الإيمان، ب ٢٥، ح ١٠٦. د: السنة، ب:١٦، ح ٦٨٨. ت: الإيمان، ب١٤٠، ح ٢٦٣٢. س: الإيمَان، باب ٢٠، ح ٥٠٢٣- كلهم عن ابن عمرو.

(٤) خ: الإيمَان، ب ٣٢، ح ٤٤، والتوحيد، ب ٣٦، ح ٧٠٧١، ٧٠٧٢. م: الإيمَان، ب ٨٤، ح ٣٢٥. ت: صفة جهنم، ب ٩،



الإيمان أقل القليل، لم يخلَّد في النار، وإن كان معه كثير من النفاق، فهو يعذب في النار، على قدر ما معه من ذلك، ثم يخرج من النار.

الأقوال الباطلة في مسألة الولاية:

١- دعوى اشتمال كل جماعة على ولي لا يعرف:

وأما ما يروى مَرْفُوعًا إلى النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: ((ما من جماعة اجتمعت إلا وفيهم ولي لله لا هم يدرون به، ولا هو يدري بنفسه)) فلا أصل له، وهو كلام باطل، فإن الجماعة قد يكونون كُفَّارًا، وقد يكونون فساقاً، يموتون على الفسق.

٢- زوال العقل ليس سَبَبًا إلى ولاية الله:

أما ما كان من جنس الأطفال والمجانين، فقد رفع عنهم القلم، وليس لهم من الإيمَان ما يكونون به من الأولياء، لكن يدخلون في الإسلام تبعا لآبائهم. فمن اعتقد في البُلْهِ ومن كان على شاكلتهم، فهو ضال مبتدع، فالأبله: إما أن يكون زِنْدِيقًا متحيلاً، أو مَجْنُونًا مَعْذُورًا، فكيف يفضل على من كان من أولياء الله أو يساويه؟

أما قول بعضهم: لعله متبع في الباطن، فهو خطأ أيْضًا، لأن الواجب هو متابعته صلى الله عليه وسلم بَاطِنًا وَظَاهِرًا. قال موسى بن عبد الأعلى الصَّدَفِيّ: قلت للشافعي: إن صاحبنا الليث كان يقول: إذا رأيتم الرجل يمشي على الماء فلا تغتروا به حتى تعرضوا أمره على الكتاب والسنة؟ فقال الشافعي: قصر الليث رحمه الله، بل إذا رأيتم الرجل يمشي على الماء، ويطير في الهواء فلا تغتروا به حتى تعرضوا أمره على الكتاب.

أما حديث: ((اطلعت على الجنة فرأيت أكثر أهلها البله))[(١)]، فلا يصح عن رسول الله صلى الله عليه وسلم، ولا ينبغي نسبته إليه، فإن الجنة إنما خلقت لأولي الألباب، ولم يذكر الله من أوصاف أهلها البله الذي هو ضعف العقل، وإنما قال صلى الله عليه وسلم: ((اطلعت في الجنة فرأيت أكثر أهلها الفقراء))[(٢)]. ولم يقل البله.

ح ٢٥٩٣. ق: الزهد، ب ٣٧، ح ٤٣١٢- كلهم عن أنس.

(١) ضعيف كما قال المصنف، وقد أطال الكلام عليه الشيخ الألباني في تخريج الشرح ص ٥٧٣، ٥٧٤. الطبعة السادسة.

(٢) م: الذكر، ب ٢٦، ح ٩٣ و ٩٤. ت: صفة جهنم، ب ١، ح ٢٦٠٢. حم: ١/ ٢٣٤ ٣٥٩- كلهم عن ابن عباس.

وكذلك الذين يصعقون عند سماع الأنغام الحسنة، هم مبتدعون ضالون، لأنه ليس لِلإِنسَانِ أن يستدعي ما يكون سبب زوال عقله. ولم يكن في الصحابة وَالتَّابعِينَ من يفعل ذلك، ولو عند سماع القرآن، بل كانوا كما وصفهم الله تعالى:﴿ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتۡ قُلُوبُهُمۡ وَإِذَا تُلِيَتۡ عَلَيۡهِمۡ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتۡهُمۡ إِيمَٰنًا ﴾ [الأنفال: ٢]. وكما قال تعالى: ﴿ ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحۡسَنَ ٱلۡحَدِيثِ كِتَٰبًا مُّتَشَٰبِهًا مَّثَانِيَ تَقۡشَعِرُّ مِنۡهُ جُلُودُ ٱلَّذِينَ يَخۡشَوۡنَ رَبَّهُمۡ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمۡ وَقُلُوبُهُمۡ إِلَىٰ ذِكۡرِ ٱللَّهِ ﴾ [الزمر: ٢٣].

أما ما يحصل للبعض من الهذيان، والتكلم ببعض اللغات المخالفة للسانه عند سماع الأنغام المطربة، فذلك شيطان يتكلم على لسانه، كما يتكلم على لسان المصروع، وذلك كله من الأحوال الشيطانية! إذ كيف يكون زوال العقل سَبَبًا إلى ولاية الله؟ كما يظن ذلك كثير من أهل الضلال، حتى قال بعضهم:

هم معشر حلوا النظام وخرقوا ... السياج فلا فرض لديهم ولا نفل

مجانين إلا أن سر جنونهم ... عزيز على أبوابه يسجد العقل

يظن أن في الجنون سرًا يسجد العقل على بابه، لما رأى في تصرفات بعض المجانين نَوْعًا من الخوارق، وسببه ما اقترن به من الشياطين كما يكون للسحرة والكهان، فظن أن كل من خبل أو خرق عادة كان وليا لله، ومن اعتقد هذا فهو كافر. قال تعالى: ﴿ هَلۡ أُنَبِّئُكُمۡ عَلَىٰ مَن تَنَزَّلُ ٱلشَّيَٰطِينُ ﴿٢٢١﴾ تَنَزَّلُ عَلَىٰ كُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٖ ﴾ [الشعراء: ١٢١، ١٢٢]، فكل من تنزل عليه الشياطين لابد أن يكون عنده كذب وفجور.

وأما الذين ذكرهم العلماء بخير من عقلاء المجانين، فأولئك كان فيهم خير، ثم زالت عقولهم، ومن علاماتهم، أنهم إذا حصل لهم في جنونهم نوع من الصحو، تكلموا بما كان في قلوبهم من الإيمان، فمن جن من المؤمنين يحشر معهم، فزوال العقل بجنون أو غيره لا يوجب مزيد حال، بل حال صاحبه من الإيمان والتقوى، تبقى على ما كان عليه من خير أو شر، ولكن جنونه يحرمه الزيادة من الخير،كما يمنع عقوبته على الشر، ولا يمحو عنه ما كان عليه قبله.

٣-الملامتية:

والطائفة الملامتية هم الذين يفعلون ما يلامون عليه، ويقولون: نحن متبعون في الباطن، ردوا باطلهم بباطل آخر، والصراط المستقيم بين ذلك.

٤-الذين يتعبدون بالرياضات وَالْخَلَوَات:

وأما الذين يتعبدون بالرياضات والخلوات، وترك الجمع والجماعات، فهم الذين ضل سعيهم في الحياة الدنيا وهم يحسبون أنهم يحسنون صُنْعًا، فكل من عدل عن اتباع السنة، إن كان عَالِمًا بها، فهو مغضوب عليه، وإلا فهو ضال، ولهذا شرع لنا أن نسأل الله في كل صلاة أن يهدينا الصراط المستقيم، صراط الذين أنعم عليهم، غير المغضوب عليهم ولا الضالين. قال صلى الله عليه وسلم: ((من ترك ثلاث جمع تهاوناً من غير عذر طبع الله على قلبه)) .[1]

هل يجوز الاستغناء عن الوحي بالعلم اللَّدُنّي؟

وأما من يتعلق بقصة موسى والخضر، في تجْويز الاستغناء عن الوحي بالعلم اللَّدُنيّ، فهو ملحد زنديق. لأن موسى صلى الله عليه وسلم لم يبعث إلى الخضر، ولم يكن الخضر مَأمُورًا بمتابعته، ولهذا قال له: أنت موسى بني إسرائيل؟ قال: نعم.[2]

أما محمد صلى الله عليه وسلم فبعثته إلى جَمِيع الثقلين، ولو كان موسى حياً ما وسعه إلا أن يتبعه، وعيسى إذا نزل فإنما يحكم بشريعته صلى الله عليه وسلم. فمن زعم أنه مع محمد صلى الله عليه وسلم كالخضر مع موسى، أو جوز ذلك لأحد من الأمة فليجدد إسلامه، فقد فارق الإسلام بالكلية! وهذا الموضع مفرق بين زنادقة القوم وأهل الاستقامة.

ومثله من يقول: إن الكعبة تطوف برجال منهم حيث كانوا!! فهلا خرجت الكعبة إلى الحديبية فطافت برسول الله صلى الله عليه وسلم حين أحصر عنها، وهو يود منها نظرة؟ ألا ما أشبه هؤلاء بمن وصفهم الله بقوله: ﴿ بَلْ يُرِيدُ كُلُّ ٱمْرِيٍٕ مِّنْهُمْ أَن يُؤْتَىٰ صُحُفًا مُّنَشَّرَةً ﴾ [المدثر: ٥٢].

التفاضل بين المؤمنين بالتقوى:

(١) د: الصلاة، ب ٢١٠، ح ١٠٥٢. ت: الصلاة، ب ٣٥٩، ح ١١٢٥ – عن أبي الجعد، وقال الترمذي: حسن.

(٢) خ: الأنبياء، ب ٢٩، ح ٣٢٢٠، وتفسير سُورة الكهف، ح ٤٤٤٨– ٤٤٥٠، والعلم، ب ٤٤، ح ١٢٢ م: الفضائل، ب ٤٦، ح ١٧٢. ت: تفسير سُورة الكهف، ح ٣١٤٩– كلهم عن أبي بن كعب.

قال المصنف رحمه الله تعالى: وأكرمهم عند الله أطوعهم وأتبعهم للقرآن.

أكرم المؤمنين أتقاهم لله، أي: أطوعهم له وأتبعهم لكتابه. قال تعالى: ﴿إِنَّ أَكۡرَمَكُمۡ عِندَ ٱللَّهِ أَتۡقَىٰكُمۡ﴾ [الحجرات: ١٣]. **وقال صلى الله عليه وسلم: ((لا فضل لعربي على عجمي، ولا لعجمي على عَرَبِـيّ، ولا لأبيض على أسود، ولا لأسود على أبيض إلا بالتقوى، كلكم لآدم وآدم من تراب))** [(١)].

الفقير الصابر والغني الشاكر:

وبهذا يتبين القول الفصل في مسألة الفقير الصابر والغني الشاكر. ذلك أن التفضيل لا يرجع إلى ذات الفقر والغنى، وإنما يرجع إلى التقوى، وحقائق الإيمان.

قال عمر رضي الله عنه: الفقر والغنى مطيتان لا أبالي أيهما ركبت.

فأفضلهما أتقاهما لله، فإن استويا في التقوى، استويا في الدرجة، فإن الفقر والغنى لا يوزنان، وإنما يوزن الصبر والشكر.

الحب في الله والبغض في الله من تمام العبودية:

قال المصنف رحمه الله تعالى: ونحب أهل العدل والأمانة، ونبغض أهل الجور وَالْخِيَانَة.

هذا من كمال الإيمان وتمام العبودية، فإن العبودية تتضمن كمال الحب وكمال الذل، فالمحبة التامة مستلزمة لموافقة المحبوب في محبوبه ومكروهه، وولايته وَعَدَاوَته.

فمحبة الأنبياء والصالحين من عباد الله، إنما هى من محبة الله، فغير الله يُحَبُّ في الله لا مع الله[(٢)]، وبغض المفسدين والمستكبرين، إنما هو من محبة الله كذلك؛ لأن المحب يحب ما يحبه محبوبه، ويبغض ما

---

(١) حم: ٥/٤١١، عن أبي نضرة- وهو حديث صحيح.

(٢) قال ابن تيمية رحمه الله في الفتاوى (١٠/ ٦٠٧) لا يجوز أن يُحب شيء من الموجودات لذاته إلا هو سبحانه وبحمده، فكل محبوب في العالم إنما يجوز أن يحب لغيره لا لذاته، والرب تعالى هو الذي يجب أن يحب لنفسه، وهذا من معاني إلهيته ﴿**ولو كان فيهما آلهة إلا الله لفسدتا**﴾ فإن محبة الشيء لذاته شرك، فلا يحب لذاته إلا الله، فإن ذلك من خصائص إلهيته، فلا يستحق ذلك إلا الله وحده، وكل محبوب سواه لم يحب لأجله فمحبته فاسدة..ا هـ.

يَبْغَضهُ[1].

وفي الصحيحين: قال صلى الله عليه وسلم: ((ثلاث من كنَّ فيه وجد حلاوة الإيمان في قلبه: من كان الله ورسوله أحب إليه مما سواهما، ومن كان يحب المرء لا يحبه إلا لله، ومن كان يكره أن يرجع في الكفر بعد أن أنقذه الله منه،كما يكره أن يلقى في النار)). فمن أحب الله المحبة الواجبة، فلا بد أن يبغض أعداءه، وأن يحب ما يحبه من جهادهم. قال تعالى:

﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلَّذِينَ يُقَـٰتِلُونَ فِى سَبِيلِهِۦ صَفًّا كَأَنَّهُم بُنْيَـٰنٌ مَّرْصُوصٌ ﴾ [الصف: ٤].

الحب والبغض بحسب الخير والشر:

والحب والبغض بحسب ما فيهما من خصال الخير، فإن العبد قد يجتمع فيه سبب الولاية وسبب العداوة، فيكون مَحْبُوبًا من وجه، مبغوضاً من وجه، والحكم للغالب.

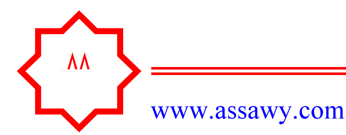
وكذلك حكم العبد عند الله عز وجل، فإن الله قد يحب الشيء من وجه ويكرهه من وجه آخر. قال صلى الله عليه وسلم فيما يرويه عن ربه: ((وما تَرَدَّدْتُ في شيء أنا فاعله، تَرَدُّدي في قبض نفس عبدي المؤمن، يكره الموت وأنا أكره مساءته، ولابد له منه))؟[2].

فالله عز وجل يحب ما يحب عبده المؤمن، ويكره ما يكرهه، وهو يكره الموت فهو يكرهه، ولكنه سُبْحَانه قد قضى بالموت فهو يريد كونه، ولكن لابد من وقوعه لأنه مفض إلى ما هو أحب منه.

المبحث السادس : المعجزة والكرامة

(١) وذلك أوثق وأعظم عرى الإيمان، كما قال صلى الله عليه وسلم : "**أوثق عرى الإيمان الموالاة في الله، والمعاداة في الله، والحب في الله، والبغض في الله**" وهذا لا يقوم به إلا من كمل إيمانه، وكان إيمانه كالجبال، كما قال صلى الله عليه وسلم: "**من أحب لله، وأبغض لله، وأعطى لله، ومنع لله، فقد استكمل الإيمان**".

(٢)في البخاري باب التواضع حديث (٦١٣٧) الجزء الرابع و الجامع الصغير للسيوطي.



قال المصنف رحمه الله: ونؤمن بما جاء من كراماتهم، وصح عن الثقات من رواياتهم.

المعجزة: هي الأمر الخارق للعادة، وكذلك الكرامة في عرف أئمة أهل العلم المتقدمين، إلا أن المعجزة تقترن بدعوى النبوة، والكرامة لا تقترن بذلك. وفرَّق بينهما في اللفظ كثير من المتأخرين، فجعلوا المعجزة للنبي، والكرامة للولي.

وهذا الأمر الخارق للعادة ثلاثة أنواع:

محمود في الدين، وذلك إذا حصلت به فائدة مطلوبة شَرْعًا..

ومذموم، وذلك إن كان على وجه يتضمن ما هو منهي عنه، فيكون سَبَبًا للعذاب، كالذي أوتى الآيات فانسلخ منها: بلعاء بن باعوراء.

ومباح، وذلك إن حصل به أمر مباح، فإن كان فيه منفعة كان نعمة، وإلا فهو كسائر المباحات.

والناس في هذه الأمور ثلاثة أقسام:

قسم ترتفع بها درجاتهم.

وقسم يتعرضون بها للعذاب.

وقسم يكون في حقهم بمنزلة المباحات.

الكرامة هي لزوم الاستقامة:

وقد يتطلع كثير من الناس إلى هذا الأمر الخارق، وربما يظل كسير القلب، مُتهِمًا لنفسه إذا لم يحصل له شيء من ذلك، وما درى أن الكرامة في الحقيقة هي لزوم الاستقامة، وأن الله لم يكرم عَبْدًا بكرامة أعظم من موافقته فيما يحبه ويرضاه، وهي طاعته وطاعة رسوله وموالاة أوليائه، ومعاداة أعدائه، وهؤلاء هم أولياء الله.

وأما ما يبتلى به العبد من خرقٍ للعادات فليس لأجل كرامته على ربه، ولا لهوانه عليه، بل قد سعد بها قوم إذ أطاعوه، وشقي بها قوم إذ عصوه. قال تعالى:

﴿ فَأَمَّا ٱلۡإِنسَٰنُ إِذَا مَا ٱبۡتَلَىٰهُ رَبُّهُۥ فَأَكۡرَمَهُۥ وَنَعَّمَهُۥ فَيَقُولُ رَبِّيٓ أَكۡرَمَنِ ۝١٥ وَأَمَّآ إِذَا مَا ٱبۡتَلَىٰهُ فَقَدَرَ عَلَيۡهِ رِزۡقَهُۥ فَيَقُولُ رَبِّيٓ أَهَٰنَنِ ﴾ [الفجر: ١٥، ١٦].

ويتنوع الكشف والتأثير بتنوع كلمات الله، وهي نوعان:

الكلمات الكونية: والكون كله داخل تحتها وهى التي استعاذ بها صلى الله عليه وسلم في قوله: ((أعوذ بكلمات الله التامات من شر ما خلق)) .[1] وكشفها: العلم بالحوادث الكونية، وقدرتها: التأثير في الكونيات، إما في نفسه كمشيه على الماء، وطيرانه في الهواء، وإما في غيره بإصحاح وإهلاك، وإغناء وإفقار.

والكلمات الدينية: وهى القرآن والشرائع، وحظ العبد منها: العلم بها، والعمل والأمر بما أمر الله به. فكشفها: العلم بالمأمورات الشرعية، وقدرتها: التأثير في الشرعيات، إما في نفسه بطاعة الله ورسوله، وَإِمَّا في غيره فيطاع في ذلك طاعة شرعية.

فعدم الحوادث عِلْمًا وقدرة، لا يضر المسلم في دينه، فمن لم ينكشف له شيء من المغيبات، ولم يسخر له شيء من الكونيات، لا ينقص ذلك من مرتبته عند الله، بل ربما كان عدم ذلك أنفع له، فإن الخارق قد يكون مع الدين، وقد يكون مع عدمه، أو فساده أو نقصه، فالخوارق النافعة تابعة للدين خادمة له، كالرئاسة النافعة والسلطان النافع، فمن جعلها هي المقصودة فهو مشتبه بمن يأكل بالدين، وليست حاله كحال من تدين خوف العذاب، أو رجاء في الجنة، فإن ذلك مأمور به.

وإذا صح الدين عِلْمًا وَعَمَلاً، فلا بد أن يوجب خرق العادة إذا احتاج إلى ذلك صاحبه، قال تعالى:

﴿ وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجۡعَل لَّهُۥ مَخۡرَجٗا ﴾ [الطلاق: ٢]. **وقال تعالى:** ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تَتَّقُواْ ٱللَّهَ يَجۡعَل لَّكُمۡ فُرۡقَانٗا ﴾ [الأنفال: ٢٩]. **وقال صلى الله عليه وسلم: ((اتقوا فِراسة المؤمن)).[2] فالاستقامة حظ الرب، والكرامة حظ النفس.**

المعتزلة ينكرون الكرامة:

---

(١) مسلم باب في التعوذ من سوء القضاء ودرك الشقاء رقم (٢٧٠٨).

(٢) الجامع الصغير للسيوطي – سنن الترمذي باب تفسير القرآن عن رسول الله صلى الله عليه وسلم من سورة الحجر ﴿إن في ذلك لآيات للمتوسمين﴾ قال: هذا حديث غريب لا نعرفه إلا من هذا الوجه.

وأنكر المعتزلة الكرامة، وقالوا لو صحت لأشبهت المعجزة، فيؤدي ذلك إلى التباس النبي بالولي! وقولهم هذا ظاهر البطلان، بل هو بمنزلة إنكار المحسوسات، ودعوى اللبس إنما تصح إذا كان الولي يأتي بالخارق ويدعي النبوة، وهذا لا يقع، ولو وقع لكان مُتَنَبِّئاً كَذَّابًا.

أنواع الفِرَاسة:

الفراسة ثلاثة أنواع:

إيمانية: وحقيقتها أنها خاطر يهجم على القلب يثب عليه كوثوب الأسد على الفريسة، وسببها: نور يقذفه الله في قلب عبده. قال صلى الله عليه وسلم: ((اتقوا فراسة المؤمن فإنه يرى بنور الله)) [1].

رياضية: وهي تحصل بالجوع والسهر والتخلي، وهي مشتركة بين المؤمن والكافر، ولا تدل على إيمان ولا على ولاية.

خلقية: وهي التي صنف فيها الأطباء، واستدلوا بالخَلق على الخُلُق، كالاستدلال بصغر الرأس على صغر العقل، وسعة الصدر على سعة الخلق.

---

(١)ت: تفسير سورة الإسراء، ح ٣١٢٧. تخ: ٧/٣٥٤- كلاهما عن أبي سعيد الخدري، وقال الترمذي: غريب.

المبحث السابع : الأنبياء أولاً.......ثم الأولياء

قال المصنف رحمه الله تعالى: ولا نفضل أحدًا من الأولياء على أحد من الأنبياء عليهم السلام، ونقول: نبي واحد أفضل من جميع الأولياء.

يشير الشيخ بذلك إلى الرد على الاتحادية وجملة المتصوفة[1]، وإلا فأهل الاستقامة يوصون بمتابعة العلم والشرع، فقد أوجب الله على الخلق كلهم متابعة الرسل. قال تعالى:

﴿ وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا لِيُطَاعَ بِإِذۡنِ ٱللَّهِ ﴾ [النساء: ٦٤]. **وقال تعالى:** ﴿ قُلۡ إِن كُنتُمۡ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِي يُحۡبِبۡكُمُ ٱللَّهُ وَيَغۡفِرۡ لَكُمۡ ذُنُوبَكُمۡۚ وَٱللَّهُ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ﴾ [آل عمران: ٣١].

قال أبو عثمان النيسابوري: مَنْ أمَّر السنة على نفسه قولاً وَفِعْلاً نطق بالحكمة، ومن أمَّر الهوى على نفسه نطق بالبدعة. وقال بعضهم: ما ترك بعضهم شَيْئًا من السنة إلا لكِبْر في نفسه. والأمر كما قال: فإنه إن لم يكن مُتَّبعًا للرسول، كان مُتَّبعًا لهواه بغير هدى من الله، وهذا غش النفس، وهو من الكبر.

كثير من هؤلاء يظن أنه باجتهاده في العبادة يصل إلى ما وصلت إليه الأنبياء من غير اتباع طريقهم، بل قد يظن بعضهم أنه صار أفضل من الأنبياء، وبعضهم زعم أن الأنبياء والرسل إنما يأخذون العلم من مشكاة خاتم الأولياء! ويكون ذلك العلم هو وحدة الوجود! وهو حقيقة قول فرعون، وهو أن هذا الوجود المشهود واجب بنفسه، ليس له صانع مباين له، لكن هذا يقول: هو الله، وفرعون أظهر الإنكار بالكلية.

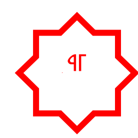
ولكن فرعون كان في الباطن أعرف منهم بالله، فإنه كان مُثبتاً للخالق، وهؤلاء ظنوا أن الوجود المخلوق هو الوجود الخالق، كابن عربي وأمثاله.

ولما رأى أن الشرع الظاهر لا سبيل إلى تغييره، قال: النبوة ختمت لكن الولاية لم تختم، وادعى من الولاية ما هو أعظم من النبوة حتى قال:

مقام النبوة في برزخ فُوَيْق الرسول ودون الولي

---

(١) وكذلك فيه رد على الشيعة الروافض، حيث يعتقدون أن لأئمتهم مقاماً عند الله أعلى من مقام الأنبياء والرسل، وأن أئمتهم أعلم من الأنبياء، وأن لهم مع الله حالات لا يبلغها ملك مقرب ولا نبي مرسل!!



وهذا قلب للشريعة، فإن الولاية ثابتة للمؤمنين المتقين. قال تعالى:﴿ أَلَآ إِنَّ أَوْلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ۝ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَكَانُوا۟ يَتَّقُونَ﴾ [يونس: ٦٢،٦٣]. والنبوة أخص من الولاية، والرسالة أخص من النبوة.

ولقد ضرب ابن عربي لنفسه المثل بلبنة من ذهب، وللرسول المثل بلبنة من فضة، فجعل بذلك نفسه أعلى وأفضل من الرسول[1]، ﴿ تِلْكَ أَمَانِيُّهُمْ ﴾، ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ فِىٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَٰنٍ أَتَىٰهُمْ ۙ إِن فِى صُدُورِهِمْ إِلَّا كِبْرٌ مَّا هُم بِبَٰلِغِيهِ ﴾ [غافر: ٥٦]. وإن كفر ابن عربي وأمثاله فوق كفر القائلين: ﴿ قَالُوا۟ لَن نُّؤْمِنَ حَتَّىٰ نُؤْتَىٰ مِثْلَ مَآ أُوتِىَ رُسُلُ ٱللَّهِ ﴾ [الأنعام: ١٢٤].

ولكن ابن عربي وأمثاله منافقون زنادقة، والاتحادية في الدَّرك الأسفل من النار، والمنافقون يعاملون معاملة المسلمين لإظهارهم الإسلام، لكن لو ظهر من أحدهم ما يُبْطنه من الكفر، لأجري عليه حكم المرتد، وفي قبول توبته خلاف، والصحيح عدم قبولها، وهي رواية معلى عن أبي حنيفة رحمه الله.

(١) يقول الشيخ محمد بن عبد الوهاب: "من رفع رجلاً في رتبة النبي صلى الله عليه وسلم كفر وحل ماله ودمه، ولا تنفعه الشهادتان، ولا الصلاة" ا هـ.

المبحث الثامن : دور العقل مع النقل وفساد منهج المتكلمين

قال المصنف رحمه الله تعالى: ولا تثبت قدم الإسلام إلا على ظهر التسليم والاستسلام.

أي لا يثبت إسلام من لم يسلم لنصوص الوحيين وينقد إليها ، ولا يعارضها برأيه ومَعْقُوله وقياسه[١].

روى البخاري عن الزُّهْري: من الله الرسالة، ومن الرسول البلاغ، وعلينا التسليم.

مثل العقل مع النقل:

وإن مثل العقل مع النقل كمثل العامي المقلد مع العالم المجتهد، بل هو دون ذلك، فإن العامي قد يصير عالماً، ولا يمكن للعالم أن يصير نبيًا رسولاً. فإذا عرف العامي المقلد عالماً فدل عليه عامياً آخر، ثم اختلف المفتى والدال، فإن المستفتي يجب عليه أن ينقل قول المفتي دون الدال.

ولا يصح أن يقول الدال: الصَّواب معي، لأني أنا الأصل في علمك بأنه مفت، فإذا قدمت قوله فقد قدحت في الأصل الذي به عرفت أنه مفت! ولأنه لما شهد له بأنه مفت، فقد شهد له بوجوب اتباعه دونه، وخطؤه في مخالفتِه للمفتي لا يستلزم خطأه في علمه بأنه مفت، كما أن علمه بأنه مفت لا يعني علمه بكل مسألة. هذا مع العلم بأن ذلك المفتي قد يُخطئ، والعقل يعلم أن الرسول معصوم، فيجب عليه التسليم له.

ولو قال رجل لرسول الله صلى الله عليه وسلم: إن هذا القرآن قد تضمن أشياء تناقض العقل الذي ما علمنا صدقك إلا به، فلو قبلناه لقدحنا فيما علمْنا به صدقك، وإذاً فنحن نعرض عن قولك إلى ما قضى به العقل، فإن مثل هذا الرجل لا يكون مؤمنًا بما جاء به الرسول صلى الله عليه وسلم، لأنه بهذا يفتح الباب واسعاً لرد كثير مما جاء به الرَّسُول صلى الله عليه وسلم، ويمكن لكل واحد أن يقول هذا في

(١) قال عبادة بن الصامت لمعاوية – وكان له إمرة عليه – : أحدثك عن رسول الله صلى الله عليه وسلم وتحدثني عن رأيك! لئن أخرجني الله لا أساكنك بأرض لك عليَّ فيها إمْرة.

وعن ابن عمر أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: "**لا تمنعوا إماء الله أن يصلين في المسجد**" فقال ابن له: إنا لنمنعهن! فقال: فغضب غضباً شديداً، وقال: أحدثك عن رسول الله صلى الله عليه وسلم، وتقول: إنا لنمنعهن؟!! فكيف بمن يعارض قول النبي صلى الله عليه وسلم – كما هو حال كثير من الناس في هذا الزمان – بقول أناس هم أقل شأناً ومكانة وديناً من أبي بكر وعمر؟!

جميع ما أخبر به الرَسُول صلى الله عليه وسلم أو أمر به. قال تعالى:

﴿ قَدْ جَآءَكُم مِّنَ ٱللَّهِ نُورٌ وَكِتَـٰبٌ مُّبِينٌ ﴾ [المائدة: ١٥]. **وقال تعالى:** ﴿ وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَـٰبَ تِبْيَـٰنًا لِّكُلِّ شَىْءٍ ﴾ [النحل: ٨٩]. **وقال تعالى:**﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِۦ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ ﴾ [إبراهيم: ٤].

القول على الله بغير علم.

قال المصنف رحمه الله تعالى: فمن رام علم ما حظر عنه علمُه، ولم يقنع بالتسليم فهمُه، حجبه مرامُه عن خالص التوحيد، وصافي المعرفة، وصحيح الإيمان.

هذا زيادة تحذير أن يتكلم في أصول الدين- بل وفي غيرها- بغير علم.

قال تعالى: ﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُجَـٰدِلُ فِى ٱللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَـٰبٍ مُّنِيرٍ ﴾ [الحج: ٨]. **وقال تعالى:** ﴿ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ ٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ بِغَيْرِ هُدًى مِّنَ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴾ [القصص: ٥٠].

عن أبي أمامة الباهلي قال: قال صلى الله عليه وسلم:((ما ضل قوم بعد هدى كانوا عليه إلا أوتوا الجدل، ثم تلا: ﴿ مَا ضَرَبُوهُ لَكَ إِلَّا جَدَلًۢا ﴾ [الزخرف: ٥٨] **))**[(١)] **رواه الترمذي، وقال: حديث حسن. وعن عائشة قالت: قال صلى الله عليه وسلم: ((إن أبغض الرِّجَال إلى الله الألَدُّ الخَصِم)). متفق عليه.**

فمن لم يسلم لرسول الله صلى الله عليه وسلم، نقص من توحيده بقدر خروجه عما جاء به الرسول صلى الله عليه وسلم، فإنه إذ يقول برأيه وهواه، أو يقلد ذا رأى وهوى بغير هدى من الله، يكون قد اتخذه في ذلك: إلهًا غير الله[(٢)]**.**

---

(١) ت: تفسير سورة الزخرف، ح ٣٢٥٣. ق: المقدمة، ب ٧، ح ٤٨- كلاهما عن أبي أمامة. وقال الترمذي: حسن صحيح.

(٢) اعلم أن اتباع الهوى وطاعته، على نوعين: **أولاً**: نوع يكون كفراً، وذلك حين يكون الهوى هو المعبود والمطاع من دون الله، حيث يؤدي بصاحبه إلى ممارسة الكفر وفعله، كما في قوله تعالى: **﴿ولا تطع من أغفلنا قلبه عن ذكرنا واتبع هواه وكان أمره فرطاً﴾** وقوله: **﴿ولا تتبع أهواء الذين كذبوا بآياتنا﴾** وقوله: **﴿ولو اتبع الحق أهواءهم لفسدت السماوات والأرض ومن فيهن﴾** وقوله: **﴿أرأيت من اتخذ إلهه هواه أفأنت تكون عليه وكيلا﴾**، فالهوى الوارد في هذه الآيات يراد به الكفر الأكبر. **ثانياً**: ونوع يكون فسقاً ومعصية دون الكفر، وذلك حين يطاع عن ضعف في معصية لا تخرج صاحبها من الملة، كارتكاب الزنى، وشرب الخمر وغير ذلك من المعاصي التي هي دون الكفر الأكبر، كما في قوله تعالى: **﴿فلا تتبعوا الهوى أن تعدلوا﴾** وقوله: **﴿وأما**

أصل فساد العالم:

وإنما دخل الفساد في العالم من ثلاث فرق:

الملوك الجائرة الذين يعترضون على الشريعة بالسياسات الجائرة، ويقدمونها على حكم الله ورسوله، ويقولون: إذا تعارضت السياسة والشرع قدمنا السياسة.

وأحبار السوء، وهم العلماء الخارجون عن الشريعة بآرائهم الفاسدة في تحليل الحرام وتحريم الحلال، ويقولون: إذا تعارض العقل والنقل قدمنا العقل[1].

والرهبان، وهم جهال المتصوفة المعترضون على حقائق الشرع بالأذواق والكشوفات والمواجيد، التي تتضمن شرع ما لم يأذن به الله، وإبطال دينه الذي جاء به رسوله صلى الله عليه وسلم ويقولون: إذا تعارض الذوق والكشف وظاهر الشرع قدمنا الذوق والكشف.

قال عبد الله بن المبارك:

رأيت الذنوب تميت القلوب	**وقد يورث الذل إدمانها**
وترك الذنوب حياة القلوب	**وخير لنفسك عصيانها**
وهل أفسد الدين إلا الملوك	**وأحبار سوء ورهبانها**

علم الكلام عند أبي حامد الغزالي:

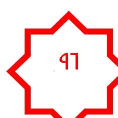
ساق أبو حامد في الإحياء، الخلاف في علم الجدل والكلام، وبين أن للناس فيه غلوا وإسرافًا، في أطراف:

فذهب إلى تحريمه الشافعي، ومالك، وأحمد بن حنبل، وسفيان، وجميع أئمة الحديث من السلف، حتى قال بعضهم: لأن يلقى العبد ربه بكل ذنب سوى الشرك خير من أن يلقاه بالكلام.

وذكر من حجتهم: سكوت الصحابة عنه مع أنهم أعرف وأفصح، وما ذاك إلا لما يتولد عنه من

من خاف مقام ربه ونهى النفس عن الهوى فإن الجنة هي المأوى﴾ أي: نهاها عن المحارم التي تشتهيها. ومنه يعلم أن صاحب الهوى ليس كافراً على الإطلاق، فأحياناً يكون كافراً، وأحياناً يكون فاسقاً عاصياً، بحسب الهوى المتبع، وفيما قد اتبع.

(١) يجعلون من أنفسهم أرباباً على الناس، يعبِّدونهم لشرائعهم وآرائهم وأهوائهم الباطلة، مدعين لأنفسهم حق الطاعة من دون الله، كما قال تعالى فيهم وفي أتباعهم: ﴿ **اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أرباباً من دون الله**﴾، فإنه لما سمع عديّ بن حاتم هذه الآية والنبي يتلوها قال: إنا لسنا نعبدهم، فقال: "أليس يحرمون ما أحل الله فتحرمونه، ويحلون ما حرم الله فتستحلونه؟" قال: بلى، قال: "فتلك عبادتهم". انظر تفسير البغويّ وغيره، قال الترمذي: هذا حديث غريب لا نعرفه إلا من حديث عبد السلام بن حرب.



الشر. وقوله صلى الله عليه وسلم:((هلك المتنطعون))[1] أي: المتعمقون في البحث والاستقصاء. وأنه لو كان من الدين لأمر به الرسول صلى الله عليه وسلم، وبينه وأثنى على أهله.

وذهب آخرون إلى أنه فرض، إما على الكفاية، وإما على الأعيان.

ثم بين رأيه، فذكر أن فيه منفعة وفيه مضرة. ففي وقت الانتفاع: حلال، أو مندوب، أو واجب. وفي وقت الاستضرار ومحله: حرام.

وبيَّن أن من ضرره في جانب الحق إثارة الشبهات، وتحريك العقائد، وإزالتها عن الجزم والتصميم. وأما في جانب البدعة ففي تأكيد اعتقادها وتثبيتها في الصدور، وإن كان هذا الضرر ينبعث من التعصب الذي يثور من الجدل. وبين أنه قد يقال: إن من منفعته كشف الحقائق ومعرفتها. قال: وليس في الكلام وفاء بهذا المطلب الشريف، ولعل التخليط والتضليل أكثر من الكشف والتعريف.

وذكر أن كلامه هذا كلام رجل خبر الكلام وتعمق فيه، ثم بين أن ما يترتب على الكلام من إيضاح لبعض الأمور، فإن ذلك على وجه الندور، والسلف لم يكرهوا الكلام لمجرد كونه اِصطلاحًا جديدًا على معان صحيحة، ولا كرهوا الدلالة على الحق، والمحاجة لأهل الباطل، بل لاشتمالِهِ على أمور كاذبة، مخالفة للكتاب والسنة، فأهله يزعمون أنهم يدفعون به الشبه والشُّكُوك، وما زادت الشكوك والشبه إلا به! لأنه من المحال ألا يحصل الشفاء والهدى من الكتاب والسنة ويحصل من كلام هؤلاء.

فساد منهج المتكلمين:

فالواجب أن يجعل كلام الله ورسوله هو الأصل، ويجعل أقوال الناس التي توافقه وتخالفه مجملة متشابهة، يقبل منها ما وافق خبر الرسول صلى الله عليه وسلم، ويرد منِهَا ما خالفه. فألفاظ: المركب، الجسم، الجوهر، العرض، الجهة، التحيز، قصد بها أهل هذا الاصطلاح معان لم يعبر غيرهم عنها بها. فالتركيب مثلاً صار له عدة معان، من بينها التركيب من الذات والصفات، وقد سموا هذا تركيبًا لينفوا به صفات الرب تعالى!

وهذا اِصطلاح منهم لا يعرف في اللغة ولا في كلام الشارع فيرد عليهم، ويقال أليس العبرة بالمعاني لا بالألفاظ؟ فلو اصطلح على تسمية اللبن خمرًا لم يحرم بهذه التسمية.

(١) صحيح مسلم باب هلك المتنطعون رقم (٢٦٧٠).

وسبب الضلال: الإعراض عن كلام الله ورسوله، والاشتغال بكلام اليونان والآراء المختلفة، وإنما سمي هؤلاء أهل الكلام لأنهم لم يفيدوا علمًا لم يكن معروفًا، وإنما أتوا بزيادة كلام قد لا يفيد، وهو ما يضربونه من القياس لإيضاح ما علم بالحس.

فكل من قال برأيهم مع وجود النص، أو عارض النص بالمعقول فقد ضاهى إبليس حيث لم يسلم لما أمر به بل قال: ﴿ أَنَا۠ خَيۡرٞ مِّنۡهُ خَلَقۡتَنِي مِن نَّارٖ وَخَلَقۡتَهُۥ مِن طِينٖ ﴾ [ص: ٧٦]. وقال تعالى: ﴿ قُلۡ إِن كُنتُمۡ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِي يُحۡبِبۡكُمُ ٱللَّهُ وَيَغۡفِرۡ لَكُمۡ ذُنُوبَكُمۡ ﴾ [آل عمران: ٣١]، وقال تعالى: ﴿ فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤۡمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيۡنَهُمۡ ثُمَّ لَا يَجِدُواْ فِيٓ أَنفُسِهِمۡ حَرَجٗا مِّمَّا قَضَيۡتَ وَيُسَلِّمُواْ تَسۡلِيمٗا ﴾[1] [النساء: ٦٥].

الشك والحيرة لمن عدل عن الكتاب والسنة إلى علم الكلام

قال المصنف رحمه الله تعالى: فيتذبذب بين الكفر والإيمان، والتصديق والتكذيب، والإقرار والإنكار، موسوساً تائهاً شاكاً، لا مؤمناً مصدقاً ولا جاحداً مكذباً

يتذبذب: يضطرب ويتردد. هذا حال من عدل عن الكتاب والسنة إلى علم الكلام المذموم، وأراد أن يجمع بينه وبين الكتاب والسنة، وعند التعارض يتأول النص، ويرده إلى الآراء المختلفة، فيؤول أمرُه إلى الشك والحيرة.

عدول أئمة المتكلمين إلى سنة سيد المرسلين:

فابن رشد الحفيد يقول في (تهافت التهافت): ومن ذا الذي قال في الإلهيات شيئاً يعتد به والآمدي وقف في المسائل الكبار حائراً، والغزالي ينتهي أمره إلى التوقف والحيرة في المسائل الكلامية، ثم يقبل على السنة فيموت وصحيح البخاري على صدره!!

---

(١) قال ابن القيم في كتابه التبيان في علوم القرآن: أقسم سبحانه بنفسه المقدسة قسماً مؤكداً بالنفي قبله على عدم إيمان الخلق حتى يحكِّموا رسوله في كل ما شجر بينهم من الأصول والفروع وأحكام الشرع ..، و لم يثبت لهم الإيمان بمجرد هذا التحكيم حتى ينتفي عنهم الحرج وهو ضيق الصدر، وتنشرح صدورهم لحكمه كل الانشراح، وتقبله كل القبول، و لم يثبت لهم الإيمان بذلك أصلاً حتى ينضاف إليه مقابل حكمه بالرضا والتسليم وعدم المنازع وانتفاء المعارضة والاعتراض.

والرازي يقول: لقد تأملت الطرق الكلامية والمناهج الفلسفية فما رأيتها تشفي عليلاً، ولا تروي غليلاً، ورأيت أقرب الطرق طريقة القرآن، إلى أن قال: ومن جرب مثل تجربتي عرف مثل معرفتي. وهو القائل:

نهاية إقدام العقول عقال ... وغاية سعي العالمين ضلال

ولم نستفد من بحثنا طول عمرنا ... سوى أن جمعنا فيه قيل وقالوا

والجويني ينهى أصحابه عن الاشتغال بالكلام، ويقول عند موته: لقد خضت البحر الخضم، وخليت أهل الإسلام وعلومهم، ودخلت في الذي نَهَوْنِي عنه، والآن فإن لم يتداركني ربي برحمته، فالويل لابن الجوينى! وهأنذا أموت على عقيدة أمي! أو قال: على عقيدة عجائز نيسابور.

وقال أبو يوسف: من طلب الدين بالكلام تزندق.

وقال الشافعي: حُكْمِي في أهل الكلام أن يُضربوا بالجريد والنعال، ويطاف بهم في القبائل والعشائر، ويقال: هذا جزاء من ترك الكتاب والسنة، وأقبل على الكلام. وقال: لقد اطلعت من أهل الكلام على شيء ما ظننتُ مسلمًا يقوله، ولأن يبتلى العبد بكل ما نهى الله عنه- ما خلا الشرك بالله- خير له من أن يبتلى بالكلام.

وقال آخر: أضطجع على فراشي، وأضع الملحفة على وجهي، وأقابل بين حجج هؤلاء وهؤلاء حتى يطلع الفجر، ولم يترجح عندي شيء.

والدواء النافع لمثل هذا المرض هو التوجه إلى الله بطلب الهداية، إذ حياة القلب بالهداية، فقد كان صلى الله عليه وسلم إذا قام من الليل يفتتح الصلاة بهذا الدعاء:((اللهم رب جبرائيل وميكائيل واسرافيل، فاطر السماوات والأرض، عالم الغيب والشهادة أنت تحكم بين عبادك فيما كانوا فيه يختلفون اهدني لما اختلف فيه من الحق بإذنك إنك تهدي من تشاء إلى صراط مستقيم))[1] (أخرجه مسلم).

---

(١) قال الشيخ حافظ حكمي في كتابه (اعتقاد الطائفة الناجية المنصورة): الصراط المستقيم هو دين الإسلام الذي أرسل الله به رسله، وأنزل به كتبه، و لم يقبل من أحد سواه، ولا ينجو إلا من سلكه، ومن سلك غيره تشعبت عليه الطرق، وتفرقت به السبل.

وقد خط النبي صلى الله عليه وسلم خطاً ثم قال: "هذا سبيل الله مستقيماً"، وخطَّ خطوطاً عن يمينه وشماله، ثم قال: "هذه السبل ليس منه سبيل إلا عليه شيطان يدعو إليه"، ثم قرأ: ﴿**وأن هذا صراطي مستقيماً فاتبعوه، ولا تتبعوا السبل فتفرق بكم عن سبيله**﴾. وقال صلى الله عليه وسلم: "ضرب الله مثلاً صراطاً مستقيماً، وعلى جنبي الصراط سوران فيهما أبواب مفتحة، وعلى الأبواب ستور مرخاة، وعلى باب الصراط داعٍ يقول: يا أيها الناس ادخلوا الصراط المستقيم جميعاً ولا تفرقوا، وداعٍ يدعو من

فهو يتوجه إلى ربه بربوبيته لجبرائيل وميكائيل وإسرافيل، بطلب الهداية التي بها حياة القلب، وقد وكل سبحانه هؤلاء الثلاثة بالحياة:

فجبرائيل بالوحي الذي به حياة القلوب.

وميكائيل بالقطر الذي به حياة الأبدان وسائر الحيوان.

وإسرافيل بالنفخ في الصور الذي هو سبب الحياة الثانية بعد الموت.

فالتوسل إلى الله بربوبيته لهم له أعظم الأثر في حصول المطلوب.

التفويض إلى الله فيما اشتبه علينا علمه

قال المصنف رحمه الله تعالى: ونقول: الله أعلم فيما اشتبه علينا علمه.

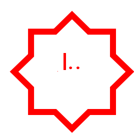
لا يسلَم في دينه إلا من سلم لله ورسوله، وردَّ علم ما اشتبه عليه إلى عالمه، فكل من تكلم بغير علم فإنما يتبع هواه، قال تعالى: ﴿ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ ٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ بِغَيْرِ هُدًى مِّنَ ٱللَّهِ ﴾ [القصص:٥٠].

وقال تعالى: ﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُجَٰدِلُ فِى ٱللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَيَتَّبِعُ كُلَّ شَيْطَٰنٍ مَّرِيدٍ ۝ كُتِبَ عَلَيْهِ أَنَّهُۥ مَن تَوَلَّاهُ فَأَنَّهُۥ يُضِلُّهُۥ وَيَهْدِيهِ إِلَىٰ عَذَابِ ٱلسَّعِيرِ ﴾ [الحج: ٣، ٤].

وقال تعالى: ﴿ ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ فِىٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَٰنٍ أَتَىٰهُمْ ۖ كَبُرَ مَقْتًا عِندَ ٱللَّهِ وَعِندَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ۚ كَذَٰلِكَ يَطْبَعُ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ قَلْبِ مُتَكَبِّرٍ جَبَّارٍ ﴾ [غافر: ٣٥]. وقال تعالى: ﴿ قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّىَ ٱلْفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَٱلْإِثْمَ وَٱلْبَغْىَ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَأَن تُشْرِكُوا۟ بِٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ سُلْطَٰنًا وَأَن تَقُولُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾ [الأعراف: ٣٣]. وقد أمر الله نبيه أن يرد علم ما لم يعلم إليه. قال تعالى:

﴿ قُلِ ٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثُوا۟ ۖ لَهُۥ غَيْبُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ﴾ [الكهف: ٢٦] . وقال تعالى: ﴿ قُل رَّبِّىٓ أَعْلَمُ بِعِدَّتِهِم مَّا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا قَلِيلٌ ﴾ [الكهف: ٢٢] .

فوق الصراط، فإذا أراد الإنسان أن يفتح شيئاً من تلك الأبواب قال: ويحك لا تفتحه، فإنك إن تفتحه تلجه. فالصراط الإسلام، والسوران حدود الله، والأبواب المفتحة محارم الله، وذلك الداعي على رأس الصراط كتاب الله، والداعي من فوق الصراط واعظ الله في قلب كل مسلم". رواه أحمد، والحاكم، وقال صحيح على شرط مسلم، ووافقه الذهبي. ا-هـ.



وعندما سئل عن أطفال المشركين قال: ((الله أعلم بما كانوا عاملين)) .[1]

وقال عمر رضي الله عنه: يا أيها الناس اتهموا رأيكم على دينكم، لقد رأيتني يوم أبي جندل ولو أستطيع أن أرد أمر رسول الله لرددته.

وقال أيضًا: السنة ما سَنّه الله ورسوله، لا تجعلوا خطأ الرأي سنة للأمة.

وقال أبو بكر رضي الله عنه: أي أرض تقلني وأي سماء تظلني إن قلت في آية من كتاب الله برأيي، أو بما لا أعلم.

---

(١)خ: الجنائز، ب ٩١، ح ١٣١٧ و ١٣١٨، والقدر، ب ٢، ح ٦٢٢٤- ٦٢٢٦. م: القدر، ب ٦، ح ٢٣- ٢٨. د: السنة، ب ٥، ح ٢١٣٨. ق: الجنائز: ب ٠ ٦، ح ١٩٥١،١٩٩٤- عن أبي هريرة وابن عباس.

المبحث التاسع : حجية أخبار الآحاد

قال المصنف رحمه الله: وجميع ما صح عن رسول الله صلى الله عليه وسلم من الشرع والبيان كله حق.

فقد أشار به إلى الرد على الجهمية والمعطلة والمعتزلة والرافضة الذين أحالوا الناس إلى ما سموه بالقواطع العقلية وقدموها على نصوص الوحي، وعزلوا لأجلها نصوص الكتاب والسنة. فقد قالوا: إن الأخبار قسمان:

المتواتر: وهو وإن كان قطعي السند فهو غير قطعي الدلالة، لأن الدلالة اللفظية لا تفيد اليقين.

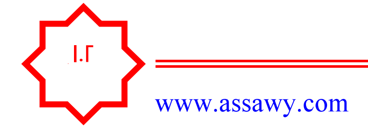
والآحاد: وهي لا تفيد العلم فلا يحتج بها من جهة طَرِيقهَا ولا من جهة متنها. وهكذا أقفرت قلوبهم من الاهتداء بالنصوص، ولم يَظْفَرُوا بالعقول الصحيحة المؤيدة بالفطرة السليمة بل كل فريق من أرباب البدع يعرض النصوص على بدعته وما ظنّه معقولا، فما وافقه قال إنه محكم وقبله، واحتج به، وما خالفه قال إنه متشابه، ثم رده وسمى الرد تفْوِيضًا، أو حرفة وسمى التحريف تأوِيلاً.

أما طريقة أهل السنة فهي الاستمساك بالنصوص وعدم معارضتها لا بالمعقولات، ولا بأقوال الرجال. قال تعالى: ﴿ وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ﴾ [الأحزاب: ٣٦].

قال البخاري رحمه الله: سمعت الحميدي يقول: كنا عند الشافعي رحمه الله فأتاه رجل فسأله عن مسألة فقال: قضى فيها رسول الله صلى الله عليه وسلم كذا وكذا، فقال رجل للشافعي: ما تقول أنت؟ قال: سبحان الله! تراني في كنيسة! تراني في بيعة! تراني على وسطى زنار؟! أقول لك قضى رسول الله صلى الله عليه وسلم وأنت تقول: ما تقول أنت؟ ونظائر ذلك في كلام السلف كثير.

وخبر الواحد إذا تلقته الأمة بالقبول عملاً وتصديقًا، فهو يفيد العلم اليقيني عند جماهير الأمة، وهو أحد قسمي التواتر، ولم يكن بين السلف في ذلك نزاع.

كخبر عمر: ((إنما الأعمال بالنيات)) ، وخبر أبي هريرة: ((لا تنكح المرأة على عمتها ولا على



خالتها))، وكخبر من أتى مسجد قباء، وأخبر أن القبلة تحولت إلى الكعبة، فاستداروا إليها[1] .

وقد كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يرسل رسله آحادًا، ويرسل كتبه مع الآحاد، وما قال أحد من المرسلِ إليهم لا نقبله لأنه خبر واحد. وقد قال تعالى: ﴿ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرۡسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلۡهُدَىٰ وَدِينِ ٱلۡحَقِّ لِيُظۡهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ ﴾ [التوبة: ٣٣]. فلا بد من أن يحفظ الله حججه وبيناته على خلقه لئلا تبطل.

ولهذا فضح الله من كذب على رسوله في حياته وبعد وفاته، وبيَّن حاله للناس.

قال سفيان بن عيينة: ما ستر الله أحدًا يكذب في الحديث. وقال عبد الله بن المبارك: لو هم رجل في البحر أن يكذب في الحديث لأصبح والناس يقولون: فلان كذاب.

وخبر الواحد، وإن كان يحتمل الصدق والكذب، ولكن التفريق بين صحيح الأخبار وسقيمها لا يناله أحد إلا بعد أن يكون قد قضى معظم وقته مشتغلا بالحديث، والبحث عن سير الرواة، ليقف على أحوالهم، وشدة حذرهم من الطغيان والزلل، فقد كانوا بحيث لو قتلوا لا يسامحون أحدًا في كلمة يقولها على رسول الله صلى الله عليه وسلم، فضلاً عن أن يفعلوا ذلك بأنفسهم!

فمن وقف على هذا من شأنهم، وخبر صدقهم وورعهم وأمانتهم، ظهر له العلم فيما نقلوه ورووه، ذلك أن عندهم من العلم بأحوال نبيهم وسيرته وأخباره، ما ليس لغيرهم به شعور، فضلاً عن أن يكون مَعْلُومًا أو مظنوناً، فهم نقَّاد الأخبار، وصيارفة الحديث.

ولكن النفاة جعلوا قوله تعالى: ﴿ لَيۡسَ كَمِثۡلِهِۦ شَيۡءٌ ﴾ [الشورى:١١]. مستندا لهم في رد الأحاديث الصحيحة، ففهموا من أخبار الصفات أن إثباتها يقتضي التمثيل بما للمخلوقين، وهو ما لم يقل به أحد، ثم استدلوا على بطلان ذلك بقوله: ﴿ لَيۡسَ كَمِثۡلِهِۦ شَيۡءٌ ﴾ تحرِيفًا للنصَّين، ويصنفون في ذلك الكتب، ويقولون: هذه أصول دين الإسلام الذي أمر الله به. ويقرأون كَثيرًا من القُرآن، ويفوضون معناه إلى الله تعالى، غير متدبرين لبيان الرسول صلى الله عليه وسلم لذلك.

وقد ذم الله أهل الكتاب الأول على نسبة ما كتبوه بأيديهم إلى الله، وعلى اكتسابهم بذلك. قال تعالى:

---

(١) وحديث معاذ –لما أرسله النبي صلى الله عليه وسلم إلى اليمن ليبلغ أهلها التوحيد– فيه دليل على حجية خبر الواحد في العقائد، ولو لزم لتبليغ العقائد شرط التواتر –كما يزعم بعضهم – لأمر النبي صلى الله عليه وسلم أصحابه أن يبلغوا عنه التوحيد والعقائد وهم جماعات، ولما لم يحصل هذا وحصل خلافه، عُلِم أنه شرط باطل لا أصل له في ديننا.

﴿ وَمِنۡهُمۡ أُمِّيُّونَ لَا يَعۡلَمُونَ ٱلۡكِتَٰبَ إِلَّآ أَمَانِيَّ وَإِنۡ هُمۡ إِلَّا يَظُنُّونَ ﴾ [البقرة:٧٨]، **والأمَانِي هي التلاوة المجردة. ثم قال تعالى:** ﴿ فَوَيۡلٌ لِّلَّذِينَ يَكۡتُبُونَ ٱلۡكِتَٰبَ بِأَيۡدِيهِمۡ ثُمَّ يَقُولُونَ هَٰذَا مِنۡ عِندِ ٱللَّهِ لِيَشۡتَرُواْ بِهِۦ ثَمَنًا قَلِيلًاۖ فَوَيۡلٌ لَّهُم مِّمَّا كَتَبَتۡ أَيۡدِيهِمۡ وَوَيۡلٌ لَّهُم مِّمَّا يَكۡسِبُونَ ﴾ [البقرة: ٧٩].

السنة نوعان:

ويشير رحمه الله بقوله: (من الشرع والبيان) إلى أن ما صح عن رسول الله صلى الله عليه وسلم، نوعان:

-شرع ابتدائي.

-بيان لما شرعه الله في كتابه. وكل ذلك حق واجب الاتباع.

أسئلة التقويم الذاتي

س١- توحيد الإلهية متضمن لتوحيد الربوبية، دون العكس. وضح ذلك مع الاستدلال ؟

س٢- ما مراتب الشهادة بكلمة التوحيد ؟ وكيف بيّن الله تعالى هذه الشهادة ؟

س٣- ضع علامة (✓) أو (×) أمام العبارات الآتية :

المشركون الأوائل كانوا يسلمون بالألوهية ، وينازعون في الربوبية . ()

توحيد الربوبية متضمن لتوحيد الإلهية ، دون العكس . ( )

يصح تقسيم التوحيد إلى ثلاثة أنواع: توحيد عامة، وخاصة، وخاصة الخاصة. ( )

يستدل خواص المؤمنين بأسماء الله وصفاته على أفعاله . ( )

خرق العادة دليل كرامة العبد على ربه . ( )

إذا صح الدين علماً وعملاً، فلابد أن يوجب خرق العادة إذا احتاج إلى ذلك صاحبه . ( )

الكشف المتعلق بكلمات الله الشرعية هو العلم بالحوادث الكونية . ()

الفراسة الإيمانية تحصل بالجوع والسهر والتخلي . ( )

س٤- إجابة الله لدعاء العباد من جنس ربوبيته لهم . اشرح هذه العبارة موضحاً صور إجابة الله تعالى للدعاء؟

س٥- كيف ترد على الشبهات الآتية :

إذا اقتضت المشيئة المطلوب ، فلا حاجة إلى الدعاء .

الداعي أثّر في ربه حتى أعطاه سؤله .

قد يسأل العبد فلا يعطى ، أو يعطى غير ما سأل ، مما ينافي استجابة الدعاء التي وعد الله تعالى بها .

الأخذ بالأسباب قدح في التوكل .

س٦- متى يكون الاستشفاع بالنبي صلى الله عليه وسلم فى الدعاء ممنوعاً ؟ ومتى يكون مشروعاً؟

س٧- اذكر أدلة الكتاب والسنة على حرمة صناعة التنجيم ، والكهانة ، والسحر ، ثم وضح أحكام أهل العلم فى أصحاب هذه الصناعات ؟

س٨- وضح معنى الولاية ، ومراتبها ، والفرق بين ولاية الله تعالى لعباده ، وبين ولاية المخلوق لغيره؟

س٩- التفاضل بين الناس يكون على أساس التقوى والدين . اشرح ذلك مبيناً فساد المعايير الأخرى للتفاضل؟

س١٠- قد يجتمع فى المؤمن ما يستلزم موالاته من وجه ، ومعاداته من وجه . وضح ذلك ، مع بيان منزلة الحب والبغض فى الله ؟

س١١- ما الفرق بين المعجزة والكرامة ؟ وما أنواع الأمور الخارقة للعادة ؟ وكيف يتنوع الكشف والتأثير بتنوع كلمات الله ؟

س١٢- من شروط ولوازم الإيمان الانقياد والتسليم لأمر النبي صلى الله عليه وسلم دون معارضة أو تعقيب . اشرح ذلك مع ذكر الأدلة ؟

س١٣- ما موقف أهل السنة من خبر الآحاد الصحيح ؟ وكيف يرد على منكري حجية أخبار الآحاد فى العقائد ؟

الفصل الثالث : توحيد الأسماء والصفات

الأهداف الخاصة

يتوقع منك عزيزي الدارس بعد دراستك لهذا الفصل أن تكون ملماً بما يلي :

(١) بعض القواعد الكلية فى باب الصفات :

أ. نفى التشبيه وبطلان التعطيل.

ب. أزلية صفات الله تعالى.

(٢) مسألة كلام الله عز وجل.

(٣) استغناؤه عن خلقه ، وإحاطته بهم ، وعلوه عليهم.

(٤) مسألة رؤية الله تعالى.

(٥) علم الله وقدرته.

(٦) من أسماءه تعالى : الأول والآخر.

(٧) ومن أسماءه تعالى : الحى القيوم.

(٨) العرش والكرسى.

(٩) وصف الله عز وجل بالرضا والغضب.

(١٠) ثبوت صفة الخلة لله عز وجل.

(١١) تنـزيه الله عن الظلم.

(١٢) تنـزيه الله عن الحدود والغايات والأركان والأعضاء والأدوات.

المبحث الأول : قواعد كلية في باب الصفات

القاعدة الأولى : نفي التشبيه وبطلان التعطيل

قال المصنف رحمه الله تعالى: ولا شيء مثله .

اتفق أهل السنة والجماعة على أن الله ليس كمثله شيء، لا في ذاته، ولا في صفاته، ولا في أفعاله.

ولنفي التشبيه معنيان :

أحدهما: وهو الصحيح: أن خصائص الرب لا يوصف بها شيء من المخلوقات، ولا يماثله شيء من المخلوقات في شيء من صفاته. فمن جعل صفات الخالق كصفات المخلوق، فهو المشبه المبطل، ومن جعل صفات المخلوق كصفات الخالق فقد ضاهى النصارى في كفرهم .

والثاني :أن يراد به ألا يثبت لله شيء من الصفات، فلا يقال: ليست له قدرة، ولا علم، ولا حياة، لاتصاف العبد بها، وهذا غاية في التعطيل والفساد .

النفي والتشبيه مرضان من أمراض القلوب

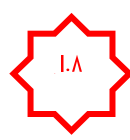
قال المصنف رحمه الله تعالى: ومن لم يَتَوَقَّ النفي والتشبيه زلَّ ولم يصب التنزيه.

وأمراض القلوب نوعان :

مرض الشهوة: ومثاله قوله تعالى: ﴿ تَخْضَعْنَ بِٱلْقَوْلِ فَيَطْمَعَ ٱلَّذِى فِى قَلْبِهِۦ مَرَضٌ ﴾[الأحزاب: ٣٢].

مرض الشبهة: ومثاله قوله تعالى: ﴿ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَهُمُ ٱللَّهُ مَرَضًا ﴾ [البقرة: ١٠].

ومرض الشبهة أردأ من مرض الشهوة، لأن مرض الشهوة يرجى له الشفاء بقضاء الشهوة، وأما مرض الشبهة فلا شفاء له إن لم يتداركه الله برحمته. والشبه التي في باب الصفات نفيها وتشبيهها، وشبهة النفي أردأ، لأنها رد وتكذيب لما جاء به الرسول صلى الله عليه وسلم، وشبه التشبيه غلو ومجاوزة للحد فيما جاء به الرسول صلى الله عليه وسلم، وكلاهما كفر، قال تعالى: ﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ [الشورى:١١].



دين الإسلام وسط بين التشبيه والتعطيل :

فدين الإسلام بين التشبيه والتعطيل، وما أحسنَ المثل المضروب للمثبت للصفات من غير تشبيه، ولا تعطيل، باللبن الخالص السائغ للشاربين، يخرج من بين فرث التعطيل ودم التشبيه. فالمعطل يعبد عدماً، والمشبه يعبد صنماً، وليس في ما وصف الله به نفسه ولا وصفه به رسوله تشبيه .

فيجب أن يوصف الله بما وصف به نفسه، ووصفه به رسوله، من غير تشبيه، فلا يقال: سمع كسمعنا، ولا بصر كبصرنا ونحوه، ومن غيرتعطيل، فلا يُنفى عنه ما وصف به نفسه، أو وصفه به رسوله صلى الله عليه وسلم، فإن ذلك تعطيل، وهذا المعنى مستفاد من قوله تعالى:

﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ﴾ **فهو رد على المشبهة،** ﴿ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴾ **رد على المعطلة، فهو موصوف بصفات الكمال وليس له فيها شبه. فالمخلوق وإن كان يوصف بأنه سميع بصير، فليس سمعه وبصره كسمع الرب وبصره، ولا يلزم من إثبات الصفة تشبيه، إذ صفات الخالق كما يليق به وصفات المخلوق كما يليق به. ولا ننفي عن الله شيئاً مما وصف به نفسه، أو وصفته به رسله، فإن من نفى شيئاً من ذلك فقد كفر بما أنزل على محمد[(١)]، كما أن من شبهه بخلقه كان كافراً به .**

قال نعيم بن حماد الخزاعي شيخ البخاري: من شبه الله بخلقه فقد كفر، ومن جحد ما وصف الله به نفسه فقد كفر، وليس في ما وصف الله به نفسه ولا ما وصفه به رسوله تشبيهاً .

وله المثل الأعلى في السماوات والأرض:

وصف الله نفسه بأن له المثل الأعلى: وهو الكمال المطلق المتضمن للأمور الوجودية والمعاني الثبوتية التي كلما كانت أكثر وأكمل كان الموصوف بها أعلى وأكمل من غيره، وجعل مثل السوء المتضمن

(١) التكفير هنا ليس على إطلاقه فإنه لا بد من التفريق بين نفي ونفي، فالنفي الذي يكون مؤداه إلى نسب الضعف والعجز أو النقص لله عز وجل، كنفي العلم والقدرة، والحياة، وأنه سميع بصير وغير ذلك، فهذا النفي كفر وصاحبه كافر خارج من الملة وإن ادعى أن نفيه ناتج عن تأويل! أما من نفى صفة من صفات الله الفعلية وصرفها عن ظاهرها متأولاً، كالنـــزول والمجيء، والإتيان، والاستواء وغير ذلك مما لا يستفاد من نفسه نسب العجز أو النقص لله عز وجل، فهذا التأويل وإن كان خطأ لا يجوز الإقدام عليه، إلا أنه لا يبلغ بصاحبه إلى حد الكفر الأكبر المخرج من الملة، وتكفير من كانت هذه صفته يستلزم تكفير كثير من علماء الأمة المشهود لهم بالخير والفضل، الذين أخطأوا في هذا الأمر.

ثم إن الأشاعرة قد عرفوا بتأولهم ونفيهم لكثير من صفات الله الفعلية، ومع ذلك لا نعرف أحداً من أهل العلم قال بكفرهم، وإخراجهم من الملة.

للعيوب والنقائص لأعدائه. قال تعالى: ﴿ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ مَثَلُ السَّوْءِ ۖ وَلِلَّهِ الْمَثَلُ الْأَعْلَىٰ ﴾ [النحل:٦٠]، فمن سلب صفات الكمال عن الله عز وجل فقد جعل له مثل السوء، ونفى عنه ما وصف به نفسه من المثل الأعلى .

وقد اختلفت عبارات المفسرين في المثل الأعلى، ووفّق البعض بينها فقال: المثل الأعلى: يتضمن الصفة العليا، وعلم العالمين بها، ووجودها العلمي، والخبر عنها وذكرها وعبادة الرب تعالى بواسطة العلم والمعرفة القائمة بقلوب عابديه وذاكريه .

فههنا أمور أربعة :

- ثبوت الصفات العليا له عز وجل سواء أعلمها العباد أم لا .
- وجودها في العلم والشعور، أي ما في قلوب عابديه من محبته وتعظيمه .
- ذكر صفاته وتنزُّهها عن العيوب والنقائص .
- محبة الموصوف بها وتوحيده.

بطلان التشبيه:

قال المصنف رحمه الله تعالى: ومن وصف الله بمعنى من معاني البشر فقد كفر، من أبصر هذا اعتبر، وعن مثل قول الكفار انزجر، علم أنه بصفاته ليس كالبشر .

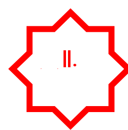
نبه الشيخ بذلك إلى أنه تعالى بصفاته ليس كالبشر، نفياً للتشبيه، فإن الله:﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ ﴾ [الشورى١١].

والتشبيه نوعان :

تشبيه الخالق بالمخلوق: وهو الذي يتعب أهل الكلام في رده وإبطاله، وأهله في الناس أقل من النوع الثاني .

تشبيه المخلوق بالخالق: كعبَّاد الشمس والقمر والأصنام، وكعباد المشايخ والملائكة وعزير... إلخ[١] ،

(١) وفي هذا النوع رد على من يشبه المخلوق بالخالق إذ ينسب إليه من خصائص الإلهية ما لا يستحقه إلا الله تعالى، فيشرك معه



وهم الذين أرسلت الرسل لدعوتهم إلى عبادة الله وحده .

قال المصنف رحمه الله تعالى: لا تبلغه الأوهام، ولا تدركه الأفهام.

توهمت الشيء ظننته، وفهمت الشيء علمته. والمعنى لا ينتهي إليه وهم، ولا يحيط به علم، فلا يعلم كيف الله إلا الله، وإنما نعرفه سبحانه بصفاته وأسمائه . قال تعالى: ﴿ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلۡحَيُّ ٱلۡقَيُّومُۚ لَا تَأۡخُذُهُۥ سِنَةٞ وَلَا نَوۡمٞ﴾ [البقرة: ٢٥٥].

الرَّد على المشبهة

قال المصنف رحمه الله تعالى: ولا يشبه الأنام

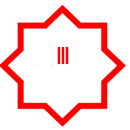
هذا رد لقول المشبهة وليس نفياً للصفات كما يقول أهل البدع. قال تعالى﴿: لَيۡسَ كَمِثۡلِهِۦ شَيۡءٞ ﴾

[الشورى:١١].

وقال أبو حنيفة: لا يشبه شيئاً من خلقه، وصفاته كلها خلاف صفات المخلوقين، يعلم لا كعلمنا، ويقدر لا كقدرتنا، ويرى لا كرؤيتنا. وقال إسحاق بن راهويه: من وصف الله بشيء فشبه صفاته بصفات أحد من خلق الله، فهو كافر بالله العظيم .

وعلامة الجهمية وأتباعهم، أنهم يسمون أهل السنة- لإثباتهم الصفات- مشبهة، وما من أحد من نفاة شيء من الأسماء والصفات، إلا يسمي المثبت لها مشبهاً، ولهذا فإن كتب نفاة الصفات من الجهمية، والمعتزلة، والرافضة، ونحوهم، كلها مشحونة بتسمية مثبتي الصفات مجسمة ومشبهة، وقد غلب هذا الاستعمال عند المتأخرين من غالب الطوائف، فأصبح نفي التشبيه عندهم يساوي نفي الصفات. ولكن المراد به عند أهل السنة أنه تعالى لا يشبه المخلوق في أسمائه، وصفاته، وأفعاله. قال نعيم بن حماد: من شبه الله بشيء من خلقه فقد كفر، ومن أنكر ما وصف الله به نفسه فقد كفر. وليس فيما وصف الله به نفسه ولا رسوله تشبيه. والعجيب أن غلاة نفاة الصفات يقولون: إن أصل الفلسفة هي التشبيه بالإله

في العبودية ؛ وذلك مثل طاعة هذا المخلوق لذاته، وتقديم أمره وحكمه على أمر الله وحكمه، وعقد الولاء والبراء عليه، وغير ذلك من الخصائص التي تعتبر من ضروب تشبيه المخلوق بالخالق في أخص خصائصه، وهذا النوع من الشرك رغم استفحاله وانتشاره بين الناس قلَّ من ينتبه أو يشير إليه في هذا الباب .



على قدر الطاقة. وقد يوافقهم البعض على ذلك مستدلاً بحديث: تخلَّقوا بأخلاق الله)[1] وهو حديث مكذوب، فإذا كان هؤلاء ينفون الصفات، فبأي شيء يتخلق العبد على زعمهم. وكما أن الله عز وجل لا يشبه شيئاً من مخلوقاته، فإنه لا يشبهه شيء من مخلوقاته، وقد خالف في هذا النصارى والحلولية والاتحادية .

بطلان التعطيل:

لقد أدخل نفاة الصفات، نفي الصفات في مسمى التوحيد، كالجهم بن صفوان، ومن وافقه، لأن إثبات الصفات في زعمهم يستلزم تعدد الواجب! وهو غاية التعطيل والفساد، لأن إثبات ذات مجردة من جميع الصفات لا يتصور لها وجود في الخارج، وقد أفضى هذا القول بقوم إلى الحلول والاتحاد.

ولقد أخذ المعطلة نفي المماثلة وانتهوا به إلى تعطيل سائر الصفات، فأحسنوا في التنـزيه، وأساءوا في التعطيل، ويرد عليهم من وجوه: إن الله قد سمى نفسه بأسماء، وسمى بعض عباده بها، وكذلك بالنسبة لصفاته، وليس المسمَّى كالمسمِّي، ولا يلزم من إثبات هذه الصفات مساواة الخالق بالمخلوق. فالله هو الحي، وقد قال في مخلوقاته: ﴿ يُخْرِجُ ٱلْحَيَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ ﴾ [الروم: ١٩]، وهو السميع البصير، وقد قال في الإنسان: ﴿ فَجَعَلْنَٰهُ سَمِيعًۢا بَصِيرًا ﴾ [الإنسان: ٢]، وهو الملك وقال: ﴿ وَكَانَ وَرَآءَهُم مَّلِكٌ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصْبًا ﴾ [الكهف: ٧٩].

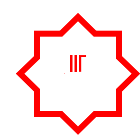
ثم إن هؤلاء النفاة يحتج عليهم بما أثبتوه من الصفات، كالعلم والقدرة والحياة، فما كان جواباً لهم عن إثبات هذه الصفات يصلح جواباً لأهل السنة عما نفاه هؤلاء منها، فيقال لأحدهم: قل فيما نفيت من الصفات مقالك فيما أثبت منها.

أصل خطأ المعطلة والرد عليهم:

وأصل خطئهم في هذه المسألة توهمهم أن هذه الأسماء العامة الكلية، يكون مسماها المطلق الكلي هو بعينه ثابتاً في هذا المعين وهذا المعين.

---

(١) لم أجده في كتب السنة، وإنما ذكره بعض الصوفية في بعض كتبهم كأشرف علي التهانوي في كتابه: (أعمال قرآني في ذكر أسرار أسماء رباني)، وقال الشيخ الألباني في تخريج الشرح: لا نعرف له أصلاً في كتب السنة إلخ .. الطبعة السادسة.



وليس كذلك، فإن ما يوجد في الخارج لا يكون إلا معيناً مختصاً، فهذه الأسماء إذا سمي بها كان معناها مختصاً به، وإذا سمي بها العبد كان مسماها مختصاً به، فالقدر المشترك هو المشابهة في أصل المعنى فقط.

ذلك أن المخاطب لا يفهم المعاني المعبر عنها اللفظ إلا إذا عرف عينها، أو ما يناسب عينها، ويكون بينهما قدر مشترك ومشابهة في أصل المعنى، فالمراتب التي لا بد منها في كل خطاب ثلاثة:

- إدراك الإنسان للمعاني الحسية المشاهدة.

- تعقله لمعانيها الكلية.

- تعريف الألفاظ الدالة على تلك المعاني الحسية والعقلية.

فإذا أخبرنا الشارع عن الأمور الغائبة، فلا بد من تعريفها بالمعاني المشتركة بينها وبين الحقائق المشهورة، والاشتباه الذي بينهما، وذلك بتعريفنا الأمور المشهورة، ثم ينص على الفارق عند انتفاء المماثلة، وإذا تقرر انتفاء المماثلة، كانت الإضافة وحدها كافية في بيان الفارق، وانتفاء التساوي لا يمنع من وجود القدر المشترك الذي هو مدلول اللفظ المشترك ما أمكن ذلك قط.

وجماع القول: أن المشبهة أخذوا معنى إثبات الصفات وزادوا فيه على الحق فضلوا، فهم قد أحسنوا في إثبات الصفات، وأساءوا بزيادة التشبيه .

وأما المعطلة فقد أخذوا نفي المماثلة وزادوا فيه على الحق حتى ضلوا، فأحسنوا في تنـزيه الله عن أن يشبه شيئاً من خلقه، وأساءوا في نفي المعاني الثابتة في نفس الأمر .

وأما كتاب الله، فقد جاء بالحق المعتدل الذي لا انحراف فيه. قال تعالى:﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ﴾ [الشورى: ١١].

القاعدة الثانية: أزلية صفات الله.

قال المصنف رحمه الله تعالى: ما زال بصفاته قديماً قبل خلقه، لم يزدد بكونهم شيئاً لم يكن قبلهم من صفته، كما كان بصفاته أزليا، كذلك لا يزال عليها أبديًّا.



أي أن الله عز وجل لم يزل متصفاً بصفات الكمال: صفات الذات وصفات الفعل، ولا يجوز أن يعتقد أن الله وصف بصفة بعد أن لم يكن متصفاً بها، لأن صفاته صفات كمال، وفقدها صفة نقص، ولا يجوز أن يكون قد حصل له الكمال بعد أن كان متصفاً بضده .

ولا يرد على هذا صفات الفعل، والصفات الاختيارية، كالخلق، والتصوير، والإحياء، والإماتة، والمجيء، والنـزول، وإن كانت هذه الأحوال تحدث في وقت دون وقت، كما في حديث الشفاعة: ((إن ربي قد غضب اليوم غضباً لم يغضب قبله مثله، ولن يغضب بعده مثله))[1]. لأن الحدوث بهذا الاعتبار غير ممتنع، ولا يطلق عليه أنه حدث بعد أن لم يكن، كمن تكلم اليوم، وكان بالأمس ساكتاً لغير آفة، لا يقال: إنه حدث له الكلام، بل هو في حالة سكوته متكلم بالقوة، وفي حالة تكلمه هو متكلم بالفعل .

معنى حلول الحوادث بذاته تعالى وحكمه: لم يرد بنفي حلول الحوادث في الرب تعالى، ولا بإثباته كتاب ولا سنة، وفيه إجمال: فإن أريد به نفي الصفات الاختيارية فهو باطل، وإن أريد به أنه لا يحل في ذاته المقدسة شيء من مخلوقاته المحدثة، ولا يحدث له وصف متجدد بعد أن لم يكن فهو صحيح .

أما أهل الكلام المذموم فإنهم يطلقون نفي حلول الحوادث، ويرتبون عليه نفي الصفات الاختيارية .

هل يطلق على صفات الله وكلامه أنه غيره؟

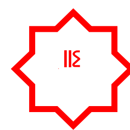
لا يطلق أئمة السنة على صفات الله وكلامه أنه ((غيره))، ولا أنه ((ليس غيره)). لأن في لفظ غير إجمال: فقد يطلق ويراد به ما ليس هو إياه. وقد يطلق ويراد به ما جاز مفارقته له .

ولهذا لا يطلق إلا مع البيان والتفصيل، لأن إطلاق الإثبات قد يشعر بالمباينة، وإطلاق النفي قد يشعر بأنه هو، فإن أريد به أن هناك ذاتاً مجردة منفصلة عن الصفات الزائدة عليها، فهذا غير صحيح. وإن أريد به أن الصفات زائدة على الذات التي يفهم من معناها غير ما يفهم من معنى الصفة، فهذا حق .

ولكن ليس في الخارج ذات غير موصوفة، فإن هذا محال، فانفصال الذات عن الصفات أمر يعرض للذهن فقط، بل إن كلمة ذات في أصل معناها لا تستعمل إلا مضافة: ذات وجود، ذات قدرة، ذات علم .

---

(١)خ: الأنبياء، ب ٥، ح ٣١٦٢، وتفسير سورة الإسراء، ح ٤٤٣٥. م: الإيمان، ب ٨٤، ح ٣٢٧. ت: القيامة، ح ٢٤٣٤، س: تفسير سورة الإسراء، ح ٣٠٦- عن أبي هريرة وعن أنس بن مالك.



فقولك ذات كذا، أي صاحبة كذا، فهي تأنيث: ((ذو)). هذا أصل معنى الكلمة، فعلم أن الذات لا يتصور انفصال الصفات عنها بوجه من الوجوه، وإن كان الذهن قد يفرض ذاتاً مجردة من الصفات كما يفرض المحال. قال صلى الله عليه وسلم: ((أعوذ بعزة الله وقدرته من شر ما أجد وأحاذر)).[1]

وقال صلى الله عليه وسلم: ((أعوذ بكلمات الله التامات من شر ما خلق))[2] ولا يعوذ صلى الله عليه وسلم بغير الله .

قول القائل: الصفة لا عين الموصوف ولا غيره:

هذا القول له معنى صحيح: وهو أن الصفة ليست عين ذات الموصوف التي يفرضها الذهن مجردة، وليست غير الموصوف، بل الموصوف بصفاته واحد غير متعدد. فإذا قلت: أعوذ بالله، فقد عذت بالذات المقدسة الموصوفة بصفات الكمال المقدسة، التي لا تقبل الانفصال. وإذا قلت: أعوذ بعزة الله، فقد عذت بصفة من صفاته ولم تعذ بغيره عز وجل .

هل الاسم عين المسمى، أو غيره؟

الاسم قد يراد به المسمى، كقولك: قال الله كذا، أو سمع الله لمن حمده . وقد يراد به اللفظ الدال عليه، كقولك: ((الله)) اسم عربي، ((الرحمن)) من أسماء الله .

فالاسم ههنا هو المراد لا المسمى، ولا يقال غيره لما في لفظ غيره من الإجمال: فإن أريد بالمغايرة أن اللفظ غير المعنى فحق. وإن أريد أن الله كان بلا أسماء حتى خلق لنفسه أسماء، أو حتى سماه خلقه، فهذا من أعظم الضلال.[3]

وقد أشار الشيخ رحمه الله بقوله: (ما زال بصفاته قديماً قبل خلقه)، إلى الرد على المعتزلة،

---

(١) م: السلام ب٢٤، ح٦٧. د: الطب، ب١٩، ت ٣٨٩١. ت: الطب، ب ٢٩، ح: ٢٠٨٠. ث: الطب، ب٣٥، ح٢٢ ٥ ٣. ط: العين، بـــ ٤، ح ٩. ك: ١/٣٤٣. حم: ٤/٢١٧ و٦/٣٩- كلهم عن عثمان ابن أبي العاص .

(١) خ: الأنبياء، ب ٢ ١، ح ٩١ ٣١. م: الذكر، ب٦ ١، ح ٣٨٩٣- ٣٨٩٩. ت: الطب، ب١٨، ح ٠ ٦ ٢٠، و الدعوات، ب١ ٤، ح ٣٤٣٧. ق: الطب، ب٣٥، ح ٣٥١٨، ب٣٦، ح ٣٥٢٥. حم: ١/٢٣٦- عن ابن عباس وخولة بنت حكيم .

(٣) هذه المسائل من اختلافات المتكلمة فإنهم اختلفوا في الصفة والاسم، هل هما عين الموصوف والمسمى، أو غيره، ولزمت كل طائفة طرفاً من القضية، وبعض الأشاعرة نفاهما معاً، فرفع النقيضين وهو محال. والصحيح ما ذكره الشارح من التفصيل، ويقاس عليه سائر المصطلحات البدعية المجملة.

والجهمية، ومن وافقهم من الشيعة، فإنهم قالوا: إن الله صار قادراً على الفعل، والكلام، بعد أن لم يكن قادراً عليه، لكون الفعل صار ممكناً بعد أن كان ممتنعاً، وفيه من الفساد ما لا يخفى.

تنزيه الرب بصفاته

قال المصنف رحمه الله تعالى: فإن ربنا جل وعلا موصوف بصفات الوحدانية، منعوت بنعوت الفردانية، ليس في معناه أحد من البرية.

يشير الشيخ بذلك إلى تنـزيه الرب بالذي هو وصفه، كما وصف نفسه نفياً وإثباتاً. وكلامه مأخوذ من معنى سورة الإخلاص :

فقوله: (موصوف بصفات الوحدانية)، مأخوذ من قوله: ﴿ قُلۡ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ﴾

وقوله:(منعوت بنعوت الفردانية)، مأخوذ من قوله: ﴿ ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ لَمۡ يَلِدۡ وَلَمۡ يُولَدۡ﴾وقوله: (ليس في معناه أحد من البرية)، مأخوذ من قوله :﴿ وَلَمۡ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ ﴾، والوصف والنعت مترادفان، وقيل: متقاربان، فالوصف للذات والنعت للفعل .

وكذلك الوحدانية والفردانية، وقيل: الفرق بينهما أن الوحدانية للذات، والفردانية في الصفات. وفي كلام الشيخ نوع تكرير وسجع، وهو بالخطب والأدعية أشبه منه بالعقائد.[1]

هو الخالق الرازق

قال المصنف رحمه الله تعالى: خالق بلا حاجة، رازق بلا مؤنة.

وقال: ليس بعد خلق الخلق استفاد اسم ((الخالق))، ولا بإحداثه البرية استفاد اسم ((الباري)).

(١) و مما يرد على كلام ابن أبي العز، أنه يقرر في بداية تعليقه، أن هذه الفقرة من كلام المصنف مأخوذة من معنى سورة الإخلاص وجعل كل جزء منها مقابلاً بآية من آي هذه السورة، ثم يعود فيقرر أن في كلامه- نوع تكرير وسجع، وهو بالخطب والأدعية أشبه منه بالعقائد، فكان الأولى له حذف هذه العبارة.

وقال: له معنى الربوبية ولا مربوب، ومعنى الخالق ولا مخلوق.

وقال: كما أنه محيي الموتى بعد ما أحيا، استحق هذا الاسم قبل إحيائهم، كذلك استحق اسم الخالق قبل إنشائهم.

قال تعالى: ﴿ وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ۝٥٦ مَآ أُرِيدُ مِنْهُم مِّن رِّزْقٖ وَمَآ أُرِيدُ أَن يُطْعِمُونِ ۝٥٧ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلرَّزَّاقُ ذُو ٱلْقُوَّةِ ٱلْمَتِينُ ﴾ [الذاريات: ٥٦- ٥٨].

وقال صلى الله عليه وسلم- من حديث أبي ذر رضي الله عنه-: ((يا عبادي لو أن أولكم وآخركم، وإنسكم وجنكم، قاموا في صعيد واحد، فسألوني، فأعطيت كل إنسان مسألته، ما نقص ذلك مما عندي إلا كما ينقص المخيط إذا دخل في البحر)).[(١)]

وقوله (بلا مؤنة) أي : بلا ثقل وكلفة .

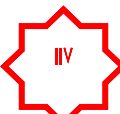
ظاهر كلام الشيخ أنه يمنع تسلسل الحوادث في الماضي، وإن كان لا يمنعها في المستقبل بدليل تنصيصه على عدم فناء الجنة والنار. والأظهر عدم التفرقة، فإن الله لم يزل حيا، والفعل من لوازم الحياة .

قال تعالى: ﴿ فَعَّالٞ لِّمَا يُرِيدُ ﴾ [البروج: ١٦]. **فلم يزل فعالاً لما يريد، وقد دلت الآية على أمور منها :**

- **أنه تعالى يفعل بمشيئته وإرادته .**
- **وأنه لم يزل كذلك، لأنه ساق ذلك في معرض المدح والثناء على نفسه، ولا يجوز أن يكون عادماً لهذا الكمال في وقت من الأوقات .**
- **أنه إذا أراد شيئا فعله، فإن ((ما)) موصولة عامة، أي يفعل كل ما يريد أن يفعله. وهذا في إرادته المتعلقة بفعله هو، أما إرادته المتعلقة بفعل العبد، فلها شأن آخر. (سيأتي تفصيله في الكلام على مسألة القدر).**

---

(١) رواه مسلم.



- ومنها تلازم فعله وإرادته، فما أراد أن يفعله فعله، وما فعله فقد أراده، بخلاف المخلوق فإنه يريد ما لا يفعل، وقد يفعل ما لايريد .

- أن كل ما صح أن تتعلق به إرادته جاز فعله، كنـزوله إلى السماء الدنيا، ومجيئه يوم القيامة لفصل القضاء، وتجليه لعباده... ونحو ذلك، وإنما تتوقف صحة ذلك على إخبار الصادق به. والقول بحوادث لها أول يلزم منه التعطيل قبل ذلك، ولا يلزم من ذلك قدم العالم، لأن ما سوى الله محدث، ممكن الوجود بإيجاد الله له، والاحتياج وصف ذاتي ملازم له.(١) والله واجب الوجود لذاته، والغنى وصف ذاتي ملازم له.

- إن الله تعالى موصوف بأنه الرب قبل أن يوجد مربوب، وموصوف بأنه الخالق قبل أن يوجد مخلوق. فدل على أن عدم وجود المخلوق لا يستلزم ألا يوصف الله تعالى بأنه الخالق؛ فإن الله تعالى خالق فعال لما يريد قبل أن يوجد مخلوق في الوجود، فانتفاء وجود المخلوق لا يستلزم تعطيل اسم الخالق.

---

(١) مسألة حوادث لا أول لها مما الْتَبَسَ على كثير من المتكلمين، وقد أطال شيخ الإسلام ابن تيمية في تقريرها في أول " منهاج السنة "، فمن أراد الاستزادة فليراجعه .
وقد سبقت الإشارة إليها في " توحيد الربوبية"، فقرة: " أول المخلوقات " عند شرح حديث: " كان الله و لم يكن معه شيء ."

المبحث الثاني كلام الله

قال المصنف رحمه الله تعالى: وأن القرآن كلام الله، منه بدا بلا كيفية قولاً، وأنزله على رسوله وحياً، وصدقه المؤمنون على ذلك حقاً، وأيقنوا أنه كلام الله تعالى بالحقيقة، ليس بمخلوق ككلام البرية، فمن سمعه فزعم أنه كلام البشر فقد كفر،

وقد ذمه الله وعابه وأوعده بسقر، حيث قال تعالى: ﴿ سَأُصْلِيهِ سَقَرَ ﴾ [المدثر: ٢٦] فلما أوعد الله بسقر لمن قال: ﴿ إِنْ هَـٰذَآ إِلَّا قَوْلُ ٱلْبَشَرِ ﴾[المدثر: ٢٥]. علمنا وأيقنا أنه قول خالق البشر ولا يشبه قول البشر.

إفترق الناس في مسألة الكلام على تسعة أقوال نذكر منها :

ما عليه أئمة الحديث والسنة: وهو أن الله تعالى لم يزل متكلماً إذا شاء، ومتى شاء، وكيف شاء، وهو يتكلم بصوت يُسْمَع، وأن نوع الكلام قديم، وإن لم يكن الصوت المعين قديماً .

ما ذهب إليه المعتزلة: وهو أنه مخلوق، خلقه الله منفصلاً عنه، وأن إضافته إليه للتشريف .

ما ذهب إليه ابن كِلاب ومن وافقه كالأشعري: وهو أنه معنى واحد قائم بذاته تعالى، وهو الأمر والنهي والخبر والاستخبار، وإن عبر عنه بالعربية كان قرآناً، وإن عبر عنه بالعبرانية كان توراة .

ما ذهب إليه أبو منصور الماتريدي: وهو أن كلامه تعالى يتضمن معنى قائماً بذاته، هو ما خلقه في غيره .

ما ذهب إليه طائفة من أهل الكلام وأهل الحديث: وهو أنه حروف وأصوات أزلية مجتمعة في الأزل .

أدلة أهل السنة :

استدل أهل السنة بما يلي :

(١) النصوص الكثيرة التي جاءت بإثبات كلامه عز وجل، منها :

قوله تعالى: ﴿ وَكَلَّمَ ٱللَّهُ مُوسَىٰ تَكۡلِيمٗا ﴾ [النساء: ١٦٤]. وقوله تعالى: ﴿ سَلَٰمٞ قَوۡلٗا مِّن رَّبّٖ رَّحِيمٖ ﴾ [يس: ٥٨].

وقد جاء في بيان هذه الآية: ((أن الله يشرف على أهل الجنة من فوقهم ويقول لهم: السلام عليكم يا أهل الجنة))[1] قال تعالى في أهل النار: ﴿ وَلَا يُكَلِّمُهُمُ ٱللَّهُ وَلَا يَنظُرُ إِلَيۡهِمۡ ﴾ [آل عمران: ٧٧]. أي لا يكلمهم كلام تكريم لأنه ورد أنه يقول لهم في النار: ﴿ ٱخۡسَـُٔواْ فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونِ ﴾[المؤمنون: ١٠٨]. فلو كان لا يكلم عباده المؤمنين لتساووا مع أعدائه، ولم يكن في تخصيص أعدائه بأنه لا يكلمهم فائدة .

وقد عقد البخاري في صحيحه باباً كاملاً عَنْوَنَهُ بقوله: ((باب كلام الرب تبارك وتعالى مع أهل الجنة)). وساق فيه عدة أحاديث .

(٢) الوصف بالتكلم من أوصاف الكمال، وضده من أوصاف النقص :

(٣) قال تعالى: ﴿ وَٱتَّخَذَ قَوۡمُ مُوسَىٰ مِنۢ بَعۡدِهِۦ مِنۡ حُلِيِّهِمۡ عِجۡلٗا جَسَدٗا لَّهُۥ خُوَارٌۚ أَلَمۡ يَرَوۡاْ أَنَّهُۥ لَا يُكَلِّمُهُمۡ وَلَا يَهۡدِيهِمۡ سَبِيلًاۘ ﴾ [الأعراف: ١٤٨]. فعدم الكلام نقص يستدل به على عدم ألوهية العجل. هذا ويتناول الكلام عند إطلاقه اللفظ والمعنى جميعاً عند السلف .

وقد اتفق أهل السنة جميعاً، من أهل المذاهب الأربعة، وغيرهم من السلف، على أن كلام الله غير مخلوق. ولكن تنازع المتأخرون بعد ذلك في كلام الله :

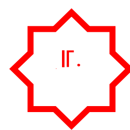
هل هو معنى واحد بالذات، أم أنه حروف وأصوات، تكلم بها بعد أن لم يكن متكلم، أو أنه لم يزل متكلماً إذا شاء ومتى شاء وكيف شاء، وأن نوع الكلام قديم .

بعض الشبه التي أوردت على مذهب أهل السنة:

أورد على مذهب أهل السنة في كلام الله بعض الشبه، منها :

أنه يلزم منه التشبيه. وجواب ذلك: إنه تعالى يتكلم كما يليق بجلاله بكيفية لا نعلمها، ألسنا نؤمن

(١) ق: المقدمة، ب١٣، ح١١٨الحلية: ٦/٢٠٩. السيوطي في اللآلي: ٢/ ٤١٠- كلهم عن جابر. وهو حديث ضعيف .



أن الأيدي والأرجل والجلود تتكلم يوم القيامة، وإن كنا لا ندري كيف تتكلم؟ !

إنه يلزم عليه قيام الحوادث به تعالى. وجواب ذلك: من ذا الذي نفى قيام الحوادث به بهذا المعنى؟ ذلك أن نفي قيام الحوادث به تعالى: إن قصد به أن لا يحل في ذاته المقدسة شيء من مخلوقاته، ولا يحدث به وصف متجدد لم يكن، فهو صحيح، أما إن قصد به نفي الصفات الاختيارية كما يراد به هنا، فهو باطل .

أدلة المعتزلة:

استدل المعتزلة على ما ذهبوا إليه من أن كلام الله مخلوق، خلقه الله منفصلاً عنه، وأن إضافته إلى الله تعالى إضافة تشريف،كما يقال: بيت الله، بما يلي :

(١) قوله تعالى: ﴿ ٱللَّهُ خَـٰلِقُ كُلِّ شَيۡءٍ ﴾[الزمر: ٦٢]. والقرآن شيء، فيكون مخلوقاً. وقد أجيب على ذلك الدليل بما يأتي :

(أ) إن المراد بقوله: ﴿خَـٰلِقُ كُلِّ شَيۡءٍ ﴾ كل شيء مخلوق، وكل موجود سوى الله فهو مخلوق، فدخل فيه أفعال العباد حتماً، ولم يدخل فيه الخالق وصفاته، لأن عموم ((كل)) في كل موضع بحسبه، ويعرف ذلك بالقرائن كقوله تعالى:﴿ وَأُوتِيَتۡ مِن كُلِّ شَيۡءٍ ﴾ [النمل ٢٣]، أي من كل شيء يحتاج إليه الملوك .

(ب) إنه منقوض بقول المعتزلة في أفعال العباد، فهم يرون أنها مخلوقة للعباد، وليست مخلوقة لله، فأخرجوها من عموم ((كل ((وأدخلوا كلام الله في عمومها، مع أنه صفة من صفاته .

(ج) إن الله قد فرق في القرآن بين خلقه وأمره، وبأمره تكون المخلوقات . قال تعالى: ﴿ وَٱلشَّمۡسَ وَٱلۡقَمَرَ وَٱلنُّجُومَ مُسَخَّرَٰتِۭ بِأَمۡرِهِۦٓۗ أَلَا لَهُ ٱلۡخَلۡقُ وَٱلۡأَمۡرُ ﴾ [الأعراف: ٥٤]. فلو كان الأمر مخلوقاً للزم أن يكون مخلوقاً بأمر آخر، وهكذا إلى ما لا نهاية .

(د) إنه يلزم عليه أن تكون جميع صفاته مخلوقة أيضاً، العلم والقدرة وفي غيرها، وذلك صريح الكفر .

(ه)لو صح أن يكون متكلماً بكلام يخلقه في غيره، للزم أن يكون متكلماً بكل كلام خلقه في غيره، ولو

كان كفراً، وفساده ظاهر. تعالى الله عن ذلك .

(٢) قوله تعالى: ﴿ إِنَّا جَعَلۡنَٰهُ قُرۡءَٰنًا عَرَبِيًّا ﴾ [الزخرف:٣] .

وقد أجيب عن هذا الدليل: بأن (جعل) إذا كانت بمعنى (خلق)، تتعدى إلى مفعول واحد، كقوله تعالى: ﴿ ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ وَجَعَلَ ٱلظُّلُمَٰتِ وَٱلنُّورَ ﴾ [الأنعام: ١]، وقوله تعالى: ﴿ وَجَعَلۡنَا فِي ٱلۡأَرۡضِ رَوَٰسِيَ أَن تَمِيدَ بِهِمۡ ﴾ [الأنبياء: ٣١]. أما إذا تعدت إلى مفعولين، لم تكن بمعنى: خلق. كقوله تعالى: ﴿ وَقَدۡ جَعَلۡتُمُ ٱللَّهَ عَلَيۡكُمۡ كَفِيلًاۚ ﴾ [النحل:٩١] وقوله تعالى: ﴿ ٱلَّذِينَ جَعَلُواْ ٱلۡقُرۡءَانَ عِضِينَ ﴾ [الحجر: ٩١].

وكذلك قوله: ﴿ إِنَّا جَعَلۡنَٰهُ قُرۡءَٰنًا عَرَبِيًّا ﴾ [الزخرف: ٣].

(٣) قوله تعالى: ﴿ نُودِيَ مِن شَٰطِيِ ٱلۡوَادِ ٱلۡأَيۡمَنِ فِي ٱلۡبُقۡعَةِ ٱلۡمُبَٰرَكَةِ مِنَ ٱلشَّجَرَةِ ﴾ [القصص:٣٠].

فالكلام خلقه الله في الشجرة، فسمعه موسى منها .

وقد أجيب عن هذا الدليل، بأن النداء هو الكلام من بعد، فسمع موسى النداء من حافة الوادي، وقد كان هذا النداء في البقعة المباركة من عند الشجرة، كما تقول: سمعت كلام زيد من البيت، فإن من: تكون لابتداء الغاية، لا أن المتكلم هو البيت.

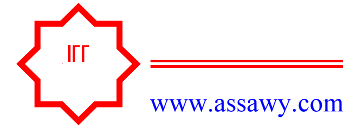
ولو كان الكلام مخلوقاً في الشجرة لكانت هي القائلة: ﴿ يَٰمُوسَىٰٓ إِنِّيٓ أَنَا ٱللَّهُ رَبُّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴾ [القصص:٣٠]. بل لكان قول فرعون: أنا ربكم الأعلى صدقاً، إذ كل من الكلامين عندهم مخلوق قاله غير الله، ولكنهم فرقوا بين الكلامين، فقالوا: هذا كلام خلقه الله في الشجرة، وذلك كلام فرعون .

(٤) قوله تعالى: ﴿ إِنَّهُۥ لَقَوۡلُ رَسُولٖ كَرِيمٖ ﴾ [التكوير:١٩]. وهذا يدل على أن الرسول أحدثه: إما جبريل وإما محمد . وقد أجيب عن ذلك بما يلي:

- إن الرسول في إحدى الآيتين هو جبريل، وفي الأخرى هو محمد صلى الله عليه وسلم، فإضافته إلى كل منهما تبين أن الإضافة للتبليغ، إذ لو أحدثه أحدهما، لامتنع أن يحدثه الآخر .

- ذكر الرسول معرف بمعنى أنه مبلغ عن مُرسِله، لا أنه أنشأه من نفسه، ولهذا لم يقل إنه قول ملك، أو نبي، والكلام هو لمن قاله مبتدئاً، لا لمن قاله مبلغاً .

- وأيضاً فوصفه الرسول بأنه أمين دليل على أنه لا يزيد في الكلام الذي أرسل بتبليغه، ولا



ينقص منه. ولا شك في كفر من زعم أن محمداً أو جبريل، قد أنشأ القرآن من عنده .

(٥) أما قول المعتزلة: إن إضافة الكلام إلى الله إنما هو التشريف، فيجاب عنه بأن الإضافة إلى الله نوعان :

إضافة تشريف، وهي للأعيان: كقولك بيت الله، وناقة الله، وهذه الأعيان مخلوقة لله جل وعلا .

إضافة صفة، وهي للمعاني: كعلم الله، وقدرته، وكلامه. فإن هذا كله من صفاته، لا يمكن أن يكون شيء من ذلك مخلوقاً .

أدلة ابن كلاب ومن تابعه:

استدل ابن كلاب ومن تابعه كالأشعري على ما ذهبوا إليه من أن الكلام معنى واحد قائم بذاته، لم يسمع منه، وإنما هو الكلام النفسي، بقول الأخطل :

إن الكلام لفي الفؤاد وإنما جعل اللسان على الفؤاد دليلاً

الجواب: وقد رد عليهم بما يأتي:

(١) ليس في كلام الأخطل دليل، فقد قيل: إن البيت موضوع، منسوب إليه، وقيل إن صحته: إن البيان لفي الفؤاد، وعلى تقدير صحته فكيف يستدل بقول نصراني ضل في معنى الكلام، على معنى الكلام، ويترك ما هو معروف من لغة العرب؟! أليس النصارى هم الذين ضلوا في معنى الكلام، وزعموا أن عيسى نفسه كلمة الله، واتحد اللاهوت بالناسوت؟

(٢) إن لازم هذا القول أن يسمى الأخرس متكلماً، لقيام الكلام بقلبه، وإن لم ينطق به، أو يسمع منه .

(٣) النصوص الكثيرة التي نفت اسم الكلام عما يدور في النفس، مثل : ما جاء في الصحيحين من قوله صلى الله عليه وسلم: ((إن الله تجاوز لأمتي عما حدثت به نفسها، ما لم تتكلم به، أو تعمل به)). ففرق بين حديث النفس وبين الكلام .

(٤) قوله صلى الله عليه وسلم: ((إن صلاتنا لا يصح فيها شيء من كلام الناس)).[1] وإجماع المسلمين على أن من تكلم عمداً في الصلاة لغير مصلحتها بطلت صلاته . وكذلك إجماعهم أيضاً على أن ما يقوم بالقلب من تصديق بأمور دنيوية، وطلب، لا يبطل الصلاة، فعلم اتفاقهم أن هذا ليس بكلام .

(٥) إن هذا يؤدي إلى القول بخلق القرآن، فمن قال إن كلام الله معنى قائم بنفسه، وأن المتلو في المصاحف هو حكاية كلام الله، وهو مخلوق. فقد قال بخلق القرآن، وهو لا يشعر. فقوله تعالى:

﴿ قُل لَّئِنِ ٱجْتَمَعَتِ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ عَلَىٰٓ أَن يَأْتُوا۟ بِمِثْلِ هَـٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِۦ ﴾ [الإسراء: ٨٨].

أتراه يشير إلى ما في نفسه أم إلى المتلو المسموع؟. لاشك أنه إشارة إلى المتلو المسموع. وهل هناك حيلة أو وسيلة لمعرفة ما في نفسه تعالى؟!. فإن قالوا بأنه أشار إلى حكاية ما في نفسه وعبارته، وهو المتلو المكتوب المسموع، فهذا تصريح بخلق القرآن، بل هم في ذلك أكفر من المعتزلة، فإن حكاية الشيء بمثله وشبهه، وهذا تصريح بأن صفات الله محكية، ولو كانت هذه التلاوة حكاية، لكان الناس قد أتوا بمثل كلام الله فأين عجزهم؟ .

(٦) أما قولهم إنه معنى واحد، فيقال لهم: هل جمع موسى كل كلام الله أو بعضه؟ فإن قالوا: كله، فذلك محض الكذب، وإن قالوا: بعضه، فقد أقروا بالتبعيض. وكذلك أيضاً بالنسبة للملائكة في قول الله لهم:

﴿ إِنِّى جَاعِلٌ فِى ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً ﴾ [البقرة:٣٠]. وقوله: ﴿ ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ ﴾ [البقرة: ٣٤] . هل كان هذا جميع كلامه تعالى أو بعضه؟. فإن قالوا: جميعه فهذه مكابرة، وإن قالوا: بعضه فقد اعترفوا بالتعدد . وكيف يكون الكلام معنى واحداً، وفيه كلام التكريم لأهل الإيمان. كقوله تعالى لأهل الجنة:

﴿ سَلَـٰمٌ قَوْلًا مِّن رَّبٍّ رَّحِيمٍ ﴾ [يس: ٥٨] . وكلام الإهانة لأهل الكفر والمعصية، كقوله تعالى لأهل النار:

﴿ ٱخْسَـُٔوا۟ فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونِ ﴾ [المؤمنون: ١٠٨]. وفيه الأمر والنهي والخبر؟ .!

(١) م: المساجد، ب٧، ح ٣٣. د: الصلاة، ب ١٧١، ح ٩٣٠- كلاهما عن معاوية بن الحكم .

فساد القول: بأن كلام الله معنى واحد والتعدد حاصل في الدلالات:

وذهب كثير من متأخري الأحناف إلى أن كلام الله معنى واحد، والتعدد حاصل في الدلالات لا في المدلول، وهذه العبارات مخلوقة، وسميت كلام الله مجازاً لدلالتها عليه وتأديه بها. وهو فاسد، والرد عليه من وجوه :

إنَّ لازمه أن معنى قوله: ﴿ وَلَا تَقْرَبُوا۟ ٱلزِّنَىٰٓ ﴾ [الإسراء: ٣٢]، هو معنى قوله: ﴿ وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ ﴾ [المزمل: ٢٠]، ومعنى آية: الكرسي هو معنى آية: الدين .

لو كان ما في المصحف عبارة عن كلام الله وليس هو كلام الله، لما حرم على الجنب والمحدث مسه، ولو كان ما يقرأ القارئ ليس كلام الله، لما حرم على الجنب والمحدث قراءته. وقد قال تعالى: ﴿ فَأَجِرْهُ حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلَـٰمَ ٱللَّهِ ﴾ [التوبة: ٦].

فالحق الذي لا معدل عنه أنه كلام الله- كما قال أبو حنيفة- محفوظ في الصدور، مقروء بالألسن، مكتوب في المصاحف .

الفرق بين كون القرآن في زبر الأولين، وكونه في رق منشور، ولوح محفوظ:

الفرق بينهما: أن قوله: ﴿ وَإِنَّهُۥ لَفِى زُبُرِ ٱلْأَوَّلِينَ ﴾ [الشعراء: ١٩٦] أي ذكره ووصفه والإخبار عنه. أما قوله: ﴿ فِى رَقٍّ مَّنشُورٍ ﴾ [الطور: ٣]، ﴿ فِى لَوْحٍ مَّحْفُوظٍۭ ﴾ [البروج: ٢٢]، ﴿ فِى كِتَـٰبٍ مَّكْنُونٍ ﴾ [الواقعة: ٧٨]. أي كونه وحصوله واستقراره، أو يقدر: مكتوب في كتاب أو في رق. والكتاب تارة يذكر ويراد به محل الكتابة، وتارة يذكر ويراد به الكلام المكتوب. ويجب التفريق بين كتابة الكلام في الكتاب، وكتابة الأعيان الموجودة في الخارج فيه، فإن تلك إنما يكتب ذكرها .

وكذلك القرآن -وهو مصدر في الأصل :

- فتارة يذكر ويراد به القراءة، كقوله تعالى: ﴿ وَقُرْءَانَ ٱلْفَجْرِ ۖ إِنَّ قُرْءَانَ ٱلْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا ﴾ [الإسراء: ٧٨].
- وتارة يذكر ويراد به المقروء كقوله تعالى: ﴿ فَإِذَا قَرَأْتَ ٱلْقُرْءَانَ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ مِنَ ٱلشَّيْطَـٰنِ ٱلرَّجِيمِ ﴾ [النحل: ٩٨].

قوله: (وأن القرآن كلام الله منه بدا بلا كيفية قولاً) أي: ظهر منه، ولا ندري كيف تكلم به، وأكد هذا المعنى بقوله: (قولاً) لنفي المجاز، وفيه رد على المعتزلة وغيرهم، فقد زعم المعتزلة أن القرآن لم يبد منه، وأن إضافته إليه إضافة تشريف، ورد بأن الإضافة التي للتشريف هي إضافة الأعيان كبيت الله، أما إضافة المعاني إليه، كعلم الله، وكلام الله، فهذا من صفاته .

قوله: (وأنزله على رسوله وحياً) أي: أنزله على لسان الملك، فسمع الملك من الله، وسمع محمد صلى الله عليه وسلم من الملك، وقد أورد على ذلك أن إنزال القرآن نظير إنزال المطر، والحديد، والأنعام. ورد بأن إنزال القرآن مذكور فيه أنه إنزال من الله .

قال تعالى: ﴿ تَنزِيلُ ٱلۡكِتَٰبِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡحَكِيمِ ﴾ [الزمر: ١].

بخلاف إنزال المطر فإنه مقيد بأنه إنزال من السماء وهى العلو، وفي مكان آخر أنه من المزن، وهو السحاب، وفي مكان آخر أنه من المعصرات .

وإنزال الحديد، والأنعام، مطلق، فكيف يشبه هذا الإنزال، بهذا الإنزال .فالحديد إنما يكون من المعادن التي في الجبال وهى عالية في الأرض، والأنعام تخلق بالتوالد المستلزم إنزال الذكور الماء من الأصلاب إلى أرحام الإناث، ثم نزول الأجنة من بطون الأمهات، إلى غير ذلك .

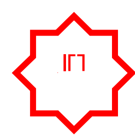
قوله: (وصدقه المؤمنون على ذلك حقاً) أي: هذا قول الصحابة والتابعين وهم السلف الصالح، وأن هذا حق وصدق .

قوله: (وأيقنوا أنه كلام الله تعالى بالحقيقة، ليس بمخلوق ككلام البرية) فيه رد على المعتزلة، وقوله: بالحقيقة رد على من قال: إنه معنى واحد قائم بذات الله، لم يسمع منه وإنما هو الكلام النفساني .

قوله: (فمن سمعه فزعم أنه كلام البشر فقد كفر) أي: فمن أنكر أن القرآن كلام الله فقد كفر .

أما من قال: إنه كلام الله ثم أوَّل وحرَّف، فقد وافق من قال: ﴿ إِنۡ هَٰذَآ إِلَّا قَوۡلُ ٱلۡبَشَرِ ﴾ في بعض ما به كفر، أما حكمه على التعيين فسيأتي الكلام عليه إن شاء الله .

قوله: (ولا يشبه قول البشر) فهو أشرف وأفصح وأصدق، وإعجازه من جهة نظمه ومعناه، لا من



جهة أحدهما فقط، ولا من حيث الكلمات والحروف .ذلك أن الله عز وجل عندما تحدى الكفار، قال:

﴿ فَأْتُوا۟ بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِۦ ﴾ [البقرة: ٢٣]. ولم يقل فأتوا بحرف أو كلمة .

المبحث الثالث

إستغناؤه عن خلقه،وإحاطته بهم، وعلوه عليهم

قال المصنف رحمه الله تعالى: وهو مستغن عن العرش وما دونه، محيط بكل شيء وفوقه، وقد أعجز عن الإحاطة خلقه.

إستغناؤه تعالى عن خلقه:

أما قوله: (وهو مستغن عن العرش وما دونه) فقد ذكره الشيخ بعد ذكر العَرْش والكرسي، ليبين أن خلقه تعالى للعرش لم يكن لحاجة إليه وإنما لحكمة اقتضته. قال تعالى:﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَغَنِيٌّ عَنِ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ [العنكبوت: ١٦].

فكما أن السماء فوق الأرض، وليست مفتقرة إليها، فالله أعظم من أن يلزم من علوه ذلك، بل لوازم علوه من خصائصه :

فهو فوق العرش مع حمله بقدرته للعرش وحملته .

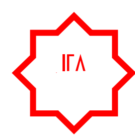
وغناه عن العرش وفقر العرش إليه .

وإحاطته بالعرش وعدم إحاطة العرش به .

وهذه اللوازم منتفية عن المخلوق، ولو أن دعاة التعطيل فصَّلوا هذا التفصيل لهدوا إلى سواء السبيل. سئل مالك عن قوله: ﴿ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ ﴾ [الأعراف: ٥٤]. كيف استوى؟ فقال: الاستواء معلوم، والكيف مجهول. وقد روي هذا الجواب عن أم سلمة موقوفاً، ومرفوعاً إلى النبي صلى الله عليه وسلم.

إحاطته تعالى بكل شيء:

وأما قوله: (محيط بكل شيء وفوقه) أي محيط بكل شيء، وفوق كل شي، إحاطة عظمته، وسعة علمه، وقدرته، وأن المخلوقات بالنسبة لعظمته كخردلة، وليس المراد من إحاطته بخلقه أنه كالفلك، وأن المخلوقات داخل ذاته المقدسة. قال تعالى:﴿ أَلَآ إِنَّهُۥ بِكُلِّ شَيْءٍ مُّحِيطٌۢ ﴾[فصلت: ٥٤].



وقال تعالى: ﴿ وَلِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ مُّحِيطًا ﴾ [النساء: ١٢٦].

روي عن ابن عباس أنه قال: (ما السماوات السبع والأرضون السبع وما فيهن وما بينهن في يد الرحمن إلا كخردلة في يد أحدكم). ومن المعلوم أنه لو كان في يد أحدنا خردلة، فإنه إن شاء قبضها وأحاط قبضته بها، أو جعلها تحته، وهو في الحالين مباين لها، عالٍ عليها من جميع الوجوه، فكيف بالعظيم الذي لا يحيط بعظمته وصف واصف؟ !.

كيف يستبعد العقل مع ذلك أن يدنو من بعض أجزاء العالم، وهو على عرشه فوق سماواته؟ !.

وفي حديث أبي رزين المشهور: ... فقال له أبو رزين: كيف يسعنا يا رسول الله! هو واحد ونحن جميع؟، فقال صلى الله عليه وسلم: ((سأنبئك بمثل ذلك في آلاء الله: هذا القمر، آية من آيات الله، كلكم يراه مخلياً به، والله أكبر من ذلك، وإذا أفل تبين أنه أعظم وأكبر من كل شيء))[(١)]. ففي هذا الحديث ما يزيل كل إشكال، ويبطل كل خيال .

كونه تعالى فوق المخلوقات:

إن من يتتبع نصوص القرآن والسنة، وكلام السلف الصالح من هذه الأمة، يجد منه في إثبات الفوقية ما لا ينحصر، هذا فضلاً عن شهادة العقول السليمة والفطر المستقيمة. وسوف نقيم الأدلة على علو الله على خلقه. وكونه فوق عباده إلى ثلاثة أقسام:

- شهادة النصوص والآثار .
- وشهادة العقول .
- وشهادة الفطر .

- أولا: شهادة النصوص والآثار :

لقد شهدت نصوص القرآن والسنة شهادة قاطعة بعلو الله على خلقه. وهذه النصوص أنواع كثيرة منها :

(١)حم: ٤/١٣. طب١٩/٢١١ :، ح ٤٧٧ .

١- التصريح بالفوقية :

قال تعالى: ﴿ وَهُوَ ٱلْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِۦ ﴾ [الأنعام:٦١]. وقال تعالى: ﴿ يَخَافُونَ رَبَّهُم مِّن فَوْقِهِمْ ﴾ [النحل: ٥٠].

وعن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: قضى الله الخلق وكتب في كتاب فهو عنده فوق العرش: إن رحمتي سبقت غضبي.[١] رواه البخاري وغيره .

وروي مسلم عن النبي صلى الله عليه وسلم في تفسير قوله تعالى: ﴿ هُوَ ٱلْأَوَّلُ وَٱلْآخِرُ وَٱلظَّاهِرُ وَٱلْبَاطِنُ ﴾ قوله: ((أنت الأول فليس قبلك شيء وأنت الآخر فليس بعدك شيء، وأنت الظاهر فليس فوقك شيء، وأنت الباطن فليس دونك شيء)).[٢] والمراد بالظهور هنا: العلو، ومنه قوله تعالى: ﴿ فَمَا ٱسْطَاعُوٓاْ أَن يَظْهَرُوهُ ﴾ أي: يعلوه .

وقول النبي صلى الله عليه وسلم لسعد بن معاذ يوم بني قريظة: ((لقد حكمت فيهم بحكم الملك من فوق سبع سماوات)).[٣]

روى ابن ماجة عن جابر مرفوعاً: ((بينما أهل الجنة في نعيمهم إذ سطع لهم نور، فرفعوا إليه رؤوسهم، فإذا الجبار جل جلاله أشرف عليهم من فوقهم، وقال: يا أهل الجنة سلام عليكم.....)) [٤] الحديث .

روى البخاري عن زينب أنها كانت تفخر على أزواج النبي صلى الله عليه وسلم وتقول: ((زوجكن أهاليكن وزوجني الله من فوق سبع سماوات)).[٥]

---

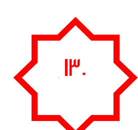
(١) خ: بدء الخلق، ب ا، ح ٣٠٢٢، والتوحيد، ب ١٥، ح ٦٩٩٦، ب ٢٢، ح ٦٩٨٦، ب ٢٨، ح ٥ ١ ٧٠، ب ٥٥. خ ٧١١٤ و ٧١١٥. م: التوبة، ب ٤، ح ١٤- ١٦. ق: المقدمة، ب ١٣، ح ١٨٩- كلهم عن أبي هريرة.

(٢) م: الذكر، ب ١٧، ح ٦١. د: الأدب، ب ١٠٦، ح ٥٠٥١. ت: الدعوات، ب ١٩، ح ٣٤٠٠. ق: الدعاء، ب ١٥، ح ٣٨٧٣- كلهم عن أبي هريرة.

(١) خ: الجهاد، ب ١٦٥، ح ٢٨٧٨، والفضائل، ب ٤٢، ح ٣٥٩٣، والمغازي، ب ٢٨، ح ٣٨٩٥، والاستئذان، ب ٢٦، ح ٥٩٠٧. م: الجهاد، ب ٢٢، ح ٦٤- كلاهما عن أبي سعيد ا لخدري.

(٢) ق: المقدمة، ب ١٣، ح ١٨٤- عن جابر، وهو حديث ضعيف.

(٣) خ: الوحيد، ب ٢٢، ح ٦٩٨٤ و ٦٩٨٥- عن أنس بن مالك.



قول عمر رضي الله عنه عن خولة: ((امرأة سمع الله شكواها من فوق سبع سماوات، هذه خولة التي أنزل الله فيها:﴿ قَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوْلَ ٱلَّتِى تُجَـٰدِلُكَ فِى زَوْجِهَا وَتَشْتَكِىٓ إِلَى ٱللَّهِ ﴾))[1] أخرجه الدارمي.

٢- التصريح بالعروج :

قال تعالى: ﴿ تَعْرُجُ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ إِلَيْهِ فِى يَوْمٍ ﴾ الآية [المعارج: ٤].

وقال صلى الله عليه وسلم: ((يعرج الذين باتوا فيكم فيسألهم..))[2] الحديث .

٣- التصريح بالصعود إليه :

قال تعالى: ﴿ إِلَيْهِ يَصْعَدُ ٱلْكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ ﴾ [فاطر: ١٠].

٤- التصريح برفعه بعض المخلوقات إليه :

قال تعالى: ﴿ بَل رَّفَعَهُ ٱللَّهُ إِلَيْهِ ﴾ [النساء: ١٥٨]. وقال تعالى: ﴿ يَـٰعِيسَىٰٓ إِنِّى مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَىَّ ﴾ [آل عمران: ٥٥].

٥- التصريح بالعلو المطلق الدال على جميع مراتب العلو ذاتاً وقدراً وشرفاً:

كقوله تعالى: ﴿ وَهُوَ ٱلْعَلِىُّ ٱلْعَظِيمُ ﴾ [البقرة: ٢٥٥] . وقوله تعالى: ﴿ إِنَّهُۥ عَلِىٌّ حَكِيمٌ ﴾ [الشورى: ٥١].

٦- التصريح بتنـزيل الكتاب منه :

قال تعالى: ﴿ تَنزِيلُ ٱلْكِتَـٰبِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَكِيمِ ﴾ [الزمر: ١]. وقال تعالى: ﴿ قُلْ نَزَّلَهُۥ رُوحُ ٱلْقُدُسِ مِن رَّبِّكَ بِٱلْحَقِّ ﴾ [النحل: ١٠٢].

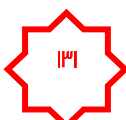
٧-التصريح باختصاص بعض المخلوقات بأنها عنده، وأن بعضها أقرب من بعض:

قال تعالى: ﴿ وَلَهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَمَنْ عِندَهُۥ ﴾ [الأنبياء: ١٩]. ففرق بين (من له

---

(١) قال الشيخ الألباني: ضعيف أخرجه أبو سعيد الدارمي ص ٢٦ طبع المكتب الإسلامي. قال الذهبي: (١١٣) وهذا إسناد فيه انقطاع أبو يزيد لم يلحق عمر (شرح الطحاوية ص ٣١٨، الطبعة السادسة) .

(٢)خ: المواقيت، ب ١٥، ح ٥٣٠، وبدء الخلق، ب ٦، ح ٣٠٥١، والتوحيد، ب ٢٣، ح ٦٩٩٢، ب ٣٣ ح ٧٠٤٨. م: ا لمساجد، ب ٣٧، ح ٢١٠. س: ا لصلاة، ب ٢١، ح ٤٨٦ .



عموماً، وبين (من عنده) من ملائكته وعبيده خصوصاً .

وقال صلى الله عليه وسلم في الكتاب الذي كتبه الرب على نفسه: ((إنه عنده فوق العرش)) .

٨- التصريح بأنه تعالى في السماء :

قال تعالى: ﴿ ءَأَمِنتُم مَّن فِي ٱلسَّمَآءِ أَن يَخۡسِفَ بِكُمُ ٱلۡأَرۡضَ ﴾ [الملك: ١٦].

وهو عند مفسري أهل السنة على أحد وجهين :

إما أن تكون (في) بمعنى (على).

وإما أن يراد بالسماء العلو، لا يختلفون في ذلك .

٩- التصريح بالاستواء مقروناً بأداة (على)، مختصاً بالعرش، الذي هو أعلى المخلوقات، مصاحباً في الأكثر بأداة (ثم) الدالة على الترتيب والمهلة :

قال تعالى: ﴿ ٱلرَّحۡمَٰنُ عَلَى ٱلۡعَرۡشِ ٱسۡتَوَىٰ ﴾ [طه: ٥]. قال تعالى: ﴿ ثُمَّ ٱسۡتَوَىٰ عَلَى ٱلۡعَرۡشِ ﴾ [يونس: ٣].

١٠- التصريح برفع الأيدي إليه:

قال صلى الله عليه وسلم: ((إن الله يستحي من عبده إذا رفع إليه يديه أن يردهما صفراً))[١]

١١- التصريح بنـزوله كل ليلة إلى السماء الدنيا :

والنـزول المعقول عند جميع الأمم إنما يكون من علوٍ إلى سفل .

١٢- الإشارة إليه حساً إلى العلو :

كرفعه صلى الله عليه وسلم أصبعه إلى السماء في حجة الوداع وهو يقول: ((اللهم اشهد)).[٢]

١٣- التصريح بلفظ الأين:

كقوله صلى الله عليه وسلم للجارية: ((أين الله))؟[٣] وإخباره صلى الله عليه وسلم بأنه تردد بين موسى وربه ليلة المعراج لتخفيف الصلاة، يصعد إلى ربه ثم يعود إلى موسى[٤]. والنصوص الدالة على

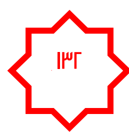
---

(١) ك: ١/ ٥٣٥. حب: ٦/ ٢٠٠، ح ٤١٨٦- ٤١٨٨. عن خزيمة بن ثابت وعن سلمان الفارسي .

(٢) خ: الحج، ب ١٣١، ح ١٦٥٤ و ١٦٥٥، والمغازي، ب٣٩، ح ٤١٤١. م: القسامة، ب ٩، ح ٣١. ق: المناسك، ب ٧٦، ح ٣٠٥٨- عن ابن عمر وأبي بكرة.

(٣) م: المساجد، ب ٧، ح ٣٣. س: الصلاة، ب ٤٧٣، ح ١٢١٩ .- عن معاوية بن الحكم.

(٤) خ: الصلاة، ب ١، خ ٣٤٢، والأنبياء، ب ٧، خ ٣١٦٤، وبدء الخلق ب ٦، ح ٣٠٣٥، وفضائل الصحابة، ب ٧١، ح



رؤية أهل الجنة لربهم من فوقهم كرؤية الشمس والقمر ليلة البدر ليس دونه سحاب وقد سبق ذكر بعضها .

- بعض الآثار الواردة في إثبات الفوقية :

سأل أبو مطيع البلخي أبا حنيفة [١] عمن قال: لا أعرف ربي في السماء أم في الأرض، فقال: قد كفر، لأن الله يقول:﴿ ٱلرَّحۡمَٰنُ عَلَى ٱلۡعَرۡشِ ٱسۡتَوَىٰ ﴾ [طه: ٥]. وعرشه فوق سبع سماواته، قلت: فإن قال: إنه على العرش، ولكن يقول: لا أدري، العرش في السماء أم في الأرض؟ قال: هو كافر لأنه أنكر أنه في السماء، فمن أنكر أنه في السماء فقد كفر. ولا يلتفت إلى من أنكر ذلك ممن ينتسب إلى مذهب أبي حنيفة، فقد انتسب إليه طوائف معتزلة وغيرهم مخالفون له في كثير من اعتقاداته. وقصة أبي يوسف في استتابة بشر المريسي، لما أنكر أن يكون الله فوق العرش مشهورة .

- ثانيا: شهادة العقول :

لقد شهدت العقول السليمة بعلو الله على خلقه، وذلك من وجوه :

العلم البدهي القاطع بأن كل موجودَين إما أن يكون أحدهما قائماً بالآخر كالصفات، وإما أن يكون قائماً بنفسه بائناً من الآخر .

إن الله لما خلق العالم، فإما أن يكون قد خلقه في ذاته، أو خارجاً عن ذاته والأول باطل بالاتفاق، ولما يلزم عليه أن يكون محلاً للخسائس والقاذورات، والثاني يقتضي الانفصال والمباينة لأن القول بأنه غير متصل بالعالم، وغير منفصل عنه غير معضل .

إن كونه تعالى لا داخل العالم ولا خارجه يقتضي نفي وجوده بالكلية، فيكون موجوداً إما داخله وإما خارجه، والأول باطل، فتعين الثاني، ولزمت المباينة .

لو لم يتصف سبحانه بفوقية الذات، مع أنه قائم بنفسه غير مخالط للعالم لكان متصفاً بضد ذلك

٢٦٧٤. م: الإيمان، ب ٧٤، ح ٢٦٣. عن أبي ذر .

(١) رواه أبو إسماعيل الأنصاري في كتابه: الفاروق .

وهو السفول، وذلك مذموم لأنه مستقر إبليس وجنوده.

فإن قيل: لا نسلم أنه قابل للفوقية حتى يلزم من نفيها ثبوت ضدها !

قلنا: لو لم يكن قابلاً للعلو والفوقية لم يكن له حقيقة قائمة بذاتها، فمتى أقررنا أنه قائم بذاته غير مخالط للعالم، وأنه موجود في الخارج وليس في الأذهان فقط، وقد علم العقلاء جميعاً أن من كان كذلك إما داخل العالم أو خارجاً عنه، وإنكار ذلك إنكار لما هو أظهر من البديهات .

إن العلو والفوقية صفة كمال لا نقص فيه، ولا يستلزم نقصاً ولا يخالف كتاباً ولا سنة ولا إجماعاً. فنفي حقيقته عين الباطل المحال الذي لا تأتي به شريعة أصلاً .

- ثالثا: شهادة الفطر:

شهدت الفطر المستقيمة بعلو الله على خلقه، فالخلق جميعاً يرفعون أيديهم عند الدعاء، ويقصدون جهة العلو بقلوبهم عند التضرع إلى الله تعالى. ذكر محمد بن طاهر المقدسي أن الشيخ أبا جعفر الهمداني حضر مجلس الجويني المعروف بإمام الحرمين وهو يتكلم في نفي صفة العلو، ويقول: كان الله ولا عرش وهو الآن على ما كان. فقال الهمداني: أخبرنا يا أستاذ عن هذه الضرورة التي نجدها في قلوبنا؟ فإنه ما قال عارف قط يا الله، إلا وجد في قلبه ضرورة طلب العلو، لا يلتفت يمنة ولا يسرة، فكيف ندفع بهذه الضرورة عن أنفسنا. قال: فلطم الجويني على رأسه ونزل، وأظنه قال: وبكى! وقال حيرني الهمداني حيرني! فهذا أمر فطر الله عليه عباده من غير أن يتلقوه من المرسلين .

- إعتراضات وجوابها:

(١) اعتراض على الأدلة العقلية وجوابه :

اعترض على الدليل العقلي بإنكار بداهته، لأنه قد أنكره جمهور العقلاء، ولو كان بدهيا ما اختلف فيه .

فالجواب أن يقال لهم: إن العقل إن قبل قولكم فهو لقولنا أعظم قبولاً، وإن رد قولنا فهو لقولكم أعظم ردا، فكل منا يدعي بالضرورة بطلان قول الآخر، ولكننا نترجح عليكم بالفطر؛ لأن الناس موافقون لنا على هذا، فإن رددتم حكم الفطر بطل قولكم بالكلية، لأنكم قد بنيتموه

على مقدمات معلومة بالفطرة الآدمية وبطلت عقلياتنا كذلك، ورجعنا إلى النصوص وحدها وهي شاهدة لنا دونكم، فنحن مختصون بالسمع، والعقل مشترك بيننا وبينكم .

فإن قلتم: إن أكثر العقلاء يقولون بقولنا. قلنا: ليس الأمر كذلك. بل أول ما عُرف ذلك عن طائفة من النظار، وأول من عُرف عنه ذلك في الإسلام جهم بن صفوان .

(٢) اعتراض على الدليل الفطري وجوابه:

اعترض على الدليل الفطري بما يلي: إن ذلك إنما كان لأن السماء قبلة الدعاء كما أن الكعبة قبلة الصلاة، وإنه منقوض بوضع الجبهة على الأرض مع أنه ليس في جهة الأرض. وأجيب عن ذلك من وجوه :

القول بأن السماء قبلة الدعاء قول لا دليل عليه لم يقله أحد من السلف، ولا أنزل الله به من سلطان، فقبلة الدعاء هي قبلة الصلاة، فيستحب للداعي أن يستقبل القبلة، ومن قال سوى ذلك فهو مبتدع .

إن القبلة هي ما يستقبله الداعي بوجهه، فلو كانت السماء قبلة الدعاء لكان المشروع أن يوجه الداعي وجهه إليها، ولكن ذلك لم تأمر به الرسل، بل نهوا عنه .

أما الوضع الذي ترفع إليه الأيدي فلا يسمى قبلة لا حقيقة ولا مجازاً. ومعلوم أن التوجه بالقلب واللجأ، والطلب الذي يجده الداعي من نفسه أمر فطري يفعله الناس جميعاً مع أن أمر القبلة مما يقبل النسخ، والتحويل، كما تحولت من الصخرة إلى الكعبة. وأمر التوجه في الدعاء إلى الجهة العلوية مركوز في الفطر، والمستقبل للكعبة يعلم أن الله تعالى ليس هناك، بخلاف الداعي فإنه يتوجه إلى ربه وخالقه، ويرجو الرحمة أن تنـزل من عنده .

وأما النقض بوضع الجبهة على الأرض فما أفسده وأسمجه! لأن من يفعل ذلك يقصد الخضوع لمن فوقه بالذل له، لا بأن يميل إليه إذ هو تحته، هذا لا يخطر بقلب ساجد وإن كان قد حكي عن بشر المريسي أنه سُمع وهو يقول: سبحان ربي الأسفل! تعالى عما يقول الظالمون والجاحدون علواً كبيراً. وإن من أفضى به النفي إلى هذا الحال حري أن يتزندق إن لم يتداركه الله برحمته .

قال تعالى: ﴿ وَنُقَلِّبُ أَفْئِدَتَهُمْ وَأَبْصَـٰرَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُواْ بِهِۦٓ أَوَّلَ مَرَّةٍ ﴾ [الأنعام: ١١٠] وقال تعالى:

﴿ فَلَمَّا زَاغُوٓاْ أَزَاغَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمْ ﴾ [الصف: ٥]. فمن لم يطلب الهدى من مظانه يعاقب بالحرمان. نسأل الله العفو والعافية .

(٣) الرد على من تأول الفوقية بمعنى الخيرية والأفضلية :

إن تأويل الفوقية بمعنى أنه خير وأفضل لما تنفر منه العقول السليمة، لأنه من جنس قول القائل: السماء أعلى من سقف الدار، والجبل أثقل من الحصى، ورسول الله أفضل من اليهود، فليس في ذلك تمجيد ولا تعظيم، بل هو من أرذل الكلام وأسمجه بل فيه تنقص كما قيل في المثل السائر:

ألم تر أن السيف ينقص قدره إذا ... قيل إن السيف أمضى من العصى

اللهم إلا إذا كان المقام يقتضي ذلك كما في الاحتجاج على مبطل. قال تعالى: ﴿ ءَأَرْبَابٌ مُّتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ ٱللَّهُ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّارُ ﴾ [يوسف: ٣٩]. وقال تعالى: ﴿ ءَآللَّهُ خَيْرٌ أَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾ [النمل: ٥٩] .

وإنما ثبت هذا المعنى من الفوقية ضمن ثبوت الفوقية المطلقة من كل وجه فله سبحانه فوقية القهر، وفوقية القدر، وفوقية الذات، فمن أثبت بعضاً ونفى البعض فقد تنقص.

(٤) الرد على من تأول العلو بأنه علو المكانة والمنـزلة، أو علوه في القلوب :

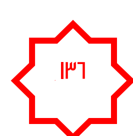
علوه تعالى مطلق من جميع الوجوه. فإن قالوا: بل علو المكانة والمنـزلة لا المكان والمنـزل. قلنا: إن المكانة والمنـزلة تأنيث للمكان والمنـزل، وهي تستعمل في المكانات النفسانية والروحية كما يستعمل لفظ المكان والمنـزل في الأمكنة الجسمانية .

جاء في الأثر: (إذا أحب أحدكم أن يعرف كيف منـزلته عند الله فلينظر كيف منـزلة الله في قلبه، فإن الله ينزل العبد من نفسه حيث أنزله العبد في قلبه).[١]

فقوله: منـزلة الله في قلبه: أي ما يكون في قلبه من معرفة الله ومحبته وتعظيمه، فإذا عرف أن

---

(١) لم أجده في كتب السنة، وقال الألباني في تخريجه: ص ٣٢٤، لم أعرفه- الطبعة السادسة. قلت: ذكره السيوطي في فيض القدير بلفظ: " من أراد أن يعلم ما له عند الله فلينظر ما له عنده " عن أنس وعروة، وهو حديث ضعيف. راجع فيض القدير ٤٩١٦، ح ٨٣٨٦. ١٢٨ .



المكانة والمنـزلة تأنيث المكان والمنـزل، والمؤنث فرع المذكر في اللفظ والمعنى وتابع له، فعلو المثل الذي يكون في الذهن يتبع علو الحقيقة، إذا كان مطابقاً كان حقا، وإلا كان باطلاً .

فإن قيل: المراد علوه في القلوب من كل شيء .

قلنا: وكذلك هو، وهذا العلو مطابق لعلوه في نفسه على كل شيء، فإن لم يكن عالياً بنفسه على كل شيء كان علوه في القلوب غير مطابق، كمن جعل ما ليس بأعلى أعلى .

(٥) الرد على بعض الشبه التي تعلق بها نفاة العلو من المعطلة :

لقد تعلق كثير من نفاة العلو ببعض النصوص التي حسبوا أنها تشهد لما ذهبوا إليه من نفي حقيقة العلو، وتأويل النصوص التي تدل على ذلك، نذكر منها:

أ- قوله تعالى: ﴿ وَلِلَّهِ ٱلْمَشْرِقُ وَٱلْمَغْرِبُ ۚ فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا۟ فَثَمَّ وَجْهُ ٱللَّهِ ﴾ [البقرة: ١١٥].

وقد أجاب شيخ الإسلام ابن تيمية(١) عن ذلك. بأن هذه الآية ليست من آيات الصفات وأن من عدها في الصفات، فقد غلط، فالوجه هو الجهة، يقال أي وجه تريده؟ أي: أيَّ جهة، وأنا أريد هذا الوجه أي: هذه الجهة، وسياق الكلام يدل على ذلك حيث قال: ﴿ وَلِلَّهِ ٱلْمَشْرِقُ وَٱلْمَغْرِبُ ۚ فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا۟ فَثَمَّ وَجْهُ ٱللَّهِ ﴾ .

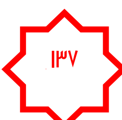
والمشرق والمغرب: الجهات، وقد صح عن مجاهد والشافعي وغيرهما تفسيرها بالقبلة أي: قبلة الله أينما توجهت شرقاً أو غرباً .

وقد جاء في سبب نزول هذه الآية عدة أقوال منها: إنها نزلت في قوم عميت عليهم القبلة فصلوا على أنحاء مختلفة، فأخبرهم جل وعلا أن له المشارق والمغارب وأنهم حيثما ولوا وجوههم فصلاتهم ماضية .

وروي أنها نزلت على رسول الله إذناً من الله أن يصلي المتطوع حيث توجه من شرق أو غرب في سفره لما روي عن ابن عمر أنه كان يصلي حيث توجهت به راحلته، ويذكر أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يفعل ذلك ويتأول هذه الآية: ﴿ فَثَمَّ وَجْهُ ٱللَّهِ ﴾.

---

(١) مجموع فتاوى ابن تيمية: ٣/١٩٣.



وقيل إنها نزلت ردا على اليهود عندما قالوا بعد تحويل القبلة إلى الكعبة:﴿ مَا وَلَّىٰهُمْ عَن قِبْلَتِهِمُ ٱلَّتِى كَانُوا۟ عَلَيْهَا ﴾ [البقرة: ١٤٢]. قال عكرمة عن ابن عباس: ﴿ فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا۟ فَثَمَّ وَجْهُ ٱللَّهِ ﴾. قال: قبلة الله أينما توجهت شرقاً أو غرباً .

وقال مجاهد:﴿ فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا۟ فَثَمَّ وَجْهُ ٱللَّهِ ﴾ حيثما كنتم فلكم قبلة تستقبلونها: الكعبة.

وعلى هذا، فدلالة السياق من ناحية، ودلالة أسباب النـزول من ناحية أخرى، يشهدان بأن المقصود هو الحديث عن جهة القبلة، وأن الآية لم تسق للحديث عن صفة من صفات الله عز وجل، حتى يمثل الأمر شبهة على قضية العلو، أو يكون بحاجة إلى تأويل .

ب- ومنها النصوص الدالة على المعية، وهي نوعان :

- نصوص تدل على المعية العامة مثل: قوله تعالى: ﴿ هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ ۚ يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنزِلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا ۖ وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ ۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ [الحديد: ٤].

- وقوله تعالى: ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۖ مَا يَكُونُ مِن نَّجْوَىٰ ثَلَـٰثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ وَلَا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ وَلَآ أَدْنَىٰ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكْثَرَ إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُوا۟ ۖ ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوا۟ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴾ [المجادلة: ٧].

- ونصوص تدل على المعية الخاصة مثل: قوله تعالى: ﴿ قَالَ لَا تَخَافَآ ۖ إِنَّنِى مَعَكُمَآ أَسْمَعُ وَأَرَىٰ ﴾ [طه: ٤٦]. وقوله تعالى: ﴿ إِذْ يَقُولُ لِصَـٰحِبِهِۦ لَا تَحْزَنْ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَا ﴾ [التوبة ٤٠].

والجواب: إنه لا حجة للمعطلة في هذه النصوص، إذ لا منافاة بين علوه على عرشه وبين معيته لخلقه، فما ذكر في الكتاب والسنة من قربه ومعيته لا ينافي ما ذكر فيهما من علوه وفوقيته، فإنه سبحانه ليس كمثله شيء في جميع نعوته، فهو عليّ في دنوه قريب في علوه .

وقد أجمع سلف الأمة الصالح من الصحابة والتابعين، وأئمة العلماء المجتهدين على أنه سبحانه و تعالى فوق سماواته مستو على عرشه بائن من خلقه، وأنه مع ذلك قريب من عباده أينما كانوا، فهو

معهم جميعاً بعلمه وقدرته وسلطانه، ويختص بعضهم بمعية إعانة وتأييد ونصر، هذا هو المنقول عن علماء الصحابة والتابعين، وما خالفهم في ذلك أحد يحتج بقوله، وقد ذكر ابن عبد البر وغيره أن هذا إجماع من الصحابة والتابعين لهم بإحسان، ولم يخالفهم في ذلك أحد يعتد بقوله، وهو مأثور عن ابن عباس، والضحاك ومقاتل بن حيان وسفيان الثوري وأحمد بن حنبل وغيرهم .

ومن ناحية أخرى: فإن المعية- كما سبق- قد وردت خاصة ووردت عامة، فلو كان المراد أنه بذاته مع كل شيء لكان التعميم ينافي التخصيص، فإنه قد علم أن قوله تعالى:﴿ لَا تَحْزَنْ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَا ﴾.

أراد به تخصيصه وأبا بكر دون عدوهم من الكفار. وكذلك قوله: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوا۟ وَّٱلَّذِينَ هُم مُّحْسِنُونَ ﴾[النحل:١٢٨]. خصهم بذلك دون الظالمين والفجار .

ومن ناحية ثالثة: فإن لفظ المعية لا يراد به- في لغة العرب ولا في القرآن الكريم- اختلاط إحدى الذاتين بالأخرى، كما في قوله: ﴿ مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِ ۚ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ ﴾ [الفتح: ٢٩]. وقوله: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَكُونُوا۟ مَعَ ٱلصَّـٰدِقِينَ ﴾ [التوبة: ١١٩]. وقوله: ﴿ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ مَعَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم ﴾ [النساء: ٦٩]. وقوله: ﴿ وَجَـٰهَدُوا۟ مَعَكُمْ ﴾[الأنفال: ٧٥]. ومثل هذا كثير فامتنع أن يكون قوله:

﴿ وَهُوَ مَعَكُمْ ﴾ يدل على أن ذاته مختلطة بذوات الخلق فهذا خلاف ما فطر الله عليه الخلق وأجمع عليه سلف الأمة .

وإلى الذين تضيق آفاقهم وتقصر عقولهم دون إدراك ذلك، نقول لهم: أليس القمر- وهو آية من آيات الله من أصغر مخلوقاته- يراه المسافر وغير المسافر معه أينما كان بينما هو موضوع في مكانه في السماء؟ .!

والله أكبر من ذلك وأعظم، فما الذي يحيله العقل في أن يكون عز وجل فوق سماواته مستوياً على عرشه بائناً من خلقه، وأن يكون مع عباده حيث كانوا، معية في كل موضع بحسبه، فهي مع الخلق كلهم معية علم وإحاطة، ومع بعضهم معية تأييد وإعانة؟

المبحث الرابع: رؤية الله تعالى والرد على دعاة التأويل

قال المصنف رحمه الله تعالى: والرؤية حق لأهل الجنة، بغير إحاطة ولا كيفية كما نطق به كتاب ربنا: ﴿ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ ۝٢٢ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ ﴾ [القيامة: ٢٢، ٢٣].

وتفسيره على ما أراد الله وعلمه، وكل ما جاء في ذلك من الحديث الصحيح عن رسول الله صلى الله عليه وسلم فهو كما قال، ومعناه على ما أراد، لا ندخل في ذلك متأولين بآرائنا ولا متوهمين بأهوائنا، فإنه ما سلم في دينه إلا من سلّم لله عز وجل ولرسوله صلى الله عليه وسلم، ورد علم ما اشتبه عليه إلى عالمه.

أثبت الرؤية أهل السنة والجماعة، وخالف فيها المعتزلة والجهمية ومن تبعهم من الخوارج والإمامية .

- أدلة أهل السنة:

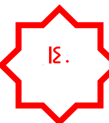
أولاً: من القرآن الكريم: قوله تعالى: ﴿ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ ۝٢٢ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ ﴾ [القيامة: ٢٢، ٢٣].

والنظر له عدة استعمالات بحسب صلاته وتعديته بنفسه :

فإن عُدّي بفي كان معناه التفكر والاعتبار كقوله تعالى: ﴿ أَوَلَمْ يَنظُرُوا۟ فِى مَلَكُوتِ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ﴾ [الأعراف: ١٨٦].

وإن عُدّي بإلى كان معناه المعاينة بالأبصار كقوله تعالى: ﴿ ٱنظُرُوٓا۟ إِلَىٰ ثَمَرِهِۦٓ إِذَآ أَثْمَرَ وَيَنْعِهِۦٓ ﴾ [الأنعام: ٩٩]. **فكيف إذا أضيفت إلى الوجه الذي هو محل البصر؟ فإضافة النظر إلى الوجه، وتعديته بإلى الصريحة في نظر العين، وإخلاء الكلام عن قرينة تدل على خلافه برهان قاطع بأن الله أراد نظر العين إلى الرب جل جلاله .**

وهذا هو قول المفسرين من أهل السنة والحديث، فهو قول ابن عمر، والحسن، وابن عباس، وعكرمة وغيرهم. وقوله تعالى: ﴿ كَلَّآ إِنَّهُمْ عَن رَّبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّمَحْجُوبُونَ ﴾ [المطففين: ١٥]. **فإذا حجب الكفار في السخط دل ذلك على أن أولياءه يرونه في الرضا، وقد احتج بذلك الشافعي وغيره من الأئمة على الرؤية لأهل الجنة.**



وقوله تعالى: ﴿ لِّلَّذِينَ أَحۡسَنُواْ ٱلۡحُسۡنَىٰ وَزِيَادَةٞ ﴾ [يونس: ٢٦]. والزيادة قد فسرها رسول الله صلى الله عليه وسلم بأنها النظر إلى وجه الله عز وجل .

روى مسلم عن صهيب قال: قرأ رسول الله صلى الله عليه وسلم:﴿ لِّلَّذِينَ أَحۡسَنُواْ ٱلۡحُسۡنَىٰ وَزِيَادَةٞ ﴾

قال: ((إذا دخل أهل الجنة الجنة، وأهل النار النار، نادى مناد: يا أهل الجنة، إن لكم عند الله وعداً يريد أن ينجزكموه، فيقولون: ما هو؟ ألم يثقل موازيننا، ويبيض وجوهنا، ويدخلنا الجنة ويجرنا من النار؟ فيكشف الحجاب، فينظرون إليه، فما أعطاهم شيئاً أحب إليهم من النظر إليه، وهي الزياد))

ثانياً: من السنة:

روى أحاديث الرؤية نحو ثلاثين صحابياً، وهي متواترة، رواها أصحاب الصحاح، والمسانيد والسنن منها :

حديث أبي هريرة: إن ناساً قالوا: يا رسول الله: هل نرى ربنا يوم القيامة؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: ((هل تضارون في رؤية القمر ليلة البدر؟ قالوا: لا يا رسول الله، قال: هل تضارون في الشمس ليس دونها سحاب؟ قالوا: لا قال: فإنكم ترون ربكم كذلك)).[١] متفق عليه .

حديث جرير بن عبد الله البجلي: قال: كنا جلوساً مع النبي صلى الله عليه وسلم فنظر إلى القمر ليلة أربع عشرة. فقال: ((إنكم سترون ربكم عياناً كما ترون هذا لا تضامون في رؤيته))[٢] متفق عليه .

والأحاديث في هذا المقام كثيرة. والتشبيه الذي في هذه الأحاديث إنما هو للرؤية وليس للمرئي، فهو تشبيه الرؤية بالرؤية لا تشبيه المرئي بالمرئي. ولكن فيها دليل على علو الله على خلقه لأنه لا تعقل

---

(١) خ: الصلاة، ب ٤٥، ح ٧٧٣، الرقائق، ب ٥٢، ب٦٢٠٤، تفسير سورة النساء، ح ٤٣٠٥. التوحيد، ب ٢٤، ح ٧٠٠٠ و ٧٠٠١. م: الإيمان، ب ٨١، خ ٢٩٩- ٣٠٢، والرقائق، ب٥٣، ح ٦ ١. د: السنة، ب ٠ ٢، ح ٤٧٣٠. ت: الجنة، ب ١٧، ح ٢٥٥٤. ق: المقدمة، ب٣ ١، ح ١٧٨ و ١٧٩- كلهم عن أبي هريرة وأبي سعيد.

(٢) خ: الصلاة، ب ١٥، ح ٥٢٩، ب٢٥، ح ٥٤٧، تفسير سورة ق، ح ٤٥٧٠، التوحيد، ب ٢٤، ح ٦٩٩٧- ٦٩٩٩. م: الصلاة، ب ٣٧، ح ٢١١ و ٢١٢. د: السنة، ب ٢٠، ح ٤٧٢٩. ت: الجنة، ب ١، ح ٢٥٥١. س: تفسير سورة ق، ح ٥٣٦. ق: المقدمة، ب ١٣، خ ١٧٧- كلهم عن جرير .

رؤية بلا مقابلة، ولأن القول بأنه يرى لا أمام الرائي ولا خلفه ولا عن يمينه ولا عن يساره ولا فوقه ولا تحته، ترده الفطر السليمة .

هذه بعض أدلة أهل السنة، وهي قاطعة في إثبات الرؤية، ولا يلتفت إلى التأويلات الفاسدة فهذه هي التي خربت العقول والديار، فبها قتل عثمان والحسين رضى الله عنهما، وبها وقع ما وقع يوم الجمل وصفين، وبها خرجت الخوارج، واعتزلت المعتزلة، ورفضت الرافضة، وافترقت الأمة على ثلاث وسبعين فرقة!!

أدلة المعتزلة ونقضها:

استدل المعتزلة على نفي الرؤية بعدة أدلة منها:

(١) قوله تعالى: ﴿ قَالَ لَن تَرَىٰنِي وَلَٰكِنِ ٱنظُرۡ إِلَى ٱلۡجَبَلِ فَإِنِ ٱسۡتَقَرَّ مَكَانَهُۥ فَسَوۡفَ تَرَىٰنِيۚ فَلَمَّا تَجَلَّىٰ رَبُّهُۥ لِلۡجَبَلِ جَعَلَهُۥ دَكّٗا وَخَرَّ مُوسَىٰ صَعِقٗاۚ ﴾ [الأعراف :١٤٣]. فتأبيد النفي بـ(لن) يدل على نفي الرؤية في الآخرة. وفي هذه الآية دليل عليهم من عدة وجوه :

- لو كانت الرؤية غير جائزة على الله لما سألها موسى صلى الله عليه وسلم وهو من أعلم الناس بربه .

- إن الله لم ينكر عليه سؤاله، ولما سأل نوح ربه نجاة ابنه أنكر عليه وقال: ﴿ إِنِّيٓ أَعِظُكَ أَن تَكُونَ مِنَ ٱلۡجَٰهِلِينَ ﴾ [هود: ٤٦].

- إن الله عز وجل قال:﴿ لَن تَرَىٰنِي ﴾، ولم يقل: إني لا أرى، أو لا تجوز رؤيتي، وهذا دليل على أنه تعالى يُرى ولكن موسى لا يحتمل ذلك في هذه الدار لضعف قوى البشر فيها .

- إن الله تعالى علق الرؤية على استقرار الجبل وذاك ممكن مقدور لله عز وجل والمعلّق على الممكن ممكن .

- قوله تعالى: ﴿ فَلَمَّا تَجَلَّىٰ رَبُّهُۥ لِلۡجَبَلِ جَعَلَهُۥ دَكّٗا وَخَرَّ مُوسَىٰ صَعِقٗا ﴾، فإذا جاز أن يتجلى للجبل وهو جماد فكيف يمتنع أن يتجلى لرسله وأوليائه في دار كرامته، ولكن الله تعالى أعلم موسى أن الجبل إذا لم يثبت لرؤيته في هذه الدار فالبشر أضعف.

- إن الله تعالى كلم موسى، ومن جاز عليه التكلم والتكليم، وأن يُسمع مخاطبه كلامه بغير واسطة فرؤيته أولى بالجواز، ولهذا لا يتم إنكار الرؤية إلا بإنكار الكلام .

- أما قولهم: إن تأبيد النفي بلن يدل على نفي الرؤية في الآخرة فهو فاسد، لأنها لو قيدت بالتأبيد لا تدل على دوام النفي في الآخرة، فكيف إذا أطلقت؟

- قال تعالى: ﴿ وَلَن يَتَمَنَّوْهُ أَبَدًا بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ ﴾ [البقرة: ٦٥]. مع قوله تعالى: ﴿ وَنَادَوْا يَـٰمَـٰلِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ ﴾ [الزخرف: ٧٧].

- ولو كانت للتأبيد المطلق ما جاز تحديد الفعل بعدها، وقد جاء ذلك:

- قال تعالى: ﴿ فَلَنْ أَبْرَحَ ٱلْأَرْضَ حَتَّىٰ يَأْذَنَ لِىٓ أَبِىٓ أَوْ يَحْكُمَ ٱللَّهُ لِى ﴾[يوسف: ٨٠]. فثبت أن ((لن)) لا تقتضي النفي المؤبد، كما قال ابن مالك:

ومن رأى النفي بلن مؤبداً فقوله أردد وسواه فاعضدا

(٢) قوله تعالى: ﴿ لَّا تُدْرِكُهُ ٱلْأَبْصَـٰرُ وَهُوَ يُدْرِكُ ٱلْأَبْصَـٰرَ ﴾ [الأنعام: ١٠٣]. وقد رد استدلالهم بهذه الآية من وجوه :

إن نفي الإدراك لا يستلزم نفي الرؤية، لأن الإدراك هو الإحاطة بالشيء، وهو قدر زائد على الرؤية قال تعالى: ﴿ فَلَمَّا تَرَٰٓءَا ٱلْجَمْعَانِ قَالَ أَصْحَـٰبُ مُوسَىٰٓ إِنَّا لَمُدْرَكُونَ ۝٦١ قَالَ كَلَّآ ﴾ [الشعراء:٦١]. فنفى الإدراك ولم ينف الرؤية.

إن الآية قد ذكرت في سياق التمدح، والمدح إنما يكون بالصفات الثبوتية، فالعدم المحض ليس بكمال فلا يمدح به، فقد مدح الله بنفي الموت المتضمن كمال الحياة ونفي اللغوب المتضمن كمال القدرة، ونفي السنة والنوم المتضمن لكمال القيومية .

فلم يتمدح بعدم محض لا يتضمن أمراً ثبوتياً، ولهذا فإن المعنى هنا: إنه يرى ولا يدرك ولا يحاط به، وذلك يتضمن كمال عظمته، كما إنه يعلم ولا يحاط به علماً.

هل رأى محمد ربه ليلة المعراج؟

اتفقت الأمة على أنه لا يراه أحد في الدنيا بعينه، وتنازعوا في نبينا صلى الله عليه وسلم خاصة. فمنهم من نفى رؤيته بالعين، وهو المشهور عن ابن مسعود وأبي هريرة وعائشة رضى الله عنهم وجماعة من المحدثين والفقهاء والمتكلمين .

روي عن عائشة رضي الله عنها أنها قالت لمسروق حين سألها: هل رأى محمد ربه؟ فقالت: لقد قف شعري مما قلت ثم قالت: من حدثك أن محمداً رأى ربه فقد كذب[(١)] .

ومنهم من أثبتها له، فقد روى ابن عباس أنه رآه بعينه، وروى عطاء عنه أنه رآه بقلبه[(٢)]. والأمر ليس فيه نص قاطع، وإنما يقال الرؤية في الدنيا ممكنة، ولو لم تكن لما سألها موسى عليه السلام، لكن لم يرد نص بأن رسول الله صلى الله عليه وسلم رأى ربه بعيني رأسه . بل ورد ما يدل على نفي ذلك وهو ما رواه مسلم عن أبي ذر قال: سألت رسول الله صلى الله عليه وسلم هل رأيت ربك؟ فقال: نور أنىَ أراه- وفي رواية-: رأيت نوراً)) [(٣)].

وفي رواية مسلم عن أبي موسى الأشعري قال: قام فينا رسول الله صلى الله عليه وسلم بخمس كلمات فقال: ((إن الله لا ينام، ولا ينبغي أن ينام، يخفض القسط ويرفعه، يرفع إليه عمل الليل قبل عمل النهار، وعمل النهار قبل عمل الليل، حجابه النور- وفي رواية- النار، لو كشفه لأحرقت سبحاتُ وجهه ما انتهى إليه بصره من خلقه))[(٤)].

فيكون معنى قوله لأبي ذر: ((رأيت نوراً)) أنه رأى الحجاب، ومعنى قوله: ((نور أنَى أراه))، النور: هو الحجاب الذي يمنع من رؤيته، فأنّى أراه؟ أي فكيف أراه والنور حجاب بيني وبينه يمنعني من رؤيته .

---

(١) خ: تفسير سورة النجم، ح ٤٥٧٤، التوحيد، ب٤، ح ٦٩٤٥. م: الإيمان، ب ٧٧، ح ٢٨٩. ت: تفسير سورة الأنعام، ح ٣٠٦٨، وتفسير سورة النجم، ح ٣٢٧٨. س: تفسير سورة النجم، ح ٥٤٧، ٥٤٩ .

(٢) ابن خزيمة في التوحيد ٤٧٩١٢،٤٩٦، ح ٢٧٢، ٢٨٧. بألفاظ مختلفة موقوفاً على ابن عباس . وراجع تفسير الدر المنثور للسيوطي فإنه ذكر آثاراً كثيرة في تفسير سورة النجم.

(٣) م: الإيمان، ب ٧٨، ح ٢٩١ و ٢٩٢. ت: تفسير سورة النجم، ب٥٤، ح ٣٢٨٢، كلاهما عن أبي ذر الغفاري .

(٤) م: الإيمان، ب ٧٩، خ ٢٩٣، ٢٩٥. ق: المقدمة، ب ١٣، خ ١٩٥ و ١٩٦، كلاهما عن أبي موسى الأشعري.

قال النووي في الشرح (٣/ ١٣) قال القاضي عياض، قال الهروي، قال ابن قتيبة: القسط الميزان، وسمي قسطاً لأن القسط العدل، وبالميزان يقع العدل، قال: والمراد أن الله تعالى يخفض الميزان ويرفعه بما يوزن من أعمال العباد المرتفعة ا. هــ.

وقوله: "سبحات وجهه" قال النووي في الشرح: قال جميع الشارحين للحديث من اللغويين والمحدثين معنى سبحات وجهه نوره وجلاله وبهاؤه، والمراد "بما انتهى إليه بصره من خلقه": جميع المخلوقات لأن بصره سبحانه وتعالى محيط بجميع الكائنات. ولفظه "من" لبيان الجنس لا للتبعيض. والتقدير لو أزال المانع من رؤيته وهو الحجاب المسمى نوراً أو ناراً وتجلى لخلقه لأحرق جلال ذاته جميع مخلوفاته والله أعلم أ هــ.

البيان الإجمالي لكلام الطحاوي في مسألة الرؤية:

يقول المصنف رحمه الله تعالى: (والرؤية حق لأهل الجنة) أي: لاشك في رؤية أهل الجنة لربهم في الجنة، وكذلك في المحشر قبل دخولهم الجنة، واختلف أهل المحشر على ثلاثة أقوال :

١- لا يراه إلا المؤمنون .

٢- يراه أهل الموقف مؤمنهم وكافرهم، ثم يحتجب عن الكفار ولا يرونه بعد ذلك .

٣- يراه المؤمنون والمنافقون دون بقية الكفار. وكذلك الخلاف في تكليمه لأهل الموقف .

قوله: (بغير إحاطة ولا كيفية) وذلك لكمال عظمته وبهائه، ﴿ لَّا تُدْرِكُهُ ٱلْأَبْصَٰرُ وَهُوَ يُدْرِكُ ٱلْأَبْصَٰرَ ﴾ [الأنعام: ١٠٣]، كما يعلم ولا يحاط به علماً .

قوله: (وتفسيره على ما أراد الله وعلمه، وكل ما جاء في ذلك من الحديث الصحيح عن رسول الله صلى الله عليه وسلم فهو كما قال، ومعناه على ما أراد، لا ندخل في ذلك متأولين بآرائنا ولا متوهمين بأهوائنا) أى: كما فعلت المعتزلة بنصوص الرؤية، فالتأويل الصحيح: هو الذي يوافق ما جاءت به السنة، والفاسد: المخالف له، وكل تأويل لم يدل عليه دليل من السياق، ولا معه قرينة تقتضيه فهو رد وغير مقصود .

ذلك أن المقصود فهم مراد المتكلم بكلامه، وذلك له طرق متعددة منها: التصريح بإرادة ذلك المعنى، ومنها استعمال اللفظ الذي له معنى ظاهر بالوضع بغير قرينة صارفة، فكيف إذا حف بكلامه ما يدل على إرادة الحقيقة ونفي المجاز، كقوله:﴿ وَكَلَّمَ ٱللَّهُ مُوسَىٰ تَكْلِيمًا ﴾ [النساء: ١٦٤]. وقوله ﷺ:

((إنكم ترون ربكم عياناً كما ترون الشمس في الظهيرة ليس دونها سحاب)).

فإن قيل: إنما نحمله على خلاف ظاهره لاستحالة إرادة الحقيقة. قيل: يمتنع أن يراد خلاف الحقيقة بغير بيان ذلك للسامع، إذا كان المتكلم قد قصد البيان والإيضاح فكيف إذا عرف من الكلام ما يؤكد إرادة الظاهر والحقيقة .

هذا، ولا يجوز أن يتكلم في أصول الدين من لا يتلقاه من الكتاب والسنة، وفهم السلف الصالح من هذه الأمة، فإنهم لم ينقلوا نظم القرآن وحده وإنما نقلوا نظمه ومعناه، فما كانوا يتعلمون القرآن

كتعلم الصبيان، بل يتعلمون معانيه أيضاً .

قوله: (فإنه ما سلم في دينه إلا من سلّم لله ورسوله، ورد علم ما اشتبه فيه إلى عالمه) أى: سلم لنصوص الكتاب والسنة، ولم يعترض عليها بالشبه والتأويلات، ولا بقوله: العقل يشهد بضد ما دل عليه النقل، إذ لا يتصور أن يتعارض عقل صريح ونقل صحيح أبداً، فإذا صح النقل فذلك الذي يدعى أنه معقول إنما هو مجهول، وإذا لم يصح النقل فلا يصلح للمعارضة .

توحيد المرسِل وتوحيد متابعة الرسول :

فالواجب كمال التسليم للرسول صلى الله عليه وسلم والانقياد لأمره، فنوحده بالاتباع كما نوحد الله بالعبادة فهما توحيدان لا نجاة إلا بهما:

توحيد المرسِل بالعبادة .

توحيد الرسول بالاتباع .

فلا نحاكم إلى غيره، ولا نوقف تنفيذ أمره وتصديق خبره على عرضه على قول أحد من الناس ولا يستشكل قوله لمخالفته لرأى فلان، بل تستشكل الآراء لقوله، ولا يعارض نصه بقياس بل تهدر الأقيسة ونتلقى نصوصه[١]، ولا نحرف كلامه عن حقيقته لخيال يسميه أصحابه بالمعقول وهو في الحقيقة مجهول، فعلى العبد أن يجعل ما بعث الله به رسله، وأنزل به كتبه هو الحق الذي يجب اتباعه، وما سواه من كلام سائر الناس يعرض عليه، فإن وافقه فهو حق، وإن خالفه فهو باطل، وإن لم يعلم هل خالفه أو وافقه أمسك عنه.

---

(١) قال الإمام أحمد رحمه الله: نظرت في المصحف فوجدت طاعة الرسول صلى الله عليه وسلم في ثلاثة وثلاثين موضعا. ثم جعل يتلو: ﴿**فليحذر الذين يخالفون عن أمره أن تصيبهم فتنة**﴾[النور:٦٣] وجعل يكررها ويقول وما الفتنة؟ الشرك، لعله إذا رد بعض قوله أن يقع في قلبه شيء من الزيغ فيزيغ قلبه فيهلكه.وقيل له: إن قوما يدعون الحديث، ويذهبون إلى رأي سفيان! فقال: أعجب لقوم سمعوا الحديث وعرفوا الإسناد وصحته يدعونه ويذهبون إلى رأي سفيان وغيره! قال الله تعالى: ﴿**فليحذر الذين يخالفون عن أمره أن تصيبهم فتنة**﴾ أوتدري ما الفتنة؟ الكفر. قال الله تعالى: ﴿**والفتنة أكبر من القتل**﴾، فيدعون الحديث عن رسول الله صلى الله عليه وسلم، وتغلبهم أهواؤهم إلى الرأي؟! ا. هـــ.

الرد على من أنكر الرؤية:

قال المصنف رحمه الله تعالى: ولا يصح الإيمان بالرؤية لأهل دار السلام لمن اعتبرها منهم بوهم أو تأولها بفهم، إذا كان تأويل الرؤية وتأويل كل معنى يضاف إلى الرؤية بترك التأويل، ولزوم التسليم، وعليه دين المسلمين.

يشير الشيخ بذلك إلى الرد على المعتزلة ومن قال بقولهم من نفاة الرؤية .

ففي الصحيحين عن جرير بن عبد الله قال: كنا جلوساً عند النبي صلى الله عليه وسلم فنظر إلى القمر ليلة أربع عشر وقال: ((إنكم سترون ربكم عياناً كما ترون هذا لا تضامون[1] في رؤيته)). والتشبيه هنا في الرؤية لا في المرئي، لأن كاف التشبيه هنا دخلت على ((ما ((المصدرية أو الموصولة بـ ((ترون((التي تتأول مع صلتها إلى المصدر الذي هو الرؤية، والمراد بهذا التشبيه إثبات الرؤية وتحقيقها ودفع الاحتمالات عنها .

أفبعد هذا يحتمل مثل هذا النص أن يكون معناه: إنكم ترون ربكم كما ترون القمر ليلة البدر ويستدل لذلك بقوله تعالى: ﴿ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ ﴾ [الفجر: ٦]. ونحوه مما استعمل فيه (رأى) التي هى من أفعال القلوب؟

ولا شك أن (رأى) تكون بصرية، وتكون قلبية، وتكون من رؤيا الحلم، ولكن لا يخلو الكلام من قرينة تعين المراد، وإلا كان المتكلم مجملاً ملغزاً لا مبيِّناً موضِّحاً .

وأى بيان فوق قوله صلى الله عليه وسلم: ((ترون ربكم كما ترون الشمس في الظهيرة ليس دونها سحاب)) .

فإن قالوا: ألجأنا إلى ذلك حكم العقل باستحالة الرؤية، قلنا: ذلك قولكم بأفواهكم، وقد خالفكم فيه كثير من العقلاء، بل لو عرض على العقل موجود قائم بنفسه لا يمكن أن يرى لحكم بأن هذا محال .

---

(١) تضامون بتشديد الميم وتخفيفها. تضامُّون (بالتشديد) من الضم ومعناه تزاحمون، وتضامون (بالتخفيف) من الضيم: أي لا يظلم بعضكم بعضاً. انظر لسان العرب ص٢٦٢٩

قول المصنف رحمه الله تعالى: (لمن اعتبرها منهم بوهم) أي: توهم أن الله يُرى على صفة كذا، فتوهم تشبيها، فإن أثبته على هذا الوصف فهو مشبه، وإن نفاها من أصلها لأجل ذلك الوهم فهو معطل .

فالمعتزلة يزعمون تنـزيه الله بنفيهم الرؤية، مع أن نفي الرؤية ليس بكمال، فإن المعدوم لا يرى أيضاً، وإنما الكمال في إثبات الرؤية ونفي إدراك الرائى له إدراك إحاطة،كما أن الكمال في إثبات العلم ونفي الإحاطة به علماً .

قوله: (..أو تأولها بفهم) أي: ادعى أنه فهم تأويلاً يخالف ظاهرها، والتأويل عند المتأخرين صرف اللفظ عن ظاهره، وبه تسلط المحرفون على النصوص، وقالوا نتأول ما يخالف قولنا فسموا التحريف تأويلاً .

ومراد الشيخ ترك هذه التأولات الفاسدة المبتدعة التي دل الكتاب والسنة على فسادها.

أنواع التأويل:

(١) التأويل في الكتاب والسنة وكلام السلف: هو الحقيقة التي يؤول إليها الكلام سواء كان موافقاً للظاهر أو مخالفاً له .

- فتأويل الخبر هو عين المخبر به .

- وتأويل الأمر نفس الفعل المأمور به .

قال تعالى: ﴿ هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا تَأْوِيلَهُۥ ۚ يَوْمَ يَأْتِي تَأْوِيلُهُۥ يَقُولُ ٱلَّذِينَ نَسُوهُ مِن قَبْلُ قَدْ جَآءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِٱلْحَقِّ ﴾ **[الأعراف: ٥٣]. وقال تعالى:** ﴿ هَـٰذَا تَأْوِيلُ رُءْيَـٰىَ مِن قَبْلُ قَدْ جَعَلَهَا رَبِّى حَقًّا ﴾ [يوسف:١٠٠].

وقالت عائشة رضي الله عنها: كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول في ركوعه :((سبحانك اللهم وبحمدك اللهم اغفر لي))، يتأول القرآن.[١] فما كان من تأويل الأخبار كالإخبار عن الله واليوم

---

(١) الصلاة، ب ٤، خ ٧٦١، ب ٥٥، ح ٧٨٤، المغازي، ب ٤٨، خ ٤٠٤٢، تفسير سورة النصر، خ ٤٦٨٣ و ٤٦٨٤. م: الصلاة، ب ٤٢، ح ٢١٧- ٢٢٠. د: الصلاة، ب١٥٢، خ ٨٧٧. س: الصلاة، ب ٣٥٧، ح ٤٨ ٠ ١، ب ٤١١، ح ١١٢٣، ب ٤١٢، ح١١٢٤، تفسير سورة النصر.

الآخر قد لا يعلم تأويله الذي هو حقيقته ولكن لا يلزم من ذلك نفي العلم بالمعنى الذي قصد المتكلم إفهام المخاطب إياه، لأنه ما من آية في القرآن إلا وقد أمرنا بتدبرها.

(٢) أما التأويل في كلام كثير من المفسرين: كابن جرير ونحوه فهو تفسير الكلام وبيان معناه سواء وافق الظاهر أو خالفه، وهو كالتفسير، يحمد حقه ويرد باطله.

(٣) أما التأويل في كلام المتأخرين من الفقهاء والمتكلمين: فهو صرف اللفظ عن الاحتمال الراجح إلى الاحتمال المرجوح لدلالة توجب ذلك، ومنه الصحيح وهو ما وافق الكتاب والسنة، والفاسد وهو ما خالفهما .

بيان قوله تعالى:﴿ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُۥٓ إِلَّا ٱللَّهُ ۗ وَٱلرَّٰسِخُونَ فِى ٱلْعِلْمِ ﴾[آل عمران:٧] فيها قراءتان، وكلتا القراءتين حق:

- قراءة من يقف على قوله:﴿ إلاآلله ﴾: ويراد بها المتشابه في نفسه الذي استأثر الله بعلم تأويله، ولا يراد بالتأويل هنا تفسير المعنى، لأن لازم ذلك أن يكون الله قد أنزل على رسوله كلاماً لا يعلم معناه أحد من الخلق .

ويكون الراسخون في العلم لا حظَّ لهم فيه سوى قول: ﴿ ءَامَنَّا بِهِۦ كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا ﴾ [آل عمران: ٧].
وهذا يقوله غيرهم من العوام، ويجب امتياز الراسخين في العلم عن العوام في ذلك .
قال ابن عباس: أنا من الراسخين في العلم الذي يعلمون تأويله، وقد تواترت النقول عنه أنه تكلم في جميع معاني القرآن .

قال مجاهد: عرضت المصحف على ابن عباس من أوله إلى آخره، أوقفه عند كل آية وأسأله عنها، أما قول الأصحاب إن المتشابه هو الحروف المقطعة في أوائل السور، فهذه الحروف قد تكلم في معناها كثير من الناس، فإن كان معناها معروفاً فقد علم المتشابه، وإلا كان ما سواها معلوم المعنى وهو المطلوب.

وقال تعالى: ﴿ مِنْهُ ءَايَٰتٌ مُّحْكَمَٰتٌ هُنَّ أُمُّ ٱلْكِتَٰبِ ﴾ [آل عمران: ٧]. وهذه الحروف ليست آيات عند جمهور العادين .

- قراءة من لا يقف عندها: ويراد بها المتشابه الإضافي الذي يعرف الراسخون تفسيره وهو تأويله .

- وقد سئل بعض السلف عن آيات الصفات: فقال: نمرها على ما جاءت، ونؤمن بها، ولا نقول كيف كيف. ويجب أن يعلم أن المعنى الفاسد الكفري ليس هو ظاهر النص ولا مقتضاه، ومن زعم ذلك فإنما هو لقصور فهمه ونقص علمه، بل ما دل عليه القرآن فهو حق، وما كان باطلاً لم يدل عليه .

ثم يقال لهؤلاء المؤولين: إذا سوغتم صرف القرآن عن دلالته المفهومة بغير دليل شرعي، فما الضابط فيما يسوغ تأويله وما لا يسوغ؟ فإن قلتم: ما دل القاطع العقلي على استحالته تأولناه وإلا أقررناه. قلنا: وبأى عقل نزن هذا القاطع العقلي؟ :

سوف يزعم القرمطي الباطني قيام القواطع على بطلان ظاهر الشرع .

ويزعم الفيلسوف قيام القواطع على بطلان الحشر .

ويزعم المعتزلي قيام القواطع على انعدام الرؤية وهكذا.

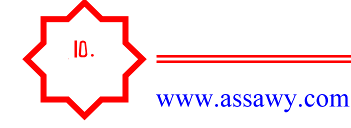
فيلزم محذوران عظيمان :

(١) ألا نقر شيئاً من معاني الكتاب والسنة حتى نبحث عن إمكانه بالعقل، وكل طائفة من المختلفين تزعم أن العقل يدل على ما ذهبت إليه .

(٢) اضطراب الاعتقاد بما أخبر به الرسول، إذ لا يوثق أن الظاهر مراد، فيلزم عزل الكتاب والسنة عن الإرشاد والدلالة على الحق .

ولهذا نجد أهل التأويل يذكرون النصوص للاعتضاد لا للاعتماد، فإن وافقت العقل قبلوها، وإلا أولوها، وهذا فتح لباب الزندقة، فنسأل الله العافية .

المبحث الخامس: علم الله تعالي وقدرته



علم الله:

قال المصنف رحمه الله تعالى: خلق الخلق بعلمه. وقال: ولا يخفى عليه شيء قبل أن يخلقهم، وعلم ما هم عاملون قبل أن يخلقهم.

خلق: أوجد وأنشأ وأبدع، وتأتي بمعنى قدَّر. والخلق بمعنى المخلوق أى خلقهم عالماً بهم.

قال تعالى: ﴿ أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ ﴾ [الملك: ١٤].

وقال تعالى: ﴿ وَعِندَهُۥ مَفَاتِحُ ٱلْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَآ إِلَّا هُوَ ۚ وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ ۚ وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٍ فِى ظُلُمَٰتِ ٱلْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مُّبِينٍ ﴾ [الأنعام: ٥٩].

والدليل العقلي على علمه تعالى :

أن إيجاد الأشياء يستلزم الإرادة، والإرادة تستلزم العلم بالمراد .

وأن في المخلوقات من الإحكام ما يستلزم علم الفاعل لها .

ولأن العلم صفةكمال، ومن المخلوقات من هو عالم فيمتنع أن يكون الخالق لها غير عالم .

قدرة الله:

قال المصنف رحمه الله تعالى: ولا شيء يعجزه.

هذا بيان لكمال قدرته عز وجل، قال تعالى: ﴿ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ مُّقْتَدِرًا ﴾ [الكهف: ٤٥].

فهذا النفي في كلام الشيخ لثبوت كمال ضده، وكذلك كل نفي يأتي في صفات الله تعالى في الكتاب والسنة فإنما هو لثبوت كمال ضده، فقوله تعالى: ﴿ وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا ﴾ [الكهف: ٤٩] **؛ لكمال عدله، وقوله:** ﴿ لَا تَأْخُذُهُۥ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ ﴾ البقره: ٢٥٥]**؛ لكمال حياته وقيوميته، وقوله:**

﴿ وَمَا مَسَّنَا مِن لُّغُوبٍ ﴾ [ق: ٣٨]**؛ لكمال قدرته، وإلا فالنفي الصرف لا مدح فيه، فقول الشاعر :**

وقبيلة لا يغدرون بذمة	**ولايظلمون الناس حبة خردل**

لا يدل على مدح بل المراد به بيان عجزهم وضعفهم وذلك لما ذكره قبل هذا البيت وبعده وتصغيرهم بقوله قبيلة .

ولهذا يأتي الإثبات للصفات في كلام الله مفصلاً والنفي مجملاً عكس طريقة أهل الكلام المذموم فإنهم يأتون بالنفي المفصل والإثبات المجمل، وهذا الأسلوب على ما فيه من مخالفة لطريقة الكتاب والسنة فإن فيه إساءة أدب، فلو قلت للسلطان أنت لست بزبال ولا حجام ولا حائك؟ لأدبك وإن كنت صادقاً، فإذا أجملت في النفي فقد أجملت في الأدب. والتعبير عن الحق بالألفاظ الشرعية هو سبيل أهل السنة، أما المعطلة فإنهم يجعلون ما ابتدعوه من المعاني والألفاظ هو المحكم الذي يجب اعتقاده، واعتماده، فغالب عقائدهم السلوب (ليست بكذا) وأكثره ليس متلقًّى من الكتاب والسنة، وأما الإثبات فهو قليل وهو أنه عالم قادر حي.

ولا يعتبر قول الشيخ: (ولا شيء يعجزه) من النفي المذموم وذلك لقوله تعالى: ﴿ أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَكَانُوا أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً ۚ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعْجِزَهُ مِن شَيْءٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ ۚ إِنَّهُ كَانَ عَلِيمًا قَدِيرًا ﴾ [فاطر: ٤٤]

فقد نبه في آخر الآية على دليل انتفاء العجز وهو كمال العلم والقدرة، فإن مرد العجز إما إلى الضعف أو الجهل، وقد أثبت الله في الآية علمه وقدرته فانتفى العجز، بالإضافة إلى أن العاجز لا يصلح أن يكون إلهاً، تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً.

المبحث السادس : هو الأول والآخر

قال المصنف رحمه الله تعالى: قديم بلا ابتداء، دائم بلا انتهاء.

هذا هو معنى اسمه الأول والآخر، والعلم بثبوت هذين الوصفين مستقر في الفطرة، فإن الموجودات لابد أن تنتهي إلى واجب الوجود لذاته قطعاً للتسلسل .

وإدخال اسم القديم في أسماء الله تعالى من صنيع المتكلمين وليس من أسماء الله الحسنى، فإن القديم في لغة العرب يطلق على المتقدم على غيره لا فيما لا يسبقه عدم. قال تعالى: ﴿ حَتَّىٰ عَادَ كَٱلۡعُرۡجُونِ ٱلۡقَدِيمِ ﴾ [يس: ٣٩].

والعرجون القديم هو الذي يبقى إلى حين وجود العرجون الثاني، فإذا وجد الحديث قيل للأول قديم .

ولا ريب أنه إذا كان مستعملاً في نفس التقدم فإن ما يقدم على الحوادث كلها أولى بالتقدم من غيره، لكن أسماء الله تعالى هي الأسماء الحسنى التي تدل على خصوص ما يمدح به، والتقدم في اللغة مطلق لا يختص بالتقدم على الحوادث كلها، ولهذا فقد أنكر ذلك كثير من السلف والخلف منهم ابن حزم .

وجاء الشرع باسم الأول وهو أحسن من القديم لأنه يشعر أن ما بعده آيل إليه وتابع له بخلاف القديم، والله تعالى له الأسماء الحسنى .

المبحث السابع : الحي القيوم

قال المصنف رحمه الله تعالى: حي لا يموت قيوم لا ينام.

وقال: لا يفنى، ولا يبيد.

قال تعالى:﴿ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلۡحَيُّ ٱلۡقَيُّومُۚ لَا تَأۡخُذُهُۥ سِنَةٞ وَلَا نَوۡمٞ ﴾[البقرة: ٢٥٥] فنفي السِنَة والنوم دليل على كمال حياته وقيوميته، وقد أشار بذلك إلى ما تقع به التفرقة بينه وبين خلقه بذكر ما يتصف به تعالى دون خلقه .

من ذلك أنه حي لا يموت، فالحياة الباقية خاصة به دون خلقه لأنهم يموتون.

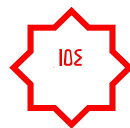
ومن ذلك أنه قيوم لا ينام بخلاف خلقه فإنهم ينامون، وفي ذلك إشارة إلى أن نفي التشبيه لا يستلزم نفي الصفات، فالحي بحياة باقية دائمة لا يشبه الحي بحياة زائلة، أما دوام حياة أهل الجنة فذلك بإدامة الله لها، وليس وصفاً لازماً لها لذاتها .

وهذان الاسمان: ((الحي القيوم)) من أعظم أسماء الله الحسنى، وقيل إنهما الاسم الأعظم[١] لأنهما يتضمنان إثبات صفات الكمال أكمل تضمن وأصدقه .

ويدل اسم ((القيوم)) على معنى الأزلية والأبدية أكثر مما يدل عليه لفظ القديم، كما يدل على كونه موجوداً بنفسه وعلى قيامه بنفسه باتفاق، وعلى قيامه على غيره على أصح القولين، واقترانه بالحي يستلزم سائر صفات الكمال ويدل على بقائها ودوامها. فعلى هذين الاسمين مدار الأسماء الحسنى كلها، وإليهما ترجع معانيها فإن الحياة مستلزمة لجميع صفات الكمال، ولا يتخلف عنها صفة إلا لضعف الحياة، وحياته تعالى أكمل حياة وأتمها. وأما القيوم فإنه يتضمن كمال غناه وقدرته، فانتظم بهما كل صفات الكمال .

---

(١) عن أنس أنه كان مع رسول الله صلى الله عليه وسلم جالساً، ورجل يصلي ثم دعا: اللهم إني أسألك بأن لك الحمد، لا إله إلا أنت المنان بديع السماوات والأرض، يا ذا الجلال والإكرام، يا حي يا قيوم. فقال النبي صلى الله عليه وسلم: "لقد دعا الله باسمه العظيم الذي إذا دعي به أجاب، وإذا سئل به أعطى". صحيح سنن أبي داود: ١٣٢٦.



ومن ثم كان قوله:﴿ ٱللَّهُ لَآ إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلۡحَيُّ ٱلۡقَيُّومُ ﴾[البقرة: ٢٥٥]. أعظم آية في القرآن.[١]

وقوله: (لا يفنى، ولا يبيد) إقرار بدوام بقائه، والفناء والبيد متقاربان في المعنى، والجمع بينهما للتأكيد .

قال تعالى: ﴿ كُلُّ مَنۡ عَلَيۡهَا فَانٖ ۝٢٦ وَيَبۡقَىٰ وَجۡهُ رَبِّكَ ذُو ٱلۡجَلَٰلِ وَٱلۡإِكۡرَامِ ﴾ [الرحمن: ٢٦، ٢٧].

---

(١) ومن اللغو ما يقوله بعض أهل الكلام من الأشاعرة وغيرهم تهويناً لشأن هذين الاسمين كقولهم: إن الحي هو الدَّراك الفعال وهذا ليس فيه كثرة عظمة، والقيوم دال على مجموع سلب وإضافة! انظر تفسير الفخر الرازى: ١/١٢٢، ط: دار الفكر .

المبحث الثامن : العرش والكرسي

قال المصنف رحمه الله تعالى: والعرش والكرسي حق.

العرش:

العرش في اللغة: سرير الملك، قال تعالى: ﴿ وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ ﴾ [النمل: ٣].

وقد استفاضت النصوص بذكره: قال تعالى: ﴿ رَفِيعُ ٱلدَّرَجَـٰتِ ذُو ٱلْعَرْشِ يُلْقِى ٱلرُّوحَ مِنْ أَمْرِهِۦ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ ﴾ [غافر: ١٥]. **وقال تعالى:** ﴿ ٱلرَّحْمَـٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ ﴾ [طه: ٥]. **وقال تعالى:** ﴿ وَيَحْمِلُ عَرْشَ رَبِّكَ فَوْقَهُمْ يَوْمَئِذٍ ثَمَـٰنِيَةٌ ﴾ [الحاقة: ١٧].

وفي صحيح البخاري: قال صلى الله عليه وسلم: ((إذا سألتم الله الجنة فاسألوه الفردوس، فإنه أوسط الجنة وأعلى الجنة، وفوقه عرش الرحمن)).(١)

روي ((فوقه)) بالنصب على الظرفية، وبالرفع على الابتداء أي: وسقفه .

وذهب بعض أهل الكلام إلى أن العرش فلك مستدير من جميع جوانبه محيط بالعالم، وربما سموه الفلك الأطلس، أو الفلك التاسع، وهو غير صحيح لسببين :

(١) ما ثبت في الشرع من أنه له قوائم تحمله الملائكة: قال صلى الله عليه وسلم:

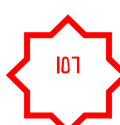
((.. فإن الناس يصعقون، فأكون أول من يفيق، فإذا أنا بموسى آخذ بقائمة من قوائم العرش، لا أدري، أفاق قبلي، أم جوزي بصعقة الطور)).(٢)

وقال صلى الله عليه وسلم: ((أذن لي أن أحدث عن ملك من ملائكة الله عز وجل من حملة العرش

---

(١) الجهاد، ب٤، ح ٢٦٣٧، التو حيد، ب ٢٢، ح ٦٩٨٧. ت: الجنة، ب ٤ء ح ٢٥٣٠ و ٢٥٣١. ق: الزهد، ب٣٩، ح ٤٣٣١. حم: ٢/٣٣٥ و ٣٣٩- عن معاذ بن جبل وأبي هريرة وعبادة بن الصامت .

(٢) متفق عليه . خ: الخُصُومَات، ب ا، ح ٢٢٨٠ و ٢٢٨١،الأنبياء، ب ٢٧، ح ٣٢١٧، ب ٣٢، ح ٣٢٢٧، ب ٣٦، ح ٣٢٣٣، تفسير سورة الأعراف، ح ٤٣٦٢، وتفسير سورة غافر، ح ٤٥٣٥، الرقاق: ب ٤٣، ح ٦١٥٢ و ٦١٥٣، الديات، ب٣١، ح ٦٥١٩، التوحيد، ب ٢٢، ح ٦٩١١، ب٣١، ح ٧٠٣٤. م: الفضائل، ب٤٢، ح ١٥٩، ١٦٣. س: تفسير سورة الزمر، ح ٤٧٢ و ٤٧٣. حم: ٣/٣٣- عن أبي هريرة وأبي سعيد الخدرى .



أن ما بين شحمة أذنه إلى عاتقه مسيرة سبعمائة عام)) [(١)].

(٢) ما ثبت في اللغة: من أن العرش هو السرير الذي للملك، وليس هو فلَكًا ولا تفهم منه العرب ذلك فهو سرير ذو قوائم تحمله الملائكة، وهو كالقبة على العالم، وهو سقف المَخلُوقات. فمن شعر عبد الله بن رَوَاحَة يعرض به عن القراءة لامرأته حين اتهمته بجاريته :

شهدت بأن وعد الله حق	وأن النار مثوى الكافرينا
وأن العرش فوق الماء طاف	وفوق العرش رب العالمينا
وتحمله ملائكة شداد	ملائكة الإله مسومينا

وأما من جعل العرش عبارة عن الملك، فكيف يصنع بقوله تعالى: ﴿ وَيَحْمِلُ عَرْشَ رَبِّكَ فَوْقَهُمْ يَوْمَئِذٍ ثَمَـٰنِيَةٌ ﴾ [الحاقة: ١٧]. أيقول: ويحمل ملكه يومئذ ثمانية؟ وقوله:﴿ وَكَانَ عَرْشُهُۥ عَلَى ٱلْمَآءِ﴾ [هود: ٧]. أيقول: وكان ملكه على الماء.؟ ويكون موسى عليه السلام آخذا بقائمة من قوائم الملك؟

الكرسي:

وأما الكرسي فهو بين يدي العرش كالمرقاة إليه، قاله غير واحد من السلف .

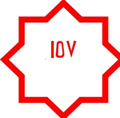
قال تعالى: ﴿ وَسِعَ كُرْسِيُّهُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ ﴾ [البقرة: ٢٥٥].

وروى ابن أبي شيبة والحاكم عن ابن عباس أنه قال: (الكرسي موضع القدمين، والعرش لا يقدر قدره إلا الله تعالى). وقد روي مرفوعًا، والصواب وقفه على ابن عباس، وقال السدي: السماوات والأرض في جوف الكرسي بين يدي العرش. وقال ابن جرير: قال أبو ذر: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: ((ما الكرسي في العرش إلا كحلقة من حديد ألقيت بين ظهري فلاة من الأرض))

ونسب إلى ابن عباس أنه قال: كرسيه علمه، والمحفوظ عنه ما رواه ابن أبي شيبة كما تقدم، ومن قال غير ذلك فلا دليل عليه إلا مجرد الظن، ولعله من جراب الكلام المذموم .

---

(١) السنة، ب١٩، ح ٤٧٢٧- عن جابر بن عبد الله، وهو حديث صحيح. وقد استوعب تَخْرِيجه الألباني في سلسلة الأحاديث الصحيحة ج ١/ ص ٧٢، ح ١٥١. ١٥٠.



المبحث التاسع : الغضب والرضا

قال المصنف رحمه الله تعالى: والله يغضب ويرضى، لا كأحد من الورى.

مذهب السلف وسائر الأئمة إثبات صفة الغضب والرضا، والعداوة والولاية، والحب والبغض، ونحو ذلك من الصفات، ومنع التأويل الذي يصرفها عن حقائقها اللائقة بالله تعالى. قال تعالى: ﴿ لَّقَدۡ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ إِذۡ يُبَايِعُونَكَ تَحۡتَ ٱلشَّجَرَةِ ﴾ [الفتح: ١٨]. وقال تعالى: ﴿ وَمَن يَقۡتُلۡ مُؤۡمِنًا مُّتَعَمِّدًا فَجَزَآؤُهُۥ جَهَنَّمُ خَٰلِدًا فِيهَا وَغَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِ وَلَعَنَهُۥ وَأَعَدَّ لَهُۥ عَذَابًا عَظِيمًا ﴾ [النساء: ٩٣].

وقول الشيخ: (لا كأحد من الورى) نفي للتشبيه .

الرد على الجهمية في نفيهم لهذه الصِّفَات:

نفى الجهمية ومن تابعهم هذه الصفات، وتأولوا الغَضَب بأنه إرادة الانتقام، والرضا بأنه إرادة الإحسان، وقد رد عليهم بأن هذا نفي للصفة، وقد اتفق أهل السنة أن الله قد يأمر بما يحبه ويرضاه وإن كان لا يريده، ولا يَشَاؤهُ، وينهى عما يسخطه ويكرهه وإن كان قد شاءه وأراده.

ثم يقال لهذا المتأول: لم تأولت ذلك؟

فإن قال: لأن الغَضَب غليان دم القلب، والرضا: الميل والهوى، وذلك لا يليق بالله تعالى.

قلنا له: فكذلك الإرَادَة هي ميل الحي إلى الشيء، أو إلى ما يلائمه ويناسبه، فإن الحي منّا لا يريد إلا ما يجلب له منفعة أو يدفع عنه مضرة، وهو محتاج إلى ذلك مفتقر إليه، فإن جاز هذا جاز ذاك، وإن امتنع هذا امتنع ذاك .

فإن قال: الإرادة التي يوصف بها الله مخالفة للإرادة التي يوصف بها العبد، وإن كان كل منهما حقيقة .

قلنا: فكذلك الغضب والرضا وإن كان كل منهما حقيقة، فإن كان ما يقال في الإرادة يمكن أن يقال في هذه الصفات فقد وجب ترك التأويل لنسلم من التناقض، ونسلم أيضاً من التعطيل، فإن صرف القرآن عن ظاهره وحقيقته بلا موجب حرام. ولا يقال: إن الموجب للصرف هو ما دل عليه العقل إذ العقول

متفاوتة.

وهذا الكلام يقال لكل من نفى صفة من صفات الله تعالى، فإنه لا بد أن يثبت شيئاً لله تعالى على خلاف ما يعهده فيحتج عليه بما أثبته لإلزامه بما نفاه، وإذا كان الجهم ومن وافقه قد نفوا كل ما وصف الله به نفسه من كلامه ورضاه وغضبه وحبه وقالوا لا يتصف بشيء من ذلك بل هي أمور مخلوقة منفصلة عنه، فإن ابن كلاب ومن وافقه عارضوا هؤلاء وقالوا جميع هذه الأمور صفات لازمة لذاته قديمة أزلية، فلا يرضى في قت دون وقت، ولا يغضب في وقت دون وقت فلا يوصف الله بشيء يتعلق بمشيئته وقدرته أصلا إذ لو تعلقت بذلك لكان محلا للحوادث.

ويرد عليهم حديث الشفاعة وفيه قوله صلى الله عليه وسلم: ((إن ربي قد غضب اليوم غضباً لم يغضب قبله مثله، ولن يغضب بعده مثله)).

وقوله ﷺ: ((إن الله تعالى يقول لأهل الجنة، يا أهل الجنة، فيقولون: لبيك وسعديك والخير في يديك، فيقول: هل رضيتم؟ فيقولون: وما لنا لا نرضى يا رب، وقد أعطيتنا ما لم تعط أحداً من خلقك، فيقول: ألا أعطيكم أفضل من ذلك؟ فيقولون: يا رب وأي شيء أفضل من ذلك؟ فيقول: أحل عليكم رضواني فلا أسخط عليكم بعده أبداً)).[1] فيستدل بهذا الحديث على أنه قد يحل رضوانه في وقت دون وقت، وإنه قد يحل رضوانه ثم يسخط كما يحل السخط ثم يرضى. فنفى هؤلاء الصفات العقلية الذاتية مطلقاً بهذا الأصل كما نفى أولئك الصفات مطلقاً بقولهم وليس محلاً للإعراض.

(١) خ: الرقاق، ب ٥١، ح٦١٨٣، التوحيد، ب٣٨، ح٧٠٨٠. م: الجنة، ب٢، ح٩. ت: الجنة، ب١٨، ح٢٥٥٥ - كلهم عن أبي سعيد الخدري.

المبحث العاشر: الخلة والمحبة

قال المصنف رحمه الله تعالى: ونقول: إن الله اتخذ إبراهيم خليلاً، وكلم الله موسى تَكْلِيمًا، إيمَانًا وَتَصْدِيقًا وَتَسْلِيمًا

الخُلة: كمال المحبة، وهي ثابتة لله على وجه يليق به. قال تعالى: ﴿ وَٱتَّخَذَ ٱللَّهُ إِبْرَٰهِيمَ خَلِيلًا ﴾ [النساء: ١٢٥]. **وقال صلى الله عليه وسلم: ((لو كنت مُتخِذًا من أهل الأرض خَلِيلاً لاتخذت أبا بكر خَلِيلاً ولكن صاحبكم خليل الله)) .**

وفي رواية: ((إني أبرأ إلى كل خليل من خلته، ولو كنت مُتخِذًا من أهل الأرض خَلِيلًا لاتخذت أبا بكر خَلِيلاً)) [1].

الفرق بين الخلة والمحبة:

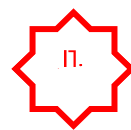
الخلة أخص من مطلق المحبة، فقد بين صلى الله عليه وسلم أنه لا يصلح له أن يتخذ من المخلوقين خليلاً[2]، وأنه لو أمكن ذلك لكان أحق الناس به أبو بكر، مع أنه صلى الله عليه وسلم قد وصف نفسه بأنه يحب أشخاصًا كقوله لمعاذ: ((والله إني لأحبك))،[3] وكذلك قوله للأنصار، وكان أسامة بن زيد حب رسول الله وابن حبه. فالخلة إذن أخص من مطلق المحبة، ومن كمالها أن المحبوب بها محبوب لذاته، وإنها

---

(١) خ: الصلاة،ب٤٦،ح ٤٥٤، فضائل الصحابة، ب ٣، ح ٣٤٥٤، ب٥، ح ٣٤٥٦ و ٣٤٥٧، ب٧٤، ح ٣٦٩١،، الفرائض، ب ٨، ح ٦٣٥٧. م: المساجد، ب٣، ح ٢٣، فضائل الصحابة ب ١،ح ٢-٧ . عن ابن مسعود وأبي سعيد الخدري .

(٢) الخلة من النبي صلى الله عليه وسلم لمن دونه من الصحابة ممتنعة بالنص أما خلة الصحابة وغيرهم من المسلمين للنبي صلى الله عليه وسلم غير ممتنعة ويجوز إطلاقها، لذا كان بعض الصحابة إذا أراد أحدهم أن يحدث عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: قال خليلي أو حدثني خليلي، ومثل هذا كثير في السنة. وكذلك قوله صلى الله عليه وسلم "المرء على دين خليله، فلينظر أحدكم من يخالل". أما قول البعض: إن الخلة لا تجوز منا للنبي صلى الله عليه وسلم ولا بين المؤمنين بعضهم لبعض، لأن هذا يستلزم أن لا يبقى شيء من الحب لله تعالى لأن الخلة منتهى الحب وذروته، فيرد عليه من وجهين:
أولهما: وجود النصوص الشرعية الدالة على ثبوت هذا النوع من الخلة، كقوله تعالى: **﴿الأخلاء يومئذ بعضهم لبعض عدو إلا المتقين﴾** ولقوله صلى الله عليه وسلم: "فلينظر أحدكم من يخالل".أما **الثاني**، أن هذه الخلة في حقيقتها هي معقودة في الله ولله وليست لذات الخليل وإلا لكانت شركاً والعياذ بالله.

(٣) الصلاة، ب ٣٦١، ح ١٥٢٢. س: الصلاة، ب ٥١٣، خ ١٣٠٤. حم.٥/٢٤٥ و ٢٤٧- عن معاذ بن جبل. وهو حديث صحيح.



لا تقبل الشركة ففيها كمال التوحيد وكمال الحب .

ولذلك أمر الله خليله إبراهيم بذبح ولده لما أخذ منه شعبة من قلبه، غيرة من الله على قلب خليله أن يكون فيه مكان لغيره، فلما استسلم لربه، وظهر سلطان الخلة جاء الفداء لأن المصلحة في الذبح كانت ناشئة من العزم وتوطين النفس على ما أمر، فلما حصلت هذه المصلحة عاد الذبح مفسدة فنسخ في حقه. وكما أن منزلة الخلة ثابتة لإبراهيم قد شاركه فيها نبينا صلى الله عليه وسلم، فإن منزلة التكليم ثابتة لموسى قد شاركه فيها نبينا صلى الله عليه وسلم كما في حديث المعراج .

وقد أنكرت الجهمية حقيقة المحبة من الجانبين، زعمًا منهم أنها لا تكون إلا لمناسبة بين المحب والمحبوب، ولا تناسب بين القديم والحديث، كما أنكروا حقيقة التكلم. وأول من ابتدع ذلك هو الجعد بن درهم في أوائل المائة الثانية، وضحى به خالد بن عبد الله القسري أمير العراق والمشرق بواسط، وكان ذلك بفتوى أهل زمانه من علماء التابعين. وأخذ هذا المذهب عن الجعد الجهم بن صفوان، وإليه نسبت الجهمية، فقتله مسلم بن أحوز أمير خراسان بها، ثم انتقل ذلك إلى المعتزلة أتباع عمرو بن عبيد، وظهر قولهم في أثناء خلافة المأمون حتى امتحن أئمة الإسلام ودعوهم إلى الموافقة لهم على ذلك .

وأصل هذا مأخوذ عن المشركين والصابئة، وهم ينكرون أن يكون إبراهيم خليلاً وموسى كليماً لأن الخلة: هي كمال المحبة المستغرقة للمحب كما قيل:

قد تخللت مسلك الروح مني   ولذا سَمَّى الخليل خليلاً

ولكن محبته وخلته كما يليق به تعالى كسائر صفاته .

وها هنا مسألة: إذا كان النبي صلى الله عليه وسلم أفضل من إبراهيم، فكيف يطلب له من الصلاة مثل ما لإبراهيم مع أن الأصل في المشبه به أن يكون فوق المشبه؟ وقد أجيب عن ذلك بأجوبة عديدة، وأحسنها جوابان :

- إن آل إبراهيم فيهم الأنبياء الذين ليس من آل محمد مثلهم، فإذا طلب للنبي وآله من الصلاة مثل ما لإبراهيم وآله وفيهم الأنبياء، حصل لآل محمد ما يليق بهم لا يبلغون مراتب الأنبياء، وتبقى الزيادة التي للأنبياء- وفيهم إبراهيم- لمحمد صلى الله عليه وسلم، فيحصل له من المزية ما لم يحصل لغيره .

- النبي من آل إبراهيم، بل أفضل آل إبراهيم، فيكون قولنا: كما صليت على آل إبراهيم مُتنَاوِلاً الصلاة عليه وعلى سائر النبيين من ذرية إبراهيم .

الخَصَائِص التي خص الله بها بيت إبراهيم:

لما كان بيت إبراهيم أشرف بيوت العالم على الإطلاق خصهم الله بخصائص، منها:

- أنه جعل فيه النبوة والكتاب، فلم يأت بعد إبراهيم نبي إلا من أهل بيته.
- أنه جَعَلَهُمْ أئمة يهدون بأمر الله، فمن دخل الجنة من بعدهم فإنما دخل من طريقهم وبدعوتهم.
- أنه سبحانه اتخذ منهم الخليلين.
- أنه جعل صاحب هذا البيت إماماً للناس، وأجرى على يديه بناء بيته الحرام .
- أنه أمر عباده أن يصلوا على أهل هذا البيت .

المبحث الحادي عشر: تنزيه الله عن الظلم

قال المصنف رحمه الله تعالى: يفعل ما يشاء، وهو غير ظالم أبداً.

وقال: وكلهم يتقلبون في مشيئته بين فضله وعدله.

وقال: يهدي من يشاء، ويعصم، ويعافي، فضلاً، ويضل من يشاء، ويخذل، ويبتلي، عدلاً.

الذي دل عليه القرآن من تنـزيه الله نفسَه عن ظلم العباد، يقتضي قوْلاً وَسَطًا بين قولي القدرية والجبرية. فليس ما كان من ابن آدم ظلْمًا وَقبِيحًا يكون منه ظلْمًا وقبيحًا،كما يقول القدرية والمعتزلة، فإن ذلك يقتضي تمثيل الله بخلقه، وقياسه عليهم، وهو ظاهر الفساد. وليس الظلم عبارة عن الممتنع الذي لا يدخل تحت القدرة، كما يقوله بعض المتكلمين، يقولون كل ما كان مُمكِنًا مقدوراً لله عز وجل، فلا يكون ظلْمًا منه إن فعله، لأن الظلم لا يكون إلا من مأمور منهى، وهو باطل للأدلة الآتية :

قال تعالى: ﴿ وَمَن يَعْمَلْ مِنَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَا يَخَافُ ظُلْمًا وَلَا هَضْمًا ﴾ [طه: ١١٢]. **وقال تعالى:** ﴿ وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا ﴾ [الكهف: ٤٩]. **وقال تعالى في الحديث القدسي: ((يا عبادي إني حرمت الظلم على نفسي وجعلته فيما بينكم حرامًا فلا تظالموا)).**[1]

ووجه الدلالة في هذه النصوص: أن الله حرم على نفسه الظلم كما كتب على نفسه الرحمة، وإنما حرم على نفسه وكتب على نفسه ما هو قادر عليه، لا ما هو ممتنع عليه. وَأيْضًا فإن الإنسان لا يَخَاف الممتنع الذي لا يدخل تحت القدرة حتى يأمن من ذلك وإنما يأمن مما يمكن، فلما آمنه من الظلم بقوله: ﴿ فَلَا يَخَافُ ظُلْمًا ﴾ **علم أنه ممكن مقدور عليه. وقد فسر السلف الظلم في قوله:** ﴿ فَلَا يَخَافُ ظُلْمًا وَلَا هَضْمًا ﴾**، بأن توضع عليه سيئات غيره، والهضم: أن يُنقص من حسناته .**

وأنه يلزم على قولهم ألا يكون الله منـزهًا عن شيء من الأفعال أصلاً ولا حقيقة لفعل السوء، بل ذلك ممتنع، والممتنع لا حقيقة له، والقرآن يدل على نقيض ذلك.

(١) م الأدب، ب ١٥، ح ٥٥. حم: ٥/١٦٠. ك: ٤/٢٤١- عن أبي ذر الغفاري.

فقد نزه الله نفسه عن فعل ما لا ينبغي له، فعلم أنه منـزه عن فعل السوء، والفعل المعيب المذموم، كما أنه منـزه عن وصف السوء والوصف المعيب المذموم. قال تعالى: ﴿ أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَـٰكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ ﴾ [المؤمنون: ١١٥]. فنـزه نفسه عن خلق الخلق عَبَثاً، وأنكر على من حسب ذلك. وقال تعالى: ﴿ أَفَنَجْعَلُ ٱلْمُسْلِمِينَ كَٱلْمُجْرِمِينَ ۝ مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ ﴾ [القلم: ٣٥، ٣٦]. فأنكر على من جوز عليه أن يسوي بين هذا وهذا .

عذابه عدل، ورحمته فضل :

وقد قال النبي صلى الله عليه وسلم: ((لو أن الله عذب أهل سماواته وأهل أرضه لعذبهم وهو غير ظالم لهم، ولو رحمهم كانت رحمته خَيْرًا لهم من أعمالهم)).[١]

احتج الجبرية بهذا الحديث على مذهبهم الفاسد، وتلقاه القدرية إما بالتكذيب وإما بالتأويل[٢] وكان أسعد الناس به أهل السنة الذين قابلوه بالتصديق، وعلموا من عظمة الله وجلاله قدر نعمه على خلقه وعجزهم عن القيام بشكرها كما ينبغي، كما علموا عظيم حقه على خلقه من أن يطاع فلا يعصى، ويذكر فلا ينسى، ويشكر فلا يكفر، وأن يكون القلب عَاكِفًا على إفراده بالمحبة والتأليه، واللسان مَحْبُوسًا على ذكره، والجوارح وَقْفًا على طاعته .

رأوا ذلك ففقهوا كيف أن الله عز وجل لو وضع عدله على أهل سماواته وأرضه لعذبهم بعدله، ولم يكن ظَالِمًا لهم، فلا يسع الخلائق إلا عفوه ورحمته عز وجل. قال صلى الله عليه وسلم: ((لن ينجي أحدًا منكم عملُه، قالوا: ولا أنت يا رسول الله؟ قال: ولا أنا، إلا أن يتغمدني الله برحمة منه وفضل))[٣]

---

(١) د: السنة، ب١٧، ح ٤٦٩٩. ت: المقدمة، ب، ١، ح ٧٧. حم: ٥/١٨٩- عن أبي بن كعب وزيد بن ثابت. وهو حديث صحيح .

(٢) منشأ الفساد في المذهبين: أن الجبرية فهمت طلاقة المشيئة الإلهية أنها مجردة عن الحكمة والعدل والرحمة، مع أن الله تعالى يتصف بهذه الصفات جميعاً بلا تعارض بينها. والقدرية فهمت من جريان أحكام الله عز وجل وفق سنن ثابتة عادلة أن ذلك واجب عليه لا يستطيع تَغْيِيره، تعالى الله عن ذلك علواً كَبِيرًا. فأولئك غفلوا عن الحكمة والعدل وهؤلاء غفلوا عن المشيئة والإرادة. وَٱللَّه أعلم.

(٣) م: المنافقين، ب ١٧، ح ٧١- ٧٨. حم: ٢/٤٨٢ و ٤٨٨- عن أبي هريرة.

المبحث الثاني عشر: تنزيه الله عز وجل عن الحدود والغايات والأركان والأعضاء والأدوات

قال المصنف رحمه الله تعالى: وتعالى عن الحدود والغايات، والأركان والأعضاء والأدوات، لا تحويه الجهات الست كسائر المبتدعات.

للناس في إطلاق مثل هذه الألفاظ ثلاثة أقوال :

- **فطائفة تنفيها .**
- **وطائفة تثبتها .**
- **وطائفة تفصل .**

وهؤلاء الذين يفصلون هم المتبعون للسلف لأن في هذه الألفاظ إجمالاً وإبهاماً، وليس كل الناس يستعملها في نفس معناها اللغوي. ولهذا كان النفاة ينفون بها حقا وَبَاطِلاً، ويذكرون عن مثبتها ما لا يقول به. وبعض المثبتين لها يدخل معنى بَاطِلاً مُخَالِفًا لقول السلف ولما دل عليه الكتاب والميزان لا سيما وأن هذه الألفاظ لم يرد نص من الكتاب والسنة بنفيها ولا بإثباتها. ولهذا فإن الواجب في باب الصفات أن نثبت ما أثبته الله ورسوله، وأن ننفي ما نفاه الله ورسوله، أما ما لم يرد نص بإثباته ولا بنفيه كهذه الألفاظ فإنه ينظر في مقصود قائله: فإن كان معنى صَحِيحًا قيل، لكن ينبغي التعبير عنه بألفاظ النصوص دون هذه الألفاظ المجملة إلا عند الحاجة، كأن يكون الخطاب مع من لا يتم المقصود منها إلا به وحينئذ فلا بد من قرائن تبين المراد .

والشيخ رحمه الله قد قصد بهذا الكلام الرد على المشبهة كداود الجَوَاربي وأمثاله القائلين بأن الله جسم، وأنه جثة وأعضاء، ومقصوده[1] هذا صحيح، ولكن حدث بعده من أدخل في عموم نفيه حقا وَبَاطِلاً فاحتاج الأمر إلى بيان .

فقوله: (تعالى عن الحدود). الحَدّ: هو ما ينفصل به الشَّيء ويتميز به عن غيره، أي أن الله تعالى عن أن يحيط أحد بحده لأنه متميز عن خلقه، منفصل عنهم، مباين لهم، وقد اتفق السلف على أن البشر لا

---

(١) أي مقصود الطحاوي.

يعلمون لله حداً، وأنهم لا يحدون شيئاً من صفاته، وهذا هو مراد الشيخ بقوله: (تعالى عن الحدود).

وإذا كان الحد -كما أسلفنا- يقال على ما ينفصل به الشَّيء ويتميز به عن غيره، والله تعالى غير حالٍّ في خلقه ولا قائم بهم، بل هو القيوم القائم بنفسه القيم لما سواه، فالْحدّ بهذا المعنى لا يجوز أن تكون فيه منازعة، فإنه ليس وراء نفيه إلا نفي وجود الرب ونفي حقيقته. سئل عبد الله بن المبارك: بم نعرف ربنا ؟ قال بأنه على العرش، بائن من خلقه، قيل بحد قال: بحد .

أما ألفاظ الأركان والأعضاء والأدوات: فالركن جزء من الماهية، والله لا يتجزأ . والأعضاء فيها معنى التفريق وَالْبَعْضيَّة، تعالى الله عن ذلك. والجوارح فيها معنى الاكتساب والانتفاع، وكذلك الأدوات وهي الآلات التي ينتفع بها في جلب النفع ودفع الضر .

كل هذه المعاني منتفية عن الله عز وجل، ولهذا لم يرد ذكرها في صفاته، فالألفاظ الشرعية صحيحة المعاني سالمة من الاحتمالات الفاسدة، فيجب ألا يعدل عنها لغيرها حتى لا ينفي معنى صحيح أو يثبت معنى فاسد .

ولكن فريقاً من المعطلة يستدلون بذلك على نفي الصفات الثابتة بالأدلة القطعية كاليد والوجه. قال أبو حنيفة في الفقه الأكبر: له يد ووجه ونفس، كما ذكر تعالى في القرآن من ذكر اليد والوجه والنفس، فهو له صفة بلا كيف، ولا يقال أن يده قدرته ونعمته لأن فيه إبطال الصفة .

وهذا الذي ذكره الإمام ثابت بالأدلة القاطعة: قال تعالى: ﴿ قَالَ يَـٰٓإِبْلِيسُ مَا مَنَعَكَ أَن تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَىَّ ﴾ [ص: ٧٥]. وقال تعالى: ﴿ وَمَا قَدَرُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦ وَٱلْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ وَٱلسَّمَـٰوَٰتُ مَطْوِيَّـٰتٌۢ بِيَمِينِهِۦ ﴾ [الزمر: ٦٧]. وقال تعالى: ﴿ كُلُّ شَىْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُۥ ﴾ [القصص ٨٨]. وقال: ﴿ وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو ٱلْجَلَـٰلِ وَٱلْإِكْرَامِ ﴾ [الرحمن: ٢٧]. وقال: ﴿ كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَىٰ نَفْسِهِ ٱلرَّحْمَةَ ﴾ [الأنعام: ٥٤]. وقال: ﴿ وَيُحَذِّرُكُمُ ٱللَّهُ نَفْسَهُۥ ﴾ [آل عمران: ٢٨.] .

ولا يصح تأويل اليد بالقدرة، فإن قوله تعالى: ﴿ مَا مَنَعَكَ أَن تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَىَّ ﴾. لا يصح أن يكون معناه بقدْرتي مع تثنية اليد- ولو صح ذلك لقال إبليس وأنا خلقتني بقدرتك أيْضا فلا فضل له عليَّ بذلك .

أما لفظ الجهة: فقد يراد به ما هو موجود، وقد يراد به ما هو معدوم. فإذا أريد بها أمر موجود غير الله كان مَخْلُوقًا والله لا يحصره شَيء، ولا يحيط به شَيء من المَخْلُوقَات. وإن أريد بها أمر عدمي وهو ما فوق العالم فليس هناك إلا الله وحده فإذا قيل: إنه في جهة بهذا الاعتبار فهو صحيح، ومعناه أنه فوق العالم حيث انتهت المَخْلُوقَات فهو فوق الجميع عال عليه. ونفاة لفظ الجهة الذين يريدون بذلك نفي العلو يذكرون من أدلتهم أن الجهات كلها مخلوقة وأنه كان قبل الجهات، وأن القول بالجهة يلزمه القول بقدم شَيء من العالم، وأنه كان مُسْتَغْنِيًا عن الجهة ثم صار فيها .

وهذه العبارات تدل على أنه ليس في شَيء من المَخْلُوقَات سواء سمي جهة أو لم يسم، وهذا حق، ولكن الجهة ليست أمراً وُجُودياً بل أمر اعتباري، ولاشك أن الجهات لا نهاية لها وما لا يوجد في ما لا نهاية له فليس بموجود .

وقول المصنف رحمه الله تعالى: (ولا تحويه الجهات الست كسائر المبتدعات) أي: أن الله لا يحيط به شيء ولا يحويه شَيء بل هو المحيط بكل شَيء والعالي على كل شيء هذا هو مراد الشيخ بهذه العبارة بدليل قوله بعد ذلك: (وأنه محيط بكل شيء وفوقه). ولكن في عبارته إجمال، وإبهام بالتناقض في إثبات الإحاطة والفوقية ونفي جهة العلو، وإن أجيب عنه بأنه نفي أن يحويه شيء من مخلوقاته ومن ثم فقد كان تركه والاعتصام بالألفاظ الشرعية أولى .

ومن ناحية أخرى فإن قوله: (كسائر المبتدعات) يفهم منه أنه ما من مبتدع إلا وهو محوي، وفيه نظر :

فإن أراد أنه محوي بأمر وجودي فممنوع، فإن العالم ليس في عالم آخر وإلا لزم التسلسل .

وإن أراد أمراً عدمياً فليس كل مبتدع في العدم، بل منها ما هو داخل في غيره كالسماوات والأرض في الكرسي، ومنها ما هو منتهى المَخْلُوقَات كالعرش.

وإن كان يمكن أن يجاب عن ذلك بأن ((سائر)) بمعنى البقية لا بمعنى الجميع، ومنه السؤر. وهو ما يبقيه الشارب في الإناء، فيكون المعنى أنه تعالى غير محوي كما يكون أغلب المَخْلُوقَات مَحْوياً بل هو غير محوي بشَيء، تعالى الله عن ذلك.

ولا يظن بالشيخ أنه يقول: إن الله ليس داخل العالم ولا خارجه، بل مراده أنه منـزه عن أن يحيط به شيء من مخلوقاته، وأن يكون مُفْتَقِرًا إلى شيء منها كالعرش أو غيره[1]

---

(١) قال الشيخ ابن باز في تعليقه على متن الطحاوية: هذا الكلام فيه إجمال قد يستغله أهل التأويل والإلحاد في أسماء الله وصفاته وليس لهم بذلك حجة؛ لأن مراده رحمه الله تنـزيه الباري سبحانه عن مشابهة المخلوقات لكنه أتى بعبارة مجملة تحتاج إلى

أسئلة التقويم الذاتي

س١- التشبيه والتعطيل طرفان باطلان بينهما وسط الإسلام المعتدل. اشرح هذه العبارة موضحاً أسباب بطلان التشبيه والتعطيل، وكيفية الرد على المشبهة والمعطلة؟

س٢- تسمية المخلوق ووصفه ببعض أسماء الخالق وصفاته ، هل يستلزم التشبيه ؟ أو هل يستدعي نفي صفات الخالق بدعوى نفي التشبيه ؟ أجب مع ذكر الأدلة

س٣- هل يجوز اعتقاد وصف الله بصفة بعد أن لم يكن متصفاً بها؟ وكيف نفهم حدوث بعض صفات الفعل الاختيارية فى وقت دون وقت ؟

س٤- اشرح قول المصنف رحمه الله: ((له معنى الربوبية ولا مربوب، ومعنى الخالق ولا مخلوق)).

س٥- اذكر أدلة أهل السنة فى إثبات صفة الكلام لله عز وجل. ثم أجب على استدلالات المعتزلة والأشاعرة الباطلة فيما ذهب إليه كل منهم فى مسألة الكلام.

س٦- شهدت نصوص الكتاب والسنة بعلو الله على خلقه . وضح ذلك؟

س٧- كيف ترد على الشبهات الآتية :

- **علو الله وفوقيته في المكانة والمنزلة فحسب .**
- **دلالة آية :﴿ فأينما تولوا فثم وجه الله ﴾ على نفي حقيقة العلو .**
- **المنافاة بين علو الله على عرشه ، وبين معيته لخلقه .**

س٨- ما أدلة أهل السنة والجماعة في إثبات رؤية الله عز وجل؟ وهل نفي استطاعة الرؤية فى الدنيا يستلزم نفيها فى الآخرة ؟ أجب على ضوء قوله تعالى لنبيه موسى حين طلب منه رؤيته : ﴿ قال لن تراني .... ﴾

تفصيل حتى يزول الاشتباه، فمراده "الحدود:" التي يعلمها البشر، فهو سبحانه لا يعلم حدوده إلا هو سبحانه لأن الخلق لا يحيطون به علماً، كما قال الله تعالى في سورة طه: ﴿**يعلم ما بين أيديهم وما خلفهم ولا يحيطون به علماً**﴾، ومن قال من السلف بإثبات الحد في الاستواء أو غيره فمراده حد يعلمه الله سبحانه، ولا يعلمه العباد. وأما "الغايات والأركان والأعضاء والأدوات" فمراده رحمه الله تنـزيهه عن مشابهة المخلوقات في حكمته وصفاته الذاتية من الوجه واليد والقدم ونحو ذلك، فهو سبحانه موصوف بذلك وليست صفاته مثل صفات الخلق،ولا يعلم كيفيتها إلا هو سبحانه، وأهل البدع يطلقون مثل هذه الألفاظ لينفوا بها الصفات بغير الألفاظ التي تكلم الله بها وأثبتها لنفسه حتى لا يفتضحوا وحتى لا يشنع عليهم أهل الحق. والمؤلف الطحاوي رحمه الله لم يقصد هذا المقصد؛ لكونه من أهل السنة المثبتين لصفات الله، وكلامه في هذه العقيدة يفسر بعضه بعضاً ويصدق بعضه بعضاً، ويفسر مشتبهه بمحكمه، وهكذا قوله "لا تحويه الجهات الست كسائر المبتدعات" مراده الجهات الست المخلوقة، وليس مراده نفي علو الله واستوائه على عرشه؛ لأن ذلك داخلاً في الجهات الست بل هو فوق العالم ومحيط به، وقد فطر الله عباده على الإيمان بعلوه سبحانه وأنه في جهة العلو.



س٩- رؤية النبي صلى الله عليه وسلم لربه ليلة المعراج موضع خلاف عند السلف والخلف. وضح أدلة الفريقين في هذا الخلاف و الترجيح بينهما .

س١٠- اشرح قول المصنف رحمه الله : ﴿و لا يصح الإيمان بالرؤية لأهل دار السلام لمن اعتبرها منهم بوهم أو تأولها بفهم ﴾ . مع بيان أنواع التأويل وضرب الأمثلة على كل نوع؟

س١١- أهل السنة يثبتون صفات الله تعالى على التفصيل وينفونها على الإجمال . وضح فائدة ذلك ، مع مقارنة هذه الطريقة بطريقة أهل الكلام المذموم؟

س١٢- لماذا كان استخدام اسم الله ﴿الأول﴾ ، واسم الله ﴿ القيوم﴾ أبلغ وأولى من استخدام لفظ ((القديم)) ؟

س١٣- ﴿الحي القيوم ﴾ اسمان عظيمان لله عز وجل يستلزمان سائر صفات الكمال. وضح ذلك؟

س١٤- اذكر الأدلة التي تدل على أن العرش والكرسي حق؟

س١٥- كيف تأول الجهمية صفتي الغضب والرضا لله عز وجل؟ و بم يرد عليهم عقلاً ونقلاً ؟

س١٦- ما الفرق بين الخلة والمحبة ؟ عضد إجابتك بأدلة النصوص؟

س١٧- خلة النبي صلى الله عليه وسلم لنا ممتنعة، وخلتنا له ثابتة . وضح ذلك؟

س١٨- الظلم من أوصاف النقص التي تتنافى مع وصف الله نفسه بأن له المثل الأعلى. وضح ذلك مستشهداً بأدلة النصوص؟

الخلاصة

أولاً: توحيد الربوبية:

- القلوب مفطورة على الإقرار بتوحيد الربوبية أعظم من كونها مفطورة على الإقرار بغيره من الموجودات .

-لم يذهب إلى نقيض هذا التوحيد بالكلية طائفة معروفة من بني آدم، إنما وقع الشرك منهم في بعض الربوبية، لذا لم يقدهم إلى إفراد الله وحده بالعبادة؛ فالإقرار بالربوبية لايكفي وحده للبراءة من الشرك .

-الميثاق الذى أخذه الله من بني آدم حجة عليهم يوم القيامة، والمراد منه على الراجح: فطرهم على التوحيد.

-الشرك حادث طارئ تقلده الأبناء عن الآباء، ولا يصح قياسه على تقليدهم في العادات الدنيوية التي قد لا يعلمون فسادها ابتداء، بخلاف الشرك الذي كان عندهم من المعرفة الفطرية ما يبين فساده .

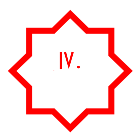
ثانياً: توحيد الإلهية:

- توحيد الإلهية هو عبادة الله وحده، وخلع ما يعبد من دونه، وهو المقصود من شهادة أن لاإله إلا الله.

- وتوحيد الإلهية هو مقصد دعوة الرسل لأقوامهم، إذ جعلوا من توحيد الربوبية مدخلاً ودليلاً عليه.

- شهد الله لنفسه بهذا التوحيد: فقد أخبر، وبيَن، وقضى، وأعلم الخلق أنه لايستحق العبادة سواه، وأن إلهية من سواه باطلة. وبناءً عليه، فقد شهد بذلك الملائكة، والرسل، وأولو العلم.

- خواص المؤمنين يستدلون بأسماء الله وصفاته على أفعاله، بينما الجمهور يستدلون على توحيد



الله بآياته المشهودة.

-الدعاء من أقوى الأسباب فى جلب المنافع، ودفع المضار، وذلك إذا حصلت شروطه، وانتفت موانعه، سواء كان العبد مسلماً، أو كافراً؛ إذ إن إجابة الله للداعين من جنس رزقه، وربوبيته لهم.

-التوكل يتألف من وجوب التوحيد، والشرع، والعقل. فالالتفات إلى الأسباب شرك فى التوحيد، والإعراض عنها: قدح فى الشرع، ومحو الأسباب أن تكون أسباب: نقص فى العقل.

-التوسل بالأنبياء والصالحين يكون مشروعاً من جهة المحبة والاتباع، ومحذوراً من جهة الإقسام بذواتهم.

-الكهان، والسحرة، والمنجمون صناعاتهم محرمة بالكتاب والسنة والإجماع.

-محبة الله تستلزم موافقته فى محبوبه ومكروهه، وولايته وعداوته. لذا فإن محبة الصالحين والمؤمنين، وموالاتهم فى الله من تمام محبة الله، كذلك بغض المفسدين والمستكبرين، ومعاداتهم فى الله من تمام محبته تعالى. والحب والبغض يكون بحسب ما فى العبد من خير وشر.

-الإسلام قائم على التسليم والاستسلام لنصوص الوحيين، وبنقصان التسليم ينقص التوحيد حتى يجر صاحبه إلى الكفر إذا اتخذ هواه إلهاً مطاعاً من دون الله.

ثالثا: توحيد الأسماء والصفات:

-التشبيه والتعطيل في باب الأسماء والصفات طرفان باطلان، والوسط المعتدل بينهما هو دين الإسلام.

- المشبهة غلوا في إثبات الصفات فصاروا كأنما يعبدون صنماً، والمعطلة غلوا في نفي المماثلة من باب التنـزيه فصاروا كأنما يعبدون عدماً، أما أهل السنة فيصفون الله تعالى بما وصف به نفسه، ووصفه به رسوله، من غير تشبيه، ولا تعطيل.

- الله عز وجل متصف بصفات الكمال في الذات، والفعل أزلاً وأبداً.

- القرآن كلام الله عز وجل بالحقيقة، ليس بمخلوق، تكلم به سبحانه وتعالى على وجه يليق بجلاله، بكيفية لايعلمها إلا هو، فكلامه عز وجل صفة من صفات كماله

- الله عز وجل فوق سماواته، مستوٍ على عرشه، محيط به، وغني عنه. كما أن علوه سبحانه على خلقه مطلق على جميع المراتب ذاتاً، وقدراً، وشرفاً.ولامنافاة بين علوه على عرشه، وبين معيته لخلقه، سواء معيته العامة بعلمه وقدرته وسلطانه، أو معيته الخاصة بعباده المتقين بعونه ونصرته وتأييده.

- اتفق أهل السنة على إثبات رؤية الله عز وجل، ولكن لايراه أحد فى الدنيا بعينه. أما المعتزلة فقد تأولوا نصوص الرؤية لينفوها حتى لايقعوا فى التشبيه.

- تعددت أنواع التأويل على حسب معناه في كلام السلف، وفي كلام المفسرين، وفي كلام المتأخرين من الفقهاء. والتأويل الصحيح هو الذى يوافق ما جاءت به السنة.

- علم الله المطلق وقدرته المطلقة من صفات الكمال لله عز وجل.

- الله عز وجل هو الأول الذى لا يسبقه عدم، وهو الآخر الذى لايلحقه عدم.

- الحي القيوم اسمان لله عز وجل، عليهما مدار الأسماء الحسنى كلها، وذلك لتضمنهما إثبات كل صفات كمال الله سبحانه وتعالى.

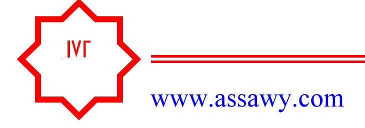
- العرش هو موضع استواء الله عز وجل، والكرسي بين يدي العرش كالمرقاة إليه.

- الله عز وجل يغضب ويرضى على الوجه الذى يليق به تعالى. وقد يأمر بما يحبه ويرضاه وإن كان لايريد وقوعه، كما أنه قد ينهى عما يسخطه وإن كان قد أراد وقوعه.

- اختص الله نبيه محمداً ونبيه إبراهيم عليهما الصلاة والسلام بمنـزلة الخلة: وهي أخص من مطلق المحبة إذ إن المقصود منها كمال المحبة، وهي ثابتة لله عز وجل على الوجه الذى يليق به.

- الله سبحانه وتعالى منـزه عن أدنى الظلم، لأن الظلم صفة نقص لاتنبغي له عز وجل، فقد وصف الله نفسه بأن له المثل الأعلى وهو الكمال المطلق في كل ما يتعلق به.

- تعالى الله عز وجل عن أن يحيط أحد بحده لأنه مباين لخلقه، محيط بهم دون أن يحيط به شيء.



الاختبار البعدي للوحدة

س١- في واقع الناس تجد ظاهرة الاستدلال بتوحيد الربوبية على صحة الإيمان وكمال التوحيد، فيعتقد الكثير أن مبلغ شهادة أن لا إله إلا الله أنه لا خالق إلا الله، ولامدبر للأمر سواه .. إلخ . فما مدى صحة هذا الفهم ؟ وأين يكمن القصور فيه ؟ وما مدى انتشار هذه الظاهرة في المجتمع الذي تحيا فيه ؟

س٢- فى ظل الثورة التكنولوجية الحديثة، ظهرت أمم بأكملها تعتنق المذاهب الإلحادية وتعطيها الصبغة العلمية والتقدمية مع كونها تتنكر لحقيقة وجود الله، وربوبيته على خلقه فكيف يمكن تطويع الوسائل المقروءة، والسمعية، والمرئية فى التصدي لهذه الظاهرة لبيان الآيات الكونية والنفسية الدالة على ربوبيته تعالى؟

س٣- صفحة الوجود مفتوحة أمام أعين المتدبرين، دالة على تفرد الله عز وجل بصفات الربوبية. فهل وفَّينا لهذا الجانب حقه من التأمل والتدبر أثناء الانشغال بالدنيا وتحصيل المعاش؟ وكيف يمكن علاج هذا التقصير الذي يوهن من قدر معرفة الله فى القلوب ؟

س٤- من خلال تلاوتك لسور القرآن، تمر كثيراً على الآيات التي تتحدث عن تفرد الله بصفات الربوبية من خلق، وملك، ورزق، وتدبير.. إلخ ، استخرج هذه الآيات واجمعها من سور: الرعد، النحل، فاطر، الرحمن، وتعرف على معانيها وتفسيرها، وكيف استخدمت في سياقها كمدخل لتوحيد الألوهية ودليلاً عليه؟

س٥- يقول الله عز وجل على لسان نبيه هود فى معرض محاجته لقومه: ﴿إنى أشهد الله واشهدوا أنى بريء مما تشركون من دونه فكيدوني جميعاً ثم لا تنظرون..﴾ وضح على ضوء مادرست من مراتب الشهادة كيف أقام هود عليه السلام حجة التوحيد على قومه؟

س٦- أصل الشرك عند العرب وغيرهم يكمن في الغلوّ فى تعظيم الصالحين والأولياء وضح ذلك، مع بيان موقف الإسلام من هذا الغلو والشرك؟

س٧- توحيد الإلهية يقوم على ركنين عظيمين، كلّ منهما لازم للآخر وانتفاء أحدهما يلزم انتفاء الآخر. اشرح ذلك مع ذكر الأدلة؟



س٨- التشبيه والتعطيل منهجان باطلان في باب الأسماء والصفات، إلا إن أهل التشبيه مع ضلالهم خير من أهل التعطيل لغلبة المحاذير الناجمة عن التعطيل، حتى قيل: ﴿ المعطل أعمى، والمشبه أعشى ﴾. وضح ذلك مع ضرب الأمثلة؟

س٩- التشبيه نوعان، اذكرهما، واذكر أكثرهما انتشاراً وشيوعاً بين الناس، مع التعليل والتفصيل؟

س١٠- وضح طريقة الأشاعرة في إثبات صفات الله تعالى؟

الوحدة الثانية الإيمان بالملائكة

الأهداف الخاصة

يتوقع منك عزيزى الدارس بعد دراستك لهذا الباب أن تكون ملماً بما يلي :

- أصناف الملائكة ومراتبهم.
- المفاضلة بين الملائكة وصالحي البشر.

المبحث الأول:أصناف الملائكة ومراتبهم

قال المصنف رحمه الله تعالى: ونؤمن بالملائكة.

الملائكة هم الموكلون بالسماوات والأرض، وكل حركة في العالم فهى ناشئة عنهم. قال تعالى:

﴿ فَٱلْمُدَبِّرَٰتِ أَمْرًا ﴾ [النازعات: ٥]. وهم الملائكة عند أهل الإيمان، والنجوم عند أهل الجحود والكفران. والإيمان بهم ركن من أركان الإيمَان، وقد دل الكتاب والسنة على أصناف منهم:

فمنهم الموكل بالجبال، ومنهم الموكل بالسحاب، ومنهم الموكل بالرحم، ومنهم الحفظة، ومنهم الموكل بسؤال أهل القبور، ومنهم الموكل بالنفخ في الصور، ومنهم الموكل بالنار وعذابها، ومنهم الموكل بالجنة ونعيمها، ومنهم حملة العرش، ومنهم من وكلوا بعمارة السماوات بالصلاة والتسبيح إلى غير ذلك من أصناف الملائكة التي لا يحصيها إلا الله.

وقد أطّت السماوات بهم وحُقّ لها أن تئط، فما فيها موضع أربع أصابع إلا وملك قائم أو راكع أو ساجد لله تعالى، ويدخل البيت المعمور منهم كل يوم سبعون ألفًا لا يعودون إليه[1]. والقرآن مملوء بذكر الملائكة وأصنافهم، ومراتبهم، فتارة يقرن الله اسمه باسمهم، وَصلاته بصلاتهم ويضيفهم إليه في مواضع التشريف، وتارة يصفهم بالإكرام والكرم والتقريب والإخلاص.

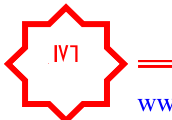
قال تعالى: ﴿ كِرَامًا كَٰتِبِينَ ﴾ [الانفطار: ١١]. قال تعالى: ﴿ يَشْهَدُهُ ٱلْمُقَرَّبُونَ ﴾ [المطففين: ٢١]. قال تعالى:

﴿ فَإِنِ ٱسْتَكْبَرُوا۟ فَٱلَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ يُسَبِّحُونَ لَهُۥ بِٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَهُمْ لَا يَسْـَٔمُونَ ﴾ [فصلت ٣٨].

قال تعالى: ﴿ شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَأُو۟لُوا۟ ٱلْعِلْمِ قَآئِمًۢا بِٱلْقِسْطِ ﴾ [آل عمران ١٨] وقال تعالى: ﴿ هُوَ ٱلَّذِى يُصَلِّى عَلَيْكُمْ وَمَلَٰٓئِكَتُهُۥ لِيُخْرِجَكُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ ﴾ [الأحزاب: ٤٣].

---

(1)ت: الزهد، ب ٩، ح ٢٣١٢. ث: الزهد، ب١٩، ح٤١٩٠. حم: ١٧٣/٥– كلهم عن أبي ذر.وقال الترمذي: حسن غريب.



الكرام الكاتبون:

قال المصنف رحمه الله تعالى: ونؤمن بالكرام الكاتبين،فإن الله قد جعلهم علينا حافظين.

قال تعالى: ﴿ إِذۡ يَتَلَقَّى ٱلۡمُتَلَقِّيَانِ عَنِ ٱلۡيَمِينِ وَعَنِ ٱلشِّمَالِ قَعِيدٞ ۝١٧ مَّا يَلۡفِظُ مِن قَوۡلٍ إِلَّا لَدَيۡهِ رَقِيبٌ عَتِيدٞ ﴾ [الانفطار:١٠- ١٢]، **وقال تعالى:** ﴿ إِذۡ يَتَلَقَّى ٱلۡمُتَلَقِّيَانِ عَنِ ٱلۡيَمِينِ وَعَنِ ٱلشِّمَالِ قَعِيدٞ ۝١٧ مَّا يَلۡفِظُ مِن قَوۡلٍ إِلَّا لَدَيۡهِ رَقِيبٌ عَتِيدٞ ﴾ [ق: ١٧،١٨]. **وقال تعالى:** ﴿ لَهُۥ مُعَقِّبَٰتٞ مِّنۢ بَيۡنِ يَدَيۡهِ وَمِنۡ خَلۡفِهِۦ يَحۡفَظُونَهُۥ مِنۡ أَمۡرِ ٱللَّهِ ﴾ [الرعد: ١١].

وفي الصحيح عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: ((يَتعاقبونَ فيكم ملائكة بالليل وملائكة بالنهار ويجتمعون في صلاة الصبح وصلاة العصر، فيصعد إليه الذين كانوا فيكم فيسألهم والله أعلم بهم: كيف ترَكْتمْ عبادى؟ فيقولون أتيناهم وهم يصلون، وفارقناهم وهم يصلون)).(١)

وفي الحديث الآخر: ((إن معكم من لا يفارقكم إلا عند الخلاء وعند الجماع فاستحيوهم وأكرموهم)).(٢)

جاء في التفسير: اثنان عن اليمين وعن الشمال يكتبان الأعمال، صاحب اليمين يكتب الحسنات وصاحب الشمال يكتب السيئات.

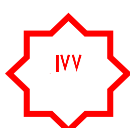
وملكان آخران يحفظانه ويحرسانه: واحد من ورائه، وواحد أمامه، فهو بين أربعة أملاك بالنهار، وأربعة آخرين بالليل بَدَلاً، حافظان وكاتبان.

وروى مسلم والإمام أحمد عن عبد الله قال: قال صلى الله عليه وسلم: ((ما منكم من أحد إلا وقد وُكّل به قرينه من الجن و قرينه من الملائكة، قالوا: وإياك يا رسول الله؟ قال: وإياى لكن الله أعاننى

---

(١) خ : الصلاة، ب١٥،ح ٥٣٠، بدء الخلق، ب ٦، ح٣٠٥١، التوحيد، ب٢٣، ح ١٩٩٢ وب٣٣،- ٧٠٤٨. م: المساجد: ب٣٧،ح ٢١٠ .س: الصلاة، ب ٢١،ح٤٨٦- كلهم عن أبي هريرة.

(٢) ت: الأدب، ب ٤٢،ح ٢٨٠٠- عن ابن عمر، وهو حَدِيث ضعيف،: قال الترمذي: غريب.



عليه فأسلم، فلا يأمرني إلا بخير)).[1] أى فاستسلم وانقاد لي في أصح القولين، ولهذا قال: ((فلا يأمرنى إلا بخير)) ومن قال إن الشيطان صار مؤمناً فقد حرف معناه، فإن الشيطان لا يكون مؤمنًا، ومعنى: ﴿يَحۡفَظُونَهُۥ مِنۡ أَمۡرِ ٱللَّهِ﴾ أن الله أمرهم بذلك، يشهد لذلك قراءة من قرأ:﴿يَحۡفَظُونَهُۥ بأَمۡرِ ٱللَّهِ﴾.

وقد ثبت بالنصوص أن الملائكة تكتب القول والفعل وكذلك النية، لأنها فعل القلب، فدخلت في عموم ﴿ يَعۡلَمُونَ مَا تَفۡعَلُونَ ﴾.

وبدليل الحديث القدسى: ((إذا هم عبدى بسيئة فلا تكتبوها عليه، فإن عملها فاكتبوها عليه سيئة، وإذا هم عبدى بحسنة فلم يعملها فاكتبوها حسنة، فإن عملها فاكتبوها عَشرًا))[2].

ملك الموت :

قال المصنف رحمه الله تعالى: نؤمن بملك الموت الموكل بقبض أرواح العالمين.

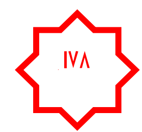
قال تعالى:﴿ قُلۡ يَتَوَفَّىٰكُم مَّلَكُ ٱلۡمَوۡتِ ٱلَّذِى وُكِّلَ بِكُمۡ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمۡ تُرۡجَعُونَ ﴾ [السجدة ١١]. وقال: ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَحَدَكُمُ ٱلۡمَوۡتُ تَوَفَّتۡهُ رُسُلُنَا وَهُمۡ لَا يُفَرِّطُونَ ﴾ [الأنعام: ٦١]. وقال: ﴿ ٱللَّهُ يَتَوَفَّى ٱلۡأَنفُسَ حِينَ مَوۡتِهَا وَٱلَّتِى لَمۡ تَمُتۡ فِى مَنَامِهَا ۖ فَيُمۡسِكُ ٱلَّتِى قَضَىٰ عَلَيۡهَا ٱلۡمَوۡتَ وَيُرۡسِلُ ٱلۡأُخۡرَىٰٓ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ﴾[الزمر: ٤٢].

ولا تعارض بين هذه الآيات: فملك الموت يتولى قبض الأرواح واستخراجها، ثم تأخذها منه ملائكة الرحمة، أو ملائكة العذاب ويتولونها بعده، كل ذلك بإذن الله وحكمه وأمره، فصحت إضافة التوفي إلى كل بحسبه.

---

[1] م: المنافقين، ب١٦، ح٦٩. حب، ٨/ ١١٠، ح ٦٣٨٣.-حم: ١/٣٨٥، ٤٠٠ كلهم عن ابن مسعود.

[2] متفق عليه. خ: الرقاق، ب ٣١، ح ٦١٢٦، التوحيد، ب٣٥، ح ٧٠٦٢، م: الإيمان، ب ٥٩، ح ٢٠٣- ٢٠٨، ح ٣٠٧٣. س: تفسير سورة الأنعام، ح ٢٠١. عن أبي هريرة وعبد الله بن عباس



المبحث الثاني:المفاضلة بين الملائكة وصالحي البشر

تكلم الناس في المفاضلة بين الملائكة وصالحي البشر: وينسب إلى أهل السنة تفضيل صالحى البشر والأنبياء فقط على الملائكة. وينسب إلى المعتزلة تفضيل الملائكة. وينسب إلى الشيعة أن جميع الأئمة أفضل من جميع الملائكة.

وأمَّا أتباع الأشعري فعلى قولين: منهم من يفضل الأنبياء والأولياء، ومنهم من يقف ولا يقطع في ذلك قَوْلاً.

ولم يتعرض الشيخ رحمه الله لهذه المسألة بنفي ولا إثبات، ولعله قصد ذلك لتوقف الإمام أبي حنيفة في الجواب عنها، وهذا هو الحق فإن الواجب علينا الإيمان بالملائكة والنبيين، وليس علينا أن نعتقد أي الفريقين أفضل، إذ لو كان ذلك من الواجبات لبين لنا نصًا. ﴿ وَمَا كَانَ رَبُّكَ نَسِيًّا ﴾ [مريم: ٦٤].

فالسكوت عن الكلام في هذه المسألة أولى.

قال الشيخ تاج الدين الفزارى: اعلم أن هذه المسألة من بدع علم الكلام التي لم يَتكَلمْ فيها الصدر الأول من الأمة، ولا من بعدهم من أعلام الأئمة، ولا يتوقف عليها أصل من أصول العقائد، ولا يتعلق بها من الأمور الدينية كثير من المقاصد، ولهذا خلا عنها طائفة من مصنفات هذا الشأن وامتنع من الكلام فيها جماعة من الأعيان، وكل متكلم فيها من علماء الظاهر بعلمه لم يخل كلامه عن ضعف واضطراب. والأدلة التي يسوقها كل فريق في هذه المسألة إنما تدل على الفضل لا على الأفضلية وذلك ما لا نزاع فيه.

وحاصل الكلام أن هذه المسألة من فضول المسائل، ولهذا لم يتعرض لها كثير من أهل الأصول وتوقف أبو حنيفة رحمه الله في الجواب عنها.

الخلاصة

- الملائكة خلق من نور، لايحصي أصنافهم ولا أعدادهم إلا الله، وهم الموكلون بالسماوات والأرض وكل حركة فى العالم.

- الكرام الكاتبون من الملائكة يسجلون على بني آدم الحسنات والسيئات من الأقوال والأفعال والنيات.

- ملك الموت يقبض الروح بإذن الله، ثم تأخذها منه ملائكة الرحمة، أو ملائكة العذاب.

- تعددت الأقوال فى المفاضلة بين الملائكة، وبين الأنبياء وصالحى البشر، إلا إن الأدلة سيقت فى ذكر فضل كل منهم، لا في ذكر الأفضلية بينهم، فالسكوت عن الكلام في هذا المسألة أولى.

الاختبار البعدي للوحدة

س١: من هم الملائكة ؟ وبم كلفوا ؟ وما واجبنا الذي كلفنا به نحوهم ؟

س٢: اذكر الأدلة التي توجب الإيمان بالكرام الكاتبين من الملائكة ؟

س٣: كيف يمكن الجمع بين الآيات التي أضافت التوفي تارة لله عز وجل ، وتارة لملك الموت ، وتارة لبقية الملائكة ؟

س٤: ما أقوال الفرق في المفاضلة بين الملائكة والأنبياء ؟ اذكر الصحيح منها مع التعليل .

س٥- استخرج من نصوص الكتاب والسنة الأوصاف التي ذكرت فى شأن كل من الأصناف الآتية من الملائكة : حملة العرش - الموكلون بالجنة - زبانية النار -الموكلون بقبض الروح – الموكلون بسؤال القبر؟

س٦- ما المنزلة والمهمة المنوطة بكل من الآتي أسماؤهم من الملائكة : جبريل- ميكائيل – إسرافيل – مالك – رضوان ؟

س٧- يزعم الملاحدة الذين ينكرون حقيقة وجود الملائكة أن الكون محكوم بقوانين قائمة وثابتة ، وأسباب محكمة يرتبط بعضها ببعض ، فلا داعى لتوهم وجود مخلوقات قائمة على تسخير الرياح والأمطار والجبال... إلخ ، كيف يمكن دحض هذه الشبهة؟

س٨- ما أثر الإيمان بالملائكة فى حياة الإنسان ؟

س٩- جبريل عليه السلام كان يتمثل للنبي صلى الله عليه وسلم في عدة صور مختلفة. اذكرها مع بيان المواقف التي وردت متعلقة بكل منها ؟

الأهداف الخاصة

يتوقع منك عزيزى الدارس بعد دراستك لهذا الباب أن تكون ملماً بما يلي :

- معنى كون القرآن قد نزل على سبعة أحرف.
- القرآن كلام الله غير مخلوق.
- نزول جبريل بالوحى على النبى صلى الله عليه وسلم.

مبحث الإيمان بالكتب المنزلة

قال المصنف رحمه الله تعالى: ونؤمن بالملائكة والنبيين، والكتب المنزلة على المرسلين.

وقال: ولا نجادل في القرآن، ونشهد أنه كلام رب العالمين، نزل به الروح الأمين، فعلّمه سيد المرسلين محمدا صلى الله عليه وسلم وهو كلام الله تعالى لا يساويه شئ من كلام المخلوقين، ولا نقول بخلقه ولا نخالف جماعة المسلمين.

قوله: (ولا نجادل في القرآن): يحتمل أنه أراد به أنا لا نقول فيه كما قال أهل الزيغ واختلفوا، بل نقول: إنه كلام رب العالمين.... إلخ كلامه.

ويحتمل أنه أراد: أنا لا نجادل في القراءة الثابتة، بل نقرؤه بكل ما ثبت وصح، وكل من المعنيين حق.

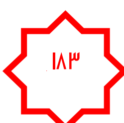
ويشهد للثاني ما روي عن ابن مسعود أنه قال: سمعت رَجُلاً قرأ آية سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقرأ خلافها، فأخذت بيده فانطلقت به إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فذكر ذلك، فعرفت في وجهه الكراهة، وقال: ((لا تختلفوا فإن من كان قبلكم اختلفوا فهلكوا))[1]. وفيه نهي عن الاختلاف الذي فيه جحد كل منهم ما مع صاحبه من الحق لأن كلاً منهما كان مُحِقًا.

ولهذا قال حذيفة لعثمان: أدرك هذه الأمة كي لا تختلف كما اختلف الأمم قبلهم. فجمع الناس على حرف واحد اِجتِمَاعًا سَائِغًا، ولم يكن في ذلك ترك واجب أو فعل محظور، لأن القراءة على سبعة أحرف جائزة وليست واجبة، رخصة من الله تعالى.

فلما خشى الصحابة أن تختلف الأمة وتتقاتل إن لم تجتمع على حرف واحد؛ جمعهم الصحابة

---

(١) رواه البخاري.



عليه، وهم معصومون من أن يجتمعوا على ضلالة وهذا قول جمهور السلف من العلماء والقراء.

كما أن ترتيب السور ليس وَاجباً مَنْصُوصًا عليه بل هو جائز، ولهذا كان ترتيب مصحف عبد الله على غير ترتيب المصحف اَلْعُثمَانِيّ، بخلاف ترتيب الآيات فإنه منصوص عليه فلم يكن لهم أن يقدموا آية على آية.

وقد ذكر ابن جرير: أن الترخيص في الأحرف السبعة كان في أول الإسلام لمشقة الاجْتِمَاع على الحرف الواحد، فلما تذللت ألسنتهم بالقراءة اجتمعوا على الحرف الذي كان في العرضة الأخيرة.

هل كان ابن مسعود يجوِّز القراءة بالمعنى؟

من نقل عن ابن مسعود أنه كان يجوز القراءة بالمعنى فقد كذب عليه، وإنما قال: نظرت إلى القراءة فرأيت قراءتهم متقاربة، وإنما هو كقول أحدكم: هلُمَّ، أقبل، تعال، فاقرءوا كما عَلِمْتم.

وإذا كان الله قد أمرنا أن نجادل أهل الكتاب بالتي هي أحسن إلا الذين ظلموا منهم، فكيف بأهل القبلة وهم بالجملة خير من أهل الكتاب، فلا يجوز أن يناظر من لم يظلم منهم إلا بالتي هي أحسن، ولا يكفر المخطِئ منهم قبل أن تقوم عليه الحجة التي يكفر من تركها، وقد ذم السلف أهل الأهواء وذكروا أن آخر أمرهم السيف!

وقول المصنف رحمه الله تعالى: ﴿ نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ ﴾ [الشعراء: ١٩٣]. وهو جبريل، سُمِّي رُوحًا لأنه حامل الوحي الذي به حياة القلوب إلى الرسل من البشر وهو أمين حق أمين، قال تعالى: ﴿ نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ ﴿١٩٣﴾ عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُنذِرِينَ ﴾ [الشعراء: ١٩٣، ١٩٤]. وقال تعالى: ﴿ إِنَّهُۥ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ﴿١٩﴾ ذِى قُوَّةٍ عِندَ ذِى ٱلْعَرْشِ مَكِينٍ ﴿٢٠﴾ مُّطَاعٍ ثَمَّ أَمِينٍ ﴾ [التكوير: ١٩-٢١].

وقوله: (فعلمه سيد المرسلين) فيه تصريح بتعليم جبريل إياه إبْطَالاً لتوهم القرامطة وغيرهم أنه تصوره في نفسه إلهاما.

وقوله: (ولا نقول بخَلْقِهِ ولا نخالف جماعة المسلمين). لأن من قال بخلق القرآن فقد خالف جماعة المسلمين لاتفاق السلف على أنه كلام الله بالحقيقة غير مخلوق. بل قوله: (ولا نخالف جماعة المسلمين) مجري على إطلاقه: أي لا نخالف به جماعة المسلمين في جميع ما اتفقوا عليه فإن خلافهم زيغ وضلالة.

الخلاصة

- نهى الشارع عن الاختلاف بين طرفين حال كون كلٍ منهما يحمل الحق.

- نزل القرآن على سبعة أحرف، وقراءته بها جائزة لمشقة الاجتماع على حرف واحد فى أول الإسلام.

- جمع عثمان بن عفان المسلمين على حرف واحد للقرآن خشية اختلاف الأمة فى القراءة على سبعة أحرف.

- جبريل عليه السلام هو حامل الوحى إلى الرسل.

الاختبار البعدي للوحدة

س١: اشرح قول المصنف رحمه الله : (ولا نجادل فى القرآن).

س٢: اختر الإجابة الصحيحة ، مع تصويب العبارات الخاطئة :

- ترتيب السور فى المصحف ثابت ومنصوص عليه .
- ترتيب الآيات داخل السور ليس بواجب .
- قراءة القرآن على سبعة أحرف رخصة من الله عز وجل .
- ينبغي جمع المسلمين على قراءة واحدة للقرآن وجوبا .

س٣: ما الكتب التي أنزلت على الرسل وسماها الله عز وجل فى القرآن الكريم ؟ وعلى من أنزلت ؟ اذكر الآيات التي وردت فيها ذكر هذه الكتب ؟

س٤: اختص الله تعالى القرآن الكريم بمزايا تميز بها عن جميع ما تقدمه من الكتب المنـزلة. اذكر هذه المزايا مع بيان مواضع الاتفاق والاختلاف بين جميع الكتب المنـزلة ؟

الوحدة الرابعة الإيمان بالرسل

الأهداف الخاصة

يتوقع منك عزيزى الدارس بعد دراستك لهذا الباب أن تكون ملماً بما يلي :

(١) المقصود من الإيمان برسل الله.

(٢) الأدلة على نبوة محمد ﷺ.

(٣) ختم النبوة بمحمد ﷺ.

(٤) عموم بعثته إلى الإنس والجن.

(٥) المفاضلة بين الأنبياء.

(٦) الإسراء والمعراج.

المبحث الأول:المقصود بالإيمان بالرسل

قال المصنف رحمه الله تعالى: ونؤمن بالملائكة والنبيين.

يجب علينا الإيمان بمن سمى الله في كتابه من الأنبياء والمرسلين، والإيمان بأن الله أرسل رُسُلاً وبعث أنبياء سِوَاهُمْ مما لا يعلم أسمَاءَهُمْ ولا عددهم إلا الله تعالى.

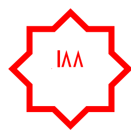
قال تعالى: ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِّن قَبْلِكَ مِنْهُم مَّن قَصَصْنَا عَلَيْكَ وَمِنْهُم مَّن لَّمْ نَقْصُصْ عَلَيْكَ ﴾ [غافر: ٧٨]. كذلك يجب الإيمان بأنهم جَمِيعًا قد بلغوا ما أمروا بتبليغه، وَبَيَّنُوه بما لا يسع أحدًا ممن أرسلوا إليه جهله. وأما الإيمان بمحمد صلى الله عليه وسلم فتصديقه، واتباع ما جاء به جملة وَتفْصِيلاً.

أولو العزم من الرسل:

أما أولو العزم من الرسل منهم، فقد قيل فيهم أقوال، أحسنها ما نقله البغوي وغيره عن ابن عباس وقتادة أنهم: نوح، وإبراهيم، وموسى، وعيسى، ومحمد صلى الله عليه وسلم: وهم المذكورون في آيتى: الأحزاب والشورى. قال تعالى:

﴿ وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مِيثَـٰقَهُمْ وَمِنكَ وَمِن نُّوحٍ وَإِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ ﴾ [الأحزاب: ٧]

. وقال تعالى: ﴿ شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحًا وَٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِۦٓ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰٓ ۖ أَنْ أَقِيمُوا۟ ٱلدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا۟ فِيهِ ﴾ [الشورى: ١٣]



المبحث الثاني:الأدلة علي نبوة محمد صلي الله عليه وسلم

قال المصنف رحمه الله تعالى: وأن محمداً عبده المصطفى، ونبيه المجتبى، ورسوله المرتضى.

الاصطفاء والاجتباء وَالارتِضَاء: متقارب المعنى.

كمال المخلوق في تحقيق عبوديته لِلّهِ تعالى:

واعلم أن كمال المخلوق في تحقيق عبوديته لله تعالى، ومن توهم أن الخروج عن العبودية أكمل فهو من أجهل الخلق وأضلهم. قال تعالى:

﴿ وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَدًا سُبْحَانَهُ بَلْ عِبَادٌ مُكْرَمُونَ ﴾ [الأنبياء: ٢٦].

وقد ذكر الله نبيه مُحَمَّداً صلى الله عليه وسلم باسم العبد في أشرف المقامات. فقال في ذكر الإسراء: ﴿ سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ ﴾ [الإسراء:١] وقال: ﴿ فَأَوْحَى إِلَى عَبْدِهِ مَا أَوْحَى ﴾ [النجم: ١٠]. وقال: ﴿ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَى عَبْدِهِ الْكِتَابَ ﴾ [الكهف:١].

أدلة النبوة:

المعجزات: وهي دليل صحيح، وقد استدل بها أهل الكلام على نبوة الأنبياء، ولكن الدليل ليس مَحْصُوراً فيها.

قرائن الأحوال: فقرائن الأحوال تفرق أيضاً بين الصادق والكاذب، فلم يدَّعِ النبوة أحد من الكاذبين إلا وقد ظهر عليه من الكذب والفجور ما يُعرف به أمره.

ولهذا قال صلى الله عليه وسلم لابن صياد: ((قد خبأت لك خَبئاً، فقال: هو الدخ. فقال: اخسأ، فلن تعدو قدرك)) يعني إنما أنت كاهن[1].

فمن عرف الرسول وصِدْقه، ومطابقة قوله لعمله، علم يَقِينًا أنه لا بد أن يكون رَسُولاً من عند

([1]) خ: الجنائز، ب٧٨، ١٢٨٩، الجهاد، ب ١٧٤، ح ٢٨٩٠، الأدب، هـ ٩٧، ٥٨٢٠، ٥٨٢١، القدر، ب ١٣ ٦٢٤٤، م: القدر، ب١٩، ح ٩٥. د: الملاحم، ب ١٦، ح ٤٢٢٦. ت: الفتن، ب ٦٣، ح٢٢٤٩. حم: ١/٣٨٠ و ٢/١٤٨ و ٣/٨٢ و ٣٦٨ و ٥/١٤٨ عن ابن مسعود وغيره

الله. وإذا كان الناس يميزون بين الصادق والكاذب في مجال الصناعات والمقالات، كالفلاحة والفصاحة، فكيف يشتبه الأمر في مجال النبوة؟

وإذا كان صدق الخبر وكذبه يُعلم مما يقترن به من الدلائل والقرائن، كما قالوا: ما أسرَّ أحد سريرة إلا أظهرها الله في صفحات وجهه وفلتات لسانه، فكيف يخفي صدق من يدعي أنه رسول الله من كذبه؟

ولهذا قالت خديجة للنبي صلى الله عليه وسلم وقد قال لها لما جاءه الوحي: ((إني قد خشيت على نفسي)): والله لا يخزيك الله، إنك لتصل الرحم، وتصدق الحديث، وتحمل الكل، وتقرى الضيف وتكسب المعدوم، وتعين على نوائب الحق.[1] وذلك لما تعلمه من صدقه وبره صلى الله عليه وسلم.

وكذلك قال النجاشي لما استخبرهم عما يخبر به، واستقرأهم القرآن، فقرأوه عليه: إن هذا والذي جاء به موسى ليخرج من مشكاة واحدة.

وكذلك ورقة بن نوفل عندما سمع من النبي صلى الله عليه وسلم فقال: هذا هو الناموس الذي كان يأتي موسى.

وكذلك هرقل عندما سأل أبا سفيان عن نسبه صلى الله عليه وسلم وأتباعه ودعوته وغير ذلك من الأسئلة فأدرك من خلال ذلك أن هذا هو النبي المرتقب، وإن كان قد آثر ملكه على النجاة بنفسه.

آثار السابقين: وإن فيما أبقاه الله في العالم من الآثار الدالة على ما فعله الله بأنبيائه من الكرامة، وما فعله بمكذبيهم من العقوبة، وما قصه علينا من أخبارهم، لأعظم الأدلة على صدقهم لمن يتدبر ذلك ويتأمله. فقد أخبروا بما سيكون من انتصارهم، وقد نصرهم الله فعلاً، وأهلك أعداءهم، هذا فضلاً عما أتوا به من الشرائع القويمة التي لا يحصل مثلها لكذاب جاهل.

أدلة نبوته صلى الله عليه وسلم:

أما عن معجزات نبينا صلى الله عليه وسلم فلبسطها مقام آخر، وقد أفردها البعض بمصنفات كالبيهقي وغيره. بل إن في إنكار رسالته صلى الله عليه وسلم طَعْنًا في الرب تبارك وتعالى، ونسبته إلى ما لا يليق بذاته من الظلم والسفه، ذلك أنه إذا كان محمد ليس بنبي صادق، وقد ظل يفتري على الله الكذب ثلاثاً وعشرين سنة: ينسخ فيها الملل، ويشرع الشرائع، ويضرب الرقاب، ويقتل أتباع الرسل-

---

[1] خ: بدء الوحى، ب ١، ح ٣، تفسير سورة الفلق، ح ٤٦٧٠، التعبير، ب ١، ح ١ ١٥٨. م: الإيمان، ب ٧٣، خ ٢٥٢-٢٥٤-عن عَائِشَةَ.

وهم أهل الحق- ويسبي نساءهم، ويغنم أموالهم، ثم يؤيده الله مع ذلك وينصره ويجيب دعوته، ويهلك أعداءه، ويرفع له ذكره. فإن معنى ذلك أنه ليس للعالم مدبر قدير حكيم! إذ لو كان لأخذ على يديه وجعله نَكَالاً للصالحين. وإذا كان بعض الكذابين قد قام في الأرض، وظهرت له شوكة، فإن أمره لم يتم بل سلط الله عليه من يقطع دابره ويستأصله.

الفرق بين النبي والرسول:

إن أحسن ما يفرق بين النبي والرسول أن من نبَّأه الله بخبر السماء إن أُمر بتبليغه فهو نبي ورسول وإن لم يؤمر فهو نبي وليس برسول، فالرسول أخص من النبي، فكل رسول نبي، وليس كل نبي رَسُولاً[1].

النعمة في إرسال الرسل:

ولا شك أن إرسال الرسل من أعظم نعم الله على خلقه. قال تعالى: ﴿ لَقَدْ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولاً مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُواْ عَلَيْهِمْ ءَايَـٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَـٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَإِن كَانُواْ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَـٰلٍ مُّبِينٍ ﴾ [آل عمران: ١٦٤].

---

(1) قال الشيخ ناصر في تعليقه على العقيدة الطحاوية: ولعل الأقرب أن الرسول من بعث بشرع جديد، والنبي من بعث لتقرير شرع من قبله، وهو بالطبع مأمور بتبليغه، إذ من المعلوم أن العلماء مأمورون بذلك، فهو أولى كما لا يخفى.

المبحث الثالث:ختم النبوة بمحمد صلي الله عليه وسلم

قال المصنف رحمه الله تعالى: وأنه خاتم الأنبياء.

وقال: وكل دعوى للنبوة بعده فغيٌّ وهوى.

قال تعالى:﴿ مَّا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَآ أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمۡ وَلَٰكِن رَّسُولَ ٱللَّهِ وَخَاتَمَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ ﴾ [الأحزاب:٤٠]

وقال صلى الله عليه وسلم: ((إن مثلي ومثل الأنبياء من قبلي، كمثل رجل بنى بَيْتاً فأحسنه وأجمله إلا موضع لبنة من زاوية، فجعل الناس يطوفون به، ويعجبون له، ويقولون: هلا وُضعت هذه اللبنة؟ قال: فأنا اللبنة، وأنا خاتم النبيين)).[1]

وعن ثوبان: قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: ((وإنه سيكون في أمتى ثلاثونَ كذابون، كلهم يزعم أنه نبي، وأنا خاتم النبيين، لا نبي بعدى))[2].

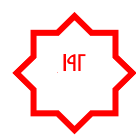
وقول المصنف رحمه الله تعالى: (وكل دعوى للنبوة بعده فغي وهوى). الغيَ: ضد الرشَد، والهوى: عبارة عن شهوة النفس. فلما ثبت أنه صلى الله عليه وسلم خاتم النبيين عُلِم أن كل من ادَّعى النبوة بعده فهو كاذب[3]. ولا يقال: فكيف إذا جاء مدعى النبوة بعده بالمعجزات؟ لأن هذا من باب فَرْض المحال، بل لا بد أن تظهر أمارة كذبه في دعواه.

---

(1)خ: المناقب، ب ٦ ١، ح ٣٣٤١ و ٣٣٤٢. م: الفضائل، ب٧، ح ٠ ٢- ٢٣. عن أبي هريرة.

(2)خ: المناقب، ب٢٢، ح ٣٤١٣، الفتن، ب٢٣، ح ٦٧٠٤. م: الفتن، ب١٨، ح ٨٣. عن أبي هريرة.

(3) قال الشيخ ناصر في تعليقه على الطحاوية: قد أخبر النبي صلى الله عليه وسلم أمته نصحاً لهم وتحذيراً في أحاديث كثيرة أنه سيكون بعده دجالون كثيرون، وقال في بعضها: "كلهم يزعم أنه نبي، وأنا خاتم النبيين لا نبي بعدي" رواه مسلم، وفي رواية: "يكون في آخر الزمان دجالون كاذبون، يأتونكم من الأحاديث بما لم تسمعوا أنتم ولا آباؤكم، فإياكم وإياهم، لا يضلونكم ولا يفتنونكم".
لذا فالأصح أن يقول الشيخ: (وكل دعوى للنبوة بعده فكفر وزندقة) بدلاً من (غيٌّ وهوى).



المبحث الرابع:عموم بعثته صلي الله عليه وسلم

قال المصنف رحمه الله تعالى: وهو المبعوث إلى عامة الجن وكافة الورى، بالحق والهدى، وبالنور والضياء.

أشار الشيخ-رحمه الله - بهذه العبارة إلى عموم بعثته صلى الله عليه وسلم إلى الجن والإنس.

عموم بعثته إلى الجن:

أما الأدلة على بعثته إلى عامة الجن فكثيرة منها:

سورة الجن.

قوله تعالى: ﴿ يَٰقَوۡمَنَآ أَجِيبُواْ دَاعِيَ ٱللَّهِ وَءَامِنُواْ بِهِۦ ﴾ [الأحقاف : ٣١]. فهذه حكاية لقول الجن لما سمعوا القرآن.

قوله تعالى: ﴿ يَٰمَعۡشَرَ ٱلۡجِنِّ وَٱلۡإِنسِ أَلَمۡ يَأۡتِكُمۡ رُسُلٞ مِّنكُمۡ.﴾[الأنعام: ١٣٠]. والرسل من الإنس فقط، وليس من الجن رسول، كذا قال مجاهد وغيره من السلف.

هل أرسل الله رَسُولاً إلى الجن قبل محمد صلى الله عليه وسلم؟

نفى ذلك مقاتل، وهو بعيد للآية السابقة:﴿ يَٰمَعۡشَرَ ٱلۡجِنِّ وَٱلۡإِنسِ أَلَمۡ يَأۡتِكُمۡ رُسُلٞ مِّنكُمۡ.﴾ الآية. والرسل من الإنس فقط كما قال غير واحد من السلف، فهي كقوله تعالى: ﴿ يَخۡرُجُ مِنۡهُمَا ٱللُّؤۡلُؤُ وَٱلۡمَرۡجَانُ ﴾ [الرحمن: ٢٢]، أي من أحدهما. وظاهر قوله تعالى: ﴿ إِنَّا سَمِعۡنَا كِتَٰبًا أُنزِلَ مِنۢ بَعۡدِ مُوسَىٰ ﴾ [الأحقاف: ٣٠]. أن موسى كان مُرسَلاً إليهم أيضًا.

حكي ذلك عن الضحاك، ودليله قوله تعالى: ﴿ يَـٰمَعۡشَرَ ٱلۡجِنِّ وَٱلۡإِنسِ أَلَمۡ يَأۡتِكُمۡ رُسُلٞ مِّنكُمۡ ﴾ [الأنعام:١٣٠]. وفي استدلاله بالآية نظر، لأنها محتملة فهي- كما تقدم- كقوله تعالى:﴿ يَخۡرُجُ مِنۡهُمَا ٱللُّؤۡلُؤُ وَٱلۡمَرۡجَانُ ﴾ [الرحمن: ٢٢].

ولهذا قال مجاهد وغيره: ليس من الجن رسل، وقال ابن عباس: الرسل من بني آدم، ومن الجن نذر.

عموم بعثته صلى الله عليه وسلم إلى الإنس:

أما عموم بعثته إلى الناس كافة فهو مما عُلم من الدين بالضرورة: قال تعالى: ﴿ قُلۡ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنِّي رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيۡكُمۡ جَمِيعًا ﴾ [الأعراف :١٥٨]. وقال تعالى:﴿ وَمَآ أَرۡسَلۡنَـٰكَ إِلَّا كَآفَّةٗ لِّلنَّاسِ بَشِيرٗا وَنَذِيرٗا﴾ [سبأ: ٢٨].

وقال صلى الله عليه وسلم: ((لا يسمع بي رجل من هذه الأمة، يهودي ولا نصراني، ثم لا يؤمن بي إلا دخل النار))[١]

وقال صلى الله عليه وسلم: ((أعطيت خمساً لم يعطهن أحد من الأنبياء قبلي..... وكان النبي يبعث إلى قومه خاصة، وبعثت إلى الناس عامة))[٢]

بطلان ما زعمه النصارى من أنه رسول إلى العرب خاصة:

وأما قول النصارى إنه رسول إلى العرب خاصة فظاهر البطلان، لأنهم إذا سلّموا برسالته لزمهم تصديقه في كل ما أخبر به، وقد أخبر عن نفسه أنه رسول الله إلى الناس عامة، وبعث رسُله كتبه إلى كافة أقطار الأرض.

---

(١) م: الإيمان، ب٧٠، ح ٢٤٠ – على أبي هريرة.

(٢) خ: أوائل التيمم، ح ٣٢٨، الصلاة، ب ٢٣، ح ٤٢٧، الخمس، ب٨، ح ٩٥٤. م: أوائل الصلاة،ح ٣. س: الطهارة، ب ٢٧١، خ ٤٣٢، الصلاة، ب١٦٣، ح ٧٣٧– كلهم عن جابر بن عبد الله.

المبحث الخامس:المفاضلة بين الأنبياء

قال المصنف رحمه الله تعالى: وسيد المرسلين.

الأدلة على كونه صلى الله عليه وسلم سيد المرسلين: قال صلى الله عليه وسلم: ((أنا سيد ولد آدم يوم القيامة، وأول من ينشق عنه القبر، وأول شافع وأول مشفع))[1]

وفي أول حديث الشفاعة: ((أنا سيد الناس يوم القيامة..))[2] .

هل يجوز تفضيله صلى الله عليه وسلم على موسى؟:

فإن قيل: كيف يجمع بين هذا وبين قوله صلى الله عليه وسلم: ((لاتفضلونى على موسى، فإن الناس يصعقون يوم القيامة فأكون أول من يفيق، فأجد موسى باطشاً بساق العرش، فلا أدرى هل أفاق قبلي أو كان ممن استثنى الله؟)).[3]

فالجواب: أن المنهي عنه إنما هو التفضيل على وجه الحمية والفخر.

فقد جاء في سبب هذا الحديث أن يَهُودياً قال: لا والذي اصطفى موسى على البشر، فلطمه مسلم وقال: أتقول هذا ورسول الله بين أظهرنا، فاشتكاه اليهودي إلى النبي صلى الله عليه وسلم فقال هذا الحديث. بل الجهاد نفسه إذا كان حمية كان مَذْمُوماً.

أو على وجه الانتقاص بالمفضول، وعلي هذا يحمل قوله صلى الله عليه وسلم: ((لا تفضلوا بين الأنبياء))[4]. إذا كان ثابتاً.

وقيل: إن المنهي عنه هو التفضيل الخاص، أي لا يفضل بعض الرسل على بعض بعينه بخلاف التفضيل العام فلا يمنع منه كقوله صلى الله عليه وسلم: ((أنا سيد ولد آدم ولا فخر)).[5]

([1]) م: الفضائل، ب ٢، ح ٣. د: ا السنة، ب١٤، ح ٤٦٧٣- كلاهما عن أبي هريرة .

([2])خ: الأنبياء، ب ٥، ح ٣١٦٢، تفسير سورة الإسراء، ح ٤٤٣٥. م: الإيمان، ب ٨٤، ح ٣٢٧ و ٣٢٨س: تفسير سورة الإسراء: ح ٢٠٦- و حديث طويل- كلهم عن أبي هريرة.

([3]) البخاري (٢٢٨٠).

([4]) مر تخريجه.

([5]) ت: تفسير سورة الإسراء، ح٣١٤٨، المناقب، ب١، ٣٦١٥. ق: الزهد، ب٣٧، ح٤٣٠٨- عن أبي هريرة.

هل يجوز تفضيله صلى الله عليه وسلم على يونس بن متى؟:

أما ما يروى عنه صلى الله عليه وسلم أنه قال: ((لا تفضلوني على يونس بن متى)).[1]

فالجواب: أنه لم يثبت بهذا اللفظ، بل الثابت الصحيح: ((لا ينبغي لعبد أن يقول: أنا خير من يونس بن متى)).[2]

وفي رواية: ((من قال: إني خير من يونس بن متى فقد كذب)).

وهذا اللفظ يدل على العموم، فهو نهي لكل أحد أن يفضّل نفسه على يونس ابن متى، وذلك لأن الله قد أخبر عنه أنه فعل ما يلام عليه: قال تعالى: ﴿ فَٱلْتَقَمَهُ ٱلْحُوتُ وَهُوَ مُلِيمٌ ﴾ [الصافات: ١٤٢]، وقال تعالى:

﴿ وَذَا ٱلنُّونِ إِذ ذَّهَبَ مُغَـٰضِبًا فَظَنَّ أَن لَّن نَّقْدِرَ عَلَيْهِ فَنَادَىٰ فِى ٱلظُّلُمَـٰتِ أَن لَّآ إِلَـٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبْحَـٰنَكَ إِنِّى كُنتُ مِنَ ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴾ [الأنبياء: ٨٧].

فقد يقع في نفس بعض الناس أنه أكمل من يونس، فلا يحتاج إلى هذا المقام لأنه لم يفعل ما يلام عليه فنبه النبي صلى الله عليه وسلم على ذلك، وإن كل عبد من عباد الله يقول ما قاله يونس: لا إله إلا أنت سبحانك إني كنت من الظالمين، كما قالها أول الأنبياء وآخرهم: فأولهم آدم قد قال:

﴿ رَبَّنَا ظَلَمْنَآ أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَـٰسِرِينَ ﴾ [الأعراف: ٢٣]. وآخرهم وسيدهم محمد صلى الله عليه وسلم قال في حديث الاستفتاح: ((.. اللهم أنت الملك، لا إله إلا أنت، أنت ربي وأنا عبدك، ظلمت نفسي، واعترفت بذنبي، فاغفر لي ذُنُوبِي جَمِيعًا، لا يغفر الذنوب إلا أنت))[3].

وأيضًا: لما أمر الله نبيه أن يتشبه بأولي العزم من الرسل، ونهاه أن يتشبه بيونس، فقد يقول قائل: أنا خير من يونس، فنبه بالحديث على منع ذلك.

وأما قوله: ((من قال إني خير من يونس بن متى فقد كذب))، فإنه لو قدر أنه كان أفضل، فهذا الكلام يصير نَقْصًا فيكون كاذِبًا. أما إخباره صلى الله عليه وسلم بأنه سيد ولد آدم، فلأنه لا يمكننا أن نعلم ذلك إلا بخبره، إذ لا نبي بعده يخبرنا بذلك، ولهذا نبه بقوله: ((ولا فخر)).

([1]) قال الألباني: لا أعرف له أصلاً بهذا اللفظ – تخريج الطحاوية. الطبعة السادسة ص١٧٢.

([2]) خ: الأنبياء:، ب٣٦، ح٣٢١٥، ب٢٦، ح٣٢٣١– ٣٢٣٤، تفسير سورة النساء، ح٤٣٢٧ و٤٣٢٨، وتفسير سورة الأنعام، ح٤٣١٥، و٤٣٥٥، وتفسير سورة الصافات، ح٤٥٢٦ و٤٥٢٧، التوحيد، ب٥٠، ح٧١٠١. م: الفضائل: ب٤٣، ح١٦٦، ١٦٧. د: السنة، ب١٤، ح٤٦٦٩ و٤٦٧٠ – كلهم عن أبي هريرة وابن عباس.

([3]) م: الصلاة، ب ٢٦، ح٢٠١. حم: ١/٩٤، ٢/٥١٥ – عن أبي هريرة وعلي بن أبي طالب.

خلة الله لنبيه:

قال المصنف رحمه الله تعالى: ..وحبيب رب العالمين.

المحبة مراتب أعلاها الخلة. وقد ثبتت الخلة للنبي صلى الله عليه وسلم كما ثبتت لإبراهيم. قال صلى الله عليه وسلم: ((إن الله اتخذني خَلِيلاً كما اتخذ إبراهيم خَلِيلا))[1].

أما المحبة فهي عامة، وقد ثبتت لغيره صلى الله عليه وسلم. قال تعالى: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلتَّوَّٰبِينَ وَيُحِبُّ ٱلْمُتَطَهِّرِينَ ﴾[البقرة: ٢٢٢]. وقال تعالى: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾ [البقرة: ١٩٥].

العلاقة بين العبد وربه لا توصف بالعشق:

واعلم أن العشق وهو أحد مراتب المحبة لا توصف به العلاقة بين العبد وربه: لأنه محبة مع شهوة، وقيل لعدم التوقيف، وقيل غير ذلك.

وغنى عن الذكر أن وصف الله بالمحبة والخلة هو كما يليق بجلاله وعظمته كسائر صفاته تعالى، ويوصف الله تعالى- من مراتب المحبة- بالإرادة وَالْوُدّ والمحبة والخلة، حيثما ورد في النص.

قال المصنف رحمه الله تعالى: ونحن مؤمنون بذلك كله، لا نفرق بين أحد من رسله، ونصدقهم كلهم على ما جاءوا به.

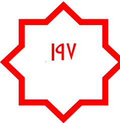
الإشارة (بذلك) إلى ما تقدم مما يجب الإيمان به تفصيلاً.

وقوله: ﴿ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِۦ ﴾ [البقرة: ٢٨٥]. أي لا نؤمن ببعض ونكفر ببعض، فإن من فعل ذلك فهو كافر بالكل، ذلك أن الرسول الذي زعم أنه آمن به قد جاء بتصديق بقية المرسلين، فإذا لم يؤمن ببعض المرسلين كان كافِرًا بمن في زعمه أنه يؤمن به لأن ذلك الرسول قد جاء بتصديق المرسلين كلهم.

قال تعالى: ﴿ وَيَقُولُونَ نُؤْمِنُ بِبَعْضٍ وَنَكْفُرُ بِبَعْضٍ وَيُرِيدُونَ أَن يَتَّخِذُواْ بَيْنَ ذَٰلِكَ سَبِيلاً ﴿١٥٠﴾ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ حَقًّاۚ ﴾ [النساء: ١٥٠، ١٥١].

---

(١) م: المساجد، ب ٣، ح ٢٣. س: تفْسِير سورة النساء، ح ١٤٣. ف: المقدمة، ب ١١، ح١٤١- عن جندب.



المبحث السادس:الإسراء والمعراج

قال المصنف رحمه الله تعالى: والمعراج حق، وقد أُسري بالنبي صلى الله عليه وسلم وَعُرِج بشخصه في اليقظة، إلى السماء، ثم إلى حيث شاء الله من العلا وأكرمه الله بما شاء، وأوحى إليه ما أوحى، ما كذب الفؤاد ما رأى، فصلى الله عليه في الآخرة والأولى.

إختلف الناس في الإسراء:

فقيل: كان بروحه ولم يفقد جسده، وقد نقل هذا عن عائشة والحسن البصري، ولكن فرق بين أن يكون الإسراء بالروح دون الجسد، وبين أن يكون مَنَامًا، لأن النائم قد يرى أمثالاً مضروبة للمعلوم في الصورة المحسوسة، فيرى كأنه عرج به إلى السماء وذهب به إلى مكة، وروحه لم تصعد ولم تذهب، وإنما ملك الرؤيا ضرب له المثال، أما الإسراء بالروح فهو يعنى أن الروح قد فارقت الجسد وَعُرِجِ بها ثم عادت إليه.

وقيل كان الإسراء مرتين: مرة يقظة، ومرة مَنَامًا، وكأن أصحاب هذا القول أرادوا الجمع بين حديث شريك وقوله ثم استيقظت، وبين سائر الروايات.

ومنهم من قال: بل كان مرتين، مرة قبل الوحي ومرة بعده.

ومنهم من عكس فقال مرة قبل الوحى، مرتين بعده، وقد تعجب ابن القيم من هؤلاء القائلين بالتعدد، كيف ساغ لهم أن يظنوا أنه في كل مرة تفرض عليهم الصلوات خمسين، ثم تنقص إلى خمس ويقول الله: ((أمضيت فريضتى وخففت عن عبادى))، فإذا كانت المرة الثانية عادت إلى خمسين، واستقرت على خمس؟!. قال: وقد غَلَّط الحفاظ شُرِيكًا في ألفاظ من حديث الإسراء، ومسلم أورد المسند منه ثم قال فقَدَّمَ وأخَّرَ وزاد ونقص.

والصحيح أنه أسري بجسده صلى الله عليه وسلم في اليقظة من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى رَاكِبًا على البراق في صحبة جبريل ثم عرج به إلى السماوات العلا، فرأى في الأولى آدم، وفي الثانية يحي بن

زكريا وعيسى ابن مريم، وفي الثالثة يوسف، وفي الرابعة إدريس، وفي الخامسة هارون، وفي السادسة موسى، وفي السابعة إبراهيم، عليهم السلام، كلهم قد رحب به، وأقر بنبوته صلى الله عليه وسلم، ثم رفع إلى سدرة المنتهى، ثم رُفع إلى البيت المعمور ثم عرج به إلى الجبار جل جلاله، فدنا حتى كان قاب قوسين أو أدنى، وفرض عليه وعلى أمته خمسين صلاة في اليوم والليلة، فأشار عليه مُوسَى عند عودته أن يرجع إلى ربه ويسأله التخفيف فلم يزل بين موسى وربه حتى جعلها الله خَمْسًا، ثم نادى مناد، قد أمضيت فريضتي وخففت عن عبادي.

ومما يدل على أن الإسراء كان بجسده في اليقظة قوله تعالى: ﴿ سُبۡحَٰنَ ٱلَّذِيٓ أَسۡرَىٰ بِعَبۡدِهِۦ لَيۡلٗا مِّنَ ٱلۡمَسۡجِدِ ٱلۡحَرَامِ إِلَى ٱلۡمَسۡجِدِ ٱلۡأَقۡصَا﴾ [الإسراء:١]، والعبد عبارة عن مجموع الجسد والروح مَعًا.

الحكمة في الإسراء إلى بيت المقدس أولا:

وأما الحكمة في الإسراء إلى بيت المقدس أولاً فهى إظهار صدقه صلى الله عليه وسلم في دعوى المعراج، حين سألته قريش عن نعت بيت المقدس فنعته لهم، وأخبرهم عن عيرهم التي مر عليها في طريقه، ولو كان العروج إلى السماء مُبَاشرة ما حصل ذلك، إذ لا يمكن إطلاعهم على ما في السماء لو أخبرهم عنه وقد اطلعوا على بيت المقدس، فأخبرهم بنعته.

معنى المعراج:

المعراج هو الآلة التي يعرج بها- أي يصعد- وهو بمنزلة السلم، وهو حق، وحكمه حكم غيره من المُغَيبَات نؤمن به ولا نشتغل بكيفيته.

الفرق بين الدُنُوّ الذي في سورة النجم وَالدُنُوّ الذي في قصة الإسراء:

ويلاحظ أن الدُنُوّ والتدلي الذي في سورة النجم راجع إلى جبريل، كما قالت عائشة وابن مسعود:

فإنه قال: ﴿ عَلَّمَهُۥ شَدِيدُ ٱلۡقُوَىٰ ۝٥ ذُو مِرَّةٖ فَٱسۡتَوَىٰ ۝٦ وَهُوَ بِٱلۡأُفُقِ ٱلۡأَعۡلَىٰ ۝٧ ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّىٰ ﴾

[النجم: ٥-٨]. فالضمائر كلها راجعة إلى جبرِيل. وأما الذي في حديث الإسراء فإن النص صَرِيحٌ في أنه دُنُوّ الرب وتدليه.

الخلاصة

- يجب الإيمان بأن الرسل جميعاً بلغوا رسالات ربهم بلاغا مبيناً بما لا يسع أحداً ممن أرسلوا إليه جهله.

- الإيمان بمحمد صلى الله عليه وسلم يتحقق بتصديقه، واتباع ما جاء به جملة وتفصيلاً.

- أدلة النبوة تتمثل فى عدة وجوه منها : المعجزات التي أيد الله بها أنبياءه، وقرائن أحوالهم الدالة على صدقهم، والآثار التي تثبت نصر الله لهم، وإهلاكه لأعدائهم.

- النبي صلى الله عليه وسلم هو خاتم الأنبياء ؛ فكل من ادعى النبوة بعده كاذب فى دعواه.

- وهو المبعوث للجن والإنس كافة بشيراً ونذيراً.

- ورد النهى عن إجراء المفاضلة الخاصة بين الأنبياء بأعيانهم، بخلاف التفضيل العام الذى عرف به أن النبي صلى الله عليه وسلم هو سيد المرسلين، وسيد ولد آدم.

- أسري بالنبي صلى الله عليه وسلم في اليقظة، بجسده وروحه، من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى، ثم عرج به إلى السماوات العلا حيث فرض الله عليه الصلاة.

الاختبار البعدي للوحدة

س١: ما المقصود بالإيمان بالرسل عموماً، والإيمان بالنبي صلى الله عليه وسلم خصوصاً ؟

س٢: كمال المخلوق فى تحقيق عبوديته لله تعالى. اشرح ذلك مع ذكر الأدلة؟

س٣: يعلم صدق الرسل من وجوه متعددة. اذكر ثلاثة منها؟

س٤: صدق الأنبياء دليل على صدق نبوتهم. وضح ذلك مع سوق الشواهد عليه؟

س٥: كيف يكون إنكار رسالة النبي صلى الله عليه وسلم طعناً فى الرب تبارك وتعالى؟

س٦: اذكر الأقوال المختلفة لأهل العلم مع ترجيح الصحيح منها فى كل من المسائل التالية:

- الفرق بين النبي والرسول.
- إسراء النبي صلى الله عليه وسلم.
- المفاضلة بين الأنبياء.

س٧: تكرر لفظ "الدنو" فى سورة النجم، وفى حديث الإسراء. فما الفرق فى كلا الموضعين ؟

س٨: اذكر أدلة الكتاب والسنة على ما يلى :

- كون النبي صلى الله عليه وسلم هو خاتم الأنبياء.
- بعثته إلى الجن والإنس كافة.

الوحدة الخامسة الإيمان باليوم الآخر

الأهداف الخاصة

يتوقع منك عزيزى الدارس بعد دراستك لهذا الباب أن تكون ملماً بما يلي :

- **الفصل الأول : البرزخ :**
  (١) أشراط الساعة.
  (٢) عذاب القبر وفتنته.
  (٣) الروح.
  (٤) انتفاع الموتى بالدعاء والصدقة.

- **الفصل الثاني : الإيمان بالمعاد :**
  (١) عموم العلم بالقيامة الكبرى عند جميع الأنبياء.
  (٢) العرض.
  (٣) الحوض.
  (٤) الميزان.
  (٥) الصراط.
  (٦) الشفاعة.
  (٧) وجود الجنة والنار وأبديتهما.

الفصل الأول حياة البرزخ

المـوت

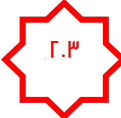
قال المصنف رحمه الله تعالى: مميت بلا مخافة، باعث بلا مشقة.

الموت صفة وجودية وليس عدمًا كما يقول الفلاسفة ومن وافقهم، لأنه وصف في القرآن بكونه مخلوقًا والعدم لا يوصف بذلك. قال تعالى: ﴿ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْمَوْتَ وَٱلْحَيَوٰةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً ﴾

[الملك: ٢].

وقال صلى الله عليه وسلم: ((يُؤتى بالموت يوم القيامة على صورة كبش أملح فيذبح بين الجنة والنار))[1]. وهو وإن كان عَرَضاً فإن الله يقلبه عَيْنًا، كما ورد في العمل الصالح أنه يأتي صاحبه في صورة الشاب الحسن، والعمل القبيح على أقبح صورة، وكما ورد في القرآن أنه يأتي على صورة الشاب الشاحب اللون، كما ورد في سورة البقرة وآل عمران أنهما يوم القيامة يظلان صاحبهما كأنهما غمامتان، أو غيايتان أو فرقان من طير صواف. وسيأتي الكلام على البعث والنشور إن شاء الله.

(1) خ: تفسير سورة مريم، ح ٤٤٥٣. م: الجنة، ب١٣، ح٤٠. ت: تفسير سورة مريم. ح ٣١٥٦، س: تفسير سُـورَة مـريم، ح ٣٣٧- عن أبي سعيد الخدرى.



المبحث الأول: أشرطة الساعة

قال المصنف رحمه الله تعالى: ونؤمن بأشراط الساعة: من خروج الدجال، ونزول عيسى بن مريم عليه السلام من السماء، ونؤمن بطلوع الشمس من مغربها وخروج دابة الأرض من موضعها.

أشراط الساعة كثيرة، وقد ذكر الشيخ فيها أربعًا: الدجال، ونزول عيسى ابن مريم وطلوع الشمس من مغربها، والدابة.

روى مسلم عن حذيفة بن أسيد قال: اطلع النبي صلى الله عليه وسلم علينا ونحن نتذاكر الساعة، فقال: ((ما تذكرون))؟ قالوا: نذكر الساعة، فقال: ((إنها لن تقوم حتى ترون قبلها عشر آيات، فذكر: الدخان، والدجال، والدابة، وطلوع الشمس من مغربها، ونزول عيسى بن مريم، ويأجوج ومأجوج، وثلاثة خسوف: خسف بالمشرق، وخسف بالمغرب، وخسف بجزيرة العرب، وآخر ذلك نار تخرج من اليمن تطرد الناس إلى محشرهم)).[1]

عن ابن عمر رضى الله عنهما قال: ذكر الدجال عند النبي صلى الله عليه وسلم فقال: ((إن الله لا يخفى عليكم، إن الله ليس بأعور، وأشار بيده إلى عينه، وإن المسيح الدجال أعور عينه اليمنى، كأن عينه عنبة طافية)).[2]

روى البخاري وغيره عن أبي هريرة: قال صلى الله عليه وسلم: ((والذي نفسي بيده ليوشكن أن ينـزل فيكم ابن مريم حكمًا عَدْلاً فيكسر الصليب، ويقتل الخنزير، ويضع الجزية، ويفيض المال، حتى لا يقبله أحد حتى تكون السجدة خيراً من الدنيا وما فيها))، ثم يقول أبو هريرة: اقرءوا إن شئتم:

﴿ وَإِن مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَـٰبِ إِلَّا لَيُؤْمِنَنَّ بِهِۦ قَبْلَ مَوْتِهِۦ ۖ وَيَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ يَكُونُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا ﴾ [النساء:١٥٩][3]

وروى البخاري عند تفسير هذه الآية عن أبي هريرة: قال صلى الله عليه وسلم: ((لا تقوم الساعة

---

(1) م: الفتن، ب ١٣، ح ٣٩ و٤٠. د: الملاحم، ب ١٢، ح ٤٣١١. س: تفسير سورة الدخان، ح ٤٩٥/٢

(2) خ: الجهاد، ب١٧٤، ح ٢٨٩٢، الأنبياء، ب ٥، ح ٣١٥٩، وب ٤٩، ح٣٢٥٦ و ٣٢٥٧، التوحيد، ب ١٧، ح ٦٩٧٢، ٦٩٧٣. م: الإيمان، ب ٧٥، ح ٢٧٣ – ٢٧٥، الفتن، ب ٢٠، ح ١٠٠ و ١٠١. – عن عبد الله بن عمر.

(3) خ: البيوع، ب ١٠٢، ح ٢١٠٩ . م: الإيمان، ب ٧١، ح ٢٤٢– ٢٤٦. عن أبي هريرة.

حتى تطلع الشمس من مغربها، فإذا رآها الناس آمن من عليها، فذلك حين لا ينفع نفسًا إيمانها لم تكن آمنت من قبل)).[1]

وقال تعالى: ﴿ وَإِذَا وَقَعَ ٱلْقَوْلُ عَلَيْهِمْ أَخْرَجْنَا لَهُمْ دَآبَّةً مِّنَ ٱلْأَرْضِ تُكَلِّمُهُمْ أَنَّ ٱلنَّاسَ كَانُواْ بِـَٔايَـٰتِنَا لَا يُوقِنُونَ ﴾ [النمل: ٨٢].

وروى مسلم عن عبد الله بن عمرو قال: حفظت من رسول الله صلى الله عليه وسلم حَدِيثا لم أنسه بعد، سمعْت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: ((إن أول الآيات خرُوجًا طلوع الشمس من مغربها. وخروج الدابة على الناس ضحى، وأيهما ما كانت قبل صاحبتها فالأخرى على أثرها قريباً)).[2]

أى أول الآيات التي ليست مألوفة، وإن كان الدجال ونزول عيسى من السماء وخروج يأجوج ومأجوج قبل ذلك إلا أنها أمور مألوفة لأنهم بشر مشاهدة مثلهم مألوفة، أما الدابة التي تكلم الناس وتسمهم بالإيمان أو الكفر، والشمس التي تطلع من مغربها فذلك مما يخرج عن مجاري العادات، فالدابة على هذا أول الآيات الأرضية، وطلوع الشمس من مغربها أول الآيات السماوية.

---

(١) م: الإيمان، ب ٧٢، ح ٢٤٨- ٢٥٠. ق: الفتن، ب ٣٢، ح ٤٠٦٨ و ٤٠٧٠. عن أبي هريرة.

(٢) م: الفتن، ب ٢٣، ح ١١٨. د: الملاحم، ب ١٢، ح ٤٣١٠. ق: الفتن، ب٣٢، ح ٤٠٦٩- عن عبد الله بن عمرو.

المبحث الثاني:عذاب القبر وفتنته

قال المصنف رحمه الله تعالى: وبعذاب القبر لمن كان له أهل، وسؤال منكر ونكير في قبره عن ربه ودينه ونبيه على ما جاءت به الأخبار عن رسول الله صلى الله عليه وسلم وعن الصحابة رضي الله عنهم، والقبر روضة من رياض الجنة أو حفرة من حفر النيران.

عذاب القبر:

تواترت الأخبار عن رسول الله صلى الله عليه وسلم في ثبوت عذاب القبر ونعيمه، فيجب الإيمان بذلك ولا يتكلم في كيفيته.

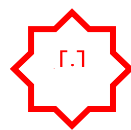
قال تعالى: ﴿ ٱلنَّارُ يُعۡرَضُونَ عَلَيۡهَا غُدُوّٗا وَعَشِيّٗاۖ وَيَوۡمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ أَدۡخِلُوٓاْ ءَالَ فِرۡعَوۡنَ أَشَدَّ ٱلۡعَذَابِ ﴾ [غافر ٤٦]. **وقال تعالى:** ﴿ وَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُواْ عَذَابٗا دُونَ ذَٰلِكَ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَهُمۡ لَا يَعۡلَمُونَ ﴾ [الطور: ٤٧]. **وهو محتمل لعذاب القتل وغيره في الدنيا، أو عذاب البرزخ، وهو أظهر لأن كثيرًا منهم مات ولم يعذب في الدنيا.**

وفي الصحيحين عن ابن عباس: أن النَّبيّ صلى الله عليه وسلم مر بقبرين: فقال: ((إنهما ليعذبان وما يعذبان في كبير، أما أحدهما فكان لا يستبرئ من البول، وأما الآخر فكان يمشي بالنميمة))فدعا بجريدة رطبة فشقها نصفين، وقال: ((لعله يخفف عنهما ما لم يَيْبَسَا)).[1]

وروى أحمد وأبو داود حديث البراء بن عازب وفيه أن العبد المؤمن يُفرش له في قبره من الجنة ويفتح له باب إليها ويفسح له في قبره مد البصر بعد أن يوفق للإجابة على أسئلة الملكين. وفيه أيضاً أن العبد الكافر يفرش له في قبره من النار، ويفتح له باب إليها فيأتيه من حرها وسمومها ويضيق عليه قبره حتى تختلف أضلاعه بعد أن يخذل عند سؤال الملكين ولا يجد الجواب.

---

(١)خ: الْوُضُوء، ب ٥٤، ح٢١٣ وب ٥٥، ح ٢١٥، الجنائز، ب ٨٠، ح١٢٩٥ وب ٨٧، ح ١٣١٢، الأدب، ب ٤٦، ح ٥٧٠٥ و ب ٤٩، ح ٨ ٥٧٠. م: الإيمان، ب٣٤، ح ١١١. د: الطهارة، ب١١، ح ٢٠ و ٢١. ت: الطهارة، ب ٥٣، ح ٧٠، س: الجنائز، ب١١٦، ح ٢٠٧٠ و ٢٠٧١. ق: الطهارة، ب ٢٦، ح ٣٤٧، عن ابن عباس وغيره.



والعذاب أو النعيم في القبر إنما يكون للنفس والبدن مَعًا جَمِيعًا باتفاق أهل السنة والجماعة فيجب الإيمان بذلك ولا يتكلم في كيفيته إذ ليس للعقل مدخل في ذلك لأنه لا عهد له به في هذه الدار.

وعذاب القبر هو عذاب البرزخ، وهو ينال من مات مستحقا له قُبِرَ أو لم يقبر، ولو أكلته السباع، أو احترق حتى صار رَمَادًا تذروه الرياح، أو غرق في البحار، فيصل إلى روحه وبدنه من العذاب ما يصل إلى المقبور.

أما ما ورد من إجلاسه، واختلاف أضلاعه، ونحو ذلك، فيجب أن يفهم عن الرسول صلى الله عليه وسلم مراده من غير غلو ولا تقصير، ذلك أن سوء الفهم عن الله ورسوله أصل كل بدعة وضلالة نشأت في الإسلام، وهو أصل كل خطأ في الأصول والفروع، لا سيما إذا أضيف إليه سوء القصد!!

نار القبر ونعيمه ليس من جنس نار الدنيا ونعيمها:

يجب أن يعلم أن نار القبر ونعيمه ليس من جنس نار الدنيا ونعيمها، فقد يكون القبر حفرة من حفر النار ولو أحسه أهل الدنيا لم يحسوا بشيء.

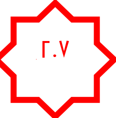
وقد يدفن الرجلان في قبر واحد فيكون على أحدهما حفرة من حفر النار وعلى الآخر روضة من رياض الجنة، وقدرة الله أوسع من ذلك وأعجب، وقد رأينا في هذه الدار ما هو أبلغ من ذلك بكثير.

وقد غيب الله عنا ذلك لئلا تزول حكمة التكليف والإيمان بالغيب، ولكي يتدافن الناس. ففي صحيح مسلم: ((لولا أن لا تدافنوا لدعوت الله أن يسمعكم من عذاب القبر)).[1] ولهذا لما كانت هذه الحكمة منتفية في البهائم سمعت وأدركت.

سؤال منكر ونكير:

أما سؤال منكر ونكير فقد استفاضت به أيضاً النصوص: روى البخاري عن أنس أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: ((إن العبد إذا وضع في قبره وتولى عنه أصحابه، إنه يسمع قرع نعالهم فيأتيه ملكان، فيقعدانه فيقولان له: ما كنت تقول في هذا الرجل محمد صلى الله عليه وسلم؟ فأما المؤمن فيقول: أشهد أنه عبد الله ورسوله، فيقول له: انظر إلى مقعدك في النار أبدلك الله به مقعدًا من الجنة

([1])م: الجنة، ب ١٧، ح ٦٨. حم: ٣/١٠٢ و ١٧٦ و ٢٠٢ و ٢٧٣، ٥/١٩٠. س: الجنائز، ب ١١٤، ح ٢٠٦٠- عن أنس بن مالك.



فيراهما جميعاً)).[1]

والسؤال في القبر للبدن والروح معاً، وليس للروح وحدها كما قال ابن حزم، فيجب الإيمان بذلك، ولا يسأل عن كيفيته إذ ليس للعقل مدخل في ذلك لأنه لا عهد له به في هذه الدار، والشرع لا يأتي بما تحيله العقول، ولكن قد يأتي بما تحار فيه! فإعادة الروح للجسد ليست على الوجه المعهود في الدنيا.

هل سؤال منكر ونكير خاص بهذه الأمة؟

في المسألة ثلاثة أقوال ثالثها: التوقف، وهو قول جماعة منهم أبو عمر بن عبد البر قال: وفي حديث زيد بن ثابت عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: ((إن هذه الأمة تبتلى في قبورها))[2] منهم من يرويه ((تسأل)) وعليه يحتمل اختصاص هذه الأمة بذلك، وهذا أمر لا يقطع به ويظهر عدم الاختصاص، والله أعلم.

هل يدوم عذاب القبر أو ينقطع؟

عذاب القبر نوعان:

منه ما هو دائم: كما قال تعالى: ﴿ ٱلنَّارُ يُعۡرَضُونَ عَلَيۡهَا غُدُوّٗا وَعَشِيّٗاۚ وَيَوۡمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ أَدۡخِلُوٓاْ ءَالَ فِرۡعَوۡنَ أَشَدَّ ٱلۡعَذَابِ ﴾ [غافر: ٤٦].

وكذا في حديث البراء بن عازب في قصة الكافر: ((ثم يفتح له باب إلى النار فينظر إلى مقعده فيها حتى تقوم الساعة)).

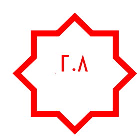
ومنه ما يكون مدة ثم ينقطع: وهو عذاب بعض العصاة الذين خفت جرائمهم، فيعذبون بحسب جرائمهم ثم يخفف عنهم.

مستقر الأرواح بعد الموت إلى قيام الساعة:

اختلف في مستقر الأرواح ما بين الموت إلى قيام الساعة على أقوال كثيرة متفاوتة، يصل بعضها إلى حد الخروج عن الإسلام، كقول التناسخية منكري المعاد: أن مستقرها بعد موتها أبدان أخر تناسب أخلاقها وصفاتها التي اكتسبتها في حال حياتها، فتصير تلك الرُّوح إلى بدن حيوان يشاكل تلك الرُّوح.

---

(1) خ: الجنائز، ب٦٦، ح ١٢٧٣ وب٨٥، ح ١٣٠٨. م: الجنة، ب ١٧، خ ٧٠- ٧٢. عن أنس بن مالك.
(2) م: الجنة، ب١٧، ح ٦٧. حم: ٣/٣ و ٣٤٦- عن زَيْد بن ثابت.



والصحيح: أن الأرواح في البرزخ متفاوتة أعظم تفاوت:

فمنها أرواح في أعلى عليين، وهى أرواح الأنبياء، وهم متفاوتون في منازلهم.

ومنها أرواح في حواصل طيور خضر تسرح في الجنة حيث شاءت وهى أرواح بعض الشهداء لأن منهم من تحبس روحه عن دخول الجنة لدين عليه، كما في المسند: أن رجلا جاء إلى النبي صلى الله عليه وسلم فقال: يا رسول الله: ما لي إن قتلت في سبيل الله؟ قال: ((الجنة !))، فلما ولى قال: ((إلا الدين سارَّني به جبريل آنفًا)).[1]

ومنها من يكون محبوساً على باب الجنة، كما في الحديث: ((رأيت صَاحِبكُمْ مَحْبُوساً على باب الجنة)).

- **ومنها: من يكون محبوسًا في قبره.**
- **ومنها: من يكون في الأرض.**
- **ومنها: أرواح تكون في تنور الزناة والزوانى. ومنها: أرواح تسبح في الدم، وتلقم الحجارة.**

كل ذلك تشهد له السنة، والله أعلم.

حياة الشهداء:

أما الحياة التي اختص بها الشهداء فهي أن الله عز وجل جعل أرواحهم في أجواف طيور خضر، فإنهم لما بذلوا أبدانهم لله عز وجل حتى أتلفها أعداؤه فيه أعاضهم الله منها في البرزخ أبدانًا خَيْرًا منها تكون فيها إلى يوم القيامة، ويكون نعيمها بواسطة تلك الأبدان أكمل من تلك الأرواح المجردة عنها.

قال صلى الله عليه وسلم: ((لما أصيب إخوانكم -يعني يوم أحد- جعل الله أرواحهم في أجواف طيور خضر ترد أنهار الجنة وتأكل من ثمارها، وتأوي إلى قناديل من ذهب مظللة في ظل العرش.))[2] ولهذا كانت نسمة المؤمن في صورة طير أو كطير، ونسمة الشهيد في جوف طير. قال صلى الله عليه وسلم: ((إن نسمة المؤمن تعلق في شجر الجنة يرجعه الله إلى جسده يوم يبعثه))[3]

([1]) م: الإمارة، ب٣٢، ح ١١٧- ١٢٠. ت: الجهاد، ب ٣٢، ح ١٧١٢. س: الجهاد، ب٣٢، ح ٣١٥٧- ٣١٦٠. عن أبي قتادة وأبي هريرة.

([2])م: الإمارة، ب ٣٣، ح ١٢١. د: الجهاد، ب ٢٧، ح ٢٥٢٠. ت: تفسير سورة آل عمران، ح ٣٠١١. ق: الجنائز، ب ٤، ح ١٤٤٩، الجهاد، ب ١٦، ح ٢٨٠١، حم: ١/٢٦٦- عن عبد الله بن عباس وابن مسعود.

([3])ت: فضائل الجهاد، ب ١٣، ح ١٦٤١، س: الجنائز: ب ١١٧، ٢٠٧٥. ق: الزهد، ب ٣٢، ح ٤٢٧، ط: الجنائز، ب ١٦، ح ٤٩. حم: ٣/٤٥٥- عن كعب بن مالك، وقال الترمذي: حسن صحيح.

فقوله نسمة المؤمن يعم الشهيد وغيره، ثم خص الشهيد بأنه في جوف طير خضر، ومعلوم أنها إذا كانت في جوف طير صدق عليها أنها طير فتدخل في عموم الحديث الأول بهذا الاعتبار، ولكن نصيبها من النعيم في البرزخ أكمل من نصيب غيرهم من الأموات على فرشهم.

المبحث الثالث:الروح

تقدم أن ملك الموت يتولى قبض الأرواح واستخراجها، ثم يتولى أمرها بعد ذلك ملائكة الرحمة أو ملائكة العذاب، وأن كل ذلك بأمر الله وحكمه. وهناك بعض المسائل المتعلقة بالروح نشير إليها فيما يأتي:

ما الروح:

لقد اختلف في حقيقة الروح، والذي يدل عليه الكتاب والسنة والإجماع والمعقول أنها جسم نوراني علوي حي متحرك يسري في الأعضاء سريان الماء في الورد، والدهن في الزيتون، والنار في الفحم. وأنها مخالفة بالماهية لهذا الجسد المحسوس، فما دامت أعضاء الإنسان صالحة لقبول الآثار الفائضة عليها من هذا الجسم اللطيف بقي ذلك الجسم ساريًا في هذه الأعضاء، وإذا فسدت وخرجت عن قبولها فارق الروح البدن. قال تعالى:

﴿ ٱللَّهُ يَتَوَفَّى ٱلْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَٱلَّتِى لَمْ تَمُتْ فِى مَنَامِهَا ۖ فَيُمْسِكُ ٱلَّتِى قَضَىٰ عَلَيْهَا ٱلْمَوْتَ وَيُرْسِلُ ٱلْأُخْرَىٰٓ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ﴾ [الزمر: ٤٢]. ففي هذه الآية الإخبار بتوفيها، وإمساكها، وإرسالها. وقال تعالى: ﴿ يَـٰٓأَيَّتُهَا ٱلنَّفْسُ ٱلْمُطْمَئِنَّةُ ﴿٢٧﴾ ٱرْجِعِىٓ إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً ﴿٢٨﴾ فَٱدْخُلِى فِى عِبَـٰدِى ﴿٢٩﴾ وَٱدْخُلِى جَنَّتِى ﴾ [الفجر: ٢٧-٣٠]. وفي هذه الآية وصفها بالرجوع والدخول والرضا.

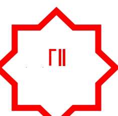
وقال صلى الله عليه وسلم: ((إن الروح إذا قبض تبعه البصر))[1] ففي هذا الحديث وصف الروح بالقبض وأن البصر يراه. وفي غيره أن روح المؤمن تسيل كما تسيل القطرة من فِيّ السِّقاء،[2] وأنها تصعد ويوجد منها كأطيب ريح.

حدوث الروح:

اختلف في حدوث الروح أو قدمها. والذي أجمعت عليه الرسل، واتفق عليه أهل السنة والجماعة

([1])م: الجنائز، ب٤، ح ٧. د: الجنائز، ب ٢١، ح ٣١١٨. ق: الجَنَائز، ب ٦، ح١٤٥٤- عن أم سلمة.

([2])ك: ١/٣٧. حم: ٤/٢٨٧. طَس: ص ١٠٢، ح ٧٥٣- عن أم سلمة. في حديث طويل وهو حديث حسن.



أنها مخلوقة محدثة، وممن نقل الإجماع على ذلك محمد بن نصر المروزى، وابن قتيبة وغيرهم، وقد زعم البعض أنها قديمة، وتوقف آخرون.

الأدلة على حدوث الروح:

قوله تعالى: ﴿ ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَيۡءٖ ﴾ [الزمر: ٦٢]. فهذا عموم لا مخصص له، فالله عز وجل بذاته وصفاته هو الخالق، وما سواه مخلوق، ومن المعلوم قطعًا أن الروح ليست هى الله ولا صفة من صفاته، وإنما هى من مصنوعاته. وهذا العموم لا يدخل فيه صفات الله لأنها داخلة في مسمى اسمه.

قوله تعالى: ﴿ هَلۡ أَتَىٰ عَلَى ٱلۡإِنسَٰنِ حِينٞ مِّنَ ٱلدَّهۡرِ لَمۡ يَكُن شَيۡـٔٗا مَّذۡكُورًا ﴾[الإنسان: ١].

وقوله تعالى لزكريا: ﴿ وَقَدۡ خَلَقۡتُكَ مِن قَبۡلُ وَلَمۡ تَكُ شَيۡـٔٗا ﴾ [مريم: ٩]. والإنسان اسم لروحه وجسده، والخطاب لزكريا لروحه وبدنه. والروح توصف بالوفاة، والقبض، والإمساك، والإرسال، وهذا شأن المخلوق المحدث.

شبه القائلين بقدمها:

- قوله تعالى:﴿ وَيَسۡـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلرُّوحِۖ قُلِ ٱلرُّوحُ مِنۡ أَمۡرِ رَبِّي ﴾ [الإسراء: ٨٥]. فقد أخبر عز وجل بأن الروح من أمره، وأمره غير مخلوق.

- إن الله أضافها إليه كما أضاف إليه علمه وقدرته وسمعه وبصره ويده: قال تعالى: ﴿ فَإِذَا سَوَّيۡتُهُۥ وَنَفَخۡتُ فِيهِ مِن رُّوحِي ﴾ [الحجر: ٢٩].

وأجيب عن الأول بأنه ليس المراد بالأمر هنا هو الطلب، بل المراد به هو المأمور.

وأجيب عن الثاني بأن المضاف إلى الله نوعان:

- صفات لا تقوم بنفسها، كالعلم والقدرة وغيرها، فهذه إضافة صفة إلى الموصوف بها.

- إضافة أعيان منفصلة عنه، فهذه إضافة مخلوق إلى خالقه، لكنها تقتضي التخصيص والتشريف.

هل تموت الروح؟

اختلف في موت الأرواح وبقائها فقيل: إنها تموت، لأنها نفس، وكل نفس ذائقة الموت، ولأنه إذا كانت الملائكة تموت فالنفوس البشرية أولى بالموت.

وقيل لا تموت بل خلقت للبقاء، وقد دل على ذلك الأحاديث الدالة على نعيم الأرواح وعذابها بعد المفارقة إلى أن يرجعها الله إلى أجسادها.

والصواب أن يقال: موت النفوس هو مفارقتها لأجسادها، وخروجها منها، فإن أريد بموتها هذا الفراق فهى ذائقة الموت، وإن أريد أنها تفنى بالكلية فهى لا تموت بهذا الاعتبار، بل هى باقية بعد خلقها في نعيم أو في عذاب. قال تعالى مخبراً عن أهل الجنة: ﴿ لَا يَذُوقُونَ فِيهَا ٱلْمَوْتَ إِلَّا ٱلْمَوْتَةَ ٱلْأُولَىٰ ﴾ [الدخان: ٥٦]. وتلك الموتة هى مفارقة الأرواح للأجساد.

أما قول أهل النار: ﴿ قَالُوا۟ رَبَّنَآ أَمَتَّنَا ٱثْنَتَيْنِ ﴾ [غافر:١١]. وقوله تعالى: ﴿ كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِٱللَّهِ وَكُنتُمْ أَمْوَٰتًا فَأَحْيَـٰكُمْ ﴾ [البقرة: ٢٨]. فالمراد أنهم كانوا أمواتاً وهم نطف في الأصلاب والأرحام، ثم أحياهم بعد ذلك ثم يميتهم، ثم يحييهم يوم النشور.

وليس في ذلك إماتة أرواحهم قبل يوم القيامة وإلا كانت ثلاث موتات. وأما صعق الأرواح عند النفخ في الصور فلا يلزم منه موتها، فإن الناس يصعقون يوم القيامة إذا جاء الله لفصل القضاء وليس ذلك بموت، وكذلك صعق موسى لم يكن موتاً. فغاية الأمر أن نفخة الصعق موت كل من لم يذق الموت قبلها من الخلائق، وأما من ذاق الموت أو لم يكتب عليه من الحور والولدان وغيرهم فلا تدل الآية على أنه يموت موتة ثانية.

هل النفس والروح شيء واحد؟

اختلف الناس في مسمى النفس والروح هل هما متغايران أم مسماهما واحد؟

والتحقيق أن مدلولهما قد يتحد تارة، وقد يختلف أخرى.

ذلك أن النفوس تطلق على عدة أمور:

- فقد تطلق على الروح، ولكن غالبا ما تسمى نفساً إذا كانت متصلة بالبدن، أما إذا أخذت مجردة فتسمية الروح أغلب عليها.

- وقد تطلق على الدم، ففي الحديث: ((ما لا نفس له سائلة لا ينجس الماء إذا مات فيه)).[1]

- وقد تطلق على العين، يقال: أصابت فلاناً نفس، أى عين.

([1]) قال الألباني في تخريج الطحاوية في الطبعة السادسة ص: ٤٤٥: لا أعرف له أصلا وإنما هو من كلام الفقهاء.

- وقد تطلق على الذات، قال تعالى: ﴿ فَسَلِّمُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمۡ ﴾ [النور: ٦١].

- أما الروح فإنها لا تطلق على البدن لا بانفراده ولا مع النفس، وإنما قد تطلق علي:

- القرآن: قال تعالى: ﴿ وَكَذَٰلِكَ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ رُوحٗا مِّنۡ أَمۡرِنَا ﴾[الشورى: ٥٢].

- جبريل: قال تعالى: ﴿ نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلۡأَمِينُ ﴾ [الشعراء: ١٩٣].

- الهواء المتردد في بدن الإنسان.

- القوى التي في البدن: فإنها تسمى أرْوَاحًا، فيقال الروح الباصر، والروح السامع.

- وتطلق الروح على أخص من هذا كله وهو قوة المعرفة بالله، والإنابة إليه ونسبة هذه الروح إلى الروح كنسبة الروح إلى البدن.

- والناس متفاوتون في هذه الروح فمنهم: من تغلب عليه الروح فيصير رُوحِيًا. ومنهم: من فقدها فيصير أرضيا بَهِيميًا.

- أما ما يؤيد الله به أولياءه فهو روح أخرى. قال تعالى: ﴿ أُوْلَـٰٓئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ ٱلۡإِيمَـٰنَ وَأَيَّدَهُم بِرُوحٖ مِّنۡهُۖ ﴾ [المجادلة: ٢٢].

- هل لابن آدم ثلاثة أنفس (مطمئنة ولوَّامة وأمارة)؟

ذهب إلى ذلك البعض، وقالوا: إن منهم من تغلب عليه هذه، ومنهم من تغلب عليه هذه. والتحقيق أنها نفس واحدة لها صفات:

فهيآمرة بالسوء. فإذا عارضها الإيمان صارت لوامة تفعل الذنب ثم تلوم صاحبها. فإذا قوى الإيمان صارت مطمئنة. ولهذا قال صلى الله عليه وسلم: ((من سرته حسنته وساءته سيئته فهو مؤمن))[1].

وقال: ((لا يَزني الزَّاني حِين يزني وهو مؤمن....)) الحديث.

تعلق الروح بالبدن:

للروح بالبدن خمسة أنواع من التعلق متغايرة الأحكام:

- تعلُّقها به في بطن الأم حياً.

[1] ك: ١/١٤. حب: ١/ ٢٠١، ح ١٧٦. حم: ٥/ ٢٥١، ٢٥٢، ٦ء٢- عن أبي أمامة وهو حديث صحيح.

- تعلقها به بعد خروجه إلى وجه الأرض.

- تعلقها به حال النوم، فلها به تعلق من وجه ومفارقة من وجه.

- تعَلّقهَا به في البرزخ، فإنها لم تفارقه فراقاً كلياً بل لها به نوع تعلق، فقد ورد ردها إليه وقت سلام المسلم عليه، وورد أنه يسمع خفق نعالهم حين يولُّون عنه. وهذا الرد إعادة خاصة لا يوجب حياة البدن قبل يوم القيامة.

- تعلقها به يوم البعث، وهو أكمل أنواع تعلقها بالبدن، لأن البدن لا يقبل بعده مَوْتاً ولا نَوْمًا ولا فَسَادًا.

- هل تأكل الأرض أجساد الأنبياء أو الشهداء؟

حرم الله تعالى على الأرض أن تأكل أجساد الأنبياء، كما روي في السنن. أما الشهيد فيحتمل بقاؤه كذلك في تربته إلى يوم محشره، ويحتمل أن يبلى مع طول المدة، وكأنه كلما كملت شهادته وفضله كان بقاء جسده أطول. والله أعلم.

المبحث الرابع:إنتفاع الموتى بالدعاء والصدقة

قال المصنف رحمه الله تعالى: وفي دعاء الأحياء وصدقتهم منفعة للأموات.

اتفق أهل السنة على أن الأموات ينتفعون من سعي الأحياء بأمرين:

- أحدهما: ما تسبب إليه الميت في حياته.

- الثاني: دعاء المسلمين واستغفارهم، والصدقة، أما الحج فعلى نزاع فيما يصل من ثوابه إليه. هل هو ثواب النفقة والحج للحاج؟ روي عن محمد بن سيرين، أم هو ثواب الحج وهو الرأي عند عامة العلماء.

واختلف في العبادات البدنية كالصوم والصلاة وقراءة القرآن، فذهب أبو حنيفة وأحمد وجمهور السلف إلى وصولها. والمشهور من مذهب مالك والشافعي عدم وصولها. وزعم بعض أهل البدع من أهل الكلام إلى عدم وصول شيء من ذلك البتة لا الدعاء ولا غيره.

أدلة المانعين:

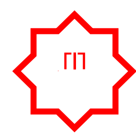
استدل هؤلاء على ما ذهبوا إليه من عدم انتفاع الميت بشيء من سعي الأحياء مطلقاً بما يأتي: قوله تعالى: ﴿ وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَـٰنِ إِلَّا مَا سَعَىٰ ﴾ [النجم: ٣٩]، وقوله تعالى: ﴿ وَلَا تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ [يس: ٥٤]، وقوله صلى الله عليه وسلم: ((إذا مات ابن آدم انقطع عمله إلا من ثلاث: صدقة جارية، أو ولد صالح يدعو له، أو علم ينتفع به من بعده)).[1] فأخبر بأنه ينتفع بما كان تسبب فيه في الحياة، أما ما سواه فهو منقطع عنه.

مناقشة أدلة المانعين:

نوقش استدلالهم بقوله تعالى: ﴿ وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَـٰنِ إِلَّا مَا سَعَىٰ ﴾ [النجم: ٣٩] من عدة أوجه منها:

أن الإنسان بسعيه وحسن عشرته اكتسب الأصدقاء، ونكح الأزواج، وأنجب الأولاد، وتودد إلى الناس فترحموا عليه، ودعوا له، فكان أثر سعيه، بل دخوله مع جملة المسلمين في عقد الإسلام من أعظم

([1]) م: الوصايا، ب ٣، ح ١٤. د: الوصايا، ب ١٤، ح ٨٨٠ – عن أبي هريرة.



الأسباب في وصول نفع كل من المسلمين إلى صاحبه في حياته وبعد مماته لأن الله جعل الإيمان سببًا لانتفاع صاحبه بدعاء إخوانه المؤمنين.

أن القرآن لم ينف انتفاع الرجل بسعي غيره، بل نفى ملكه له، وبينهما فرق ظاهر، فسعي الإنسان ملك له أما سعي غيره فهو ملك لساعيه، إن شاء أن يبذله لغيره، وإن شاء أبقاه لنفسه. أما استدلالهم بقوله تعالى:﴿ وَلَا تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [يس: ٥٤]. وقوله: ﴿ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ ﴾ [البقرة: ٢٨٦].

فقد نوقش بأن المنفي هو عقوبة العبد بعمل غيره.

أما استدلالهم بالحديث: ((إذا مات ابن آدم...)) فقد نوقش بأنه صلى الله عليه وسلم لم يقل انقطع انتفاعه، وإنما قال: انقطع عمله، وأما عمل غيره فهو لعامله، فإن وهبه له وصل إليه، كالدين يوفيه الإنسان عن غيره فتبرأ ذمته، لكن ليس له ما وُفِّي به الدين.

أدلة المفصلين:

وقد استدل من فرقوا بين العبادات المالية والعبادات البدنية بما روى النسائي بسنده عن ابن عباس رضى الله عنهما عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: ((لا يصلي أحد عن أحد، ولا يصوم أحد عن أحد، ولكن يطعم عنه مكان كل يوم مُدًا من حنطة)).[1]

مناقشة أدلة المفصِّلين:

وقد نوقش هؤلاء بما يأتي:

أن النبي صلى الله عليه وسلم قد شرع الصوم عن الميت مع أنه لا تجزئ فيه النيابة.

كذلك ثبت عنه صلى الله عليه وسلم فيما رواه أحمد وأبو داود والترمذي، أنه صلى الله عليه وسلم أتي بكبش فذبحه يوم عيد الأضحى وقال: ((اللهم هذا عني وعن من لم يضح من أمتي)).[2] والقربة في الأضحية إراقة الدم وقد جعلها لغيره.

كذلك الحج جازت فيه النيابة وهو عبادة بدنية محضة كما نص عليه جماعة من أصحاب أبي

---

(1) الطحاوي في مشكل الآثار ١٤١/٣ عن ابن عباس موقوفاً عليه.

(2) حم: ٣/٣٥٦، ٣٦٢ عن جابر باختلاف يسير وإسناده لا بأس به . د: الأضاحي، ب ٨، ح ٢٨١٠ عن جابر أَيْضًا.

حنيفة.

أن فروض الكفاية يقوم بها البعض عن الباقين.

أن هذا ثواب، وليس من باب النيابة، كما أن الأجير الخاص ليس له أن يستنيب وله أن يعطي أجره لمن يشاء.

أدلة الجمهور:

استدل الجمهور على جواز انتفاع الميت بغير ما تسبب فيه من غير تفرقة بين العبادات المالية والبدنية بالكتاب والسنة والإجماع والقياس.

فمن أدلتهم على انتفاعه بالدعاء:

قوله تعالى: ﴿ وَٱلَّذِينَ جَآءُو مِنۢ بَعۡدِهِمۡ يَقُولُونَ رَبَّنَا ٱغۡفِرۡ لَنَا وَلِإِخۡوَٰنِنَا ٱلَّذِينَ سَبَقُونَا بِٱلۡإِيمَٰنِ وَلَا تَجۡعَلۡ فِي قُلُوبِنَا غِلّٗا لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ رَبَّنَآ إِنَّكَ رَءُوفٞ رَّحِيمٌ ﴾ [الحشر:١٠].

فقد أثنى عليهم باستغفارهم للمؤمنين من قبلهم، فدل على انتفاعهم بذلك.

إجماع الأمة على الدعاء في صلاة الجنازة، وكذلك الدعاء بعد الدفن. قال صلى الله عليه وسلم ((استغفروا لأخيكم واسألوا له التثبيت فإنه الآن يُسأل))[١]

وكذلك الدعاء لهم عند زيارة قبورهم كما في صحيح مسلم أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يعلمهم إذا خرجوا إلى المقابر أن يقولوا: ((السلام عليكم أهل الديار من المؤمنين والمسلمين، نسأل الله لنا ولكم العافية)).[٢]

ومن الأدلة على وصول ثواب الصدقة: ما جاء في الصحيحين عن عائشة: أن رجلاً أتى النبي صلى الله عليه وسلم فقال: يا رسول الله إن أمي افتلت نفسها (أي: ماتت فجأة)، ولم توص، وأظنها لو تكلمت تصدقت، أفلها أجر إن تصدقت عنها؟ قال: ((نعم)).[٣]

([١]) د: الجنائز، ب ٧٣، ح ٣٢٢١. ك: ١/٣٧٠ . البيهقي: ٤/٥٦، عن عثمان بن عفان، وقال الحا كم: صحيح الإسناد.

([٢]) م: الجنائز، ب ٣٥، ح ١٠٤. س: الجنائز، ب ١٠٣، ح ٢٠٤٢. ق: الجنائز، ب ٣٦، ح ١٥٤٧ عن بُرِيده بن الحصين.

([٣]) متفق عليه. خ: الجنائز، ب ٩٣، ح ١٣٢٢، الوصايا، ب ١٩، ح ٢٦٠٩. م: الزكاة، ب ١٥، ح ٥١، الوصية، ب ٢، ح ١٢ – عن عَائِشَة.

قال الشوكاني في نيل الأوطار (٤/ ٧٩): "وأحاديث الباب تدل على أن الصدقة من الولد تلحق الوالدين بعد موتهما بدون وصية منهما، ويصل إليهما ثوابها، فيخصص بهذه الأحاديث عموم قوله تعالى: ﴿**وأن ليس للإنسان إلا ما سعى**﴾ ولكن ليس في أحاديث الباب إلا لحوق الصدقة من الولد.



ومن الأدلة على وصول ثواب الصوم: ما جاء في الصحيحين عن عائشة: أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال:((من مات وعليه صوم صام عنه وليه)).[1] ولكن أبا حنيفة قال بالإطعام عن الميت دون الصيام عنه لحديث ابن عباس المتقدم[2].

ومن الأدلة على وصول ثواب الحج: ما جاء في صحيح البخاري عن ابن عباس: أن امرأة من جهينة جاءت إلى النبي صلى الله عليه وسلم فقالت: إن أمي نذرت أن تحج حتى ماتت فلم تحج، أفأحج عنها؟ قال: ((حجي عنها، أرأيت لو كان على أمك دين أكنت قاضيته؟ اقضوا الله فالله أحق بالوفاء)).[3]

ومن الأدلة على أن قضاء الدين عن الميت يبرئ ذمته ولو كان من أجنبي:

- الإجماع.

- حديث أبي قتادة: حيث ضمن الدينارين عن الميت، فلما قضاها قال النبي صلى الله عليه وسلم: ((الآن بردت عليه جلدته)).[4]

وكل ذلك جار على قواعد الشرع، وهو محض القياس، فإن الثواب حق العامل، فإذا وهبه لأخيه المسلم لم يمنع من ذلك،كما لم يمنع من هبة ماله له في حياته، وإبرائه له منه بعد وفاته.

وقد نبه الشارع بوصول ثواب الصوم على وصول ثواب القراءة ونحوها من العبادات البدنية لأن الصوم كف عن المفطرات بالنية، فكيف بالقراءة التي هى عمل ونية؟

([1])خ: الصوم، ب ٤١، ح ١٨٥١. م: الصوم، ب ٢٧، ح ١٥٣– عن عائشة.

([2]) وعن ابن عباس قال: "إذا مرض الرجل في رمضان، ثم مات و لم يصم، أطعم عنه و لم يكن عليه قضاء، وإن كان عليه نذر قضى عنه وليه" أخرجه أبو داود بسند صحيح على شرط الشيخين.

قال ابن القيم في "أعلام الموقعين" (٣/ ٥٥٤) "فطائفة حملت هذا على عمومه وإطلاقه، وقالت: يصام عنه النذر والفرض. وأبت طائفة ذلك وقالت: لا يصام عنه نذر ولا فرض، وفصلت طائفة فقالت: يصام عنه النذر دون الفرض الأصلي. وهذا قول ابن عباس وأصحابه، وهو الصحيح.

([3]) متفق عليه. خ: الجزاء، ب ٣٣، ح ١٧٥٤، الأيمان و النذور، ب ٢٩، ح ٦٣٢١، الاعتصام، ب ١٢، ح ٦٨٨٥. م: الصيام، ب ٢٧، ح ١٥٤– ١٥٦. كلهم عن ابن عباس.

في الحديث، أن من نذر أن يحج ثم مات قبل أن يتمكن من الحج، حج عنه وليه، وكذلك لو حبسه عذر شرعي عن الحج، ومات قبل أن يحج جاز لوليه أن يحج عنه، وما سوى ذلك لا يُشرع الحج عن الميت.

يقول ابن القيم في كتاب (أعلام الموقعين): فأما المفرط من غير عذر أصلاً فلا ينفعه أداء غيره لفرائض الله التي فرط فيها، وكان هو المأمور بها ابتلاء وامتحاناً دون الولي. فلا تنفع توبة أحد عن أحد، ولا إسلامه عنه، ولا أداء الصلاة عنه ولا غيرها من فرائض الله تعالى التي فرط فيها حتى مات.."

([4])ك: ٢/٥٨. طه: ح ١٦٧٣ . البيهقي: ٦/٧٥. حم: ٣/٣٣٠– عن أبي قتادة. بإسناد لا بأس به.

قراءة القرآن وإهداؤها طواعاً بلا أجرة:

أما قراءة القرآن وإهداؤها طَوْعًا بلا أجرة فهذا يصل إلى الميت كما يصل إليه ثواب الصوم والحج[1].

فإن قيل: لم يكن مَعْرُوفًا عند السلف، ولا أرشدهم إليه صلى الله عليه وسلم. قيل: ليس كون السلف لم يفعلوه حجة في عدم الوصول، ومن أين لنا هذا النفي العام؟

أما كونه صلى الله عليه وسلم أرشد إلى الصوم والحج دون القراءة، فإنه صلى الله عليه وسلم لم يبتدئهم بذلك بل خرج مخرج الجواب لهم، فهذا سأله عن الحج عن ميته فأذن له فيه وهذا سأله عن الصوم فأذن له فيه، ولم يمنعهم مما سوى ذلك.

وأى فرق بين وصول ثواب الصوم الذي هو مجرد إمساك ونية، وبين وصول ثواب القراءة وهى فعل ونية؟!.

حكم الإهداء إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم:

أما الإهداء إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فمن المتأخرين من استحبه، ومنهم من رآه بدعة، لأن الصحابة لم يكونوا يفعلونه، ولأن النبي صلى الله عليه وسلم له مثل أجر كل من عمل من أمته خيراً، لأنه هو الذي دلهم على ذلك من غير أن ينقص ذلك من أجورهم شيئاً.

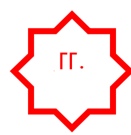
قراءة القرآن بأجرة وإهداء ذلك إلى الميت:

وأما استئجار قوم يقرأون القرآن ويهدونه للميت فلم يفعله ولا رخص فيه أحد من السلف، والاستئجار على نفس التلاوة غير جائز بلا خلاف، وإنما اختلفوا في جواز الاستئجار على التعليم ونحوه.

والثواب لا يصل إلى الميت إلا إذا كان العمل لله، وهذا لم يقع عبادة خالصة، فلا يكون له من الثواب

---

[1] هذا القياس باطل من وجهين: الأول، أنه يحمل الأحاديث التي تدل على وصول ثواب الصوم والحج للميت ما لا تحتمل. والثاني: أن الصحابة – وهم قدوتنا – لم يسبقونا إلى هذا القياس فهماً وعملاً، ونحن يكفينا ما كفاهم. ثم إن تلاوة القرآن ووهب ثوابها للأموات – في نظر المجيزين – هي عبادة يتقرب بها إلى الله تعالى، فلو كانت كذلك لبينها لنا النبي صلى الله عليه وسلم بنص صريح، لأنه ما ترك شيئاً يقربنا إلى الله إلا وقد أمرنا به، وما ترك شيئاً يبعدنا عن الله إلا وقد نهانا عنه" فإن قيل لم يرد حديث ينهى عن إهداء ثواب تلاوة القرآن للأموات، قيل: بلى، فقد صح عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: "من أحدث في ديننا ما ليس منه فهو رد" فالأصل في العبادات المنع والحظر ما لم يرد بنص يأمر أو يجيز بخلاف الأمور الدنيوية البحتة، فإن الأصل فيها الإباحة ما لم يرد نص على التحريم.
قال ابن تيمية: ولم يكن من عادة السلف إذا صلوا تطوعاً، أو صاموا تطوعاً، أو حجوا تطوعاً، أو قرأوا القرآن، يهدون ثواب ذلك إلى أموات المسلمين، فلا ينبغي العدول عن طريق السلف فإنه أفضل وأكمل. (الاختيارات العلمية ص٥٤).



ما يهدى إلى الموتى، ولهذا لم يقل أحد أنه يعطى من يصوم ويصلي ويهدي ثواب ذلك إلى الميت، وفي الاختيار: لو أوصى بأن يعطى شيء من ماله لمن يقرأ القرآن على قبره فالوصية باطلة لأنه في معنى الأجرة.

أما إذا أعطى لمن يقرأ القرآن ويعلمه ويتعلمه معونة لأهل القرآن على ذلك كان هذا من جنس الصدقة عنه فيجوز.

قراءة القرآن عند القبور:

اختلف العلماء في قراءة القرآن عند القبور:

فقال بكراهتها أبو حنيفة ومالك وأحمد في رواية لأنه محدث لم ترد به السنة ولأن القراءة تشبه الصلاة، والصلاة عند القبور منهي عنها.

وقال محمد بن الحسن وأحمد في رواية: لا بأس بها، واستدلوا بما نقل عن ابن عمر رضى الله عنه أنه أوصى أن يُقرأ على قبره وقت الدفن بفواتح سورة البقرة وخواتمها، وبما نقل أيْضًا عن بعض المهاجرين من قراءة سورة البقرة.

وقال أحمد في رواية: لا بأس بها وقت الدفن فقط، أخْذاً بما نقل عن ابن عمر وبعض المهاجرين. وأما بعد ذلك كالذين يتناوبون القبر للقراءة عنده فهذا مكروه لأنه لم تأت به السنة، ولم ينقل عن أحد من السلف، ولعله أقوى لما فيه من التوفيق بين الدليلين.

هل ينتفع الميت بقراءة القرآن عنده باعتبار سماعه كلام الله؟

الجواب: أنه ربما يتضرر لكونه لم يمتثل أوامر الله، ولكونه لم يزدد من الخير، وهذا لم يصح عن أحد من الأئمة المشهورين، وانتفاعه بالسماع لا يصح، لأن ثواب الاستماع مشروط بالحياة لأنه عمل اختياري.

الفصل الثاني الإيمان بالمعاد

قال المصنف رحمه الله تعالى: ونؤمن بالبعث، وجزاء الأعمال يوم القيامة، والعرض والحساب، وقراءة الكتاب، والثواب والعقاب، والصراط والميزان.

تمهيد:

الإيمان بالمعاد مما دل عليه الكتاب والسنة، والعقل، والفطرة. وقد أكثر القرآن الكريم من إقامة الأدلة عليه، ودفع شبه المنكرين له في غالب سوره، وذلك لأن الإقرار بالربوبية أمر فطري بخلاف البعث فإن منكريه كثيرون.

ولما كان محمد صلى الله عليه وسلم خاتم الأنبياء فقد بين تفصيل الآخرة بياناً لا يوجد في شيء من كتب الأنبياء، حتى ظن بعض المتفلسفة أنه لم يفصح بمعاد الأبدان إلا محمد صلى الله عليه وسلم وجعلوا هذا حجة لهم في أنه من باب التمثيل والخطاب الجمهورى! وهؤلاء ينكرون معاد الأبدان وينكرون القيامة الكبرى، وقولهم هذا غاية في الفساد.

المبحث الأول

عموم العلم بالقيامة الكبرى عند جميع الأنبياء

قال المصنف رحمه الله تعالى: ونؤمن بالبعث، وجزاء الأعمال يوم القيامة.

القيامة الكبرى معروفة عند جميع الأنبياء من لدن آدم إلى محمد صلى الله عليه وسلم:

ففي قصة آدم قال تعالى: ﴿ قَالَ فِيهَا تَحْيَوْنَ وَفِيهَا تَمُوتُونَ وَمِنْهَا تُخْرَجُونَ ﴾ [الأعراف: ٢٥]. **ولما قال إبليس:** ﴿ قَالَ رَبِّ فَأَنظِرْنِيٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿٧٩﴾ قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ ٱلْمُنظَرِينَ ﴿٨٠﴾ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْوَقْتِ ٱلْمَعْلُومِ ﴾ [ص: ٧٩- ٨١]. **وأما نوح فقد قال:** ﴿ وَٱللَّهُ أَنۢبَتَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ نَبَاتًا ﴿١٧﴾ ثُمَّ يُعِيدُكُمْ فِيهَا وَيُخْرِجُكُمْ إِخْرَاجًا ﴾ [نوح: ١٧- ١٨]. **وقال إبراهيم:** ﴿ وَٱلَّذِيٓ أَطْمَعُ أَن يَغْفِرَ لِي خَطِيٓـَٔتِي يَوْمَ ٱلدِّينِ ﴾ [الشعراء: ٨٢]. **وقال:** ﴿ رَبَّنَا ٱغْفِرْ لِي وَلِوَٰلِدَيَّ وَلِلْمُؤْمِنِينَ يَوْمَ يَقُومُ ٱلْحِسَابُ ﴾ [إبراهيم: ٤١].

وفي قصة موسى قال تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلسَّاعَةَ ءَاتِيَةٌ أَكَادُ أُخْفِيهَا لِتُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍۭ بِمَا تَسْعَىٰ ﴿١٥﴾ فَلَا يَصُدَّنَّكَ عَنْهَا مَن لَّا يُؤْمِنُ بِهَا وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ فَتَرْدَىٰ ﴾ [طه: ١٥-١٦].

بل إن مؤمن آل فرعون كان يعلم المعاد، قال تعالى: ﴿ وَيَٰقَوْمِ إِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ يَوْمَ ٱلتَّنَادِ ﴾ **إلى أن قال:** ﴿ يَٰقَوْمِ إِنَّمَا هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا مَتَٰعٌ وَإِنَّ ٱلْءَاخِرَةَ هِيَ دَارُ ٱلْقَرَارِ ﴾ [غافر: ٣٢- ٣٩].

وقد أخبر تعالى عن أهل النار أنهم إذ: ﴿ وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَآ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَتْلُونَ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِ رَبِّكُمْ وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَآءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا ۚ قَالُواْ بَلَىٰ وَلَٰكِنْ حَقَّتْ كَلِمَةُ ٱلْعَذَابِ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ ﴾ [الزمر: ٧١].

فهذا اعتراف من جميع أصناف الكفار الداخلين جهنم أن الرسل قد أنذرتهم لقاء يومهم هذا فجميع الرسل قد أنذروا بما أنذر به خاتمهم صلى الله عليه وسلم.

وقد أمر الله نبيه أن يقسم على المعاد: قال تعالى: ﴿ وَيَسْتَنۢبِـُٔونَكَ أَحَقٌّ هُوَ ۖ قُلْ إِي وَرَبِّيٓ إِنَّهُۥ لَحَقٌّ ﴾ [يونس: ٥٣]. **وقال تعالى:** ﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَا تَأْتِينَا ٱلسَّاعَةُ ۖ قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّي لَتَأْتِيَنَّكُمْ عَٰلِمِ

ٱلۡغَيۡبِ﴾ [سبأ: ٣]. وقال تعالى: ﴿ زَعَمَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَن لَّن يُبۡعَثُواْۚ قُلۡ بَلَىٰ وَرَبِّي لَتُبۡعَثُنَّ ﴾ [التغابن: ٧].

وأخبر عن اقترابها: قال تعالى:﴿ ٱقۡتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمۡ وَهُمۡ فِي غَفۡلَةٖ مُّعۡرِضُونَ ﴾ [الأنبياء:١]. وقال تعالى:

﴿ ٱقۡتَرَبَتِ ٱلسَّاعَةُ وَٱنشَقَّ ٱلۡقَمَرُ ﴾ [القمر:١].

وذم المكذبين بالمعاد: قال تعالى: ﴿ قَدۡ خَسِرَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِلِقَآءِ ٱللَّهِۖ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَتۡهُمُ ٱلسَّاعَةُ بَغۡتَةٗ قَالُواْ يَٰحَسۡرَتَنَا عَلَىٰ مَا فَرَّطۡنَا فِيهَا ﴾ [الأنعام: ٣١]. وقال تعالى:﴿ أَلَآ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُمَارُونَ فِي ٱلسَّاعَةِ لَفِي ضَلَٰلِۭ بَعِيدٍ ﴾ [الشورى: ١٨]. وقال تعالى: ﴿ وَأَقۡسَمُواْ بِٱللَّهِ جَهۡدَ أَيۡمَٰنِهِمۡ لَا يَبۡعَثُ ٱللَّهُ مَن يَمُوتُۚ بَلَىٰ وَعۡدًا عَلَيۡهِ حَقّٗا وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ ﴿٣٨﴾ لِيُبَيِّنَ لَهُمُ ٱلَّذِي يَخۡتَلِفُونَ فِيهِ وَلِيَعۡلَمَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَنَّهُمۡ كَانُواْ كَٰذِبِينَ ﴾ [النحل: ٣٨- ٣٩].

قال تعالى: ﴿ وَضَرَبَ لَنَا مَثَلٗا وَنَسِيَ خَلۡقَهُۥۖ قَالَ مَن يُحۡيِ ٱلۡعِظَٰمَ وَهِيَ رَمِيمٞ ﴿٧٨﴾ قُلۡ يُحۡيِيهَا ٱلَّذِيٓ أَنشَأَهَآ أَوَّلَ مَرَّةٖۖ وَهُوَ بِكُلِّ خَلۡقٍ عَلِيمٌ ﴿٧٩﴾ ٱلَّذِي جَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلشَّجَرِ ٱلۡأَخۡضَرِ نَارٗا فَإِذَآ أَنتُم مِّنۡهُ تُوقِدُونَ ﴾ [يس ٧٨- ٨٣] إلى آخر السورة.

افتتح سبحانه هذه الحجة بسؤال أورده ملحد، اقتضى جواباً، فكان في قوله : ﴿وَنَسِيَ خَلۡقَهُۥ﴾ما يفي بالجواب. فلما أراد تأكيد الحجة وزيادة تقريرها قال:﴿ قُلۡ يُحۡيِيهَا ٱلَّذِيٓ أَنشَأَهَآ أَوَّلَ مَرَّةٖۖ ﴾، فاحتج بالابتداء على الإعادة، وبالنشأة الأولى على النشأة الآخرة، فمن قدر على تلك قدر على هذه، ولو كان عاجزاً عن الثانية لكان عن الأولى أعجز. ثم أتبع ذلك بقوله:﴿ وَهُوَ بِكُلِّ خَلۡقٍ عَلِيمٌ ﴾. فهو عليم بتفاصيل الخلق الأول، فإذا كان تام العلم كامل القدرة فكيف يتعذر أن يحي العظام وهي رميم. ثم أكد الأمر ببرهان آخر يتضمن جوابًا عن سؤال ملحد آخر يقول: إن العظم إذا رم أصبح ذا طبيعة باردة يابسة، فكيف يرجع إلى الحياة التي لابد لها من طبيعة حارة رطبة؟ فقال:﴿ ٱلَّذِي جَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلشَّجَرِ ٱلۡأَخۡضَرِ نَارٗا فَإِذَآ أَنتُم مِّنۡهُ تُوقِدُونَ.﴾ فأخبر بإخراج هذا العنصر الذي هو في غاية الحرارة واليبوسة من الشجر الأخضر الممتلئ بالرطوبة والبرودة، فالذي يخرج الشَّيء من ضده ولا يستعصي عليه شيء، هو الذي يفعل ما أنكره الملحد ودفعه!!

ثم أكد هذا المعنى بأخذ الدلالة من الشيء الأعظم على الشيء الأصغر، فمن قدر على حمل قنطار

كان على حمل أوقية أشد اقتدارًا، فقال: ﴿ أَوَلَيْسَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُم ۚ بَلَىٰ وَهُوَ ٱلْخَلَّٰقُ ٱلْعَلِيمُ ﴾، فالذي أبدع السماوات والأرض على عظم شأنهما، وعجيب خلقهما أقدر على أن يحي عِظَامًا قد صارت رميماً! كما قال: ﴿ لَخَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ [غافر: ٥٧]. ثم أكد ذلك ببينة أخرى وهى أنه ليس فعله بمنزلة غيره الذي يفعل بالآلات والكلفة والمشقة، بل يكفي في خلقه إرادته وقوله للمكوَّن ﴿ كُن ﴾ فإذا هو كائن كما شاءه وأراده.

ثم ختم هذه الحجة بإخباره أن ملكوت كل شيء بيده يتصرف فيه بفعله وقوله، وقوله تعالى:

﴿ أَيَحْسَبُ ٱلْإِنسَٰنُ أَن يُتْرَكَ سُدًى ﴾ [القيامة:٣٦].

فمن قلَّبه في أطوار الخلق، وركَّب فيه الحواس والقوى، وأحكم خلقه غاية الإحكام، كيف يعجز عن إعادته مرة ثانية؟ أم كيف تقتضي حكمته أن يتركه مهملا عن الأمر والنهي والثواب والعقاب. وقريب من هذا الاحتجاج آيات سورتي الحج والمؤمنون.

النشأة الأخرى: الذي عليه السلف وجمهور العقلاء أن الأجسام تنقلب من حال إلى حال فتستحيل ترَابًا، ثم ينشئها الله نشأة أخرى، فيعيد الجسم بعد أن يبلى كله- إلا عجب الذنب- وذلك كما استحال في النشأة الأولى من نُطفة إلى علقة إلى مضغة إلى عظام ولحم ثم أنشأه الله خلقا آخر. قال صلى الله عليه وسلم: ((كل ابن آدم أوله التراب إلا عَجْبَ الذَّنب، منه خلق وفيه يركب))[1] رواه مسلم.

وفي حديث آخر قال صلى الله عليه وسلم: ((إن السماء تمطر مطرًا كمني الرجال، ينبتون في القبور كما ينبت النبات))[2] فعجْب الذنب هو الذي يبقى، وأما سائره فيستحيل فيعاد من المادة التي استحال إليها. ومعلوم أنه من رأى شخصًا وهو صغير ثم رآه بعد أن صار شَيْخًا علم أن هذا هو ذاك مع أنه دَائِمًا في تحلل واستحالة، ويضطرد ذلك في سائر الحيوان والنبات، فمن رأى شجرة وهى صغيرة ثم رآها وهى كبيرة قال: هذه تلك.

وليست صفة تلك النشأة الثانية مماثلة للأولى، فالأولى فانية معرضة للآفات، والثانية باقية غير

---

(١)خ: تفسير سورة الزمر، ح ٤٥٣٦، وتفسير سورة النبأ، ح ٤٦٥١. م: الفتن، ب ٢٨، ح ١٤١- ١٤٣. د: السنة، ب ٢٤، ح ٤٧٤٣. س: الجَنَائِز، ب ١١٧، ح ٢٠٧٩. ق: الزهد، ب ٣٢، ح ٤٢٦٦. حم: ٢/٣٢٢- صح أبي هريرة.
(٢)ك: ٤/٥٩٨. طب: ٩/٤١٣، ح ٩٧٦١- عن ابن مسعود بإسناد لا بأس به.

معرضة للآفات، فتتفق النشأتان من وجه، ويختلفان من وجه آخر. أما القائلون بأن الأجسام مركبة من الجواهر المفردة فإن لهم في المعاد خبطاً واضطراباً:

- فمنهم من يقول: تعدم الجواهر ثم تعاد.

- ومنهم من يقول: تفرق ثم تجمع.

وقد أورد عليهم:

- الإنسان الذي يأكله حيوان، فإن أعيدت تلك الأجزاء من هذا لم تعد من هذا.

- إن الإنسان يتحلل دائماً فماذا الذي يعاد؟ أهو الذي كان وقت الموت فيلزم أن يعاد بصورة ضعيفة، وهو خلاف النصوص. أم غيره، وليس بعض الأبدان بأولى من بعض.

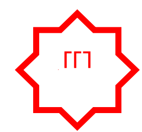
جزاء الأعمال:

قال تعالى: ﴿ مَٰلِكِ يَوۡمِ ٱلدِّينِ ﴾. وقال تعالى: ﴿ يَوۡمَئِذٖ يُوَفِّيهِمُ ٱللَّهُ دِينَهُمُ ٱلۡحَقَّ ﴾ [النور: ٢٥]. والدين هو الجزاء. وقال تعالى: ﴿ مَن جَآءَ بِٱلۡحَسَنَةِ فَلَهُۥ عَشۡرُ أَمۡثَالِهَاۖ وَمَن جَآءَ بِٱلسَّيِّئَةِ فَلَا يُجۡزَىٰٓ إِلَّا مِثۡلَهَا وَهُمۡ لَا يُظۡلَمُونَ ﴾ [الأنعام: ١٦٠].

وقال صلى الله عليه وسلم فيما يرويه عن ربه: ((يا عبادي، إنما هى أعمالكم أحصيها لكم ثم أوفيكم إياها فمن وجد خيراً فليحمد الله، ومن وجد غير ذلك فلا يلومنَّ إلا نفسه))[1].

---

(١) الجامع الصغير للسيوطي (٦٠٢٠) وفي صحيح مسلم عن أبي ذر.



المبحث الثاني:العرض

قال المصنف رحمه الله تعالى:.. والعرض والحساب، وقراءة الكتاب

قال تعالى: ﴿ يَوْمَئِذٍ تُعْرَضُونَ لَا تَخْفَىٰ مِنكُمْ خَافِيَةٌ ﴾ [الحاقة:١٨]. **وقال تعالى:** ﴿ وَعُرِضُوا عَلَىٰ رَبِّكَ صَفًّا لَّقَدْ جِئْتُمُونَا كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ ﴾ [الكهف:٤٨].

وقال تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا الْإِنسَانُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَىٰ رَبِّكَ كَدْحًا فَمُلَاقِيهِ ۝٦ فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ ۝٧ فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا ۝٨ وَيَنقَلِبُ إِلَىٰ أَهْلِهِ مَسْرُورًا ۝٩ وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ وَرَاءَ ظَهْرِهِ ۝١٠ فَسَوْفَ يَدْعُو ثُبُورًا ۝١١ وَيَصْلَىٰ سَعِيرًا ﴾[الانشقاق: ٦- ١٢].

وقال تعالى: ﴿ وَوُضِعَ الْكِتَابُ فَتَرَى الْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يَا وَيْلَتَنَا مَالِ هَٰذَا الْكِتَابِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّا أَحْصَاهَا ۚ وَوَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِرًا ۗ وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا ﴾ [الكهف: ٤٩].

وقد قال صلى الله عليه وسلم: ((ليس أحد يحاسب يوم القيامة إلا هلك)). فقلت: يا رسول الله أليس قد قال الله تعالى: ﴿ فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ ۝٧ فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا ﴾ [الانشقاق: ١٨]. **فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: ((إنما ذلك العرض، وليس أحد يناقش الحساب يوم القيامة إلا عذب)).[1]**

يعني أنه لو ناقش في حسابه لعبيده لعذبهم وهو غير ظالم لهم، لكنه تعالى يعفو ويصفح، قال صلى الله عليه وسلم:((يعرض الناس يوم القيامة ثلاث عرضات: فعرضتان جدال ومعاذير، وعرضة تطاير الصحف، فمن أوتي كتابه بيمينه وحوسب حسابًا يسيراً دخل الجنة،ومن أوتي كتابه بشماله دخل النار))[2]

(١) خ: العلم، ب ٣٦، ح ١٠٣، تفسير سورة الانشقاق، ح ٤٦٥٥، الرقاق، هـ ٤٩، ح ٦١٧١ و٦١٧٢ م: الجنة، ب ١٨، ح ٧٩، ٨٠. س: تفسير سورة الانشقاق، ح ٦٧١ –عن عَائِشَة.

(٢) ت: القيامة، ب٤، ح ٢٤٢٥ –عن أبي هريرة. حم: ٤/٤١٤– عن أبي موسى الأشعرى. وهو حَدِيث صحيح.



قال صلى الله عليه وسلم: ((إن الناس يصعقون يوم القيامة، فأكون أول من يفيق، فإذا موسى آخذ بقائمة العرش، فلا أدرى أفاق قبلي أم جوزي بصعقة يوم الطور)).

وهذا صعق في موقف القيامة إذا جاء الله لفصل القضاء فحينئذ يصعق الخلائق.

فإن قيل: فما وجه الجمع بين هذا الحديث، وبين رواية:((إن الناس يصعقون يوم القيامة فأكون أول من تنشق عنه الأرض، فأجد موسى باطشاً بقائمة العرش))؟[1]

فالجواب: إن هذه الرواية الثانية قد دخل فيها على الراوي حديث في حديث. فركب بين اللفظين، فجاء هذان الحديثان هكذا:

أحدهما: ((إن الناس يصعقون يوم القيامة فأكون أول من يفيق)).

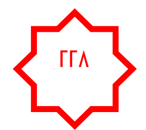
والثاني: ((أنا أول من تنشق عنه الأرض يوم القيامة)).

فدخل على الراوي هذا الحديث في الآخر. وممن نبه على هذا أبو الحجاج المزي وابن القيم وابن كثير.

وإن قيل: لقد رواه البعض بلفظ: ((فلا أدري أفاق قبلي، أم كان ممن استثنى الله عز وجل)).

فالجواب: إن المحفوظ الذي تواطأت عليه الروايات الصحيحة هو الأول، وعليه المعنى الصحيح، فإن الصعق يوم القيامة لتجلي الله لعباده إذا جاء لفصل القضاء، فإذا كان موسى لم يصعق معهم فيكون قد جوزي بصعقه يوم تجلى ربه للجبل فجعله دكًا، فجعلت هذه عوضاً عن صعقة الخلائق لتجلي الله يوم القيامة.

(١) أبو داود باب في التخيير بين الأنبياء عليهم الصلاة والسلام رقم (٤٦٧١) وفي صحيح مسلم باب من فضائل موسى رقم (٢٣٧٢).



المبحث الثالث:الحوض

قال المصنف رحمه الله تعالى: والحوض الذي أكرمه الله تعالى به غياثاً لأمته حق.

الحوض مورد كريم يمد من نهر الكوثر الذي هو أشد بياضاً من اللبن، وأحلى من العسل، وأبرد من الثلج، وأطيب ريحاً من المسك. أباريقه عدد نجوم السماء، وعرضه وطوله سواء، كل زاوية من زواياه مسيرة شهر. والأحاديث الواردة في الحوض تبلغ حد التواتر، رواها من الصحابة بضع وثلاثون صحابياً منها:

ما رواه البخاري عن أنس: قال صلى الله عليه وسلم: ((إن قدر حوضى كما بين أيلة إلى صنعاء من اليمن، وإن فيه من الأباريق عدد نجوم السماء))[١]

وعن سهل بن سعد الأنصارى: قال، قال صلى الله عليه وسلم: ((إني فرطكم على حوضي، من مر عليَّ شرب، ومن شرب لم يظمأ أبداً)).[٢]

وروى البخاري ومسلم عن جندب بن عبد الله قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول:

((أنا فرطكم على الحوض)).

أما الكوثر فهو نهر في الجنة يشخب منه ميزابان إلى الحوض.

الحوض قبل الصراط وقبل الميزان:

والحوض في العرصات قبل الصراط، لأنه يختلج عنه ويمنع منه أقوام قد ارتدوا

على أعقابهم، ومثل هؤلاء لا يجاوزون الصراط. ففي حديث البخاري السابق: ((إني فرطكم على حوضي، من مرَّ علَّ شرب، ومن شرب لم يظمأ أبداً. ليردن عليَّ أقوام أعرفهم ويعرفونني، ثم يحال

---

(١) خ: الرقاق، ب٥٣، ح ٦٢٠٩. م: الفضائل، ب ٩، ح ٣٩. ت: القيامة، ب ١٤ و١٥، ح ٢٤٤٢، ٢٤٤٥. ق: الزهد، ب ٣٦، ح ٤٣٠٢- ٤٣٠٥- عن أنس وحذيفة وثوبان.

(٢)خ: الرقاق، ب ٥٣، ح ٦٢٠٥، الفتن، ب ١، ح ٦٦٤٢. م: الفضائل، ب٩، ح ٢٥- ٣٢. ق: الفتن، ب ٥، ح٣٩٤٤، الزهد، ب ٣٦، ح ٤٣٠٦. حم: ٤/ ٣١٢، ٥/٤١ و ٨٦- عن أبي مسعود وجندب.

بيني وبينهم)). وزاد أبو سعيد الخدرى: ((فأقول: إنهم من أمتي فقال: إنك لا تدري ما أحدثوا بعدك فأقول سُحقاً سُحقاً لمن غير بعدي)).[1]

واختلف في الميزان والحوض أيهما يكون قبل الآخر؟ فقيل الميزان، وقيل الحوض، والصحيح أن الحوض قبل الميزان، واختاره القرطبي.

قال رحمه الله: (.. والمعنى يقتضيه فإن الناس يخرجون عطاشاً من قبورهم، فيقدم قبل الميزان والصراط). واختاره أيضاً أبو حامد الغزالي.

---

(١)خ:الرقاق، ب ٥٣، ح ٦٢١٢، الفتن، ب١، ح ٦٦٤٣. م: الفضائل، ب٩، ح ٢٦ و ٢٨، ٢٩، ٣٢- عن سهل وعبد الله بن عمرو وعائشة وأم سلمة.

المبحث الرابع: الميزان

قال المصنف رحمه الله تعالى:.. والميزان

قال تعالى: ﴿ وَنَضَعُ ٱلْمَوَٰزِينَ ٱلْقِسْطَ لِيَوْمِ ٱلْقِيَـٰمَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْـًٔا ﴾ [الأنبياء: ٤٧]. **وقال تعالى:** ﴿ فَأَمَّا مَن ثَقُلَتْ مَوَٰزِينُهُۥ ۝٦ فَهُوَ فِى عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ ۝٧ وَأَمَّا مَنْ خَفَّتْ مَوَٰزِينُهُۥ ۝٨ فَأُمُّهُۥ هَاوِيَةٌ ﴾ [القارعة: ٦-٩]. **وجمعت الموازين باعتبار تعددها، أو باعتبار تنوع الأعمال الموزونة.**

وقد دلت السنة على أن الميزان له كفتان حِسيتان مشاهدتان. جاء في حديث السجلات الذي رواه أحمد: ((فتوضع السجلات في كفة، والبطاقة في كفة، فتطيش السجلات، وتثقل البطاقة))[1].

متى يكون الوزن؟

والوزن يكون بعد الحساب، لأن الوزن للجزاء، فينبغي أن يكون بعد المحاسبة فإن المحاسبة لتقرير الأعمال، والوزن لإظهار مقاديرها ليكون الجزاء بحسبها.

ما الموزونات؟

وردت الأحاديث بوزن الأعمال نفسها: عن أبي مالك الأشعرى قال: قال صلى الله عليه وسلم: ((الطهور شطر الإيمان، والحمد لله تملأ الميزان))[2].

وقال صلى الله عليه وسلم: ((كلمتان خفيفتان على اللسان، حبيبتان إلى الرحمن، ثقيلتان في الميزان سبحان الله وبحمده سبحان الله العظيم))[3].

كما وردت أيضاً بأن العامل يوزن مع عمله: روى البخاري عن أبي هريرة عن النبي صلى الله عليه وسلم: ((إنه ليؤتى بالرجل العظيم السمين يوم القيامة لا يزن عند الله جناح بعوضة، قال: اقرأوا إن

---

(١) ت: الإيمان، ب ١٧، ح ٢٦٣٩. ق: الزهد، ب ٣٥، ح ٤٣٠٠ . ك: ١/٦ و ٥٣٩. حم: ٢/٢١٣- عن عبد الله بن عمرو. وقال الترمذي: حسن غريب.

(٢) م: الطهارة، ب ١، ح ١. ت: الدعوات، ب٨٧، ح ٣٥١٨ و ٣٥١٩- عن أبي مالك الأشعري.

(٣) خ: الدعوات، ب ٦٥، ح ٦٠٤٣، الأيمان والنذور، ب ١٨، ح ٦٣٠٤، التوحيد، ب٥٨، ح ٧١٢٤. م: الذكر، ب ١٠، ح ٣١. ت: الدعوات، ب ٦٠، ح ٣٤٦٧.ق: الأدب، ب٥٦، ح ٣٨٠٦. حم: ٢/٢٣٢- عن أبي هريرة.



شئتم: ﴿ فَلَا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ وَزْنًا ﴾))[1] [الكهف: ١٠٥]. **وقال صلى الله عليه وسلم عندما ضحك البعض من دقة ساقي ابن مسعود: ((والذي نفسي بيده لهما أثقل في الميزان من أحد)).[2]**

ولا وجه لاعتراض البعض بأن الأعمال أعراض لا تقبل الوزن، لأن الله عز وجل يقلب الأعراض أجساماً، كما يؤتى بالموت- وهو عرض- في صورة كبش أملح فيذبح بين الجنة والنار.

ما الحكمة من وزن الأعمال؟

ولو لم يكن من الحكمة في وزن الأعمال إلا ظهور عدله سبحانه وتعالى لجميع عباده لكان ذلك كافياً، فإنه لا أحد أحب إليه العذر من الله عز وجل، من أجل ذلك أرسل الرسل مبشرين ومنذرين، فكيف ووراء ذلك من الحكم ما لا اطلاع لنا عليه؟

(١) خ: تفسير سورة مريم، ح ٤٤٥٢. م: أوائل صفات المنافقين، ح ١٨- عن عبد الله بن عمرو.
(٢) ك: ٣/٣١٧. حم: ١/٤٢١- عن ابن مسعود، وهو حديث صحيح.

المبحث الخامس:الصراط

قال المصنف رحمه الله تعالى:.. والصراط.

الصراط جسر على جهنم، وهو كحد السيف، دحض مزلة، فإذا فارق الناس مكان الموقف انتهوا إلى الظلمة التي دون الصراط. وسئل رسول الله صلى الله عليه وسلم: أين الناس يوم تبدل الأرض غير الأرض والسماوات فقال: ((هم في الظلمة دون الجسر)).[1]

وفي هذا الموضع يفترق المنافقون عن المؤمنين، فيتخلف المنافقون، ويسبق المؤمنون ويحال بينهما بسور، ويعطى الناس يومئذ النور على قدر أعمالهم:

فمنهم من يكون نوره كالجبل بين يديه.

ومنهم من يكون نوره مثل النخلة بيمينه.. ومنهم من يكون نوره على إبهام قدمه يضيء مرة، ويطفأ مرة، فإذا أضاء قدم قدمه وإذا أطفيء قام.

يمر الناس على الصراط فيمضون عليه على قدر نورهم:

فمنهم من يمر كانقضاض الكواكب. ومنهم من يمر كالريح. ومنهم من يمر كالطرف. ومنهم من يرمل رملاً.

حتى يمر الذي نوره على إبهام قدمه، تخر يد وتعلق يد، وتخر رجل، وتعلق رجل، وتصيب جوانبه النار، فإذا خلصوا حمدوا الله عز وجل.

معنى الورود المذكور في قوله تعالى: ﴿ وَإِن مِّنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا ﴾

اختلف المفسرون في الورود المذكور في قوله تعالى: ﴿ وَإِن مِّنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا ۚ كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ حَتْمًا مَّقْضِيًّا ۝ ثُمَّ نُنَجِّي الَّذِينَ اتَّقَوا وَّنَذَرُ الظَّالِمِينَ فِيهَا جِثِيًّا ﴾ [مريم: ٧١- ٧٢]. والأظهر: أنه المرور على الصراط.

قال صلى الله عليه وسلم: ((والذي نفسي بيده لا يلج النار أحد بايع تحت الشجرة))، قالت

---

(١)م: الطهارة، ب٨، ح٣٤. ت: تفسير سورة إبراهيـــم، ح ٣١٢١. ق: الزهد، ب ٣٣، ح ٤٢٧٩- عن ثوبان وعائشة.



حفصة: فقلت يا رسول الله: أليس الله يقول:﴿ وَإِن مِّنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا ﴾ فقال:((ألم تسمعيه قال:﴿ ثُمَّ نُنَجِّي ٱلَّذِينَ ٱتَّقَواْ وَّنَذَرُ ٱلظَّٰلِمِينَ فِيهَا جِثِيًّا ﴾))[1]

فقد أشار صلى الله عليه وسلم إلى أن ورود النار لا يستلزم دخولها، وأن النجاة من الشر لا تستلزم حصوله، بل تستلزم انعقاد سببه، فمن طلبه أعداؤه ليهلكوه ولم يتمكنوا منه يقال: نجاه الله منهم. ولهذا قال تعالى: ﴿ وَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا هُودًا ﴾ [هود: ٥٨]. وقال: ﴿ فَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا صَٰلِحًا ﴾ [هود:٦٦]. وقال: ﴿ وَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا شُعَيْبًا ﴾ [هود: ٩٤]. ولم يكن العذاب أصابهم، ولكن أصاب غيرهم، ولولا ما خصهم الله به من أسباب النجاة لأصابهم ما أصاب أولئك.

وكذلك حال الوارد على النار يمر فوقها على الصراط، ثم ينجي الله الذين اتقوا ويذر الظالمين فيها جثياً، فقد بيَّن صلى الله عليه وسلم أن الورود على الصراط.

هل هناك صراط خاص بالمؤمنين؟

ورد في الصحيحين: ((إن المؤمنين إذا عبروا الصراط وقفوا على قنطرة بين الجنة والنار، فيقتص لبعضهم من بعض، فإذا هذبوا ونقوا أذن لهم في دخول الجنة)) [2]. جعل القرطبي في التذكرة هذه القنطرة صراطاً ثانياً للمؤمنين خاصة، وليس يسقط منه أحد في النار.

(١) م: فضائل الصحابة، ب٣٧، ح١٦٣ – عن أم مبشر الأنصارية.
(٢) خ: المظالم، ب ٢، ح ٢٣٠٨، الرقاق، ب ٤٨، خ ٦١٧٠. حم: ٣/١٣ و ٦٣ و ٧٤- عن أبي سعيد الخدري.

المبحث السادس:الشفاعة

قال المصنف رحمه الله: والشفاعة التي ادخرها لهم حق، كما روي في الأخبار.

الشفاعة أنواع: منها ما هو متفق عليه بين الأمة، ومنها ما خالفت فيه المعتزلة ونحوهم من أهل البدع.

النوع الأول: الشفاعة العظمى، وهي خاصة بنبينا محمد صلى الله عليه وسلم، ذلك أنه إذا كانت القيامة، وبلغ الكرب بالناس ما بلغ، يُهرعون إلى الأنبياء ليشفعوا لهم عند الله ليخلصهم مما هم فيه ويأتي للفصل بينهم، فيذكر كل نبي ذنبه، ويحيل إلى الآخر حتى إذا انتهوا إلى محمد صلى الله عليه وسلم فإنه يذهب ويسجد تحت العرش، ثم يسأل الله الشفاعة في ذلك فيجيبه عز وجل لذلك، ويأتي للفصل بين العباد.

النوع الثاني: شفاعته صلى الله عليه وسلم في أقوام قد تساوت حسناتهم وسيئاتهم، فيشفع فيهم ليدخلوا الجنة.

النوع الثالث: شفاعته في أقوام قد أمر بهم إلى النار لئلا يدخلوها.

النوع الرابع: شفاعته صلى الله عليه وسلم في رفع درجات من يدخل الجنة فيها فوق ما كان يقتضيه ثواب أعمالهم، وقد وافقت المعتزلة على هذا النوع.

النوع الخامس: شفاعته في أقوام أن يدخلوا الجنة بغير حساب، ودليله حديث عكّاشة بن محصن حين دعا له صلى الله عليه وسلم أن يجعله من السبعين ألفاً الذين يدخلون الجنة بغير حساب[1].

النوع السادس: شفاعته في تخفيف العذاب عمن يستحقه، كشفاعته في عمه أبي طالب أن يخفف عنه عذابه.أما قوله تعالى:﴿ فَمَا تَنفَعُهُمۡ شَفَٰعَةُ ٱلشَّٰفِعِينَ ﴾[المدثر:٤٨] فالمراد لا تنفعهم في الخروج من

---

(١)خ: الطب، ب ١٧، ح ٥٣٧٨ وب ٤١، ح ٥٤٢٠، الرقاق، ب ٢١، ح ٦١٠٧ وب٥٠، ح ٦١٧٥، م: الإيمان: ب ٨٤، ح ٣٦٧- ٣٧٣. ت: القيامة، ب١٢، ح ٢٤٣٧ وب ١٦، ح ٢٤٤٦. ق: الزهد، ب٣٤، ح ٤٢٨٥ و ٤٢٨٦. حب: ٩/١٨٣، ح ٧٢٠٠- عن ابن عباس وأبي هريرة وعمران بن حصين.



النار كما تنفع عصاة الموحدين.

النوع السابع: شفاعته أن يؤذن لجميع المؤمنين في دخول الجنة: عن أنس قال: قال صلى الله عليه وسلم: ((أنا أول شفيع في الجنة))[1] رواه مسلم.

النوع الثامن: شفاعته في أهل الكبائر من أمته: عن أنس قال: قال صلى الله عليه وسلم: ((شفاعتي لأهل الكبائر من أمتي))[2]. وهذه الشفاعة التي تشاركه فيها الملائكة والنبيون والمؤمنون، وقد خالفت فيها الخوارج والمعتزلة.

الناس في الشفاعة على ثلاثة أقوال:

- فالمشركون والنصارى، والمبتدعون من الغلاة في المشايخ وغيرهم يجعلون شفاعة من يعظمونه عند الله كالشفاعة المعروفة في الدنيا.

- والمعتزلة والخوارج أنكروا شفاعة النبي صلى الله عليه وسلم وغيره في أهل الكبائر.

- أما أهل السنة والجماعة فيقرون بشفاعة نبينا صلى الله عليه وسلم، وبشفاعة غيره لكن لا يشفع أحد حتى يأذن الله له ويحد له حداً، كما جاء في الحديث الصحيح: قال صلى الله عليه وسلم: ((..فأقول: ربي، أمتي، فيحد لي حداً فأدخلهم الجنة، ثم أنطلق فأسجد، فيحد لي حداً)) ذكر هذا ثلاث مرات.[3]

وفي رواية البخاري: ((..فأقول: يا رب ائذن لي فيمن قال: لا إله إلا الله، فيقال: وعزتي وجلالي، وكبريائي وعظمتي، لأخرجن منها من قال: لا إله إلا الله)).[4]

وفي رواية مسلم من حديث أبي سعيد مرفوعاً، قال: ((فيقول الله تعالى: شفعت الملائكة، وشفع النبيون، وشفع المسلمون، ولم يبق إلا أرحم الراحمين، فيقبض قبضة من النار، فيخرج منها قوماً لم يعملوا خيراً قط)).[5]

---

(١) م: الإيمان، ب ٨٥، ح ٣٣٠- ٣٣٣- عن أنس بن مالك.

(٢) د: السنة، ب٢٣، ح ٤٧٣٩. ت: القيامة، ب١١، ح ٢٤٣٥ و ٢٤٣٦ و قال: حسن.
ق: الزهد، ب ٣٧٠، ح ٤٣١٠. ك: ١/٦٩ .حم: ٣/٢١٣. حب: ٨/١٣٢، ح: ٦٤٣٤- عن أنس وجابر.

(٣)خ: تفسير سورة البقرة، ح ٤٢٠٦، الرقاق، ب ٥١، ح ٦١٩٧، التوحيد، ب١٩، ح ٦٩٧٥ وب٢٤، ح ٧٠٠٢ وب٣٦، ح ٧٠٧٢. م: ا لإيمان، ب٨٤، ح ٣٢٢- عن أنس.

(٤) أي من قال: لا إله إلا الله، وكفر بما يعبد من دون الله، و لم يأت بشيء من نواقضها. فهذا مفهوم الحديث، والذي دلت عليه مجموع النصوص. أما من كان يقول لا إله إلا الله وفي نفس الوقت يأتي بضدها وبما يناقضها، فلا يقبل منه التوحيد إلا بعد أن يقلع عن الشرك المناقض للتوحيد.

(٥) قوله: "**لم يعملوا خيراً قط**" يجب أن يحمل أنهم مع ذلك فهم لم يمارسوا نواقض الإيمان، و لم يختم لهم بالشرك، وهم كذلك من أهل الصلاة، كما جاء ذلك في حديث آخر ومن رواية مسلم: "**حتى إذا فرغ الله من القضاء بين العباد وأراد أن يخرج برحمته**



المبحث السابع: وجود الجنة والنار وأبديتهما

قال المصنف رحمه الله تعالى: والجنة والنار مخلوقتان، لا تفنيان أبداً ولا تبيدان، فإن الله تعالى خلق الجنة والنار قبل الخلق، وخلق لهما أهلاً، فمن شاء منهم إلى الجنة فضلاً منه، ومن شاء منهم إلى النار عدلاً منه، وكل يعمل لما قد فرغ له، وصائر إلى ما خلق له.

تضمنت هذه الفقرة من كلام الشيخ المسائل الآتية:

أولاً: وجود الجنة والنار الآن:

اتفق أهل السنة على أن الجنة والنار مخلوقتان موجودتان الآن، وأنكر ذلك المعتزلة والقدرية، وقالوا ينشئهما الله يوم القيامة.

أدلة أهل السنة:

استدل أهل السنة على أن الجنة والنار قد تم خلقهما فعلاً بما يأتي:

(١) إخباره تعالى أن الجنة والنار قد أعدتا فعلاً بصيغة الماضي: فبالنسبة لخلق الجنة قال تعالى:

﴿ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ ﴾ [آل عمران: ١٣٣]. **وقال:** ﴿ أُعِدَّتْ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ ﴾ [الحديد:٢١].

وبالنسبة لخلق النار قال تعالى: ﴿ أُعِدَّتْ لِلْكَٰفِرِينَ ﴾ **[البقرة: ٢٤]. وقال:** ﴿ إِنَّ جَهَنَّمَ كَانَتْ مِرْصَادًا ۝ لِّلطَّٰغِينَ مَـَٔابًا ﴾ [النبأ:٢١-٢٢].

(٢) رؤية النبي صلى الله عليه وسلم لهما، ففي ليلة المعراج رأى صلى الله عليه وسلم سدرة المنتهى ورأى عندها جنة المأوى. قال تعالى: ﴿ وَلَقَدْ رَءَاهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ ۝ عِندَ سِدْرَةِ ٱلْمُنتَهَىٰ ۝ عِندَهَا جَنَّةُ ٱلْمَأْوَىٰٓ ﴾ [النجم: ١٣-١٥].

من أراد أن يرحمهم، **ممن يقول: لا إله إلا الله فيعرفوهم في النار بأثر السجود، تأكل النار من ابن آدم إلا أثر السجود**"، فهم كما هو ظاهر الحديث من أهل الصلاة، ومن أهل التوحيد المجانبين للشرك، ومه يعلم أن قوله: "**لم يعملوا خيراً قط**" يراد به الخير الزائد عن شروط صحة الإيمان ومتطلباته، التي لا يدخل المرء الجنة إلا بها وبعد استيفائها، وليس المراد نفي مطلق الخير المتضمن للتوحيد والإيمان، هذا ما يقتضيه العلم بمجموع النصوص ذات العلاقة بالمسألة.



وفي الصحيحين من حديث أنس في قصة الإسراء: ((... ثم انطلق بي جبرائيل حتى سدرة المنتهى، فغشيها ألوان لا أدرى ما هى، قال: ثم دخلت الجنة فإذا هى جنابذ اللؤلؤ، وإذا ترابها المسك..))[١]

وفي صحيح مسلم من حديث أنس: ((وَأيْمُ الذي نفسي بيده لو رأيتم ما رأيت لضحكتم قليلاً، ولبكيتم كثيراً))، قالوا: وما رأيت يا رسول الله؟ قال: ((رأيت الجنة والنار)).

وفي الصحيحين واللفظ للبخاري عن عبد الله بن عباس قال: انخسفت الشمس على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم... فذكر الحديث وفيه: فقالوا: يا رسول الله رأيناك تناولت شيئاً في مقامك ثم رأيناك تكعكعت! فقال: ((إني رأيت الجنة، وتناولت عنقوداً، ولو أصبته لأكلتم منه ما بقيت الدنيا، ورأيت النار، فلم أر منظراً كاليوم قط أفظع، ورأيت أكثر أهلها النساء...))[٢] الحديث.

(٣) ما جاء في عذاب القبر ونعيمه: ففي الصحيحين من حديث عبد الله بن عمر أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: ((إن أحدكم إذا مات عرض عليه مقعده بالغداة والعشي، إن كان من أهل الجنة فمن أهل الجنة، وإن كان من أهل النار فمن أهل النار، يقال هذا مقعدك حتى يبعثك الله يوم القيامة)).[٣]

وقد تقدم حديث البراء بن عازب، وفيه أنه يفرش للعبد المؤمن من الجنة، ويفتح له بابٌ إليها، ويفرش للعبد الكافر من النار ويفتح له بابٌ إليها.

(٤) وعن كعب بن مالك، قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: ((إنما نسمة المؤمن طير تعلق في شجر الجنة، حتى يرجعها الله إلى جسده يوم القيامة)) فهذا صريح في دخول الروح الجنة قبل يوم القيامة.

(٥) ما ثبت أن الله أرسل جبريل لينظر إلى الجنة والنار بعد خلقهما: فعن أبي هريرة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: ((لما خلق الله الجنة والنار أرسل جبرائيل إلى الجنة، فقال: اذهب فانظر إليها وإلى ما أعددت لأهلها فيها، فذهب فنظر إليها وإلي ما أعد الله لأهلها فيها، فرجع فقال: وعزتك لا يسمع

---

(١) خ. الصلاة، ب ١، ح ٣٤٢، الأنبياء، ب٧، ٣١٦٤ . م: الإيمان، ب٧٤، ح ٢٦٣- كلاهما عن أنس بن مالك. حم : ٥/١٤٤- عن أبي بن كعب، هذا آخر لفظ الحديث عندهم.

(٢) خ: الإيمان، ب١٩، ح ٢٩، المساجد، ب١٨، ح ٤٢١، الصلاة، ب ٩، ح ٧١٥، الكسوف، ب ٩، ح ١٠٠٤، النكاح، ب ٨٧، ح ٤٩٠١. م: الكسوف، ب٣، ح ١٧. س: الصلاة، ب٦٢٤، ح ١٤٩٤- عن ابن عباس.

(٣) خ: الجنائز، ب ٨٨، ح ١٣١٣، بدء الخلق، ب ٨، ح ٣٠٦٨، الرقاق، ب٤٥، ح ٦١٥٠. م: الجنة، ب ١٧، ح ٦٥ و ٦٦. س: الجنائز، ب ١١٦، ح ٢٠٧٢- ٢٠٧٤، تفسير سورة الأنعام - عن ابن عمر.



بها أحد إلا دخلها، فأمر بالجنة فحُفت بالمكاره، فقال: ارجع فانظر إليها وإلى ما أعددت لأهلها فيها، قال: فنظر إليها ثم رجع فقال: وعزتك لقد خشيت ألا يدخلها أحد. قال: ثم أرسله إلى النار قال: اذهب فانظر إليها وإلى ما أعددت لأهلها فيها، قال: فنظر إليها فإذا هي يركب بعضها بعضاً، ثم رجع فقال: وعزتك لا يدخلها أحد سمع بها، فأمر بها فحفت بالشهوات، ثم قال: اذهب فانظر إلى ما أعددت لأهلها فيها، فذهب فنظر إليها فرجع فقال: وعزتك لقد خشيت ألا ينجو منها أحد إلا دخلها)).(1)

وعلي القول بأن الجنة الموعود بها هي الجنة التي كان فيها آدم ثم خرج منها، فالقول بوجودها الآن ظاهر.

أدلة القائلين بأنها لم تخلق بعد:

استدل المعتزلة والقدرية على دعواهم بما يأتي:

- أنها لو كانت مخلوقة الآن لوجب اضطراراً أن تفنى يوم القيامة، وأن يهلك كل من فيها ويموت لقوله تعالى: ﴿ كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ ﴾ [القصص:٨٨]. ولقوله تعالى: ﴿ كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِ ﴾ [آل عمران: ١٨٥].

- ما ثبت من أن الجنة قيعان، وأن غراسها ذكر الله والأعمال الصالحة. قال صلى الله عليه وسلم: ((لقيت إبراهيم ليلة أسري بي، قال: يا محمد أقرئ أمتك مني السلام وأخبرهم أن الجنة طيبة التربة، عذبة الماء، وأنها قيعان، وأن غراسها سبحان الله، والحمد لله، ولا إله إلا الله، والله أكبر)).(2) وأيضاً عن جابر عن النبي ﷺقال: ((من قال سبحان الله وبحمده غرست له نخلة في الجنة)).(3) قالوا: فلو كانت مخلوقة مفروغاً منها لم تكن قيعاناً، ولم يكن لهذا الغراس معنى. وكذا قوله تعالى عن امرأة فرعون أنها قالت: ﴿ رَبِّ ٱبْنِ لِى عِندَكَ بَيْتًا فِى ٱلْجَنَّةِ ﴾(4) [التحريم: ١١].

---

(١) ت: الجنة، ب ٢١، ح ٢٥٦٠- وقال: حسن. س: الإيمان، ب ٣، ح ٣٧٩٤- عن أبي هريرة.
(٢) ت: الدعوات، ب ٥٩، ح ٣٤٦٢، وقال: حسن. حم: ١/٣٧٥- عن ابن مسعود.
(٢) الترمذي، البخاري باب ما جاء في البناء. باب الدعوات عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ح رقم (٣٥٣٢)
(٤) ت: الدعوات، ب ٦٠، ح ٣٤٦٤، و قال: حسن. حب: ٢/ ٩٦، ح ٨٢٣، ك: ١/٥١٢- عن جابر.

مناقشة أدلة القدرية والمعتزلة:

أجاب أهل السنة على الدليل الأول بأن قوله تعالى:﴿ كُلُّ شَيۡءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجۡهَهُۥ ﴾ قد يكون المقصود به: كل شيء مما كتب عليه الفناء والهلاك، والجنة والنار خلقتا للبقاء لا للفناء، وكذا العرش فإنه سقف الجنة.

وقيل: المراد إلا ملكه، أو إلا ما أريد به وجهه، وذلك للتوفيق بين هذه الآية وبين النصوص المحكمة الدالة على بقاء الجنة والنار. أما الأدلة الأخرى فقد أجاب عليها أهل السنة بأنها تدل على أن ما أعده الله لأهلها فيها لم يكتمل خلقه كله، وأن الله لا يزال يحدث فيها شيئاً بعد شيء، وذلك متفق عليه. أما القول بأنها معدومة بمنزلة النفخ في الصور، والبعث، فذلك باطل ترده الأدلة السابقة.

ثانياً: أبدية الجنة والنار:

الجنة والنار لا تفنيان ولا تبيدان، هذا قول جمهور الأئمة من السلف والخلف. وقال جماعة من السلف ببقاء الجنة وفناء النار. وذهب الجهم بن صفوان إلى القول بفناء الجنة والنار، وليس له في ذلك سلف قط، كفَّره بذلك عامة أهل السنة. وشبهته في ذلك هو امتناع وجود ما لا يتناهى من الحوادث، وأن ما يمنع من حوادث لا أول لها في الماضي يمنعه في المستقبل. ووافقه على ذلك أبو الهذيل العلاف شيخ المعتزلة، لكنه قال: إن هذا يقتضي فناء الحركات، فقال بفناء حركات أهل الجنة والنار، حتى يصيروا في سكون دائم لا يقدر أحد منهم على الحركة. والحق أن الله عز وجل لم يزل رباً قادراً فعالاً لما يريد.

أبدية الجنة:

فأما أبدية الجنة فهذا مما يعلم بالضرورة من الكتاب والسنة.

فمن الكتاب:

قال تعالى عن نعيم الجنة: ﴿ أُكُلُهَا دَآئِمٌ وَظِلُّهَا ﴾ [الرعد: ٣٥]. وقال عن أهلها: ﴿ وَمَا هُم مِّنۡهَا بِمُخۡرَجِينَ ﴾ [الحجر: ٤٨]. وقد أكد الله خلود أهل الجنة بالتأبيد في عدة مواضع من القرآن الكريم فقال:

﴿ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَنُدۡخِلُهُمۡ جَنَّٰتٍ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدٗاۖ وَعۡدَ ٱللَّهِ حَقّٗاۚ وَمَنۡ أَصۡدَقُ مِنَ ٱللَّهِ قِيلٗا ﴾[النساء: ١٢٢]. وقال: ﴿ جَزَآؤُهُمۡ عِندَ رَبِّهِمۡ جَنَّٰتُ عَدۡنٍ

﴿تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَـٰرُ خَـٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۖ رَّضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ﴾[البينة:٨].

معنى الاستثناء الوارد في قوله تعالى: ﴿ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ سُعِدُوا۟ فَفِى ٱلْجَنَّةِ خَـٰلِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ ٱلسَّمَـٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ إِلَّا مَا شَآءَ رَبُّكَ ۖ عَطَآءً غَيْرَ مَجْذُوذٍ ﴾ [هود:١٠٨].

اختلف السلف في هذا الاستثناء:

فقيل معناه: إلا مدة إقامتهم في النار، وهذا يكون لمن دخل منهم النار ثم خرج منها لا لكلهم.

وقيل إلا لمدة مقامهم في الموقف.

وقيل إلا لمدة مقامهم في القبور والموقف.

وقيل هو استثناء الرب ولا يفعله، كما تقول: والله لأضربنك إلا أن أرى غير ذلك، وأنت لا تراه بل تجزم بضربه.

وقيل لإعلامهم أنهم مع خلودهم في مشيئته، فما شاء الله كان وما لم يشأ لم يكن، ولا ينافي ذلك عزيمته وجزمه لهم بالخلود. ونظيره هذه الآيات: ﴿ قُل لَّوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا تَلَوْتُهُۥ عَلَيْكُمْ وَلَآ أَدْرَىٰكُم بِهِۦ ﴾ [يونس: ١٦]. ﴿ فَإِن يَشَإِ ٱللَّهُ يَخْتِمْ عَلَىٰ قَلْبِكَ ﴾ [الشورى: ٢٤]. ﴿ وَلَئِن شِئْنَا لَنَذْهَبَنَّ بِٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ ﴾ [الإسراء: ٨٦].

وقيل إلا من شاء الله دخوله النار من السعداء، وقيل غير ذلك.

وبالجملة فإن هذا الاستثناء من المتشابه، والآيات السابقة من المحكم، وقد قال تعالى عن أهل الجنة: ﴿ لَا يَذُوقُونَ فِيهَا ٱلْمَوْتَ إِلَّا ٱلْمَوْتَةَ ٱلْأُولَىٰ ﴾ [الدخان: ٥٦].

فهذا الاستثناء منقطع، فإذا ضممته إلى الاستثناء في قوله: ﴿ إِلَّا مَا شَآءَ رَبُّكَ ﴾**، تبين أن المراد من الآيتين استثناء الوقت الذي لم يكونوا فيه في الجنة من مدة الخلود، كاستثناء الموتة الأولى من جملة الموت. فهذه موتة تقدمت على حياتهم الأبدية، وتلك مفارقة للجنة تقدمت على خلودهم فيها.**

ومن السنة:

قال صلى الله عليه وسلم: ((من يدخل الجنة ينعم ولا يبأس، ويخلد ولا يموت)).[1] وقال صلى الله عليه وسلم: ((ينادي مناد: يا أهل الجنة إن لكم أن تصحوا فلا تسقموا، وأن تشبوا فلا تهرموا أبداً، وأن

---

(١)م: الجنة، ب ٨، ح ٢١. ت: الجنة، ب ٢، ح ٢٥٢٦. حم: ٢/٤٠٧- عن أبي هريرة.

تحيوا فلا تموتوا أبداً)).[1]

وقد تقدم ذكر ذبح الموت بين الجنة والنار، ويقال: ((يا أهل الجنة خلود فلا موت، ويا أهل النار خلود فلا موت)) [2].

أبدية النار ودوامها:

وأما أبدية النار ودوامها فلأهل السنة فيها قولان:

- أن الله يخرج منها من يشاء، ثم يبقيها شيئاً، ثم يفنيها، فإنه جعل لها أمداً تنتهي إليه. وهو منقول عن ابن عمر وابن مسعود وأبي هريرة وأبي سعيد وغيرهم.

- أن الله يخرج منها من يشاء، ويبقي فيها الكفار بقاء لا انقضاء له.

وهناك أقوال أخرى ظاهرة البطلان.

أدلة القول الأول:

قال تعالى: ﴿ قَالَ ٱلنَّارُ مَثْوَىٰكُمْ خَـٰلِدِينَ فِيهَآ إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُ ۗ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴾ [الأنعام: ١٢٨].

وقال تعالى: ﴿ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ شَقُوا۟ فَفِى ٱلنَّارِ لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَشَهِيقٌ ﴿١٠٦﴾ خَـٰلِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ ٱلسَّمَـٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ إِلَّا مَا شَآءَ رَبُّكَ ۚ إِنَّ رَبَّكَ فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ ﴾ [هود: ١٠٦، ١٠٧]. ولم يأت بعد هذين الاستثناءين ما أتى بحد الاستثناء المذكور لأهل الجنة وهو قوله: ﴿ عَطَآءً غَيْرَ مَجْذُوذٍ ﴾ [هود:١٠٨]. وقال تعالى: ﴿ لَّـٰبِثِينَ فِيهَآ أَحْقَابًا ﴾ [النبأ: ٢٣].

وقد روى عبد بن حميد في تفسيره بسنده إلى عمر أنه قال: لو لبث أهل النار في النار كقدر رمل عالج لكان لهم على ذلك وقت يخرجون فيه.

إن النار موجب غضبه، والجنة موجب رحمته، وقد قال صلى الله عليه وسلم: ((لما قضى الله الخلق كتب كتاباً فهو عنده فوق العرش: إن رحمتي سبقت غضبي وفي رواية: تغلب غضبي)).[3]

---

(١) م: الجنة، ب ٨، ح ٢٢. ت: تفسير سورة الزمر، ح ٣٢٤٦. س: تفسير سورة الأعراف، ح ٢٠٤- عن أبي هريرة وأبي سعيد الخدري.

(٢) الترمذي باب ما جاء في خلود أهل الجنة والنار (٢٦٨٢)، والبخاري باب وأنذرهم يوم الحسرة رقم (٤٤٥٣).

(٣) البخاري باب ما جاء في قول الله تعالى: ﴿وهو الذي يبدأ الخلق ثم يعيده﴾ (٩٩٦٩)، (٩٩٨٦).

إنه عز وجل قد أخبر عن العذاب أنه عذاب يوم ((عظيم))، و((أليم)) و((عقيم)) ولم يخبر أبداً عن النعيم أنه نعيم يوم.

قوله تعالى: ﴿ قَالَ عَذَابِيٓ أُصِيبُ بِهِۦ مَنۡ أَشَآءُۖ وَرَحۡمَتِي وَسِعَتۡ كُلَّ شَيۡءٖ ﴾ [الأعراف: ١٥٦]. فلابد أن تسع رحمته هؤلاء المعذبين، فلو بقوا في العذاب أبداً لم تسعهم رحمته، وقد ثبت تقدير يوم القيامة بخمسين ألف سنة، والمعذبون فيه متفاوتون في مدة لُبثهم في العذاب بحسب جرائمهم.

ليس من الحكمة أن يخلق الله خلقاً يعذبهم أبد الآباد، وأما أن يخلق خلقاً ينعم عليهم نعيماً سرمدياً فذلك من مقتضى الحكمة.

ثم قالوا: أما ما ورد من الخلود فيها، والتأبيد، وعدم الخروج وما شابه ذلك فهو حق مسلّم به ولا نزاع فيه، وذلك يقتضي الخلود في دار العذاب مادامت باقية، فلا يخرج منها في حال بقائها إلا أهل التوحيد. ففرق بين من يخرج من الحبس أو حبس على حاله، وبين من يبطل حبسه لخراب الحبس وانتقاضه.

أدلة القول الثاني:

ومن أدلة القائلين ببقائها وعدم فنائها:

الآيات التي تصرح بالتأبيد وعدم الخروج مثل: قوله تعالى: ﴿ وَلَهُمۡ عَذَابٞ مُّقِيمٞ ﴾ [التوبة: ٦٨]. وقوله: ﴿ لَا يُفَتَّرُ عَنۡهُمۡ وَهُمۡ فِيهِ مُبۡلِسُونَ ﴾ [الزخرف: ٧٥].

وقوله: ﴿ وَمَا هُم مِّنۡهَا بِمُخۡرَجِينَ ﴾ [الحجر: ٤٨]. وقوله: ﴿ وَمَا هُم بِخَٰرِجِينَ مِنَ ٱلنَّارِ ﴾ [البقرة: ١٦٧]. وقوله: ﴿ وَلَا يَدۡخُلُونَ ٱلۡجَنَّةَ حَتَّىٰ يَلِجَ ٱلۡجَمَلُ فِي سَمِّ ٱلۡخِيَاطِ ﴾ [الأعراف: ٤٠]. وقوله: ﴿ لَا يُقۡضَىٰ عَلَيۡهِمۡ فَيَمُوتُواْ وَلَا يُخَفَّفُ عَنۡهُم مِّنۡ عَذَابِهَا ﴾ [فاطر: ٣٦]. وقوله: ﴿ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًاۚ ﴾ [الجن: ٢٣].

إن أحاديث الشفاعة صريحة في إخراج عصاة الموحدين من النار، فلو خرج الكفار منها لكانوا بمنزلتهم. فهذه الآية في أهل الجنة فتنبه.

الخلاصة

الفصل الأول: حياة البرزخ:

أشراط الساعة كثيرة منها : الدجال، ونزول عيسى ابن مريم، ويأجوج ومأجوج، والدابة، وطلوع الشمس من مغربها . . . وغير ذلك، وهى آيات تقع على مشارف قيام الساعة.

- يجب الإيمان بسؤال الملكين للميت في قبره، وبعذاب القبر ونعيمه، للروح والبدن معاً، دون السؤال عن كيفية وقوع ذلك لأن حياة البرزخ تختلف تماماً عن جنس الحياة الدنيا.

- الأرواح في البرزخ متفاوتة في منازلها أعظم تفاوت : فمنها ما يكون في أعلى عليين كالأنبياء، ومنها ما تكون في حواصل طيور خضر تسرح في الجنة كالشهداء، ومنها ما يحبس على باب الجنة، ومنها ما يحبس في القبر، ومنها ما يكون في الأرض، ومنها ما يكون فيألوان أخرى من العذاب.

- الروح جسم نوراني علوي مخلوق، يسري في البدن فيعطيه صفة الحياة، فإذا انتهى الأجل فارقت الروح الجسد، وانتهى تعلقها به في الدنيا، إلا إن لها بالجسد نوع تعلق بكيفية أخرى في البرزخ، ثم يكمل تعلقها بالبدن يوم البعث لاستحقاق حياة الخلود إما في النعيم، أو في الجحيم.

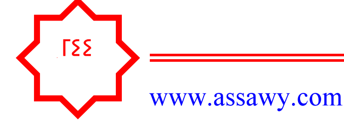
- اتفق أهل السنة على انتفاع أموات المسلمين بثواب ماتسببوا إليه من خير فى حياتهم، وبدعاء المسلمين واستغفارهم لهم، كما اتفقوا على أن قضاء الدين عن الميت وصيام النذر عنه يبرئ ذمته. بينما اختلفوا في وصول ثواب بقية العبادات من الأحياء لهم كالصلاة، والحج، وقراءة القرآن.

الفصل الثاني: الإيمان بالمعاد:

- القيامة الكبرى معلومة عند جميع الأنبياء من لدن آدم إلى محمد صلى الله عليه وسلم. وقد أكثر القرآن الكريم من إقامة الأدلة على الإيمان باليوم الآخر،وكفر من كذّب به من الجاحدين.

- يصير جسد ابن آدم بعد موته تراباً إلا عَجْب الذنب الذى منه خلق، ومنه يعاد الجسم بعد أن يبلى كله، وذلك عندما يأذن الله بالبعث يوم القيامة.

- يعرض الخلق يوم القيامة على ربهم، ثم يصعقون حين يتجلى الله عز وجل إذا جاء لفصل



القضاء بين العباد.

- الحوض مورد كريم يمد من نهر الكوثر، تشرب منه أمة النبي صلى الله عليه وسلم، فلا يظمأ من شرب منه أبداً.

- توضع أعمال العباد في الميزان بعد الحساب يوم القيامة لإظهار مقاديرها حتى يكون الجزاء بحسبها.

- الصراط جسر كحد السيف على جهنم، يمر عليه المؤمنون دون المنافقين، ويعطى الناس يومئذ من النور والسرعة أثناء ورودهم عليه على قدر أعمالهم. ثم يقف المؤمنون الذين عبروا الصراط على قنطرة المظالم حتى يقتص بعضهم من بعض، فإذا هذبوا ونقوا أذن لهم في دخول الجنة.

- شفاعة النبي صلى الله عليه وسلم أنواع عديدة ثابتة فى السنة، كما ثبت أن للملائكة والشهداء والمؤمنين شفاعة أيضاً، على أن أحداً لايملك الشفاعة حتى يأذن الله عز وجل.

- الجنة والنار مخلوقتان قبل الخلق، وهما باقيتان أبداً، ولاتفنيان.

الاختبار البعدي للوحدة

س١: ما أشراط الساعة ؟ اذكر نبذة عن كل منها مع الاستدلال .

س٢: اذكر عقيدة أهل السنة فى عذاب القبر ونعيمه ، مع ذكر الأدلة على ما تقرر؟

س٣: عما يسئل الميت فى قبره؟ وهل السؤال يكون لروحه فقط، أم الروح والبدن جميعاً ؟

س٤: الأرواح في البرزخ متفاوتة في منازلها. وضح ذلك وفقاً لما جاءت به السنة؟

س٥: ضع علامة (صح) أو (خطأ) أمام العبارات الآتية:

الموت صفة عدمية تعني عدم الحياة. ( )

عذاب القبر أو نعيمه يكون للروح فقط . ( )

سؤال الملكين في القبر يكون للروح والبدن جميعا . ( )

القبر إما حفرة نار دائمة لا تنقضي ، أو روضة جنة دائمة . ( )

الروح جسم نوراني علوي قديم غير محدث . ( )

تموت الروح بمفارقتها الجسد إذا انتهى أجل المرء . ( )

قد يطلق لفظ النفس على الروح حال اتصالها بالبدن . ( )

الروح تتعلق بالبدن في الدنيا ويوم البعث، وتنفصل عنه حال النوم في البرزخ. ( )

حرم الله على الأرض أن تأكل أجساد الأنبياء والشهداء . ( )

ينتفع الموتى كلهم بدعاء الأحياء واستغفارهم لهم . ( )

يصوم ولي الميت عنه صوم الفرض ، ويطعم عنه فى صوم النذر . ( )

قضاء الدين عن الميت يبرئ ذمته ولوكان من أجنبي. ( )

أجمع السلف على وصول ثواب إهداء قراءة القرآن للموتى . ( )

الشفاعة حق خالص لله عز وجل لا يأذن به لأحد من خلقه . ( )

المشركون يخرجون من النار بشفاعة الشافعين . ( )

يشفع الملائكة والنبيون والمؤمنون في أهل الكبائر من الموحدين . ( )

أنكر المعتزلة والخوارج شفاعة النبي العظمى . ( )

س٦: هل النفس و الروح شيء واحد ؟ دلل على ما تقول .

س٧: ما الأمور المجمع على وصول أجرها الى المسلم بعد مماته ؟ وما الأمور التي اختلف في وصولها إليه ؟ أجب مع الاستدلال والترجيح .

س٨: القيامة الكبرى معروفة عند جميع الأنبياء. وضح ذلك مع التفصيل والاستدلال؟

س٩: ما الفرق بين الحساب في قوله تعالى:﴿فأما من أوتى كتابه بيمينه فسوف يحاسب حسابا يسيراً﴾ وفي الحديث :﴿ ليس أحد يحاسب يوم القيامة إلا هلك﴾ ؟

س١٠: متى يصعق الناس يوم القيامة ؟ دلل على ما تقول .

س١٢: ما أوصاف حوض النبي صلى الله عليه وسلم؟ ومن الذى سيشرب منه؟

س١٣: كيف توزن الأعمال يوم القيامة ؟ ومتى يكون الوزن ؟

س١٤: كيف يتفاوت نور المؤمنين وسرعتهم على الصراط يوم القيامة؟

س١٥: اشرح قول الله عز وجل : ((وإن منكم إلا واردها)).

س١٦: ما أنواع الشفاعة ؟ وكيف افترقت الأقوال في إثباتها ؟

س١٧: ماذا يعني الاستثناء الوارد في قوله تعالى : ((وأما الذين سعدوا ففي الجنة خالدين فيها مادامت السماوات والأرض إلا ماشاء ربك)) ؟

الوحدة السادسة الإيمان بالقدر

الأهداف الخاصة

يتوقع منك عزيزى الدارس بعد دراستك لهذا الباب أن تكون ملماً بما يلي :

(١) أصل القدر ، ونزاع الفرق فيه.

(٢) الإيمان بالقدر أصل من أصول الدين.

(٣) عموم القدرة والمشيئة.

(٤) أفعال العباد.

(٥) الإيمان باللوح والقلم.

(٦) مرض القلب فى القدر.

(٧) الاستطاعة وعلاقتها بالتكليف.

المبحث الأول:أصل القدر ونزاع الفرق فيه

قال المصنف رحمه الله تعالى: وأصل القدر سر الله تعالى في خلقه، لم يطلع على ذلك ملك مقرب، ولا نبي مرسل، والتعمق والنظر في ذلك ذريعة الخذلان، وسلم الحرمان، ودرجة الطغيان، فالحذر كل الحذر من ذلك نظراً وفكراً ووسوسة، فإن الله تعالى طوى علم القدر عن أنامه، ونهاهم عن مرامه كما قال في كتابه:

﴿ لَا يُسْـَٔلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْـَٔلُونَ ﴾[الأنبياء: ٢٣].

أصل القدر سر الله في خلقه، وهو كونه أوجد وأفنى، وأفقر وأغنى، وأضل وهدى، والنزاع في مسألة القدر مشهور، وإليك تفصيل القول في ذلك:

مذهب أهل السنة:

والذي عليه أهل السنة أن كل شيء بقضاء الله وقدره، وأنه تعالى هو الخالق لأفعال العباد، فهو يريد الكفر ويشاؤه، ولكن لا يرضاه ولا يحبه، فيريده كوناً، ولا يرضاه ديناً. قال تعالى: ﴿ إِنَّا كُلَّ شَىْءٍ خَلَقْنَـٰهُ بِقَدَرٍ ﴾ [القمر: ٤٩]. **وقال تعالى:** ﴿ فَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يَهْدِيَهُۥ يَشْرَحْ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَـٰمِ ۖ وَمَن يُرِدْ أَن يُضِلَّهُۥ يَجْعَلْ صَدْرَهُۥ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِى ٱلسَّمَآءِ ﴾ [الأنعام: ٢٥]. **وقال تعالى:** ﴿ مَن يَشَإِ ٱللَّهُ يُضْلِلْهُ وَمَن يَشَأْ يَجْعَلْهُ عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾ [الأنعام: ٣٩]. **وقال تعالى:** ﴿ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلْفَسَادَ ﴾ [البقرة: ٢٠٥]. **وقال تعالى:** ﴿ إِن تَكْفُرُوا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِىٌّ عَنكُمْ ۖ وَلَا يَرْضَىٰ لِعِبَادِهِ ٱلْكُفْرَ ۖ وَإِن تَشْكُرُوا۟ يَرْضَهُ لَكُمْ ﴾ [الزمر: ٧].

مذهب المعتزلة والقدرية:

وذهبت المعتزلة والقدرية إلى أن الله شاء الإيمان من الكافر ولكن الكافر شاء الكفر، وذلك لئلا يقال شاء الكفر من الكافر وعذبه عليه. ولكن لزمهم ما هو أسوأ من ذلك، وهو أن مشيئة الكافر غلبت مشيئة الله. قال ابن عباس وقد قيل له:

إن رجلاً قدم علينا يكذب بالقدر: هذا أول شرك في الإسلام، لينتهين بهم سوء رأيهم حتى يخرجوا

الله من أن يقدر الخير، كما أخرجوه من أن يقدر الشر. وقال: القدر نظام التوحيد، فمن وحد الله وكذب القدر نقض تكذيبه توحيده.

كيف نشأ الضلال في هذه المسألة؟

ومنشأ الضلال من التسوية بين المشيئة والإرادة من ناحية، وبين المحبة والرضا من ناحية أخرى، فسوى بينهما الجبرية والقدرية، ثم اختلفوا:

فقالت الجبرية: الكون كله بقضائه وقدره فيكون محبوباً له.

وقالت القدرية النفاة: ليست المعاصي محبوبة لله ولا مرضية له فهي ليست مقدرة ولا مقضية، بل خارجة عن مشيئته وخلقه.

وفرَّقَ بينهما أهل السنة بدلالة الكتاب والسنة والفطرة الصحيحة. وقد سبق إيراد النصوص القرآنية التي تشهد بذلك، أما شهادة السنة بذلك فنذكر منها: قوله صلى الله عليه وسلم: إن الله يحب أن تؤتى رخصه كما يكره أن تؤتى معصيته).[١] وقوله صلى الله عليه وسلم: ((إن الله كره لكم ثلاثاً: قيل وقال، وكثرة السؤال، وإضاعة المال)).[٢]

كيف يريد أمراً ولا يحبه؟

فإن قيل كيف يريد أمراً ولا يحبه؟ قلنا: هذا السؤال من أجله تفرق الناس. فالمراد نوعان:

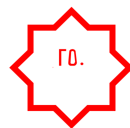
- مراد لنفسه: وهو مطلوب محبوب لذاته، فهو مراد إرادة الغايات والمقاصد.

- مراد لغيره: وهو ما كان وسيلة إلى المقصود والمراد، ولكن لا مصلحة فيه بالنظر إلى ذاته أو مكروه من حيث نفسه وذاته، مراد من حيث إفضاؤه وإيصاله إلى المراد، فيجتمع فيه الأمران: بغضه، وإرادته، ولا يتنافيان لاختلاف متعلقهما، وذلك كالدواء الكريه إذا علم متناوله أن فيه الشفاء، وقطع العضو المتآكل إذا علم أن في قطعه صلاح بقية الجسد. فهو سبحانه يكره الشيء، ولا ينافي ذلك إرادته لكونه سبباً إلى أمر هو أحب إليه، وذلك كخلق إبليس الذي هو مادة الفساد، ولكنه وسيلة إلى محاب كثيرة للرب، ووجودها أحب إليه من عدمها.

---

(١)حم: ٦/١٠٨. موارد الظمآن: ص ١٤٤، ح ٥٢٥، وص ٢٢٨، ح ٩١٤. حب: ٢/١٨٢، ح ٢٧٣١، الخطيب في التاريخ: ١٠/٣٢٧– عن عبد الله بن عمر، وهو حديث صحيح.

(٢)خ: الزكاة، ب ٥٢، ح ١٤٠٧، الاستقراض، ب ١٩، ح ٢٢٧٧، الأدب، ب ٦، ح ٩٦٣٠، الرقاق، ب ٢٢، ح ٦١٠٨، الاعتصام، ب ٣، ح ٦٨٦٢. م: الأقضية، ب ٥، ح ١٠– ١٤. عن أبي هريرة، ومغيرة بن شعبة.



بعض أوجه الحكمة من خلق إبليس:

سبق أن خلق إبليس كان لأنه وسيلة إلى محاب كثيرة للرب منها:

- أن تظهر للعبد قدرة الرب على خلق المتضادات المتقابلات، فإذا كان قد خلق إبليس وهو أخبث الذوات، وسبب كل شر، فقد خلق جبريل وهو أشرفها ومادة كل خير، وذلك من أول الأدلة على كمال قدرته وعزه.

- ومنها ظهور آثار أسمائه القهرية، كالقهار، وذي انتقام، والخافض الرافع، والمعز المذل، وشديد العقاب، ولو كان الجن والإنس على طبيعة الملائكة لم تظهر آثارها.

- ومنها ظهور آثار أسمائه التي تتضمن عفوه ومغفرته، فلولا خلق ما يكرهه من الأسباب المفضية إلى ظهور آثار هذه الأسماء لتعطلت هذه الحكم والفوائد.

- ومنها حصول العبودية المتنوعة التي لولا خلق إبليس ما حصلت، كالجهاد والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، والصبر، ومخالفة الهوى، والتوبة والاستغفار..

فإن قيل: هل كان يمكن وجود تلك الحكم بغير هذه الأسباب؟ فهذا سؤال فاسد وهو فرض وجود الملزوم بدون لازمه، كفرض وجود الابن بدون الأب، والتوبة بدون التائب!

فإن قيل: فهل تكون هذه الأسباب محبوبة من هذه الوجوه- أي باعتبار ما تفضي إليه من الحِكَم أم أنها مسخوطة من جميع الوجوه؟

قلنا: هذا سؤال يرد على وجهين:

- أحدهما: من جهة الرب تعالى.

- الثاني: من جهة العبد.

فأما الذي من جهة الرب: فهل يكون محلا لها من جهة إفضائها إلى محبوبه، وإن كان يبغضها لذاتها؟ والجواب: إن كل ما إلى الله عز وجل فهو خير، والشر ليس إليه، فإنه عز وجل لم يخلق شرا محضاً من جميع الوجوه فهذا من أبين المحال، وإنما جهة الشر دائماً نسبية إضافية، فانقطاع نسبته إليه هو الذي صيره شراً، فالخير بيديه، والشر ليس إليه.

ذلك أن الشر يرجع إلى العدم، عدم الخير، وأسبابه المفضية إليه، وهو من هذه الجهة شر، وأما من

جهة المحض فلا شر فيه. فالعقوبات الموضوعة خير في نفسها، إن كانت بالنسبة للمحل الذي حلت به لما أحدثت فيه من الألم فهى شر بالنسبة إلى ذلك المحل، خير بالنسبة للفاعل حيث وضعه في موضعه.

فإن قيل: لِمَ تنقطع نسبته إليه خلقاً ومشيئة؟ قلنا: هو من هذه الجهة ليس بشر، فإن وجوده هو المنسوب إليه، وهو من هذه الجهة ليس بشر. فإن قيل: كيف، يرضى لعبده شيئاً ولايعينه عليه؟

قلنا: لأن إعانته قد تستلزم فوات محبوب له أعظم من حصول تلك الطاعة التي رضيها له، وقد يكون وقوع تلك الطاعة منه تتضمن مفسدة وهى أكره إليه عز وجل من محبته لتلك الطاعة. قال تعالى: ﴿ وَلَوْ أَرَادُوا۟ ٱلْخُرُوجَ لَأَعَدُّوا۟ لَهُۥ عُدَّةً وَلَـٰكِن كَرِهَ ٱللَّهُ ٱنۢبِعَاثَهُمْ فَثَبَّطَهُمْ وَقِيلَ ٱقْعُدُوا۟ مَعَ ٱلْقَـٰعِدِينَ ﴾ [التوبة: ٤٦].

فقد كره انبعاثهم إلى الغزو مع رسوله وهو طاعته، فثبطهم عنه، لما فيه من المفاسد ما هو أعظم من مصلحة خروجهم، فاقتضت الحكمة والرحمة أن أقعدهم عنه. وقد ذكر سبحانه بعض هذه المفاسد فقال: ﴿ لَوْ خَرَجُوا۟ فِيكُم مَّا زَادُوكُمْ إِلَّا خَبَالًا ﴾ أي فساداً وشراً ﴿ وَلَأَوْضَعُوا۟ خِلَـٰلَكُمْ ﴾. أي سعوا بينكم بالفساد والشر ﴿ يَبْغُونَكُمُ ٱلْفِتْنَةَ وَفِيكُمْ سَمَّـٰعُونَ لَهُمْ ﴾ أي: قابلون منهم مستجيبون لهم.

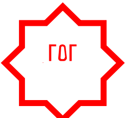
وأما الذي من جهة العبد: فهل يسوغ له الرضا بها من تلك الجهة أيضاً؟

والجواب: إن هذا ممكن بل واقع، فإن العبد يسخط المعاصي باعتبارها فعلاً له، ويرضى بقضاء الله وقدره، فيرضى بما هو من الله، ويسخط ما هو من نفسه.

وذهب آخرون إلى كراهتها مطلقاً، وهو يرجع إلى القول الأول، لأن إطلاقهم الكراهة لا يريدون به شموله لعلم الرب، وكتابته، ومشيئته، وسر المسألة أن الذي إلى الرب منها غير مكروه والذي إلى العبد مكروه. فإن قيل: ليس إلى العبد منها شيء! قلنا: ذلك هو الجبر الباطل.

فإن قيل: كيف يتأتى الندم والتوبة مع شهود الحكمة والتقدير؟ قلنا: إن الطاعة هي موافقة الأمر الشرعي، لا موافقة القدر والمشيئة. ولو كانت موافقة القدر طاعة لكان إبليس من أعظم المطيعين، وكذلك قوم نوح وهود وصالح، وقوم فرعون وغيرهم.

وإن هذا الفهم السقيم هو الذي أدى بالبعض إلى شهود الأمر على غير ما هو عليه، فرأى أن كل الأعمال طاعات لموافقته فيها المشيئة والقدر، وقال: إن عصيت أمره فقد أطعت إرادته. فإن قيل: إذا كان الكفر بقضاء الله وقدره، ونحن مأمورون أن نرضى بقضاء الله فكيف ننكره ونكرهه؟ فجواب ذلك من



عدة أوجه:

- أولاً: إننا لسنا مأمورين بأن نرضى بكل قضاء الله وقدره، حيث لم يرد بذلك كتاب ولا سنة بل من المقضى ما يرضى به، ومنه ما يسخط ويمقت.

- ثانياً: أن يقال: هنا أمران : قضاء الله: وهو فعل قائم بذاته، وهذا نرضى به كله لأنه عدل وحكمة. مقضى: وهو المفعول المنفصل عنه، وهذا منه ما يرضى به، ومنه ما لايرضى به.

- ثالثاً: القضاء له وجهان:

أحدهما: تعلقه بالرب تعالى ونسبته إليه، وهو من هذه الناحية نرضى به كله.

والثاني: تعلقه بالعبد ونسبته إليه، وهو من هذا الوجه ينقسم إلى مايرضى به، وما لا يرضى به. فقتل النفس مثلاً له اعتباران: من حيث قضاء الله وقدره نرضى به. ومن حيث صدوره من القاتل ومعصيته لله بذلك يسخط ولا يرضى به.

قول المصنف رحمه الله تعالى: (والتعمق والنظر في ذلك ذريعة الخذلان) التعمق: المبالغة في طلب الشيء. والذريعة: الوسيلة. والخذلان: في مقابلة النصر. أي إن المبالغة في طلب القدر، والغوص فيه وسيلة إلى الخذلان والحرمان.

وقوله: (والحذر كل الحذر من ذلك نظراً وفكراً ووسوسة)

عن أبي هريرة قال: جاء ناس من أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فسألوه: إنا نجد في أنفسنا ما يتعاظم أحدنا أن يتكلم به! قال: ((وقد وجدتموه؟!)) قالوا: نعم، قال: ((ذلك صريح الإيمان))[١]. والإشارة في قوله: ((ذلك صريح الإيمان)) إلى تعاظم أن يتكلموا به.

عن عبد الله بن مسعود قال: سئل رسول الله صلى الله عليه وسلم عن الوسوسة، فقال: ((تلك محض الإيمان))[٢]. أي مدافعة الوسوسة الشيطانية واستعظامها محض الإيمان. هذه هى طريقة الصحابة، والتابعين لهم بإحسان، ثم خلف من بعدهم خلف سودوا الأوراق بتلك الوساوس التي هى شكوك وشبه، بل وسودوا القلوب، ولا حول ولا قوة إلا بالله! ولذلك أطنب الشيخ رحمه الله في ذم الخوض في الكلام في

---

(١) م: الإيمان، ب ٦٠، ح ٢٠٩- ٢١٠ . عن أبي هريرة.
(٢) م: الإيمان، ب ٦٠، ح ٢١١. سى: ص ٤٢٠، ح ٦٦٥، ٦٦٦. حم: ٦/١٠٦- عن عائشة.



القدر والفحص عنه[1].

عن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده قال: خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم ذات يوم والناس يتكلمون في القدر قال: فكأنما تفقأ في وجهه حب الرمان من الغضب، قال: فقال لهم: ((ما لكم تضربون كلام الله بعضه ببعض، بهذا هلك من كان قبلكم،))[2].

وقال تعالى: ﴿ فَٱسْتَمْتَعُوا۟ بِخَلَـٰقِهِمْ فَٱسْتَمْتَعْتُم بِخَلَـٰقِكُمْ كَمَا ٱسْتَمْتَعَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُم بِخَلَـٰقِهِمْ وَخُضْتُمْ كَٱلَّذِى خَاضُوٓا۟ ﴾ [التوبة: ٦٩]. فجمع بين الاستمتاع بالخلاق، وبين الخوض، لأن فساد الدين إما في العمل، أو في الاعتقاد، فالأول من جهة الشهوات، والثاني من جهة الشبهات. وعن أبي هريرة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: ((تفرقت اليهود على إحدى وسبعين فرقة أو اثنتين وسبعين فرقة، والنصارى مثل ذلك، وتفترق أمتي على ثلاث وسبعين فرقة))[3].

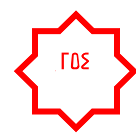
أكبر المسائل التي وقع فيها الخلاف: مسألة القدر.

---

(١) صح عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: "إذا ذُكِر القدر فأمسكوا"، رواه الطبراني من حديث ابن مسعود بسند حسن وفي مجمع الزوائد كتاب الفتن (١١٩٧٣) أى: لا تسترسلوا في الحديث عن القدر، فتخوضوا فيما لا يعنيكم، فتضلوا، لأن الخوض فيما هو فوق المقدور وحدود العقل مآله غالباً إلى الهلاك والضلال، والسلامة تقتضي الاقتصار على المشروع والمعقول. وعن وهب بن منبه أنه قال: نظرت في القدر فتحيَّرت، ثم نظرت فيه فتحيَّرت، ووجدت أعلم الناس بالقدر أكفّهم عنه، وأجهل الناس بالقدر أنطقهم به.

(٢) ق: المقدمة، ب ١٠، ح ٨٥. عن عبد الله بن عمرو –وهو حديث صحيح. وأيضا حم: ٢/١٩٥– ١٩.

(٣) د: السنة، ب ١، ح ٤٥٩٦. ت: الإيمان، ب ١٨، ح ٢٦٤٠. ق: الفتن، ب ١٧، ح ٣٩٩١. ك: ١/١٢٨. حم: ٢/٣٣٢ . الآجرى في الشريعة: ص ٢٥. حب: ٨/٤٨، ح ٦٣١٤– عن أبي هريرة. وهو حديث صحيح.



المبحث الثاني:الإيمان بالقدر أصل من أصول الإيمان

قال المصنف رحمه الله تعالى: ونؤمن بالقدر خيره وشره، وحلوه ومره، من الله تعالى.

الإيمان بالقدر أصل من أصول الدين قال تعالى: ﴿ قُل لَّن يُصِيبَنَآ إِلَّا مَا كَتَبَ ٱللَّهُ لَنَا ﴾ [التوبة: ٥١].

وفي حديث جبريل وسؤاله عن الإيمان: ((... وتؤمن بالقدر خيره وشره)).

وقال تعالى: ﴿ وَإِن تُصِبْهُمْ حَسَنَةٌ يَقُولُواْ هَـٰذِهِۦ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ۖ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَقُولُواْ هَـٰذِهِۦ مِنْ عِندِكَ ۚ قُلْ كُلٌّ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ ۖ فَمَالِ هَـٰٓؤُلَآءِ ٱلْقَوْمِ لَا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ حَدِيثًا ﴿٧٨﴾ مَّآ أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ ٱللَّهِ ۖ وَمَآ أَصَابَكَ مِن سَيِّئَةٍ فَمِن نَّفْسِكَ ﴾ [النساء:٧٨-٧٩].

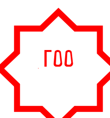
وجه الجمع بين قوله تعالى:﴿ قُلْ كُلٌّ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ ﴾، وقوله:﴿ فَمِن نَّفْسِكَ ﴾

فالجواب: إن قوله تعالي: ﴿ قُل كُلٌّ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ ﴾ يعني أن الخصب والجدب والنصر والهزيمة كلها من عند الله. أما قوله:﴿ وَمَا أَصَابَكَ مِن سَيِّئَةٍ فَمِن نَّفْسِكَ ﴾ أي ما أصابك من سيئة من الله فبذنب نفسك عقوبة لك كما قال تعالى: ﴿ وَمَآ أَصَـٰبَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ ﴾ [الشورى:٣٠]. يدل على ذلك ما روي عن ابن عباس أنه قرأ:﴿ وَمَا أَصَابَكَ مِن سَيِّئَةٍ فَمِن نَّفْسِكَ ﴾ وأنا كتبتها عليك.

والمراد بالحسنة هنا: النعمة، والسيئة: البلية على الأرجح، وفرَّق سبحانه بين الحسنات التي هي النعم، وبين السيئات التي هي المصائب فجعل هذه من عند الله، وهذه من نفس الإنسان لأن الحسنة مضافة إلى الله إذ هو أحق بها من كل وجه، وأما السيئة فهو إنما يخلقها لحكمة، وهى باعتبار تلك الحكمة من إحسانه، فإن الرب لا يفعل سيئة قط.

ولهذا كان صلى الله عليه وسلم يقول في الاستفتاح: ((والخير كله بيديك، والشر ليس إليك)).[1] أي فإنك لا تخلق شراً محضاً، بل كل ما يخلقه ففيه حكمة هو باعتبارها خير، ولكن قد يكون فيه شر

(١)م: صلاة المسافرين، ب ٢٦، ح ١٠١، د: الصلاة، ب ١٢١، ح ٧٦٠ و ٧٦١- عن على بن أبي طالب.



لبعض الناس، فهو شر جزئي إضافي، أما الشر الكلي أو المطلق فإن الله منزه عنه، فقد يمكّن الله لملك ظالم مدة من الدهر، بخلاف المتنبئين والكذابين فإنه لا يطيل تمكينهم، بل لابد من إهلاكهم لأن فسادهم عام في الدين والدنيا، بخلاف الأول فإنه قد يدفع الله به من الشر أكثر من ظلمه، حتى قيل ستون سنة بإمام ظالم خير من ليلة واحدة بلا إمام، فضلاً عن ثواب الصبر عليه، وإثارة الهمم نحو الاستغفار والتوبة.

بطلان احتجاج القدرية بقوله تعالى:﴿ قُلْ كُلٌّ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ ﴾:

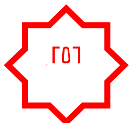
وليس للقدرية أن يحتجوا بقوله تعالى:﴿ وَمَا أَصَابَكَ مِن سَيِّئَةٍ فَمِن نَّفْسِكَ ﴾ لأنهم يقولون: إن فعل العبد، حسنة كان أو سيئة فهو منه، والقرآن قد فرق بينهما.

ولأنه تعالى قد قال:﴿ قُلْ كُلٌّ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ ﴾ فجعل كلا من الحسنات والسيئات من عند الله وهم لا يقولون بذلك في الأعمال بل في الجزاء.

وفي قوله:﴿ فَمِن نَّفْسِكَ ﴾ إشارة إلى أن العبد لا يطمئن إلى نفسه فإن الشر كامن فيها، لا يجيء إلا منها، فلا يشتغل بملام الناس إن أساءوا إليه، فإن ذلك من السيئات التي أصابته، وهي إنما أصابته بذنوبه، فيرجع عن ذنبه، ويستعيذ بالله من شر نفسه، وسيئات عمله، فيحصل له كل خير ويندفع عنه كل شر.

أهمية الدعاء بالهداية:

ولهذا كان أنفع الدعاء الفاتحة: ﴿ ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ۝ صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ ﴾ فإنه إذا هداه إلى الصراط المستقيم أعانه على طاعته وترك معصيته، فلم يصبه شر لا في الدنيا ولا في الآخرة. ولا يقال إنه قد هداه، فالمراد هو التثبيت، أو مزيد الهداية، لأن العبد يحتاج إلى الهدى في كل لحظة، وهو إلى الهدى أحوج منه إلى الطعام والشراب. فهو محتاج إلى أن يعلمه الله تفاصيل المأمورات والمنهيات. وأن يلهمه العمل بذلك، فلا يكفي مجرد العلم إن لم يجعله مريداً للعمل بما يعلمه، وإلا كان العلم حجة عليه، ولم يكن مهتدياً. وأن يجعله قادراً على العمل بتلك الإرادة الصالحة.



فالمجهول لنا من الحق أضعاف المعلوم، وما لا نريد فعله كسلاً وتهاوناً قد يبلغ مثل ما نريده أو أكثر، وما لا نقدر عليه مما نريده كذلك، وأما ما لا نعرف جملته، ولا نهتدى إلى تفاصيله فأمر يفوت الحصر. فمن كملت له هذه الأمور كان سؤاله سؤال تثبيت، وبعد ذلك كله هداية أخرى، وهي الهداية إلى طريق الجنة.

ولهذا كان الدعاء بالهداية من أعظم الأسباب المقتضية للخير، المانعة من الشر، فقد بين الله أن السيئات من النفس وإن كانت بقدر الله، وأن الحسنات كلها من الله عز وجل، فوجب الشكر على الطاعة، والاستغفار من المعصية، وأن يفرده وحده بالتوكل والاستغفار والشكر.

إفراد الله بالذكر والاستغفار والتوكل:

ولقد كان صلى الله عليه وسلم يجمع الأمور كلها في الصلاة، كما ثبت عنه في الصحيح أنه كان إذا رفع رأسه من الركوع يقول: ((ربنا لك الحمد، حمداً كثيراً طيباً مباركاً فيه، ملء السماوات، وملء الأرض، وملء ما شئت من شيء بعد، أهل الثناء والمجد، أحق ما قال العبد، وكلنا لك عبد)).[١]

فهذا حمد وشكر لله، وبيان أن حمده أحق ما قال العبد، ثم يقول بعد ذلك: ((لا مانع لما أعطيت، ولا معطي لما منعت، ولا ينفع ذا الجد منك الجد)) أي: لا ينجيه ولا يخلصه ما أصاب من ملك ورئاسة.

وهذا تحقيق لتوحيد الربوبية خلقاً وقدراً، وتوحيد الإلهية شرعاً وأمراً ونهياً، وتحقيق قوله:

﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴾.

فإنه لو قدر أن شيئاً من الأسباب يكون مستقلاً بالمطلوب، وإنما يكون بمشيئة الله وتيسيره لكان الواجب ألا يُرجى إلا الله، ولا يتوكل إلا عليه، فكيف وليس شيء من الأسباب مستقلاً بمطلوب بل لابد من انضمام أسباب أخرى إليه، ولابد أيضاً من صرف الموانع والمعارضات عنه. فالمطر وحده لا ينبت النبات إلا بما ينضم إليه من الهواء والتراب وغير ذلك، ثم الزرع لا يتم حتى تصرف عنه الآفات المفسدة له.

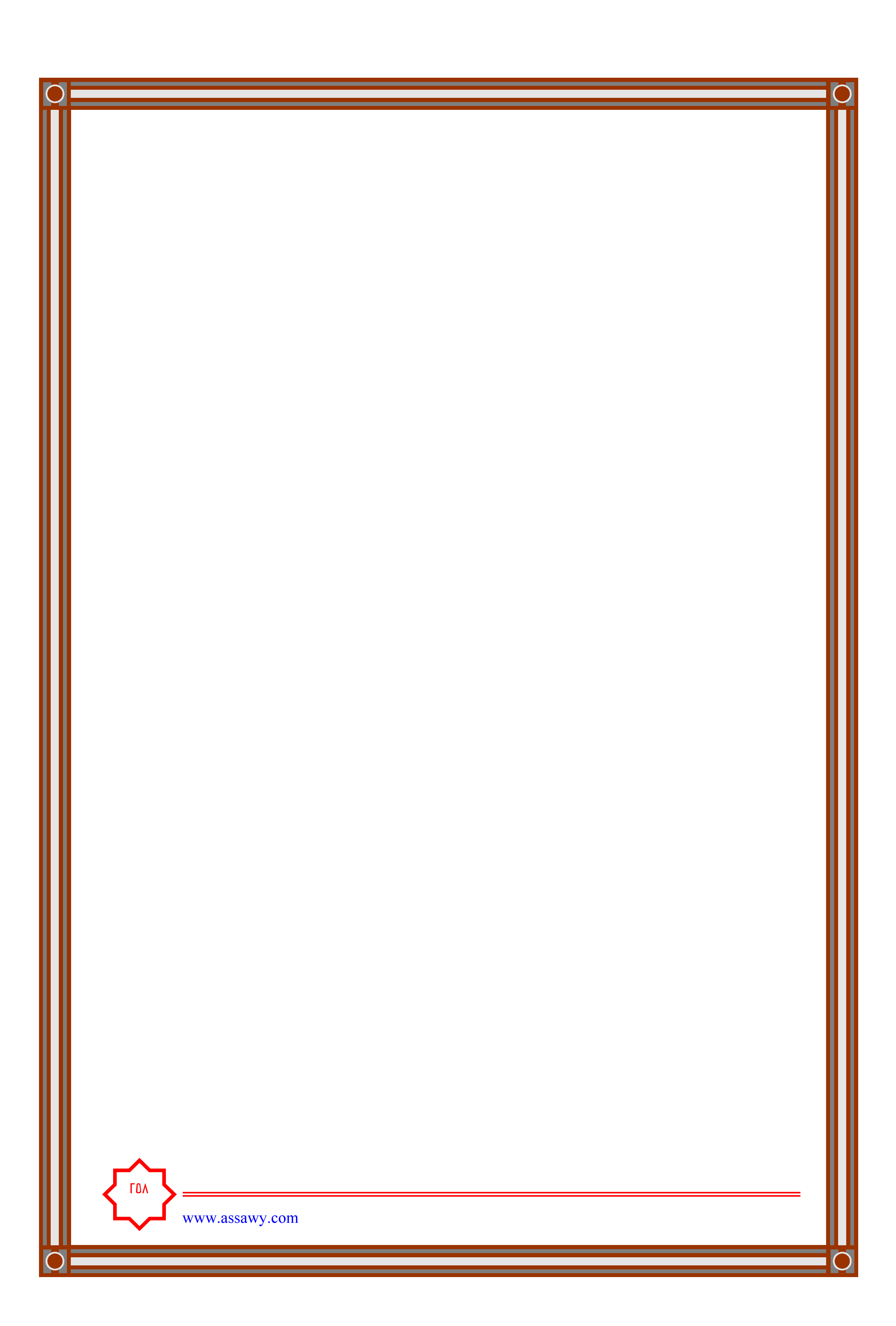
فكل سبب له شريك وضد، فإذا لم يعاونه شريكه، ولم ينصرف عنه ضده لم تحصل مشيئة، وكل سبب معين فهو جزء من المقتضى، وليس في المخلوقات علة تامة تستلزم معلولها.

وإن من عرف هذا حق المعرفة انفتح له باب توحيد الله، وعلم أنه لا يستحق أن يسأل غيره فضلاً عن أن يعبد غيره.

---

(١) صحيح مسلم باب (اعتدال أركان الصلاة وتخفيفها في تمام) وفي باب ما يقول إذا رفع رأسه من الركوع رقم (٤٧٨).





القدر نظام التوحيد

قال المصنف رحمه الله: وذلك من عقد الإيمان، وأصول المعرفة، والاعتراف بتوحيد الله تعالى وربوبيته، كما قال تعالى في كتابه: ﴿ وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَّرَهُۥ تَقۡدِيرًا ﴾ [الفرقان:٢]، وقال: ﴿ وَكَانَ أَمۡرُ ٱللَّهِ قَدَرًا مَّقۡدُورًا ﴾[الأحزاب:٣٨].

يشير الشيخ إلى ما تقدم من الإيمان بالقدر، وسبق علمه بالكائنات قبل خلقها. قال صلى الله عليه وسلم في جواب السائل عن الإيمان: ((أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر وتؤمن بالقدر خيره وشره)).

القدرية مجوس هذه الأمة:

ولا يتم التوحيد إلا بالإيمان بصفاته تعالى، فإن من زعم خالقاً غير الله فقد أشرك، فكيف بمن زعم أن كل أحد يخلق فعله؟! ولهذا كانت القدرية مجوس هذه الأمة، حيث جعلوه تعالى لم يخلق أفعال العباد، فأخرجوها عن خلقه وقدرته، والأحاديث الواردة في ذمهم كثيرة، وهي في السنن، منها:

عن ابن عمر عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: ((القدرية مجوس هذه الأمة، إن مرضوا فلا تعودوهم وإن ماتوا فلا تشهدوهم))[(١)]. وعن عمر بن الخطاب عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: ((لا تجالسوا أهل القدر ولا تفاتحوهم))[(٢)]. وعن ابن عباس قال: قال صلى الله عليه وسلم: ((صنفان من بنى آدم ليس لهم في الإسلام نصيب: المرجئة والقدرية))[(٣)].ولكن كل أحاديث القدرية المرفوعة ضعيفة، وإنما يصح الموقوف منها. كقول ابن عباس: القدر نظام التوحيد، فمن وحَّد الله وكذَّب بالقدر نقض تكذيبه توحيده، وهذا لأن الإيمان بالقدر يتضمن الإيمان بعلم الله القديم، وما أظهر من علمه الذي لا يحاط به، وكتابة مقادير الخلائق.

وقد ضل في هذا الموضع خلائق من المشركين والصابئين والفلاسفة وغيرهم ممن ينكر علمه

---

(١)د: السنة، ب ١٧، ح ٤٦٩١ و ٤٦٩٢. ك: ١/٨٥. عن عبد الله بن عمر وحذيفة- وهو حديث صحيح.
(٢) د: السنة، ب ١٧، ح ٤٧١٠ وب ١٨، ح ٤٧٢٠. ك : ١/٨٥. حم: ١/٣٠- عن عمر، وهو حديث صحيح.
(٣)ت: القدر، ب ١٣، ح ٢١٤٩، وقال: حسن غريب. ق: المقدمة، ب ٩، ح ٦٢ و ٧٣ - عن ابن عباس وغيره.

بالجزئيات أو بغير ذلك، فإن ذلك كله مما يدخل في التكذيب بالقدر. فتقدير الله لمقادير العباد هو القدر الذي لا ريب في دلالة الكتاب والسنة والإجماع عليه، والذين جحدوه هم القدرية المحضة بلا نزاع، وعامة ما يوجد من كلام الصحابة والأئمة في ذم القدرية يعني به هؤلاء. كقول ابن عمر لما قيل له: يزعمون أن لا قدر، وأن الأمر أنُف: أخبرهم أني منهم بريء، وأنهم منى براء.

ما يتضمنه الإيمان بالقدر:

والقدر الذي هو التقدير المطابق للعلم يتضمن أصولاً عظيمة:

أنه عالم تعالى بالأمور المقدرة قبل كونها، فيثبت علمه القديم، وفيه رد على من أنكر ذلك.

أن التقدير يتضمن مقادير المخلوقات، أي صفاتها المعينة المختصة بها، فإن الله جعل لكل شيء قدراً. قال تعالى: ﴿ وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَّرَهُۥ تَقْدِيرًا ﴾ [الفرقان:٢]

فالخلق يتضمن التقدير، تقدير الشيء في نفسه بأن يجعل له قدراً، وتقديره قبل وجوده، وهذا أبلغ في العلم بالأمور الجزئية المعينة خلافاً لمن قال: يعلم الكليات دون الجزئيات، فالقدر يتضمن العلم القديم، والعلم بالجزئيات.

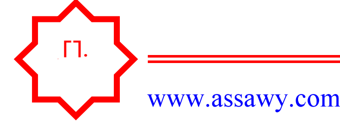
أنه يتضمن أنه تعالى أخبر بذلك وأظهره قبل وجود المخلوقات إخباراً مفصلاً، وإذا كان يُعلم عباده بذلك فكيف لا يعلمه هو.

أنه يتضمن أنه مختار لما يفعله.

أنه يدل على حدوث هذا المقدور، وأنه كان بعد إن لم يكن، فإنه يقدره ثم يخلقه.

عَلِمَ فقدَّر

قال المصنف رحمه الله تعالى: وعلى العبد أن يعلم أن الله قد سبق علمه في كل كائن من خلقه، فقدَّر ذلك تقديراً محكماً مبرماً، ليس فيه ناقض، ولا معقب ولا مزيل، ولا مغيِّر، ولا ناقص، ولا زائد من خلقه في سماواته وأرضه.



لقد سبق علم الله بالكائنات، وقدر مقاديرها قبل خلقها: قال صلى الله عليه وسلم: ((قدَّر الله مقادير الخلق قبل أن يخلق السماوات والأرض بخمسين ألف سنة، وعرشه على الماء)).[١] ولا يتصور إيجاد هذه المخلوقات على ما فيها من غرائب إلا مِن عالم سبق علمه على إيجادها.

ولقد أنكر غلاة المعتزلة أن الله كان عالماً في الأزل، وقالوا: إن الله لا يعلم أفعال العباد حتى يفعلوا!! تعالى الله عن ذلك علوا كبيراً. قال الشافعي: ناظروا القدرية بالعلم، فإن أقروا خصموا، وإن أنكروا كفروا!

فقد علم الله أن هذا مستطيع يفعل ما استطاعه فيثيبه، وهذا مستطيع لا يفعل ما استطاعه فيعذبه لأنه لا يفعل مع القدرة، ومن لا يستطيع لا يأمره ولايعذبه على ما لم يستطعه.

اعتراضات وجوابها:

فإن قيل: هل يلزم من ذلك أن يكون العبد قادراً على تغيير علم الله، لأن الله علم أنه لا يفعل فإذا قدر على الفعل قدر على تغيير علم الله؟!

فالجواب: أنه لو فعل لكان المعلوم هو وقوعه لا عدم وقوعه، لأن علم الله مطابق للواقع، فيمتنع أن يقع شيء يستلزم تغيير العلم، بل أي شيء وقع كان هو المعلوم، وهؤلاء قد فرضوا وقوعه مع العلم بعدم وقوعه وهو محال.

فإن قيل: فإذا كان وقوعه مع علم الرب عدم وقوعه محالاً لم يكن مقدوراً.

فالجواب: إن لفظ المحال مجمل، وهذا ليس محالاً لعدم استطاعته له، ولا لامتناعه في نفسه، بل هو ممكن مستطاع، ولكن إذا وقع كان الله عالماً بوقوعه، وإذا لم يقع كان عالماً بعدم وقوعه. فإذا فرض وقوعه مع انتفاء لازم الوقوع صار محالاً من جهة إثبات الملزوم بدون لازمه، وكل الأشياء بهذا الاعتبار هى محال! ويلزمهم أن لا يبقى أحد قادراً على شيء لا الرب ولا الخلق، لأن الرب إذا علم من نفسه أنه سيفعل كذا لا يلزم من ذلك انتفاء قدرته على تركه، وكذلك إذا علم أنه لا يفعله لا يلزم منه انتفاء قدرته على فعله، فكذلك ما قدر من أفعال عباده.

الموجودات وأقسامها في باب الهداية:

---

(١)م: القدر، ب ٢، ح ١٦. ت: القدر، ب ١٨، ح ٢١٥٦. حم: ٢/١٦٩ - عن عبد الله بن عمرو.

قال تعالى: ﴿ وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ ﴾ [الأعراف: ١٧٩].

وعن عائشة قالت: دعي رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى جنازة صبي من الأنصار، فقلت يا رسول الله، طوبى لهذا، عصفور من عصافير الجنة، لم يفعل سوءاً ولم يدركه، فقال: ((أو غير ذلك يا عائشة، إن الله خلق للجنة أهلاً خلقهم لها وهم في أصلاب آبائهم، وخلق للنار أهلاً خلقهم لها وهم في أصلاب آبائهم)).[1]

وقال تعالى: ﴿ إِنَّا هَدَيْنَٰهُ ٱلسَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا ﴾ [الإنسان: ٣]. والمراد الهداية العامة، وأعم منها الهداية المذكورة في قوله تعالى: ﴿ ٱلَّذِىٓ أَعْطَىٰ كُلَّ شَىْءٍ خَلْقَهُۥ ثُمَّ هَدَىٰ ﴾[طه: ٥٠].

الموجودات نوعان:

- مسخر بطبعه، وقد هداه الله لما سخر له هداية طبيعية.

- متحرك بإرادته، وقد هداه الله هداية إرادية تابعة لشعوره، وعلمه بما ينفعه ويضره

ثم قسم الأنواع إلى ثلاثة:

- نوع لا يريد إلا الخير، ولا يتأتى منه إرادة سواه كالملائكة.
- نوع لا يريد إلا الشر ولا يتأتى منه إرادة سواه كالشيطان.
- ونوع يتأتى منه إرادة القسمين كالإنسان، وقسمه إلى ثلاثة أصناف:
  - صنف يغلب إيمانه وعقله هواه وشهوته، فيلتحق بالملائكة.
  - وصنف عكسه فيلتحق بالشياطين.
  - وصنف تغلب شهوته البهيمية عقله، فيلتحق بالبهائم.

فكما أنه لا موجود إلا بإيجاده، فلا هداية إلا بتعليمه.

عطاؤه فضل، وعقابه عدل:

(١) م: القدر، ب٦، ج٣٠، ٣١. د: السنة، ب١٨، ح٤٧١٣. س: الجنائز، ب ٥٨، ح ١٩٤٩ – عن عائشة.

يجب أن يعلم أن الله لا يمنع الثواب إلا إذا منع سببه وهو العمل الصالح. قال تعالى: ﴿ وَمَن يَعْمَلْ مِنَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَا يَخَافُ ظُلْمًا وَلَا هَضْمًا ﴾ [طه:١١٢]. كذلك لا يعاقب أحداً إلا بعد حصول سبب العقاب. قال تعالى: ﴿ وَمَآ أَصَٰبَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُواْ عَن كَثِيرٍ ﴾ [الشورى:٣٠].

ولا ريب أنه يهدي من يشاء، ويضل من يشاء، فمنعه الأسباب التي هى الأعمال من حكمته وعدله، فكل عطاء منه فضل، وكل عقوبة منه عدل، وهو المحمود على كل حال فإنه حكيم يضع الأشياء في مواضعها التي تصلح لها. قال تعالى: ﴿ وَكَذَٰلِكَ فَتَنَّا بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لِّيَقُولُوٓاْ أَهَٰٓؤُلَآءِ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنۢ بَيْنِنَآ ۗ أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِأَعْلَمَ بِٱلشَّٰكِرِينَ ﴾ [الأنعام: ٥٣].

المبحث الثالث:عموم القدر والمشيئة

قال المصنف رحمه الله تعالى: وكل شيء يجري بتقديره، ومشيئته تنفذ لا مشيئة العباد، إلا ما شاء لهم، فما شاء لهم كان، وما لم يشأ لم يكن.

وقال: والخير والشر مقدران على العباد.

وقال: وكل شيء يجري بمشيئته، وعلمه، وقضائه، وقدره.

قال تعالى: ﴿ وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ [التكوير: ٢٩]. **وقال تعالى:** ﴿ مَن يَشَإِ ٱللَّهُ يُضْلِلْهُ وَمَن يَشَأْ يَجْعَلْهُ عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾ [الأنعام: ٣٩].

فما شاء الله كان، وما لم يشأ لم يكن، ولا يكون في ملكه إلا ما يشاء.

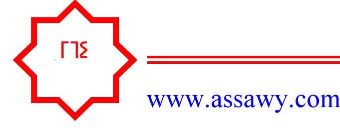
ولا أضل ممن زعم أن الله شاء الإيمان من الكافر، والكافر شاء الكفر، فغلبت مشيئة الكافر مشيئة الله.

فإن قيل: يشكل على هذا قوله تعالى: ﴿ سَيَقُولُ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوا۟ لَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَآ أَشْرَكْنَا وَلَآ ءَابَآؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِن شَيْءٍ ﴾ [الأنعام: ١٤٨]، **وقوله:** ﴿ وَقَالُوا۟ لَوْ شَآءَ ٱلرَّحْمَٰنُ مَا عَبَدْنَٰهُم ۗ مَّا لَهُم بِذَٰلِكَ مِنْ عِلْمٍ ۖ إِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ ﴾ [الزخرف:٢٠]. **فقد ذمهم حيث جعلوا الشرك كائناً منهم بمشيئة الله!**

فقد أجيب عن ذلك بأجوبة من أحسنها: أن الله أنكر عليهم ذاك لأنهم احتجوا بمشيئته على رضاه ومحبته، وقالوا لو كره ذلك وسخطه لما شاءه. أو أنه أنكر عليهم اعتقادهم أن مشيئة الله دليل على أمره به. أو لأنهم عارضوا شرعه وأمره بقضائه وقدره.

احتجاج آدم على موسى بالقدر:

أما احتجاج آدم على موسى بالقدر فهو ليس احتجاجاً بالقدر على الذنب، وإنما احتجاج به على المصيبة. فلم يحتج آدم بالقدر على الذنب، وهو كان أعلم بربه وبذنبه. ولم يلم موسى آدم على ذنب



قد تاب منه، وتاب الله عليه.

وإنما وقع اللوم على المصيبة التي أخرجت أولاده من الجنة، فاحتج آدم بالقدر على المصيبة لا على الخطيئة، فإن القدر إنما يحتج به عند المصائب لا عند المعائب.

ذم إبليس على الاحتجاج بالقدر:

أما قول إبليس: ﴿ رَبِّ بِمَآ أَغۡوَيۡتَنِي لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَأُغۡوِيَنَّهُمۡ أَجۡمَعِينَ ﴾ [الحجر: ٣٩]. فإنما ذم على احتجاجه بالقدر، لا على اعترافه بالمقدَّر، وإثباته له. ألم يقل نوح عليه السلام: ﴿ وَلَا يَنفَعُكُمۡ نُصۡحِيٓ إِنۡ أَرَدتُّ أَنۡ أَنصَحَ لَكُمۡ إِن كَانَ ٱللَّهُ يُرِيدُ أَن يُغۡوِيَكُمۡۚ هُوَ رَبُّكُمۡ وَإِلَيۡهِ تُرۡجَعُونَ ﴾ [هود: ٣٤].

وقول المصنف رحمه الله تعالى: (وكل شيء يجري بمشيئته وعلمه وقضائه وقدره) يريد بقضائه، القضاء الكوني لا الشرعي، فإن كلاً من القَضاء، والإرادة، والأمر، وَالإذن، وَالْكِتاب، والحكم، والتحريم، والكلمات، ونحو ذلك قد يكون كونيا، وقد يكون شَرعياً.

- أما القضاء الكوني ففي مثل قوله تعالى: ﴿ فَقَضَىٰهُنَّ سَبۡعَ سَمَٰوَاتٖ فِي يَوۡمَيۡنِ ﴾[فصلت: ١٢].

والقضاء الديني الشرعي ففي مثل قوله تعالى: ﴿ وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعۡبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُ ﴾ [الإسراء: ٢٣].

- أما الإرادة الكونية ففي مثل قوله تعالى: ﴿ فَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يَهۡدِيَهُۥ يَشۡرَحۡ صَدۡرَهُۥ لِلۡإِسۡلَٰمِۖ وَمَن يُرِدۡ أَن يُضِلَّهُۥ يَجۡعَلۡ صَدۡرَهُۥ ضَيِّقًا حَرَجًا ﴾ [الأنعام: ١٢٥]. والإرادة الشرعية في مثل قوله تعالى: ﴿ مَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيَجۡعَلَ عَلَيۡكُم مِّنۡ حَرَجٖ وَلَٰكِن يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمۡ ﴾ [المائدة: ٦].

- أمّا الأمر الكوني ففي مثل قوله تعالى: ﴿ وَإِذَآ أَرَدۡنَآ أَن نُّهۡلِكَ قَرۡيَةً أَمَرۡنَا مُتۡرَفِيهَا فَفَسَقُواْ فِيهَا فَحَقَّ عَلَيۡهَا ٱلۡقَوۡلُ فَدَمَّرۡنَٰهَا تَدۡمِيرٗا ﴾ [الإسراء: ١٦] .والأمر الشرعي في مثل قوله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يَأۡمُرُ بِٱلۡعَدۡلِ وَٱلۡإِحۡسَٰنِ ﴾ [النحل:٩٠].

- أما الإذن الكوني ففي مثل قوله تعالى:﴿ وَمَا هُم بِضَآرِّينَ بِهِۦ مِنۡ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذۡنِ ٱللَّهِ ﴾ [البقرة ١٠٢].

وَالإذن الشرعي في مثل قوله تعالى: ﴿ مَا قَطَعۡتُم مِّن لِّينَةٍ أَوۡ تَرَكۡتُمُوهَا قَآئِمَةً عَلَىٰٓ أُصُولِهَا فَبِإِذۡنِ ٱللَّهِ وَلِيُخۡزِيَ ٱلۡفَٰسِقِينَ ﴾ [الحشر:٥].

- أمَّا الكِتَاب الكوني ففي قوله تعالى: ﴿ وَمَا يُعَمَّرُ مِن مُّعَمَّرٍ وَلَا يُنقَصُ مِنْ عُمُرِهِۦٓ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ ﴾[فاطر: ١١].والكتاب الشرعي في مثل قوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلصِّيَامُ ﴾ [البقرة: ١٨٣].

- أما الحكم الكوني فمثل قوله تعالى: ﴿ قَٰلَ رَبِّ ٱحْكُم بِٱلْحَقِّ ﴾ [الأنبياء: ١١٢] والحكم الشرعي في مثل قوله تعالى: ﴿ ذَٰلِكُمْ حُكْمُ ٱللَّهِ ۖ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ ﴾[الممتحنة:١٠].

أما التحريم الكوني ففي مثل قوله تعالى: ﴿ فَإِنَّهَا مُحَرَّمَةٌ عَلَيْهِمْ ۛ أَرْبَعِينَ سَنَةً ۛ يَتِيهُونَ فِى ٱلْأَرْضِ ﴾ [المائدة: ٢٦]. والتحريم الشرعي مثل قوله تعالى: ﴿ حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ ٱلْمَيْتَةُ وَٱلدَّمُ وَلَحْمُ ٱلْخِنزِيرِ ﴾ [المائدة: ٣].

أما الْكَلِمَات الكونية ففي مثل قوله تعالى: ﴿ وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ ٱلْحُسْنَىٰ عَلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴾ [الأعراف: ١٣٧]. والْكَلِمَات الشرعية في مثل قوله تعالى: ﴿ وَإِذِ ٱبْتَلَىٰٓ إِبْرَٰهِۦمَ رَبُّهُۥ بِكَلِمَٰتٍ فَأَتَمَّهُنَّ ﴾ [البقرة١٢٤].

عموم الإرادة:

قال المصنف رحمه الله تعالى: ولا يكون إلا ما يريد.

اختلف النّاس في عموم إرادته تعالى:

فقال أهل السنة بعموم إرادته تعالى لجميع ما خلق، لكنهم قسموا الإرادة إلى قسمين:

إرادة كونية قدرية: وهى المشيئة الشاملة لجميع الحوادث ومنها ما يحبه الله، ومنها ما لا يحبه، وهي المذكورة في قول المسلمين ما شاء الله كان وما لم يشأ لم يكن. قال تعالى: ﴿ فَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يَهۡدِيَهُۥ يَشۡرَحۡ صَدۡرَهُۥ لِلۡإِسۡلَٰمِۖ وَمَن يُرِدۡ أَن يُضِلَّهُۥ يَجۡعَلۡ صَدۡرَهُۥ ضَيِّقًا حَرَجٗا..﴾ [الأنعام: ١٢٥]. **وقال تعالى:**

﴿ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَفۡعَلُ مَا يُرِيدُ ﴾ [البقرة:٢٥٣].

إرادة شرعية دينية[١]: وهى المتضمنة للمحبة والرضا، وهى التي تستلزم أمر الله ونهيه، ومن أمثلتها: قوله تعالى:﴿ يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُبَيِّنَ لَكُمۡ وَيَهۡدِيَكُمۡ سُنَنَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكُمۡ ﴾ [النساء: ٢٦]. **وقوله تعالى:**﴿ وَٱللَّهُ يُرِيدُ أَن يَتُوبَ عَلَيۡكُمۡ ﴾ [النساء: ٢٧].

وقوله تعالى: ﴿ مَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيَجۡعَلَ عَلَيۡكُم مِّنۡ حَرَجٖ ﴾ [المائدة: ٦]. **فالمعاصي وإن كان الله يريدها قدَرًا، لكنه لا يحبها، ولا يرضاها، ولا يأمر بها، فهي داخلة في الأولى دون الثانية.**

ولا شك أن الفرق ثابت بين إرادة المريد أن يفعل، وبين إرادته من غير أن يفعل. فالأولى متعلقة بفعله هو، والثانية متعلقة بفعل الغير. وقالت القدرية والمعتزلة: إن الله أراد الإيمان من الناس كلهم، ولكن الكافر أراد الكفر، ولم يفرقوا بين نوعي الإرادة كما فعل أهل السنة، ولم يتصوروا إمكانية أن يأمر الله بأمر وهو يريد خلافه. ولا شك أن قولهم فاسد مردود لمخالفته للكتاب والسنة والمعقول الصحيح.

---

(١) هذا النوع من الإرادة قضت حكمة الله تعالى أن يتخلف أحياناً بعلمه وإذنه. فالله تعالى يريد لعباده الإيمان والهدى والطاعة شرعاً، ولكنه جعلهم مختارين في ذلك، فقد قال تعالى: ﴿فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر﴾، إلا أن خيرتهم لا تقع إلا بإذن الله وعلمه وإرادته، وليس جبراً عنه تعالى كما تقول المعتزلة والقدرية. والعباد محاسبون على أعمالهم واختيارهم، سواء من اختار الخير والإيمان فهذ ما يحبه الله ويرضاه، أو اختار الشر والكفر فيكون قد اختار ما يبغض الله ويسخطه.



هل أمر الله يستلزم إرادته؟

أجَابَ أهل السنة على ذلك بأن جهة خلقه غير جهة أمره تعالى، فقد يأمر الله بالشيء ولا يخلقه لأنه قد يكون في وجوده مفسدة من حيث كونه خلقاً لله تعالى،كما أمر فرعون وأبا لهب بالإيمَانِ ولم يعنهم عليه، ولم يخلقه لهم لما في خلق ذلك من المفاسد من حيث كونه فِعْلاً له تعالى، وهو إنما يخلق ما يخلق لحكمة.

وإذا كان يمكن في حق المخلوق الحكيم أن يأمر غيره بأمر ولا يعينه عليه، فإن إِمْكَانِيَّة ذلك بالنسبة للخالق من بَاب أولى. ونازعت في ذلك القدرية، فقَالُوا: إن من يَأمر غيره بأمره فلا بد أن يفعل ما يكون المأمور معه أقرب إلى فعله.

والجواب :أن ذلك صحيح إذا كان في الأمر مصلحة تعود إلى نفس الآمر، كما إذا أمر الملك جنوده بما يصلح ملكه، أما إذا كانت المصلحة في الأمر تعود إلى المأمور فإنه لا يستلزم ذلك. وذلك كمثل الرجل الذي جاء من أقصى المدينة يسعى ليأمر موسى بالخروج نصحاً له، فقد كانت مصلحته في أن يأمر موسى بالْخُرُوجِ، لا في أن يعينه على ذلك، إذ لو أعَانَهُ لضره قومه، ومثل هذا كثير.

المبحث الرابع:تفصيل القول في أفعال العباد

قال المصنف رحمه الله تعالى: وأفعال العباد هي خلق الله، وكسب من العباد.

اختلف النَّاس في أفْعَال الْعِبَاد الاخْتِيَارِيَّة:

فزعمت الجبرية وعلى رأسهم الجهم بن صفوان أن التدبير في أفْعَال الخلق كُلّهَا لله، وهى كلها اضطرارية كحركات المرتعش، والعروق النَّابِضَة، وحركات الأشجار، وإضافتها إلى الخلق مجاز.

وقابلتهم المعتزلة فقالوا: إن الأفْعَال الاختيارية من جميع الحَيَوَانَات بخَلْقِهَا لا تعلق لها بخلق الله، واختلفوا فيما بينهم هل يقدر الله على أفْعَال العِبَاد أم لا؟

وهدى الله أهل السنة لِمَا اختلفوا فيه من الحق بإذنه، فقالوا بعموم خلقه تعالى لكل شيء وأفْعَال العِبَاد من جملة مَخْلُوقَاته، وعموم قدرته ومشيئته لجميع ما في الكون من الأعْيَان وَالأفْعَال، وأن العباد (فَاعِلُونَ) لأفْعَالِهِمْ حقيقة، فبها صَارُوا مطيعين وَعُصَاة، وَعلَيْهَا يستوجبون المدح والذم. فكل دليل يسوقه الجبرى فإنما يدل على أن الله خالق كل شئ، وأن أفْعَال العِبَاد من جملة مَخْلُوقَاته، ولا يدل على أن العبد ليس بفاعل في الحقيقة ولا مختاراً.

وكل دليل يسوقه القدري فإنه يدل على أن العبد فاعل لفعله حقيقة، وأن إضافته إليه إضافة حق، ولا يدل على أنه غير مقدور لله، أو أنه واقع بغير مشيئته وقدرته. فتتكافأ أدلة الفريقين وتتساقط، ولا يُستفاد من أدلة كل فريق إلا بطلان قول الفريق الآخر وإذا ضممنا ما مع كل فريق من الحق إلى ما مع الآخر منه إستقامَ لنا مذهب أهل السنة الذي أثبتناه آنفًا.

- **أدلة الجبرية:**

كان مِمَّا استدلت به الجبرية على دعواهم ما يأتي: قوله تعالى: ﴿ وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ رَمَىٰ ﴾ [الأنفال ١٧]. **فنفى عن نبيه الرمي، وأثبته لنفسه عز وجل، فدل على أنه لا صنع للعبد. وأن**

الجزاء غير مترتب على الأعمَال بدليل: قوله صلى الله عليه وسلم: ((لن يدخل أحد الجنة بعمله، قالوا: ولا أنت يا رسول الله؟ قالَ: ولا أنا، إلا أن يتغمدني الله برحمة منه وفضل)).[1]

مُناقشة أدلة الجبرية:

نوقش استدلال الجبرية بالآية الكريمة على ما ذهبوا إليه من الجبر بأن الآية تشهد عليهم لا لهم فإنه تعالى أثبت لنبيه رمياً بقوله:﴿ إِذۡ رَمَيۡتَ ﴾ فعلم أن المثبت غير المنفي، وذلك لأن الرمي له ابتداء وهو الحذف وله اِنْتِهَاء وهو الإصابة، وكل منهما رمي، فيكون المعنى- والله أعلم- وما أصبت إذ حذفت ولكن الله أصَابَ.

وإلا فطرد قولهم: وَمَا صليت إذ صليت، وما صمت إذ صمت، وما زنيت إذ زنيت وما سرقت إذ سرقت، وفساد هذا ظاهر.

ونوقش الدليل الثاني: بأن البَاء التي في النفي غير البَاء التي في الإثبَات.

فالنَّفْي في قوله: ((لن يدخل أحد الجنة بعمله)) بَاء العوض، وهو أن يكون العمل كالثمن لدخول الجنة كما زعمت المعتزلة أن العَامِل يستحق دخول الجنة على ربه بعمله! بل ذلك برحمة الله وفضله.

والمثبت في قوله تعالى: ﴿ جَزَآءَۢ بِمَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ﴾ باء السبب، أي بسبب عملكم والله عز وجل خالق الأسْبَاب وَالْمُسَبِّبَات، فرجع الكل إلى محض فضل الله ورحمته.

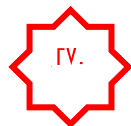
- أدلة المعتزلة:

كان مِمَّا استدل به المعتزلة على دعواهم ما يأتي: قوله تعالى: ﴿ فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحۡسَنُ ٱلۡخَٰلِقِينَ ﴾ [المؤمنون: ١٤]. وأن الجزاء مرتب على الأعمَال ترتب العوض: قال تعالى: ﴿جَزَآءَۢ بِمَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ﴾ [السَّجدة: ١٧]. وَقَالَ تعالى: ﴿ وَتِلۡكَ ٱلۡجَنَّةُ ٱلَّتِيٓ أُورِثۡتُمُوهَا بِمَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ ﴾ [الزخرف: ٧٢].

مناقشة أدلة المعتزلة:

نوقش الدليل الأول بأن المراد بالخلق في هذه الآية هو التقدير، بدليل قوله تعالى: ﴿ ٱللَّهُ خَٰلِقُ

(١) صحيح البخاري، باب نهي تمني المريض الموت رقم (٥٣٤٩).



كُلِّ شَيۡءٖ ﴾ [الزمر: ٦٢]. أي خالق كل شيء مخلوق، وقد دخلت أفعال العباد كُلّهَا في هذا العموم.

وإن تعجب فعجب أن يدخل المعتزلة في هذا العموم كلام الله وهو صفة من صفاته يستحيل عليه أن يكون مخلوقاً، وأن يخرجوا من هذا العموم أفعال العباد التي هى مخلوقة له وداخلة في هذا العموم حتمًا .كما قال تعالى: ﴿ وَٱللَّهُ خَلَقَكُمۡ وَمَا تَعۡمَلُونَ ﴾ [الصافات: ٩٦].

ولا نقول أن (ما) مصدرية: أي خلقكم وعملكم، إذ سياق الآية يأباهُ، لأن إبراهيم إنما أنكر عليهم عبادة المنحوت لا النحت، ولو لم يكن النحت مخلوقاً لله تعالى لم يكن المنحوت مخلوقاً له بل الخشب والحجر لا غير. ولا منافاة بين كون العبد محدثاً لفعله، وكون هذا الإحداث وجب وجوده بمشيئة الله تعالى. قال تعالى: ﴿ وَنَفۡسٖ وَمَا سَوَّىٰهَا ۝٧ فَأَلۡهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقۡوَىٰهَا ﴾ [الشمس: ٧، ٨]. فقوله: ﴿فَأَلۡهَمَهَا﴾ إثبَات للقدر، وقوله: ﴿فُجُورَهَا وَتَقۡوَىٰهَا﴾ إثبَات لفعل العبد بإضافة الفجور والتقوى إلى نفسه، ليعلم أنها هي الفَاجِرَة وهي المتقية.

أما الدليل الثاني من أدلة المعتزلة فقد أجيب عنه ضمن مناقشة الدليل الثاني من أدلة الجبرية.

شبهات وجوابها:

فإن قيل: كيف يعذب الله المكلفين على ذنوبهم، وهو خَلَقَهَا فيهم؟ فأين العدل في تعذيبهم على ما هو خالقه وفاعله فيهم؟!.

قلنا: هذا سؤال لم يزل مَطۡرُوقًا في العالم على ألسنة الناس، وعنه تفرقت بهم الطرق.

والجواب الصحيح أن يُقَال: إن مَا يبتلى به العبد من الذنوب وإن كانت خلقاً لله تعالى، فهي عقوبة له على ذنوب قبلها فالذنب يكسب الذنب، ومن عِقَاب السيئة السيئة بعدها، فالذُنُوب كالأمراض يورث بعضها بَعۡضًا!!

فإن قيل: فمَاذَا عن الذنب الأول الجَالِب لما بعده من الذنوب؟

قلنا: هو عقوبة على عدم فعل ما خلق لأجله وفطر عليه، وهو عِبَادَة الله وحده، ومحبته وتأليهه والإنابة إليه. قال تعالى: ﴿ فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا ﴾[الروم:30]

فلما لم يفعل ذلك عوقب بأن زين له الشَّيْطَان مَا يفعله من الشرك وَالْمَعَاصِي، فيكون جعله مُذْنِبًا في هذه الحَالَة عقوبة له على عدم خلوص قلبه من تأليه ما سوى الله ومحبته وإرادته.

فإن قيل: فهذا العدم مَن خلقه فيه؟

قلنا: سؤال فاسد، فإن عدم الفعل ليس أمرًا وجوديا حتى يُضَاف إلى الفاعل، بل هو شر محض، والشر ليس إليه عز وجل: ((والشر ليس إليك)).

فإن قيل: إن كان هذا الترك أمرًا وُجودِيًا عَادَ السؤال جذعاً، وإن كان أمراً عدميا فكيف يعاقب على العدم المحض؟

قلنا: إن العدم هُنَا هو محض خُلُوّهَا مِمَّا هو أنفع شيء لها، والعقوبة عليه هي بفعل السَّيِّئَات، لا بِالْعُقُوبَةِ التي تنالها بعد إِقَامَة الحجة بالرُسُلِ. فلله فيه عُقُوبَتَانِ:

(١) جعله مُذْنِبًا خاطِئًا، وهذه عقوبة عدم إخلاصه لله، وهذه قد لا يحس بألمها ومضرَّتها لِمُوَافَقَتِهَا لشهواته، وهي في الحقيقة من أعظم العُقُوبَات.

(٢) العُقُوبَات المؤلمة بعد فعل السَّيِّئَات.

وقد فرق الله بَيْنهمَا في قوله: ﴿ فَلَمَّا نَسُواْ مَا ذُكِّرُواْ بِهِۦ فَتَحۡنَا عَلَيۡهِمۡ أَبۡوَٰبَ كُلِّ شَىۡءٍ ﴾ [الأنعام ٤٤]. فهذه هي العقوبة الأولى. ثم قال﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا فَرِحُواْ بِمَآ أُوتُوٓاْ أَخَذۡنَٰهُم بَغۡتَةً فَإِذَا هُم مُّبۡلِسُونَ ﴾ [الأنعام ٤٤]. فهذه هي العقوبة الثانِيَة.

فإن قيل: فهل كان يمكنهم أن يأتوا بالإخلاص من غير أن يخلق ذلك في قلوبهم؟ قيل: لا، بل هو محض منته وفضله.

فإن قيل: فإذا لم يخلقه في قلوب البعض، ولم يوفقوا إليه ولا سبيل لهم إليه بأنفسهم! عاد السؤال كما كان، وكان منعهم منه ظُلْمًا، ولزمكم القول بأن العدل هو تصرف المالك في ملكه بما يشاء.

قيل: لا يكون بمنعهم من ذلك ظَالِمًا، فالظَّالِم هو من يمنع غيره حقا وجب لذلك الغير عليه وهذا

هو الذي حرمه الرب على نفسه، أما إذا منع غيره ما ليس بحق له لم يكن ظَالِمًا بمنعه، فمنع الحق ظلم ومنع الفضل عدل، وهو سبحانه العدل في منعه، المحسن المَنَّان بعطَائِهِ.

فإن قيل: لمَ يتفضل على هذا ولمْ يتفضل على الآخر؟

قيل: قد تولى الله الجواب: قال تعالى: ﴿ ذَٰلِكَ فَضْلُ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ ﴾ [الجمعة: ٤]. ولما سأل اليهود وَالنَّصَارَى عن تخصيص هذه الأمة بأجرين، وإعطائهم أجرهم قَالَ: (هل ظلمتكم من حقكم شَيْئًا؟ قالوا: لا، قال: فذلك فضلي أوتيه من أشاء).[1]

وعندما استشكل المشركون هذا التخصيص، قالوا: ﴿ أَهَٰٓؤُلَآءِ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنۢ بَيْنِنَآ ﴾. قال تعالى: ﴿ أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِأَعْلَمَ بِٱلشَّٰكِرِينَ ﴾[الأنعام: ٥٣]. فالله أعلم بالمحل الذي يصلح لغرس شجرة النعمة فتثمر الشكر من المحل الذي لو غرست فيه لم تثمر فكان غرسها في الثاني ضَائِعًا لا يليق بالحكمة. وليس من الحكمة اطلاع كل فرد من الناس على كمال حكمته في عطائه ومنعه، بل إذا كشف لعبد عن جزء يسير من حكمته استدل بما علمه على ما لم يعلمه.

فإن قيل: فإذا تم باستحالة الإيجاد من العبد فإذاً لا فعل له أصلاً.

قيل: بل هو فاعل لفعله حقيقة كما قال تعالى: ﴿ وَمَا تَفْعَلُواْ مِنْ خَيْرٍ يَعْلَمْهُ ٱللَّهُ ﴾ [البقرة: ١٩٧].

وأفعاله نوعان:

- اضطرارية كحركات المرتعش، وهذه تكون صفة له ولا تكون فِعْلاً.

- اختيارية، فتوصف بكونها صفة وفعلا كَسْبًا للعبد. والله تعالى هو الذي جعل العبد فاعلاً مُخْتَارًا، ولهذا أنكر السلف الجبر، لأنه لا يكون إلا من عَاجز، والله لا يوصف بالجبر بهذا الاعتبار، لأنه سُبْحَانه خَالِق الإرادة، والمراد قَادِر على أن يجعله مُخْتَارًا بخلاف غيره، ولهذا جاء في لفظ الشَّارِع: الجبل دون الجبر: قال صلى الله عليه وسلم لأشج عبد القيس: ((إن فيك لخلقين يحبهما الله الحلم، والأناة)). فقَالَ أخلقين تخلقت بهما؟ أم خلقين جبلت عليهما؟ فقَالَ: ((بل خلقان جبلت عليهما)) فقَالَ: الحمد لله الذي جبلني على خُلُقين يحبهما الله تعالى. والله تعالى إنما يعذب العبد على فعله الاختِيَارِيّ، والفرق بين العِقَاب على الفعل الاخْتِيَارِيّ وغير الاخْتِيَارِيّ مستقر في الفطر والعقول.

---

(١) مسند أحمد من حديث ابن عمر



فإن قيل: خلق الفعل مع العقوبة عليه ظلم؟!

قيل: هذا بمنزلة أن يُقَال: خلق أكل السم ثم حصول الموت به ظلم، فكما أن هذا سبب الموت فهذا سبب العقوبة.[1]

فَالْحَاصِل: أن فعل العبد فعل له حقيقة، ولكنه مخلوق لله تعالى، ومفعول لله، ليس هو نفس فعل الله، ففرق بين الفعل والمفعول، والخلق والمخلوق.

وإلى هذا المعنى أشار الشيخ بقوله: (وأفعال العباد هي خلق الله وكسب من العباد)، أثبت لِلْعِبَادِ فِعلا وَ كَسْبًا، وَأَضَافَ الخلق إلى الله. وَالْكَسْب هو الفعل الذي يعود على فاعله منه نفع أو ضرر. قال تعالى:

﴿ لَهَا مَا كَسَبَتۡ وَعَلَيۡهَا مَا ٱكۡتَسَبَتۡ ﴾ [البقرة ٢٨٦].

---

(١) القارئ المؤمن غني عن ذكر هذه التساؤلات والشبهات، ولكن لما كان أعداء الإيمان ومن فى قلوبهم مرض وزيغ يتعرضون لأهل الإيمان بهذه الأسئلة، رأينا إثباتها، وإثبات الجواب عنها .

المبحث الخامس:الإيمان باللوح والقلم

قال المصنف رحمه الله تعالى: ونؤمن باللوح والقلم، وبجميع ما فيه قد رقم.

وقال: وما أخطأ العبد لم يكن ليصيبه، وما أصابه لم يكن ليخطئه.

قال تعالى: ﴿ بَلْ هُوَ قُرْءَانٌ مَّجِيدٌ ﴿٢١﴾ فِي لَوْحٍ مَّحْفُوظٍ ﴾ [البروج: ٢١، ٢٢]. وقالَ تعالى: ﴿ نٓ وَٱلْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ ﴾ [القلم: ١].

وقالَ صلى الله عليه وسلم: ((إن الله خلق لَوْحًا مَحْفُوظًا من درة بيضاء، دفتاه ياقوتة حمراء قلمه نور، وعرضه ما بين السماء والأرض، ينظر فيه كل يوم ستين وثلاثمائة نظرة، يخلق بكل نظرة ويحيي ويميت ويعز ويذل ويفعل ما يشاء))[١]

وهذا اللوح هو الذي كتب الله فيه مقادير الخَلَائِق، والقلم المذكور هو الذي خلقه الله كتب به في اللوح المقادير. عن عبادة بن الصامت قالَ: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: ((إن أول ما خلق الله القلم فقال له: اكتب، قال: يارب، وَمَاذَا أكتب؟ قال: اكتب مقادير كل شيء حتى تقوم الساعة))[٢].

الخلاف في أول المخلوقات:

اختلف في أول المخلوقات: أهو العرش أم القلم؟ على وجهين: أصحهما أنه العرش، لما ثبت في الصحيح عن عبد الله بن عمرو قالَ: قال صلى الله عليه وسلم: ((كتب الله مقادير الخَلَائِق قبل أن يخلق السماوات والأرض بخمسين ألف سنة، قال: وعرشه على الماء)).[٣] فهذا صَرِيح بأن التقدير وقع بعد خلق العرش، والتقدير عند أول خلق القلم، لحديث عبادة السابق: ((أول ما خلق الله القلم..)) الحديث، وهو لا يخلو إما أن يكون جملة أو جملتين.

فإن كان جملة- وهو الصحيح- صار مَعْنَاهُ أنه عند أول خلقه، قال له: اكتب، كما في الرواية الواردة

---

(١)طب ١٢/٧٢، ح ١٢٥١١- عن ابن عباس، وهو حديث ضَعيف.

(٢)د السنة، ب ١٧، ح ٤٧٠٠. ت القدر، ب ١٧، ح ١٥٥، ١٧٨- عن عبادة بن الصامت وعبد الله بن عباس.

(٣) صحيح مسلم كتاب البر والصلة والآداب باب حجاج آدم وموسى عليهما السلام (٢٦٥٣).

بنصب ((أول)) و ((القلم)).

وإن كان جملتين-كما في الرواية الواردة برفع ((أول)) و((القلم)) فيتعين حمله على أول المَخلوقات من هذا العالَم.

وهكذا يتفق الحَديثانِ: فالعرش سابق على التقدير، والتقدير مُقَارن لخلق القلم.

وهذا القلم هو أول الأقلام وأجلها، وهو الذي أقسم الله به في قوله:﴿ نٓۚ وَٱلۡقَلَمِ وَمَا يَسۡطُرُونَ ﴾

[القلم: ١] .

أما القلم الثاني: فهو قلم الوحي، وهو الذي يكتب به الوحي إلى الأنبياء والرسل.

كتابة المقادير

قال المصنف رحمة الله: فلو اجتمع الخلق كلهم على شيء كتبه الله تعالى أنه كائن ليجعلوه غير كائن، لم يقدروا عليه، ولو اجتمعوا كلهم على شيء لم يكتبه الله تعالى ليجعلوه كائناً لم يقدروا عليه، جف القلم بما هو كائن إلى يوم القيامة.

روي عن جابر أنه قال: جَاءَ سراقة بن مالك بن جعشم، فَقَالَ: يا رسول الله بين لنا دِيننا كأنا خلقنا الآن، ففيم العمل اليوم؟ أفيما جفت به الأقلام وجرت به المقادير؟ أم فيما استقبل؟ قَالَ: ((لا، بل فيما جفت به الأقلام وجرت به المقادير)).[١]

وفي حديث ابن عباس من رواية الترمذي: ((... واعلم أن الأمة لو اجتمعت على أن ينفعوك بشيء لم ينفعوك إلا بشيء قد كتبه الله لك، ولو اجتمعوا على أن يضروك بشيء لم يضروك إلا بشيء قد كَتَبَه الله عليك، رفعت الأقلام وجفت الصحف)).[٢]

وفي رواية غير الترمذي: ((.. واعلم أن ما أخطأك لم يكن ليصيبك، وما أصابك لم يكن ليخطئك.)) الحديث.

---

(١)م: القدر، ب ١، ح ٨. ق: المقدمة، ب ١٠، ح ٩١. حم: ٣/٢٩٢ و ٢٩٣- عن جَابِر بن عبد الله.

(٢)ت: القيامة: ب ٥٩، ح ٢٥١٦. وقال: حسن. الآجرى في الشريعة: ص ١٩٨. عن ابن عباس.

الأقلام أربعة:

وقد جاءت الأقلام في هذه الأحاديث مجموعة، فدل ذلك على أنْ للمقادير أقلاماً غير القلم الأول، والذي تدل عليه السنة أنها أربعة:

القلم الأول: العام الشامل لجميع المَخْلُوقات، وهو الذي تقدم ذكره في اللوح؛ حين خلق آدم وهو قلم عَام لكل بني آدم، فقد قدر الله مقادير بني آدم عقيب خلق آدم. حين يرسل الملك إلى الجنين في بطن أمه، ويؤمر بأربع كلمات: رزقه، وأجله، وعمله، وشقي أو سعيد.

الموضوع على العبد حين البلوغ، وهو الذي بأيدي الكرام الكاتبين.

وإذا علم العبد أن كلا من عند الله، فالْوَاجب إفراده عز وجل بالْخَشْيَةِ والتقوى.

قال تعالى: ﴿ فَلَا تَخْشَوُا۟ ٱلنَّاسَ وَٱخْشَوْنِ ﴾ [المائدة ٤٤]. وَقَالَ تعالى: ﴿ وَإِيَّٰىَ فَٱرْهَبُونِ ﴾ [البقرة :٤٠].

وَقَالَ تعالى: ﴿ وَإِيَّٰىَ فَٱتَّقُونِ ﴾ [البقرة :٤١].

فلا بد لكل عبد أن يتقي أشياء، ولو كان ملكاً مطاعًا، فلا بد أن يتقي أشياء يراعي بها رعيته، فإذا لم يتق الله اتقى المخلوق، وإرضاء المخلوق لا مقدور ولا مأمور.

قال الشافعي: رضا الناس غاية لا تدرك.

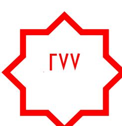
أما رِضَاء الخَالِق فهو مقدور ومأمور. وَأيْضًا فالمخلوق لا يغني عنه من الله شيئاً، فإذا اتقى العبد به كَفَاهُ مؤنة النّاس، وأحبه الله فأحبه النّاس.

كتبت عائشة إلى مُعَاوِيَة: من أرضى الله بسخط النّاس رضي الله عنه، وأرضى عنه النّاس، ومن أرضى الناس بسخط الله عاد حامده من الناس له ذاماً، وقد روي مَرْفُوعًا.

وفي الصحيحين عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قَالَ: ((إذا أحب الله العبد نادى : يا جبرائيل، إني أحب فلاناً فأحبه، فيحِبّهُ جبرائيل، ثم ينادي جبرائيل في السَّمَاء: إن الله يُحِبّ فلاناً فأحبوه، فيحِبّهُ أهل السماء، ثم يوضع له القبول في الأرض)).[1] وَقَالَ في البغض مثل ذلك.

فتقوى الله وهى التي تحصل بها سعادة الدُّنْيَا والآخرة، فهو سُبْحَانه أهل التقوى وأهل المغفرة.

(١)خ: بدء الخلق، ب ٦، خ ٣٠٣٧، الأدب، ب ٤١، ح ٥٦٩٣، التوحيد، ب ٣٣، ح ٧٠٤٧. م : البر والصلة، ب ٤٨، ح ١٥٧. ب: تفسير سورة مريم، ح ٣١٦١. ط الشعر، ب ٥،، ح ١٥- عن أبي هريرة.



قال بعض السلف: ما احتاجَ تقي قط، لقوله تعالى: ﴿ وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجۡعَل لَّهُۥ مَخۡرَجٗا ﴾ [الطلاق :٢] فقد ضمن الله للمتقين أن يجعل لهم مخْرجًا مِمَّا يضيق على الناس، وأن يرزقهم من حيث لا يحتسبون، فإذا لم يحصل ذلك دل على أن في التقوى خللاً، فليستغفر الله وليتب إليه، ثم قال تعالى: ﴿ وَمَن يَتَوَكَّلۡ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسۡبُهُۥٓ ﴾ [الطلاق ٢]. أي فهو كافيه لا محوجه إلى غيره.

التوكل لا ينافي الاكتساب وتعاطي الأسباب:

إن التوكل لا ينافي الاكْتِسَاب وَتعَاطى الأسْبَاب، فقد كان محمد صلى الله عليه وسلم أفضل المتوكلين: يلبس لامة الحرب، ويمشى في الأسواق لِلاكْتِسَابِ، حتى قال الكَافِرُونَ: ﴿ مَالِ هَٰذَا ٱلرَّسُولِ يَأۡكُلُ ٱلطَّعَامَ وَيَمۡشِي فِي ٱلۡأَسۡوَاقِ ﴾ [الفرقان ٧]. وَالاكْتِسَاب منه ما هو فرض، ومنه مستحب، ومنه مباح، ومنه مكروه، ومنه حرام، وإن كثيراً ممن يرون منافاة الاكْتِسَاب للتوكل يرزقون على يد من يعطيهم هدية أو صدقة، وقد يكون مكاساً أو وإلى شرطة أو نحو ذلك.

معنى قوله تعالى:﴿ كُلَّ يَوۡمٍ هُوَ فِي شَأۡنٖ ﴾:

قال البغوي: قال مُقَاتِل: نزلت في اليهود حين قالوا: إن الله لا يعطي يوم السبت.

قال المفسرون: من شأنه أنه يحي ويميت، ويرزق، ويعز قوْمًا، ويذل آخرين، ويشفي مَرِيضًا ويفك عانياً، ويفرج كرباً، ويجيب داعياً، ويعطي سائلاً، ويغفر ذنباً، إلى مَا لا يحصى من أفْعَاله وإحداثه في خلقه ما يَشَاء.

أما قول المصنف رحمه الله تعالى: (وما أخطأ العبد لم يكن ليصيبه، وما أصابه لم يكن ليخطئه) أى: أن المقدور كائن لا مَحَالَة، ولقد أحسن من قَالَ:

مَا قضى الله كائنٌ لا مَحَالَة   والشقي الجهول مَنْ لام حالَه

المبحث السادس:مرض القلب في القدر

قال المصنف رحمه الله تعالى: فويل لمن صار قلبه في القدر قلباً سقيماً، لقد التمس بوهمه في فحص الغيب سِرًّا كتيماً، وعاد بما قال فيه أفاكاً أثيماً.

للقلب موت وحياة، ومرض وشفاء؛ قال تعالى: ﴿ أَوَمَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَٰهُ وَجَعَلْنَا لَهُۥ نُورًا يَمْشِى بِهِۦ فِى ٱلنَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُۥ فِى ٱلظُّلُمَٰتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا ﴾ [الأنعام ١٢٢]. أي كان مَيِّتا بالكفر، فأحييناه بالإيمان.

ومرض القلب نوعانِ: مرض شبهة، ومرض شهوة-كما تقدم- وأردؤها مرض الشبهة، وأردأ الشبه ما كان من أمر القدر.

وقد يمرض القلب ولا يشعر به صاحبه لاشتغاله عن معرفة صحته وأَسْبَابِهَا، بل قد يموت ولا يشعر بها وعلامة ذلك: ألا تؤلمه جِرَاحَات الْقَبَائِح، ولا يوجعه جهله بِالْحَقِّ، وَعَقَائِده الْبَاطِلَة:

وما لِجُرْحٍ بميت إيلامُ

وقد يشعر بمرضه ولكن لا يصبر على مرارة الدواء؛ لأن دواءه في مخالفة الهوى وهو من أصعب شيء على النفس، فيؤثر بقاء ألمه على مشقة الدواء.

وقد يوطن نفسه على الصبر ثم ينفسخ عزمه لضعف علمه وبصره وظلمة بصيرته، فهو محتاج إلى قوة صبر وقوة يقين بمَا يصير إليه. ومتى ضعف صبره ويقينه لم يتحمل مشقة الطريق، لا سيما مع عدم الرفيق، واستيحاشه من الوحدة؛ فالصابر الصادق لا يستوحش من قلة الرفيق ولا من فقده، إذا استشعر قلبه مرافقة الرعيل الأول من:

﴿ ٱلَّذِينَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلصِّدِّيقِينَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَٱلصَّٰلِحِينَ ۚ وَحَسُنَ أُو۟لَٰٓئِكَ رَفِيقًا ﴾ [النساء ٦٩].

قال أبو شامة في كتابه الحوادث والبدع: حيث جاء الأمر بلزوم الجماعة، فَالْمُرَاد لزوم الحق وَاتِّبَاعه، وإن كان المتمسك به قليلاً والمخالف له كَثِيرًا، لأن الحق هو الذي كانت عليه الجماعة الأولى من عهد النبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه، ولا ننظر إلى كثرة أهل الباطل بعدهم.

وقال الحسن البصري رحمه الله: السنة- والذي لا إله إلا هو- بين الغالي والجافي فاصبروا عليها رحمكم الله فإن أهل السنة كانُوا أقل الناس فيما مضى، وهم أقل الناس فيما بقي، الذين لم يذهبوا مع أهل الإتراف في إترافهم، ولا مع أهل البدع في بدعتهم وصبروا على سنتهم حتى لقوا ربهم فكذلك كونوا.

علامة مرض القلب:

وعلامة مرض القلب: عدوله عن الأغذية النافعة إلى الأغذية الضارة، وعدوله عن الدواء النافع إلى الدواء الضار، فالقلب الصحيح هو الذي يؤثر النافع الشافي على الضار المؤذي، والقلب المريض بضد ذلك.

وأنفع الأغذية غذاء الإيمان، وأنفع الأدوية دواء القرآن، فمن طلب الشفاء من غير الكتاب والسنة فهو من أجهل الجاهلين. قال تعالى ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدۡ جَآءَتۡكُم مَّوۡعِظَةٞ مِّن رَّبِّكُمۡ وَشِفَآءٞ لِّمَا فِي ٱلصُّدُورِ وَهُدٗى وَرَحۡمَةٞ لِّلۡمُؤۡمِنِينَ ﴾ [يونس: ٥٧]. وقال تعالى ﴿ وَنُنَزِّلُ مِنَ ٱلۡقُرۡءَانِ مَا هُوَ شِفَآءٞ وَرَحۡمَةٞ لِّلۡمُؤۡمِنِينَ وَلَا يَزِيدُ ٱلظَّٰلِمِينَ إِلَّا خَسَارٗا ﴾ [الإسراء: ٨٢] .

فالقرآن هو الشِّفَاء التام من جميع الأدواء القلبية والبدنية، فمَا من مرض من أمراض القلوب والأبدان إلا وفي القرآن سبيل الدلالة على دوائه وسببه والحمية منه لمن رزقه الله فَهْمًا لكتابه.

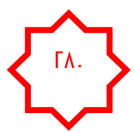
ولكن ما كل آخذ يؤهل للاستشفاء به! فإذا أحسن العليل التداوي به، ووضعه على دائه بصدق وإيمان لم يقاوم الداء أبدًا، كيف تقاوم الأدواء كلام رب الأرض والسماء؟!.

القدر سر الله في خلقه

أما قوله: (لقد التمس بوهمه في فحص الغيب سِرًّا كتيماً). فالْمُرَاد به أنه طلب بوهمه في البحث عن الغيب سرا مَكْتُومًا، إذ القدر سر الله في خلقه، فهو يروم ببحثه الاطّلاع على الغيب. وقد قال تعالى:

﴿ عَٰلِمُ ٱلۡغَيۡبِ فَلَا يُظۡهِرُ عَلَىٰ غَيۡبِهِۦٓ أَحَدًا ۝٢٦ إِلَّا مَنِ ٱرۡتَضَىٰ مِن رَّسُولٖ﴾ الآية [الجن ٢٦، 27] .

وقوله: (وعاد بما قال فيه) أى: في القدر. (أفاكاً أثيماً) أي: كَذَّابًا مأثوماً.



المبحث السابع:الإستطاعة وعلاقتها بالتكليف

قال المصنف رحمه الله تعالى: الاستطاعة التي يجب بها الفعل من نحو التوفيق الذي لا يجوز أن يوصف المخلوق به تكون مع الفعل، وأما الاستطاعة من جهة الصحة والوسع، والتمكن وسلامة الآلات فهي قبل الفعل، وبها يتعلق الخطاب، وهو كما قال تعالى:﴿ لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا ﴾ [البقرة ٢٨٦].

الاستطاعة والقدرة والوسع ألفاظ متقاربة. والنَّاس في هذه المسألة على ثلاثة مذاهب:

المذهب الأول: وهو لِعَامَّة أهل السنة: أن الاستطاعة تنقسم إلى قسمين:

- الاستطاعة التي يجب بها الفعل، أي لابد أن يوجد معها وصف حقيقة القدرة على الفعل وهذه لابد أن تكون مع الفعل، إذ لا يجوز أن يوجد الفعل بقدرة معدومة، وهو كقوله تعالى:

﴿ مَا كَانُواْ يَسْتَطِيعُونَ ٱلسَّمْعَ وَمَا كَانُواْ يُبْصِرُونَ ﴾ [هود: ٢٠]. **وقوله:** ﴿ قَالَ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا ﴾ [الكهف: ٦٧] **فالْمُرَاد نفي حقيقة القدرة لا نفي الأسباب.**

- الاستطاعة من جهة الأسْبَاب والآلات وهذه قد تتقدم الأفْعَال، ولا يجب أن تكون مَعهَا. قال تعالى:

﴿ وَلله عَلَى ٱلنَّاسِ حِجُّ ٱلْبَيْتِ مَنِ ٱسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلاً ﴾ [آل عمران: ٩٧]. **فأوجب الحج على الْمُستطِيع، فلو لم يستطع إلا من حج لم يكن الحج قد وجب إلا على من حج ولم يعاقب أحد على ترك الحج، وهو من أبين الفَسَاد. وقال تعالى** ﴿ فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ مَا ٱسْتَطَعْتُمْ ﴾ [التغابن: ١٦]. **فإذا كان من لم يتق الله لم يستطع التقوى لم يكن قد أوجب التقوى إلا على من اتقى، ولم يعاقب غيرهم، وهو معلوم الفساد. وقَال تعالى:**

﴿ فَمَن لَّمْ يَسْتَطِعْ فَإِطْعَامُ سِتِّينَ مِسْكِينًا ﴾ [المُجادلة: ٤] **وقَال تعالى:** ﴿ وَمَن لَّمْ يَسْتَطِعْ مِنكُمْ طَوْلاً أَن

﴿يَنكِحَ ٱلْمُحْصَنَـٰتِ ٱلْمُؤْمِنَـٰتِ فَمِن مَّا مَلَكَتْ أَيْمَـٰنُكُم مِّن فَتَيَـٰتِكُمُ ٱلْمُؤْمِنَـٰتِ﴾ [النساء ٢٥]. فالْمُرَاد في هذا كله استطاعة الأسباب والآلات.

المذهب الثاني: وهو للقدرية والمعتزلة: قالوا: لا تكون القدرة إلا قبل الفعل، وهو بناء على أصلهم الفاسد أن أقدار الله للبر والفاجر على حد سواء، وهو فاسد باتفَاق أهل السنة المثبتين للقدر. فإن الله أعَانَ البر على الطَّاعَة إعانة لم يعن بها الكافر. قال تعالى: ﴿ وَلَـٰكِنَّ ٱللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ ٱلْإِيمَـٰنَ وَزَيَّنَهُۥ فِى قُلُوبِكُمْ وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ ٱلْكُفْرَ وَٱلْفُسُوقَ وَٱلْعِصْيَانَ ۚ أُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلرَّٰشِدُونَ ﴾ [الحجرات: ٨] .

ولكن القدرية يقولون: هذا التحبيب والتزيين عام في كل الخلق، وهو بمعنى البيان وإظهار دلائل الحق.والآية تقتضي أن هذا خَاصّ بالْمُؤْمِنِينَ بدلالة قوله:﴿أُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلرَّٰشِدُونَ ﴾.

ولَمَّا كان فاعل الطاعات وتاركها كلاهما- عند المعتزلة- في الإعانة والإقدار سواء، امتنع على أصلهم أن يكون مع الفعل قدرة تخصه، لأن القدرة هي التي يكون بها الفعل والترك، وحال وجود الفعل يمتنع الترك، فلهذا قالوا لا تكون القدرة إلا قبل الفعل.

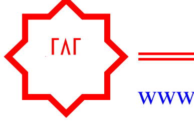
وقولهما هذا باطل، بل نقيضه هو الحق: وهو أن الفعل لا بد أن يكون معه قدرة لأن وجود الأمر مع عدم بعض شروطه الوجودية ممتنع.

المذهب الثالث: وهو لبعض أهل السنة: قالوا: لا تكون القدرة إلا مع الفعل، لأن القدرة نوع واحد لا يصلح للضدين. القدرة المقارنة للفعل لا تصلح إلا لذلك الفعل، وهى مستلزمة له لا توجد بدونه.

وَقَالَ بعضهم: إن القدرة عرض فلا تبقى زمانين، فيمتنع وُجُودها قبل الفعل. والصواب هو المذهب الأول، وأن القدرة نوعان:

- نوع مصحح للفعل يمكن معه الفعل والترك، وهى مَنَاط التكليف، وهذه تحصل للمطيع وَالْعَاصِي وتكون قبل الفعل، وتبقى إلى حين الفعل، إِمَّا بِنَفْسِهَا عند من يقول ببَقَاء الأعراض، أو بتجدد أمْثالهَا عند من يقول: إن الأعراض لا تبقى زمانين، وضد هذه القدرة هو العجز.

- نوع يجب به الفعل، أي لا بد أن يوجد مَعَهَا، وهذه لا بد أن تكون مع الفعل.



الاستطاعة الشرعية ليست مجرد إمكان الفعل:

إن الاستطاعة الشرعية أخص من الاستطاعة التي يمتنع الفعل مع عدمها، فالشارع لا ينظر في الاستطاعة الشرعية إلى مجرد إمكان الفعل بل ينظر إلى لوازم ذلك، فإن كان الفعل ممكناً مع المفسدة الراجحة لم تكن هذه استطاعة شرعية.

فالْمَرِيض قد يستطيع أن يصلي قَائِمًا مع زيادة المرض أو تأخر برئه، والشخص قد يقدر على الحج مع ضرر يلحقه في بدنه أو مَاله، أو يصوم الشهر مع انقطاعه عن معيشته، فهؤلاء غير مُسْتَطِيعِينَ لأجل هذه المفسدة الراجحة وإن كانوا قد يسمون مُسْتَطِيعِينَ، وإذا كان الشارع قد اعتبر في المكنة عدم المفسدة الراجحة فكيف يكلف مع العجز؟

ولكن هذه الاستطاعة وحدها لا تكفي في وجود الفعل، وإلا كان التارك كالفاعل، بل لا بد من إحداث إعانة أخرى مثل جعل الفاعل مُرِيدًا، فإن الفعل لا يتم إلا بقدرة وإرادة، فالاستطاعة المقارنة تدخل فيها الإرادة الجازمة بخلاف المشروطة في التكليف فإنه لا يشترط فيها الإرادة، فالله تعالى يأمر بالفعل من لا يريده، ولكن لا يأمر به من لو أراده لعجز عنه. وعلى هذا ينبني تكليف ما لا يطاق. فمن قَالَ: القدرة لا تكون إلا مع الفعل، قَالَ: كل كافر أو فاسق كلف بما لا يطيق، وما لايطاق فسار بشيئين:

- ما لا يطاق للعجز عنه، فهذا لم يكلفه الله أحَدًا.
- ما لا يطاق للاشتغال بضده، وهو الذي وقع فيه التكليف.

وهذا واضح في أمر العباد بعضهم بَعْضًا: فلا يأمر السيد عبده الأعمى بنقط المصاحف، ويأمره إذا كان قَاعِدًا أن يقوم، ويعلم الفرق بين الأمرين بالضَّرُورَةِ.

التكليف بِمَا لا يُطَاق

قال المصنف رحمه الله تعالى: ولم يكلفهم الله تعالى إلا ما يطيقون، ولا يطيقون إلا ما كلفهم وهو تفسير: لا حول ولا قوة إلا بالله، نقول: لا حيلة لأحد، ولا حركة لأحد عن معصية الله إلا بمعونة الله، ولا قوة لأحد على إقامة طاعة الله، والثّبات

عليها إلا بتوفيق الله.

إختلاف الناس في التكليف بما لا يطاق:

فذهب أهل السنة إلى امتناع التكليف بما لا يطاق. قال تعالى: ﴿ وَلَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا ﴾ [المؤمنون: ٦٢]. وإليه أشار الشيخ بقوله: (وَلَمْ يكلفهم الله تعالى إلا ما يطيقون).

أمّا قوله تعالى للملائكة ﴿ أَنۢبِـُٔونِى بِأَسْمَآءِ هَٰٓؤُلَآءِ ﴾ [البقرة: ٣١] مع عدم علمهم بذلك، وقوله للمصورين: أحيوا ما خلقتم، وأمثال ذلك فهو خِطَاب تعجيز وليس خطاب تكليف.

أمّا دُعاء المؤمنين في قوله تعالى: ﴿ رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِۦ ﴾ [البقرة:٢٨٦] أي لا تحملنا ما يثقل علينا أدَاؤهُ، وإن كنا مطيقين له على تجشم وتحمل مكروه،كما تقول للرجل الذي تبغضه لا أطيق النظر إليك، وأنت مطيق لذلك لكنه يثقل عليك، ذكره ابن الأنباري.

وذهب أبو الحسن الأشعري إلى جواز التكليف بما لا يطاق عقلاً، واختلف أصحابه في وقوعه شَرْعًا.

واحتج من قال بوقوعه شرعًا بأمر أبي لهب بالإيمان، وقد أخبر تعالى أنه لا يؤمن. قال تعالى:

﴿ سَيَصْلَىٰ نَارًا ذَاتَ لَهَبٍ ﴾ [المسد : ٣]. فكان مَأمُورًا بأن يؤمن بأنه لا يؤمن! وقد أجيب عن هذا

بأننا لا نسلم بأنه مأمور بأن يؤمن بأنه لا يؤمن، والاستطاعة التي بها يقدر على الإيمان كانت حَاصِلَة، فما كان عَاجِزًا عن تحصيل الإيمان، وما كلف إلا ما يطيقه. ومنهم من يقول: يجوز التكليف بِالْمُمْتَنع عَادَةً دون الممتنع لذاته، لأنه لا يتصور وجوده، فلا يعقل الأمر به. ومنهم من يقول: ما لا يطاق للعجز عنه لا يجوز التكليف به، أما ما لا يطاق للاشتغال بضده فإنه يجوز التكليف به. وهؤلاء موافقون للسلف في المعنى، إلا أن جعل ما يتركه العبد لا يُطِاق لكونه مُشْتَغِلاً بضده بدعة في الشرع واللغة، فإن مضمونه أن كل من لم يفعل فإنه لا يطيقه، وهذا خلاف الكتاب والسنة وإجماع السلف.

وقد يحتج هؤلاء بمثل قوله تعالى: ﴿ مَا كَانُواْ يَسْتَطِيعُونَ ٱلسَّمْعَ وَمَا كَانُواْ يُبْصِرُونَ ﴾ [هود: ٢٠].

وقوله: ﴿ قَالَ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِىَ صَبْرًا ﴾ [الكهف: ٦٧] .

ولكن المراد بالآية الأولى أن هؤلاء لبغضهم الحق وثقله عليهم- إما حسدًا، أو اتبَاعًا للهوى- لا يستطيعون السمع، لا لعجزهم عنه.

أما الآية الثانية فالمراد بها أن موسى عليه السلام لا يستطيع الصبر لما يرى من مخالفة ظاهر الشرع، وليس عن عجز منه عن ذلك. وهذه لغة العرب وسائر الأمم، فمن يبغض غيره يقول: إنه لا يستطع الإحسان إليه، ومن يحبه يقول: إنه لا يستطع عقوبته، لشدة محبته لا لعجزه عن عقوبته. والله عز وجل لو لم يأمر العباد إلا بما يهوونه لفسدت السماوات والأرض. قال تعالى:

﴿ وَلَوِ ٱتَّبَعَ ٱلۡحَقُّ أَهۡوَآءَهُمۡ لَفَسَدَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلۡأَرۡضُ وَمَن فِيهِنَّۚ ﴾ [المؤمنون: ٧١].

وقول الشَّيْخ رحمه الله تعالى: (ولا يطيقون إلا ما كلفهم) أي: ولا يطيقون إلا ما أقدرهم عليه وفي عِبَارَة الشيخ إِشْكَال، لأن التكليف لا يستعمل بمعنى الإقدار بل بمعنى الأمر والنهي، وهو قَالَ: لا يكلفهم إلا ما يطيقون ولا يطيقون إلا ما كلفهم به) وظاهره أنه يرجع إلى معنى واحد ولا يصح ذلك، لأنهم يطيقون فوق ما كلفهم به، ولكنه سبحانه يريد بعِبَادِهِ اليسر والتخفيف، فلو زاد فيما كلفنا به لأطقناه، ولكنه تفضل علينا وخفف عنا. قال تعالى: ﴿ يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُخَفِّفَ عَنكُمۡۚ ﴾ [النساء: ٢٨].

وَيُجَاب عن هذا الإشكال بأن المراد الطاقة التي من نحو التوفيق، لا من جهة التمكن وسلامة الآلات، ولكن لا تخلو الْعِبَارَة من قلق. و لا حول ولا قوة إلا بالله دليل على إثبات القدر، وقد فسَّرَهَا الشيخ بعدها.

الخلاصة

- أصل القدر سر الله في خلقه، وقد اتفق أهل السنة على أن كل شيء يقع بقضاء الله وقدره، فهو عز وجل لا يحب الكفر، ولا يرضاه ديناً، رغم أنه قد يريده ويشاؤه كوناً، بلا منافاة بين البغض والإرادة لاختلاف متعلقهما.

- منشأ الضلال في القدر من التسوية بين الإرادة والمحبة، وقد سوى بينهما الجبرية الذين جعلوا كل ما في الكون مراداً ومحبوباً في ذات الوقت، والقدرية النفاة الذين أخرجوا المعاصي من كونها مقدرة إذ إنها غير مرضية ولامحبوبة.

- القدرية هم مجوس هذه الأمة، حيث أخرجوا أفعال العباد عن كونها مخلوقة مقدرة من عند الله، فكذبوا بالقدر، ونقضوا بذلك توحيدهم.كما أن غلاة المعتزلة أنكروا كون الله عالماً بأفعال العباد في الأزل.

- النعم والمحن كلها من عند الله، فما أصاب العبد من حسنة فمحض فضل من الله يستوجب الشكر، وما أصاب العبد من سيئة فبذنب نفسه عقوبة له، فيستوجب الاستغفار.

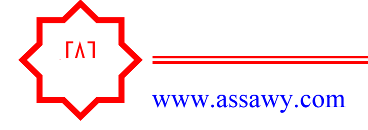
- القدر نظام التوحيد، فهو اعتراف بربوبية الله تعالى علماً، وتقديراً، وخلقاً، وحكمةً، وهدايةً.

- الموجودات إما مسخر بطبعه، وقد هداه الله لما سخر له هداية طبيعية، وإما متحرك بإرادته كالإنسان، وله نوعان من الهداية : هداية الدلالة العامة التي يشترك فيها كل بني آدم، وهداية التوفيق الخاصة بالمؤمنين.

- مشيئة الله تعالى تنفذ في كل شيء، ولا مشيئة للعبد إلا ما شاء الله له، فما شاء الله كان، ومالم يشأ لم يكن.

- القدر يحتج به عند المصائب، لا عند الذنوب والمعائب.

- كل من أسماء : القضاء، والإرادة، والإذن، والأمر، والكتاب، والكلمات، والحكم، والتحريم، ونحو ذلك



يأتي تارة بالمعنى الكوني القدري، وتارة بالمعنى الديني الشرعي.

- الإرادة الكونية القدرية شاملة لجميع الحوادث ما يحبه الله منها وما لا يحبه، أما الإرادة الشرعية فهي المتضمنة للمحبة والرضا، وهي المستلزمة لأمر الله ونهيه.

- أفعال العباد هي خلق الله بمشيئته وقدرته، كما أنها كسب من العباد، فهم فاعلون لأفعالهم حقيقةً، فبها صاروا مطيعين وعصاة، وعليها يستوجبون المدح والذم.

- زعمت الجبرية أن تدبير أفعال الخلق كلها لله، وإضافتها إلى الخلق مجاز، وقابلتهم المعتزلة بأن الأفعال الاختيارية مضافة للعبد على الحقيقة، لا تعلق لها بخلق الله.

- لما خلق الله عز وجل القلم، كتب به فى اللوح مقادير كل شيء إلى قيام الساعة، فكل ما هو كائن جفت به الأقلام، وجرت به المقادير، ولا تبديل له ولا تغيير.

- أردأ أمراض الشبهات في القلوب ما كان من أمر القدر، لما فيه من البحث عن أسرار غيبية، إذ إن القدر سر الله في خلقه.

- الاستطاعة عند أهل السنة نوعان : نوع يوجد مع الفعل وهو حقيقة القدرة على فعله، ونوع قد يتقدم الفعل لأنه من جهة الأسباب والآلات. أما الاستطاعة الشرعية : فهي إمكان الفعل مع انتفاء المفاسد الراجحة.

- تكليف الله عباده ما لا يطاق ممتنع عقلاً وشرعاً.

الاختبار البعدي للوحدة

س١: الله عز وجل قد لايرضى الأمر ديناً، ولكنه يريده كوناً، كيف ذلك ؟ وما الحكمة في وقوعه ؟ اذكر النصوص التي تشهد بذلك.

س٢: منشأ الضلال في القدر من التسوية بين الإرادة و المحبة. وضح ذلك مع بيان أقوال المذاهب التي ضلت في القدر؟

س٣: ضع علامة (صح) أو علامة (خطأ) أمام العبارات الآتية :

مادام الله قد أراد أمراً في كونه فهذا دليل على أنه يحبه ويرضاه. ( )

الله تعالى قد يكره الشيء، ولكنه يريده لكونه سبباً في محاب أخرى له. ( )

الطاعة هي موافقة الأمر القدري، لا موافقة الأمر الشرعي. ( )

ينبغي على العبد أن يرضى بما قدره الله عليه من المعاصي من غير سخط ( )

القدر يتضمن مقادير المخلوقات المطابق للعلم بها قبل كونها. ( )

كل عطاء وعقوبة من الله تعالى عدل منه لاستحقاق العبد ذلك. ( )

أنكر المعتزلة علم الله بالكليات قبل وقوعها، وأثبتوا علمه بالجزئيات. ( )

المقدور الذي وقع قديمٌ غير محدث كالعلم والتقدير. ( )

يحتج بالقدر عند المصائب لا عند المعائب. ( )

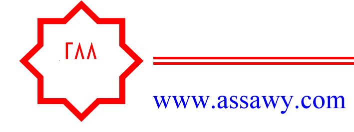
س٤: ما وجه الجمع بين قوله تعالى عن الحسنات والسيئات:**((قل كل من عند الله))** وقوله في الآية التالية:**((وما أصابك من سيئة فمن نفسك))**؟ وكيف يحتج القدرية بالآية الثانية على مذهبهم ؟ وما وجه بطلان قولهم ؟

س٥: من وحّد الله، وكذّب بالقدر، نقض تكذيبه توحيده. اشرح هذه العبارة، مبيناً على من تنطبق، مع الاستدلال بنصوص السنة، و آثار السلف فى ذلك؟

س٦: ما الفرق بين احتجاج آدم على موسى بالقدر، وبين احتجاج المشركين على شركهم بالقدر ؟

س٧: الألفاظ الشرعية كالقضاء، والأمر، و الإذن، و الإرادة... إلخ قد تأتى تارة بالمعنى الكوني، وتارة بالمعنى الشرعي. اشرح ذلك مع الاستدلال بالآيات القرآنية.

س٨: تفرق الناس في أفعال العباد الاختيارية على طرفين باطلين ووسط أهل السنة المعتدل. وضح



ذلك مبيناً عقيدة كل منهم، وأدلتهم؟

س٩: مقادير الخلائق كتبت بأقلام ، دلت على أنواعها نصوص الكتاب والسنة، اذكرها مع شرح النصوص الدالة عليها؟

س١٠ﷺ لم كانت الشبهات في أمر القدر من أردأ أمراض القلب ؟

س١١: تفرقت المذاهب في مسألة علاقة التكليف بالاستطاعة. اذكر هذه المذاهب. ثم وضح المقصود من الاستطاعة الشرعية ؟

س١٢: اختر الإجابة الصحيحة، مع تصويب العبارات الخاطئة :

- استطاعة القدرة على الفعل حقيقة هي استطاعة الأسباب والآلات.
- الاستطاعة الشرعية هي إمكان الفعل مع انتفاء المفاسد الراجحة.
- التكليف بما لا يطاق يجوز عقلاً، ولكنه يمتنع شرعاً.
- العباد لايطيقون إلا ما كلفهم الله به بحيث لو زاد التكليف لما أطاقوه.

الوحدة السابعة متفرقات

الأهداف الخاصة

يتوقع منك عزيزى الدارس بعد دراستك لهذا الباب أن تكون ملماً بما يلي :

- الفصل الأول : عقيدة أهل السنة فى الصحابة :
  (١) حب الصحابة دين ، وبغضهم كفر.
  (٢) خلافة الراشدين.
  (٣) فضل العشرة المبشرين بالجنة.
  (٤) توقير علماء السلف وموالاتهم.
- الفصل الثاني : اتباع السنة والجماعة ، واجتناب الشذوذ والفرقة :
  (١) وجوب اتباع السنة والجماعة.
  (٢) حرمة الفرقة.
  (٣) وجوب الحج والجهاد مع البر والفاجر.
  (٤) عدم الخروج على أئمة الجور من المسلمين.
  (٥) جواز المسح على الخفين فى السفر والحضر.
- الفصل الثالث : حقيقة الدين ، وتوسطه بين الإفراط والتفريط :
  (١) حقيقة الدين.
  (٢) أهل القبلة بين الخوف والرجاء.
- الفصل الرابع : البراءة من الفرق الضالة ، ونقض موجز لأهم مقالاتهم :
  (١) نماذج من الفرق الضالة.
  (٢) مسالك الفرق الضالة فى الوحى.

الفصل الأول عقيدة أهل السنة في الصحابة والسلف

قال المصنف رحمه الله تعالى: ومن أحسن القول في أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم وأزواجه الطاهرات من كل دنس، وذرياته المقدسين من كل رجس، فقد برئ من النفاق.

روى مسلم عن زيد بن أرقم أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: ((وأهل بيتي، أذكركم الله في أهل بيتي)) ثلاثاً.[1]

وأخرج البخاري عن أبي بكر أنه قال: ارقبوا مُحَمَّدًا في أهل بيته.

---

(١)م الفضائل، ب ٤، ح ٣٦- عن زيد بن أرقم.

المبحث الأول: حب الصحابة إيمان وبغضهم كفر

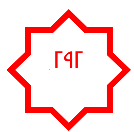
قال المصنف رحمة الله تعالى: ونحب أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم، ولا نفرط في حب أحد منهم، ولا نتبرأ من أحد منهم، ونبغض من يبغضهم، وبغير الخير يذكرهم، ولا نذكرهم إلا بخير، وحبهم دين وإيمان وإحسان، وبغضهم كفر ونفاق وطغيان.

يشير الشيخ رحمه الله بذلك إلى الرد على الروافض والنواصب.

وقد أثنى الله ورسوله على الصحابة ووعدهم بالحسنى: قال تعالى: ﴿ مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِ ۚ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ ﴾**الآية** [الفتح: ٢٩].

وقال تعالى: ﴿ لِلْفُقَرَآءِ ٱلْمُهَـٰجِرِينَ ٱلَّذِينَ أُخْرِجُوا۟ مِن دِيَـٰرِهِمْ وَأَمْوَٰلِهِمْ يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنًا وَيَنصُرُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ ۚ أُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلصَّـٰدِقُونَ ﴿٨﴾ وَٱلَّذِينَ تَبَوَّءُو ٱلدَّارَ وَٱلْإِيمَـٰنَ مِن قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِى صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّآ أُوتُوا۟ وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ ۚ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿٩﴾ وَٱلَّذِينَ جَآءُو مِنۢ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا ٱغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَٰنِنَا ٱلَّذِينَ سَبَقُونَا بِٱلْإِيمَـٰنِ وَلَا تَجْعَلْ فِى قُلُوبِنَا غِلًّا لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ رَبَّنَآ إِنَّكَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴾ [الحشر: ٨- ١٠].

وهذه الآيات تتضمن الثناء على المهاجرين والأنصار، وعلى الذين جاءوا من بعدهم يستغفرون لهم ويسألون الله ألا يجعل في قلوبهم غلاً لهم، وتتضمن أن هؤلاء هم المستحقون للفيء، فمن كان في قلبه غل للذين آمنوا ولم يستغفر لهم لم يستحق في الفيء نصيباً بنص القرآن. وقال تعالى: ﴿ وَٱلسَّـٰبِقُونَ ٱلْأَوَّلُونَ مِنَ ٱلْمُهَـٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ وَٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُم بِإِحْسَـٰنٍ رَّضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ ﴾ [التوبة: ١٠٠].



وهم الذين أنفقوا من قبل الفتح وقاتلوا، وأهل بيعة الرضوان كلهم منهم، وكانوا أكثر من ألف وأربعمائة، وقيل هم من صلى إلى القبلتين ولا دليل عليه، والصلاة إلى القبلة المنسوخة ليس بمجرد فضيلة، لأن النسخ ليس من فعلهم.

وفي الصحيحين من حديث عمران بن حصين وغيره: قال صلى الله عليه وسلم: ((خير الناس قرني ثم الذين يلونهم، ثم الذين يلونهم))، قال عمران: فلا أدري أذكر قرنين أو ثلاثة.... [(١)] الحديث.

فضل الصحبة الأولى:

قال تعالى: ﴿ لَا يَسْتَوِى مِنكُم مَّنْ أَنفَقَ مِن قَبْلِ ٱلْفَتْحِ وَقَـٰتَلَ ۚ أُو۟لَـٰٓئِكَ أَعْظَمُ دَرَجَةً مِّنَ ٱلَّذِينَ أَنفَقُوا۟ مِنۢ بَعْدُ وَقَـٰتَلُوا۟ ۚ وَكُلًّا وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْحُسْنَىٰ ﴾ [الحديد:١٠].

وفي صحيح مسلم عن أبي سعيد الخدرى رضي الله عنه قال: كان بين خالد ابن الوليد وبين عبد الرحمن بن عوف شيء فسبه خالد، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : ((لا تسبوا أحداً من أصحابي، فإن أحدكم لو أنفق مثل أحد ذهبًا ما أدرك مد أحدهم ولا نصيفه)).[(٢)]

وذلك لأن عبد الرحمن من السابقين الأولين، وهم أخص بصحبته ممن أسلم بعد بيعة الرضوان، وهم الذين أسلموا بعد الحديبية، وهؤلاء أسبق ممن تأخر إسلامه إلى فتح مكة، وسموا الطلقاء منهم أبو سفيان وابناه: يزيد، ومعاوية. والمقصود أنه نهى من له صحبة أخرى أن يسب من له صحبة أولى.. فكيف بحال من ليس من الصحابة بحال مع الصحابة؟

وفي صحيح مسلم عن جَابر أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: ((لا يدخل النار أحد بايع تحت الشجرة)).[(٣)]

---

(١) خ اَلشَّهَادَات، ب ٩، ح ٢٥٠٨ و ٢٥٠٩، والفضائل، ب ١، ح ٣٤٥٠ و ٣٤٥١، والرقاق، ب ٧، ح ٦٠٦٤ و ٦٠٦٥، والأيمان، ب ٩، ح ٦٢٨٢ وب ٢٦، ح ٦٣١٧. م: الفضائل، ب ٥٢، ح ٢١٠- ٢١٦. د : السنة، ب١٠، ح ٤٦٥٧. ب المناقب، ب ٥٤، ح ٣٨٥٩، الفتن، ب ٤٥، ح ٢٢٢١، و ٢٢٢٢. ق: الأحكام، ب ٢٧، ح ٢٣٦٢ و ٢٣٦٣- عن ابن مسعود وعمران.

(٢)خ الفضائل، ب ٥، ح ٣٤٧٠. م: الفضائل، ب ٥٤، ح ٢٢١ و ٢٢٢. عن أبي سعيد وأبي هريرة.

(٣)م: الفضائل، لي ٣٧، ح ١٦٣. س: تفسير سورة مريم، ح ٣٤١- عن أم مبشر وَجَابِر بن عبد الله.



بين الإفراط والتفريط في حب أصحاب رسول الله:

قول المصنف: (ولا نُفرِطُ في حب أحد منهم) أي: لا نتجاوز الحد في حب أحد منهم كما فعلت الشيعة فنكون من المعتدين. قال تعالى: ﴿ يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ لَا تَغۡلُواْ فِي دِينِكُمۡ ﴾ [النساء: ١٧١].

وقوله: (ولا نتبرأ من أحد منهم) أي: كما فعلت الروافض، فعندهم لا ولاء إلا ببراء أي لا يتولى أهل البيت حتى يتبرأ من أبي بكر وعمر.

وأهل السنة يوالونهم كلهم، وينزلونهم منازلهم التي يستحقونها بالعدل والإنصاف، لا بالهوى والتعصب، وهذا معنى قول بعض السلف من الصحابة والتابعين كأبي سعيد الخدري، وإبراهيم النخعي والحسن البصري والضحاك: الشهادة بدعة والبراءة بدعة، ومعنى الشهادة أن يشهد على معين من المسلمين أنه من أهل النار، أو أنه كافر بدون العلم بما ختم الله له به.

حب أصحاب رسول الله دين وإيمان:

وذلك لأنه امتثال لأمر الله فيما تقدم من النصوص: روى الترمذي عن عبد الله بن مغفل قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: ((الله الله في أصحابي، لاتتخذوهم غرَضًا بعدي، فمن أحبهم فبحبي أحبهم، ومن أبغضهم فببغضي أبغضهم ومن آذاهم فقد آذاني، ومن آذاني فقد آذى الله تعالى، ومن آذى الله يوشك أن يأخذه)).[1] وتسمية حب الصحابة إيماناً مشكل على الشيخ رحمه الله، لأن الحب عمل القلب وليس هو التصديق فيكون العمل داخلاً في مسمى الإيمان، وكلام الشيخ في الإيمان أنه الإقرار باللّسَانِ، والتصديق بالْجَنَانِ، ولم يجعل العمل دَاخِلاً في مسمى الإيمَان، وهذا هو المعروف من مذهب أهل السنة، إلا أن تكون هذه التسمية مَجَازًا.

أمَّا قول المصنف رحمه الله تعالى: (وبغضهم كفر)، فإن الكفر هنا نظير الكفر المذكور في قوله تعالى: ﴿ وَمَن لَّمۡ يَحۡكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡكَٰفِرُونَ ﴾ [المائدة: ٤٤]. وقد تقدم الكلام في تكفير أهل البدع.

---

(١)ت: المناقب، ب ٥٩، ح ٣٨٦٢. حب: ١٨٩١٩، ح ٧٢١٢. حم: ٥/٥٤ و ٥٧- عن عبد الله بن مغفل وقال الترمذي : غريب.

المبحث الثاني:خلافة الراشدين

قال المصنف رحمه الله: وثبت الخلافة بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم أولاً لأبي بكر الصديق رضي الله عنه تفضيلاً له وتقديماً على جميع الأمة،ثم لعمر بن الخطاب رضي الله عنه،ثم لعثمان رضي الله عنه، ثم لعليّ بن أبي طالب رضي الله عنه، وهم الخلفاء الراشدون، والأئمة المهديون.

أولاً: خلافة أبي بكر:

قال المصنف رحمه الله تعالى: وثبت الخلافة بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم أولاً لأبي بكر الصديق رضي الله عنه تفضيلاً له وتقديماً على جميع الأمة.

اختلف أهل السنة في خلافة الصديق رضي الله عنه هل كانت بالنَّصِّ، أو بالاختيار؟ فذهب الحسن البصري وجماعة من أهل الحديث إلى أنها ثبتت بالنَّصِّ الخفي والإشارة. ومنهم من قال بالنص الجلي. وذهب جَمَاعَة من أهل الحديث والمعتزلة والأشعرية إلى أنها ثبتت بالاختيار.

الأدلة على ثبوتها بالنص:

ما أسنده البخاري عن جبير بن مطعم قال: أتت امرأة النبي صلى الله عليه وسلم فأمرها أن ترجع إليه، قالَتْ: أرأيت إن جئت فلم أجدك؟ كأنها تريد الموت! قال: ((إن لم تجديني فأتي أبا بكر)).[1]

وفي الصحيحين عن عائشة رضي الله عنها وعن أبيها قالَتْ: دخل عليَّ رسول الله لا في اليوم الذي بُدِئَ فيه، فقال: ((ادعي لي أبَاك وَأخَاك حتى أكتب لأبي بكر كتاباً، ثم قال: يأبى الله والمسلمون إلا أبا بكر))[2] وفي رواية: ((فلا يطمع في هذا الأمر طامع)).[1]

---

(١) خ الفضائل، ب ٥، ح ٣٤٥٩، والأحكام، ب ٥١، ح ٦٧٩٤. م: الفضائل، ب١، ح ١- عن جبير بن مطعم.

(٢) وعن عائشة قالت: قال لي رسول الله صلى الله عليه وسلم "ادعي لي أبا بكر أباك وأخاك حتى أكتب كتاباً فإني أخاف أن يتمنى متمن ويقول قائل أنا أولى ويأبى الله والمؤمنون إلا أبا بكر" مسلم فضائل الصحابة.

وفي السنن عن حذيفة بن اليمان قَالَ: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: ((اقتَدُوا بالَّذَيْنِ مِنْ بعدي: أبا بكر وعمر)).[2]

أحاديث تقديمه في الصلاة وهي مشهورة ومعروفة.

أن عمر لما قال في خطبته التي خطبها بمحضر من الْمُهَاجِرِينَ والأنصار: أنت خيرنا وأحبنا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم لم ينكر ذلك أحد منهم، ولم يقل أحد من اَلصَّحَابَة قط أن النبي صلى الله عليه وسلم نص على غير أبي بكر لا عليّ ولا العباس ولا غيرهما. ومن نقل عنه أنه طلب تولية غير أبي بكر لم يذكر حجة دينية شرعية، وإنما نشأ من حب قبيلته وقومه فقط.

دليل القائلين بثبوتها بالاختيار :

واحتج من قال: لم يستخلف، با لخبر المأثور: عن عبد الله بن عمر عن عمر رضي الله عنهما أنه قال: إن أستخلف فقد استخلف من هو خير مني، يعني أبا بكر، وإن لا أستخلف فلم يستخلف من هو خير مني، يعني رسول الله صلى الله عليه وسلم، قال عبد الله: فعرفت أنه حين ذكر رسول الله صلى الله عليه وسلم غير مستخلف.

والظاهر أن المراد- والله أعلم- أنه لم يستخلف بعهد مكتوب، ولو كتب عَهْدًا لكتبه لأبي بكر بل قد أراد كِتَابَته ثم تركه وقال: يَأْبى الله والمسلمون إلا أبا بكر، فَكَانَ هذا أبلغ من مجرد عهد فلو كان التعيين مما يشتبه على الأمة لبينه بَيَانًا قَاطِعًا للعذر، ولكن لما دلَّهم عليه بدلالات متعددة حصل المقصود.

---

(١)م: الفضائل، ب ١، ح ١١. حم ٣/٣٩٨. حب ٨/٢٠٢، ح ٦٥٦٤- عن عائشة.

(٢)ت المناقب، ب ١٦، ح ٣٦٦٢ و ٣٦٦٣، ب ٣٨، خ ٣٨٠٥. حم: ٥/٣٨٢ و٣٨٥. ك: ٣/٧٦. عن حذيفة بن اليمان. وقال الترمذي: حسن.

فضائل الصديق رضي الله عنه:

النصوص الواردة في فضل أبي بكر رضي الله عنه كثيرة، منها: قال صلى الله عليه وسلم وهو على منبره: ((لو كنت مُتَّخِذًا من أهل الأرض خليلاً لاتخذت أبا بكر خليلاً، لا يبقين في المسجد خوخة إلا سدت إلا خوخة أبي بكر)).[1]

وفي الصحيحين عن عمرو بن العاص أن رسول الله صلى الله عليه وسلم بعثه على جيش ذات السلاسل فأتيته فقلت: أي الناس أحب إليك؟ قَالَ: ((عائشة)) قلت: من الرِّجَال؟ قَالَ: ((أبوها)) قلت: ثم من؟ قال:((عمر))، وعد رِجَالاً.[2]

وفي صحيح الْبُخَارِيّ عن أبي الدرداء قَالَ: كنت جَالِسًا عند النبي صلى الله عليه وسلم إذ أقبل أبو بكر آخذاً بطرف ثوبه حتى أبدى عن ركبتيه، فقَالَ النبي صلى الله عليه وسلم: ((أما صاحبكم فقد غامر))، فسلَّم وَقَالَ: يَا رسول الله إنه كان بيني وبين ابن الخِطَاب شيء فأسرعت إليه ثم ندمت فسألته أن يغفر لي، فأبى عليَّ فأقبلت عليك، فقَالَ: ((يغفر الله لك يا أبا بكر)) ثلاثاً ثم إن عمر ندم فأتى منزل أبي بكر فسأل: أثم أبو بكر؟ فقالوا: لا، فأتى إلى النبي صلى الله عليه وسلم فسلم عليه فجعل وجه النبي صلى الله عليه وسلم يتمعر، حتى أشفق أبو بكر فجثا على ركبتيه فقَالَ: يا رسول الله والله أنا كنت أظلم! مرتين، فقال النبي صلى الله عليه وسلم: ((إن الله بعثني إليكم فقلتم كذبت، وقال أبو بكر صدق، وواساني بنفسه وماله، فهل أنتم تاركو لي صاحبي؟)) مرتين، فما أوذي بعدها.[3]

---

(١) البخاري باب الخوخة والممر في المسجد (٤٥٥).

(٢)خ: الفضائل، ب ٥، ح ٣٤٦٢، و المغازي، ب ٦٠، ح ٤١٠٠. م: الفضائل، ب ١، ح ٨. ت: المناقب، ب ٦٣، ح ٣٨٨٥. حب: ٩/٢٤، ح ٦٨٦١- عن عمرو بن العاص.

(٣)خ: الفضائل، ب ٥، ح ٣٤٦١، وتفسير سورة الأعراف، ح ٤٣٦٤- عن أبي الدرداء.

ثانيًا: خلافة عمر

قال المصنف رحمه الله تعالى: ثم لعمر بن الخطاب رضي الله عنه

أي وثبتت الخلافة بعد أبي بكر لعمر رضي الله عنه، وذلك بتفويض أبي بكر الخلافة إليه وإجماع الأمة بعده عليه.

فضائل عمر:

وَفضَائله رضي الله عنه أشهر من أن تنكر، وأكثر من أن تذكر، منها:

ما جَاءَ في الصحيحين أنه صلى الله عليه وسلم قال: ((قد كان في الأمم قبلكم محدَّثون، فإن يكن في أمتي أحد منهم فإن عمر بن الخطاب منهم))[1] محدَّثون: ملهمون.

وفي الصحيحين عن أبي هريرة قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: ((بينا أنا نائم رَأيْتني على قليب عليها دلو، فنـزعت منها ما شاء الله، ثم أخذها ابن أبي قحافة، فنـزع منها ذنوباً أو ذنوبين، وفي نزعه ضعف والله يغفر له، ثم استحالت غرباً، فأخذها ابن الخطاب فلم أر عبقريا من الناس يفرى فريه، حتى ضرب الناس بعطن)).[2]

وفي صحيح مسلم عن ابن عباس أن علياً ترحم على عمر يوم قبض وقال: ما خلفتُ أحداً أحبَّ إليَّ أن ألقى الله بمثل عمله منك، وَايْمُ الله إن كنتُ لأظن أن يجعلك الله مع صاحبيك، وذلك أني كنت أكثر ما أسمع رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: ((جئت أنا وأبو بكر وعمر))، و((دخلت أنا وأبو بكر وعمر))، و((خرجت أنا وأبو بكر وعمر)).[3] فإن كنت لأرجو أو لأظن أن يجعلك الله معهما.

وفي الصحيحين قوله صلى الله عليه وسلم لعمر: ((إيه يا ابن الخطاب، والذي نفسي بيده ما لقيك الشيطان سالكًا فجاً إلا سلك فجاً غير فجك)).[4]

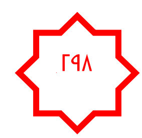
---

(١)م الْفَضَائِل، ب ٢، ح ٢٣. ت: المناقب، ب ١٨، ح ٣٦٩٣. حم: ٦ /٥٥. حب: ٩/٢١، ح ٦٨٥. عن عائشة.

(٢)خ المناقب، ب ٢٢، ح ٣٤٣٤، والفضائل، ب ٥، ح ٣٤٦٤ و ٣٤٧٣، وب ٦، خ ٣٤٧٩، و التعبير، ب ٢٨، ح ٦٦١٦ وب ٢٩، ح ٦٦١٧ و ٦٦١٨ وب ٣٠، ح ٦٦١٩، التوحيد، ب ٣١، ح ٧٠٣٧. م: الفضائل، ب ٢، ح ١٧- ١٩. حب: ٩/٢٣، ح ٦٨٥٩- عن أبي هريرة وابن عمر.

(٣)م: الفضائل، ب ٢، ح ١٤- عن ابن عباس.

(٤)خ بدء الخلق، ب ١١، ح ٣١٢٠، والفضائل، ب ٦، ح ٣٤٨٠، والأدب، ب ٦٨، ح ٥٧٣٥. م الفضائل، ب ٢، ح ٢٢. سى: ص ٢٣٢ ح ٢٠٧. حم ١/١٧١. حب ٩/٢١، ح ٦٨٥٤- عن سعد ابن أبي وقاص.



ثالثاً: خلافة عثمان :

قال المصنف رحمه الله تعالى:..ثم لعثمان رضي الله عنه.

أي ونثبت الخلافة بعده لعثمان رضي الله عنه، وهو أحد الستة الذي أوصى عمر أن تكون الخلافة فيهم من بعده لأن رسول الله صلى الله عليه وسلم توفي وهو عنهم راض وهم: علي وعثمان والزبير وطلحة وسعد وعبد الرحمن.

فضائل عثمان:

ومن فضائل عثمان رضي الله عنه الخاصة: كونه خَتَنَ رسول الله صلى الله عليه وسلم على ابنتيه، وأن الملائكة تستحي منه، ففي صحيح مسلم عن عائشة قالت: كان رسول الله صلى الله عليه وسلم مضطجعاً في بيته كاشفاً عن فخذيه أو ساقيه، فاستأذن أبو بكر فأذن له، وهو على تلك الحال فتحدث، ثم استأذن عمر، فأذن له، وهو كذلك فتحدث، ثم استأذن عثمان فجلس رسول الله وسوى ثيابه فدخل فتحدث، فلما خرج قالت عائشة: دخل أبو بكر فلم تهتش له ولم تباله، ثم دخل عمر فلم تهتش له ولم تباله، ثم دخل عثمان فجلست وسويت ثيابك؟ فقال: ((ألا أستحي من رجل تستحي منه الملائكة))[1]، وأن النبي صلى الله عليه وسلم بايع عنه يوم بيعة الرضوان: ففي صحيح البخاري: أنه لما كان يوم بيعة الرضوان، وأن عثمان رضي الله عنه كان قد بعثه النبي صلى الله عليه وسلم إلى مكة، وكانت بيعة الرضوان بعد ما ذهب عثمان إلى مكة فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم بيده اليمنى: ((هذه يد عثمان))، فضرب بها على يده فقال: ((هذه لعثمان)).[2]

(١)م : الفضائل، ب ٣، ح ٢٦. حب: ٩/٢٨، ح ٦٨٦٨. حم: ٦/٦٢- عن عائشة.

(٢)خ: الفضائل، ب ٧، ح ٣٤٩٥، والمغازي، ب ١٦، ح ٣٨٣٩. ب: المناقب، ب ١٩، ح ٣٧٠٢- ٣٧٠٦. حم ٢/١٠١و١٢٠- عن عبد الله بن عمرو وأنس بن مَالك.

رابعاً: خلافة علي:

قال المصنف رحمه الله تعالى: ..ثم لعلي بن أبي طالب رضي الله عنه.

أي وتثبت الخلافة بعد عثمان لعلي رضي الله عنهما، فقد بايعه النّاس، وصار إماماً حقاً واجب الطاعة وهو الخليفة في زمانه خلافة نبوة كما دل عليه حديث سفينة أنه صلى الله عليه وسلم قالَ: ((خلافة النبوة ثلاثون سنة، ثم يؤتي الله ملكه من يشاء)).[1]

فالخلافة قد ثبتت له رضي الله عنه بمبايعة الصحابة سوى معاوية مع أهل الشام، والحق مع علي رضي الله عنه، ذلك أنه لما قتل عثمان رضي الله عنه كثر الكذب والافتراء عليه وعلى عليٍّ، وكان في عسكر علي من أولئك الطغاة الخوارج الذين قتلوا عثمان من لم يعرف بعينه، ومن تنتصر له قبيلته، ومن في قلبه نفاق لم يتمكن من أظهاره كله، فرأى طلحة والزبير أنه إن لم ينتصر للشهيد المظلوم ويقمع أهل الطغيان والفساد وإلا استوجبوا غضب الله وعقابه، فجرت فتنة الجمل على غير اختيار من علي، ولا من طلحة والزبير، وإنما أثارها المفسدون بغير اختيار السابقين.

ثم جرت فتنة صفين لرأي: وهو أن أهل الشام يخافون طغيان من في العسكر، كما طغوا على الشهيد المظلوم، وعلي هو الإمام الذي يجب أن يجتمعوا عليه، فاعتقد أن الطاعة والجماعة الواجبتين عليهم تحصل بقتالهم، فحمله ما رآه من أن الدين إقامة الحد عليهم ومنعهم من الإثارة دون تأليفهم على القتال، وقعد عن القتال أكثر الأكابر لما سمعوا من النصوص في الأمر بالقعود في الفتنة، ولما رأوه من الفتنة التي تربو مفسدتها على مصلحتها.

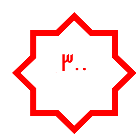
ونقول في الجميع بالحسنى: ﴿ رَبَّنَا ٱغۡفِرۡ لَنَا وَلِإِخۡوَٰنِنَا ٱلَّذِينَ سَبَقُونَا بِٱلۡإِيمَٰنِ وَلَا تَجۡعَلۡ فِي قُلُوبِنَا غِلّٗا لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ رَبَّنَآ إِنَّكَ رَءُوفٞ رَّحِيمٌ ﴾ [الحشر: ١٠].

والفتن التي كانت في أيامه رضي الله عنه صان الله عنها أيدينا فنسأله جل وعلا أن يصون عنها ألسنتنا بمنه وكرمه.

قال المصنف رحمه الله تعالى: وهم الخلفاء الرّاشِدُونَ والأئمة المهديون.

---

(١)د: السنة، ب ٩، ح ٤٦٤٦ و ٤٦٤٧. ت: الفتن، ب ٤٨، ح ٢٢٢٦. حم: ٥/١٢١. ك: ١٤٥١٣- عن سفينة، وقال الترمذي: حسن.



عن العرباض بن سارية قال: وعظنا رسول الله صلى الله عليه وسلم موعظة بليغة ذرفت مِنْهَا العيون ووجلت منها القلوب، فقال قائل: يا رسول الله كَأَنَّ هذه موعظة مودع فماذا تعهد إلينا؟ فقال: ((أوصيكم بالسمع والطاعة، فإنه من يعش بعدي فسيرى اخْتِلَافًا كَثِيرًا، فعليكم بسنتي، وسنة الخلفاء الراشدين المهديين من بعدي، تمَسَّكُوا بها، وعضوا عليها بالنَّوَاجِذِ، وإياكم ومحدثات الأمور، فإن كل بدعة ضلالة)).[1]

فضل أبي بكر وعمر على بقية الخلفاء:

وترتيبهم في الفضل كترتيبهم في الخلافة، ولأبي بكر وعمر رضي الله عنهما من المزية أن النبي صلى الله عليه وسلم أمرنا باتباَع سنة الخلفاء الراشدين، ولم يأمرنا بالاقتداء في الأفعال إلا بأبي بكر وعمر فقال: ((اقتدوا باللذين من بعدي أبي بكر وعمر)) وفرْق بين اتباع سنتهم والاقتداء بهم، فحال أبي بكر وعمر فوق حال عثمان وعلي رضي الله عنهم أجمعين.

تقديم عثمان على عليّ:

وقد روي عن أبي حنيفة تقديم علي على عثمان، لكن ظاهر مذهبه تقديم عثمان على عليّ، وعليه عَامَّة أهل السنة.

ففي الصحيحين عن ابن عمر قال: كنا نقول ورسول الله حي: أفضل أمة النبي صلى الله عليه وسلم بعده،: أبو بكر، ثمَّ عمر، ثم عثمان.

وقال أيوب السختيانى: من لم يقدم عثمان على عَليّ فقد أزرى بالمهاجرين والأنصار.

(١)د: السنة، ب ٦، ح ٤٦٠٧. ت: العلم، ب ١٦، ح ٢٦٧٦. وقال الترمذي: حسن صحيح.

المبحث الثالث:فضل العشرة المبشرين بالجنة

قال المصنف رحمه الله تعالى: وأن العشرة الذين سماهم رسول الله صلى الله عليه وسلم وبشرهم بالجنة نشهد لهم بالجنة على ما شهد لهم رسول الله صلى الله عليه وسلم، وقوله الحق، وهم: أبو بكر، وعمر، وعثمان، وعليّ، وطلحة، والزبير، وسعد، وسعيد بن زيد، وعبد الرحمن بن عوف، وأبو عبيدة بن الجراح وهو أمين هذه الأمة، رضي الله عنهم أجمعين.

اتفق أهل السنة على تعظيم هؤلاء العشرة وتقديمهم، لما اشتهر من فضلهم ومناقبهم. وتقدم ذكر بعض فضائل الخلفاء الأربعة، وهذا ذكر بعض فضائل الستة الباقين.

- سعد بن أبي وقاص:

روى مسلم عن عائشة رضي الله عنها قالت: أرِقَ رسول الله صلى الله عليه وسلم ذات ليلة، فقال: ((ليت رَجُلاً صالحاً من أصحابي يحرسني الليلة))، قالت: وسمعنا صوت السلاح، فقال النبي صلى الله عليه وسلم: ((من هذا؟)) فقال سعد بن أبي وقاص: يا رسول الله جئت لأحرسك.[1]

وفي الصحيحين: أن رسول الله صلى الله عليه وسلم جمع لسعد بن أبي وقاص أبويه يوم أحد فقال: ((ارم فداك أبي وأمي)).[2]

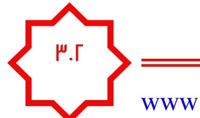
- طلحة:

- **روى مسلم عن قيس بن حازم قال: رأيت يد طلحة التي وقى بها النبي صلى الله عليه وسلم يوم**

---

(١)خ: الجهاد ب٦٩، ح ٢٧٣٩، والتمني ب ٣، ح ٦٨٠٤. م الفضائل، ب ٥، ح ٣٩ و ٤٠ – عن عائشة.

(٢)خ: الجهاد، ب ٧٩، ح ٢٧٤٩، والفضائل، ب١٥، ح ٣٥١٩، والمغازي، ب ١٥، ح ٣٨٢٩- ٣٨٣٣ م : الفضائل، ب ٥، ح ٤١ و ٤٢، عن علي وسعد.



أحد قد شلت.[١]

وروي أيضًا عن أبي عثمان النهدي قالَ: لم يبق مع رسول الله صلى الله عليه وسلم في بعض تلك الأيام التي قاتل فيها النبي صلى الله عليه وسلم غيرطلحة وسعد.[٢]

- الزبير:

- روى مسلم عن جابر بن عبد الله قول النبي صلى الله عليه وسلم: ((لكل نبي حواري، وحواريي الزبير)).[٣]

- وفي الصحيحين عن الزبير أن النبي صلى الله عليه وسلم قالَ: ((من يأتي بني قُرَيْظَة فيأتِيني بخبرهم؟)) فانطلقت، فلما رجعت جمع لي رسول الله صلى الله عليه وسلم بين أبويه، فقال: ((فداك أبي وأمي))[٤]

- أبو عبيدة:

- روى مسلم عن أنس بن مالك قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: ((إن لكل أمة أميناً، وإن أميننا أيتها الأمة أبو عبيدة بن الجراح)).[٥]

- وفي الصحيحين عن حذيفة بن اليمان قال: جاء أهل نجران إلى النبي صلى الله عليه وسلم فقالوا: يا رسول الله، ابعث إلينا رجلاً أمينًا، فقال: ((لأبعثن إليكم رجلاً أميناً حق أمين))، فاستشرف لها الناس قال: فبعث أبا عبيدة بن الجراح[٦].

---

(١) خ: الفضائل، ب ١٤، ح ٣٥١٨، والمغازي، ب١٥، ح ٣٨٣٥.. عن قيس بن حازم.

(٢) خ : الفضائل، ب ١٤، ح ٣٥١٧. م: الفضائل، ب ٦، ح ٤٧ عن أبي عثمان النهدي.

(٣)خ الجهاد، ب ٤٠، خ ٢٦٩١، وب ٤١، ح ٢٦٩٢، وب ١٣٣، ح ٢٨٣٥، والفضائل، ب ١٣، ح ٣٥١٤، والمغازي، ب ٢٧، ح ٣٨٨٧، والآحاد، ب ١١، ح ٦٨٣٣. م: الفضائل، ب ٦، ح ٣٨. ت: المناقب، ب ٢٤، ح: ٣٢٤٤، وب ٢٥، ح ٣٧٤٥. ق: المقدمة، ب ١١، ح ١٢٢. حم ٣/٣٣٨- عن جابر بن عبد الله.

(٤)خ : الفضائل، ب ١٣، ح ٣٥١٥. م: الفضائل، ب ٦، ح ٤٩. ت المناقب، ب ٢٥، ٣٧٤٥، ق المقدمة، ب ١١، خ ١٢٢. حم: ١/١٦٦- عن الزبير بن العوام.

(٥)خ: الفضائل، ب ٢١، ح ٣٥٣٤، و المغازي، ب ٦٨، ح ٤١٢١، و الآحاد، ب ١٠، ح ٦٨٢٨. م: الفضائل، ب٦، ح ٥٣. حم: ٣/ ١٨٩ و ٢٤٥. حب: ٩/ ٧١، ح ٦٩٦٢، عن أنس بن مالك.

(٦)خ: الفضائل، ب ٢١، ح ٣٥٣٥، والمغازي، ب ٦٨، ح ٤١١٩ و ٤١٢٠ و الآحاد، ب ٠ ١، ح ٦٨٢٧. م: الفضائل، ب



سعيد بن زيد وعبد الرحمن بن عوف:

- روى أبو داود وابن ماجة والترمذي وصححه عن سعيد بن زيد قال: أشهد على رسول الله صلى الله عليه وسلم أني سمعته وهو يقول: ((عشرةٌ في الجنة: النبيُّ في الجنة، وأبو بكرٍ في الجنة، وعمر في الجنة، وعثمان في الجنة، وعليٌّ في الجنة، وطلحة في الجنة، والزبير بن العوام في الجنة، وسعد بن مالك في الجنة، وعبد الرحمن بن عوفٍ في الجنة)) ولو شئت لسميت العاشر، قال: فقالوا: من هو؟ فسكت، قال: فقالوا: من هو؟ فقال: هو سعيد بن زيد، وقال: لمشهد رجل منهم مع رسول الله صلى الله عليه وسلم يغبر منه وجهه خير من عمل أحدكم ولو عُمِّر عمر نوح.[1]

وروى أحمد في مُسْنَده عن عبد الرحمن بن عوف أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: ((أبو بكر في الجنة، وعمر في الجنة، وعلي في الجنة، وعثمان في الجنة، وطلحة في الجنة، والزبير بن العوام في الجنة، وعبد الرحمن بن عوف في الجنة، وسعيد بن زيد في الجنة، وأبو عبيدة بن الجراح في الجنة))[2].

﴿ رَبَّنَا ٱغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَٰنِنَا ٱلَّذِينَ سَبَقُونَا بِٱلْإِيمَـٰنِ وَلَا تَجْعَلْ فِى قُلُوبِنَا غِلاًّ لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ رَبَّنَآ إِنَّكَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴾ [الحشر :١٠].

عقيدة الرافضة في أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم:

والرافضة يتبرأون من جمهور الصحابة، بل يتبرأون من سائر أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم إلا نَفَرًا قليلاً نحو بضعة عشر رجلاً، بل يكرهون لفظ العشرة، وفعل كل شيء يكون عشرة، ومعلوم أنه لو فرض في العالم عشرة من أكفر الناس لم يهجر هذا الاسم لذلك، كما لم يهجر اسم التسعة مُطلَقًا لقوله تعالى: ﴿ وَكَانَ فِى ٱلْمَدِينَةِ تِسْعَةُ رَهْطٍ يُفْسِدُونَ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ ﴾ [النمل: ٤٨] بل

٧، ح ٥٥. ت: المناقب، ب ٣٣، ح ٣٧٩٦. ق: المقدمة، ب ١١، ح ١٣٥–عن حذيفة.

(١)د: السنة، ب ٩، ح ٤٦٤٩. ت: المناقب، ب ٢٨، ح ٣٧٥٧، ق المقدمة، ب ١١، ح ١٣٣. ك ٣/٤٤٠. حب: ٩/٦٨، ح ٦٩٥٤. عن سعيد بن زيد. وقال الترمذي: حسن.

(٢)حم: ١/٨٧ ١ و ١٨٨ و ١٩٣. عن سعيد بن زيد، بإسناد صحيح.

اسم العشرة قد مدح الله مُسَمَّاهُ في مواضع من القرآن. قال تعالى: ﴿ وَالْفَجْرِ ۝ وَلَيَالٍ عَشْرٍ ﴾ [الفجر: ١-٢]. وقال تعالى: ﴿ وَوَاعَدْنَا مُوسَىٰ ثَلَاثِينَ لَيْلَةً وَأَتْمَمْنَاهَا بِعَشْرٍ ﴾[الأعراف: ١٤٢].

وقد كان صلى الله عليه وسلم يعتكف العشر الأواخر من رمضان، ويقول في ليلة القدر: ((التمسوها في العشر الأواخر من رمضان)).(١)

وقال صلى الله عليه وسلم : ((ما من أيام العمل الصالح فيهن أحب إلى الله من أيام العشر))، يعني عشر ذى الحجة.

والحقيقة أن الرافضة إذ يبغضون خيار الصحابة ويحقدون على خيار المؤمنين، وسادات أولياء الله تعالى بعد النبيين لفي ضلال بعيد، بل قد فضلهم اليهود والنصارى بخصلة: قيل لليهود: من خير أهل ملتكم؟ قالوا: أصحاب موسى. وقيل للنصارى: من خير أهل ملتكم؟ قالوا: أصحاب عيسى. وقيل للرافضة: من شر أهل ملتكم؟ قالوا: أصحاب محمد!! لم يستثنوا منهم إلا القليل، وفيمن سبُّوهم من هم خير ممن استثنوهم أضعَافًا مضاعفة!

والرافضة توالي بدل هؤلاء العشرة المبشرين بالجنة اثنى عشر إمامًا: أولهم علي بن أبي طالب رضي الله عنه، ويدَّعون أنه وصيُّ النبي صلى الله عليه وسلم دعوى مجردة عن الدليل، ثم الحسن ثم الحسين، ثم على بن الحسين زين العابدين، ثم محمد بن على الباقر، ثم جعفر بن محمد الصادق، ثم موسى بن جعفر الكاظم، ثم على ابن موسى الرضى، ثم محمد بن على الجواد، ثم على بن محمد الهادى، ثم الحسن بن على العسكرى، ثم محمد بن الحسن. ويغالون في محبتهم ويتجاوزون الحد. ولم يَأتِ ذكر الأئمة الاثنى عشر إلا على صفة ترد قولهم وتبطله.

ففي الصحيحين عن جابر بن سمرة قال: دخلت مع أبي على النبي صلى الله عليه وسلم فسمعته يقول: ((لا يزال أمر الناس مَاضِيًا ما وليهم اثنا عشر رَجُلاً؟)) ثم تكلم النبي صلى الله عليه وسلم بكلمة خفيت علي فسألت أبي ماذا قال النبي صلى الله عليه وسلم، قال: ((كلهم من قريش)).(٢) وفي لفظ: ((لا يزال الإسلام عَزِيزًا إلى اثنى عشر خليفة)).

---

(١)د الصوم، ب ٦١، ح ٢٤٣٨. ت الصوم، ب ٥٢، ح ٧٥٧. ق الصوم، ب ٣٩، ح ١٧٢٧. حم ١/٢٢٤. حب ١/٢٧١، ح ٣٢٤- عن ابن عباس. وقال الترمذي: حسن صحيح.

(٢)خ: الأحكام، ب ٥١، خ ٦٧٩٦. م الإمارة، ب ١، ح ٥ و ٦. حم: ٥/١٠١ . عن جابر بن عبد الله.

وكان الأمركما قال صلى الله عليه وسلم، والاثنا عشر: الخلفاء الراشدون الأربعة، ومعاوية وابنه يزيد، وعبد الملك بن مروان وأولاده الأربعة، وبينهم عمر بن عبد العزيز، ثم أخذ الأمر في الانحلال. وعند الرافضة أن أمر الأمة لم يزل فاسِدًا في أيام هؤلاء، يتوالى عليهم الظالمون والمعتدون، وأهل الحق أذل من اليهود، وقولهم ظاهر البطلان.

كيف أحدث الرفض؟:

الرفض باب الزندقة، ذلك أن الذي أحدثه منافق زنديق، قصدُه إبطال دين الإسلام، والقدح في رسول الله صلى الله عليه وسلم. فقد أراد عبد الله بن سبأ بعد أن أظهر الإسلام أن يفسد دين الإسلام بمكره وخبثه -كما فعل بولس بدين النصرانية- فأظهر التنسك، ثم أظهر الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر حتى سعى في فتنة عثمان وقتله، ثم لَمَّا قدم إلى الكوفة أظهر الغلو في علي والنصر له ليتمكن من أغراضه، وبلغ ذلك علياً فطلب قتله، فهرب منه إلى قرقيس، وخبره معروف في التاريخ.

وطريقة هؤلاء في إفساد الدين هى:إظهار التشيع والتباكي على ما وقع من ظلم على آل البيت، وضرورة التبَرُّؤ ممن ظلمهم ثم يتدرجون من سب الصحابة إلى سب أهل البيت ثم آل الرسول صلى الله عليه وسلم بعد أن كانوا ينسبون إليهم العجائب والخوارق.

المبحث الرابع : توقير علماء السلف وموالاتهم

قال المصنف رحمه الله تعالى: وعلماء السلف من السابقين، ومن بعدهم من التابعين، أهل الخير والأثر، وأهل الفقه والنظر، لا يذكرون إلا بالجميل، ومن ذكرهم بسوء فهو على غير السبيل.

يجب على كل مسلم بعد موالاة الله ورسوله موالاة المؤمنين، خصوصًا الذين هم ورثة الأنبياء الذين جعلهم الله بمنـزلة النجوم يهتدى بهم في ظلمات البر والبحر، فلهم الفضل علينا بالسبق، وتبليغ ما أرسل به النبي صلى الله عليه وسلم إلينا، فرضي الله عنهم وأرضاهم. وقد أجمع المسلمون على هدايتهم ودرايتهم.

علماء الأمة خيارها:

لقد كانت كل أمة قبل مبعث محمد صلى الله عليه وسلم علماؤها شرارها إلا المسلمين فإن علماءهم خيارهم، فإنهم خلفاء الرسول صلى الله عليه وسلم من أمته، والمحيون لما مات من سنته، بهم قام الكتاب وبه قاموا، متفقون اتفاقاً يقيناً على وجوب اتباعه صلى الله عليه وسلم.

عذرهم فيما خالفوا فيه السنة:

سبق أن العلماء متفقون اتفاقاً يقينياً على وجوب اتباعه صلى الله عليه وسلم، ولكن إذا وجد لأحدهم قول قد جاء حديث صحيح بخلافه فلابد له في تركه من عذر. وجماع الأعذار ثلاثة أصناف:

عدم اعتقاده أن النبي صلى الله عليه وسلم قاله.

عدم اعتقاده أنه أراد تلك المسألة بذلك القول.

اعتقاده أن ذلك الحكم منسوخ.

الفصل الثاني: إتباع السنة والجماعة وإجتناب الشذوذ والفرقة

قال المصنف رحمه الله تعالى: ونتبع السنة والجماعة، ونجتنب الشذوذ والخلاف والفُرْقَة.

السنة: طريقة الرسول صلى الله عليه وسلم.

والجماعة: المسلمون، وهم الصحابة والتابعون لهم بإحسان إلى يوم الدين، فاتباعهم هدى، وخلافهم ضلال[1].

(١) قال عبد الله بن مسعود رضي الله عنه لعمرو بن ميمون: الجماعة ما وافق الحق وإن كنت وحدك.
وقال نعيم بن حماد: إذا فسدت الجماعة فعليك بما كانت عليه الجماعة قبل أن تفسد الجماعة وإن كنت وحدك فإنك أنت الجماعة حينئذ.

المبحث الأول:وجوب إتباع السنه والجماعة

قال المصنف رحمه الله تعالى: ونتبع السنة والجماعة.

قال تعالى: ﴿ وَمَن يُشَاقِقِ ٱلرَّسُولَ مِنۢ بَعۡدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ ٱلۡهُدَىٰ وَيَتَّبِعۡ غَيۡرَ سَبِيلِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ نُوَلِّهِۦ مَا تَوَلَّىٰ وَنُصۡلِهِۦ جَهَنَّمَۖ وَسَآءَتۡ مَصِيرًا ﴾[1] [النساء: ١١٥].

وقال تعالى: ﴿ وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِي مُسۡتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُۖ وَلَا تَتَّبِعُواْ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمۡ عَن سَبِيلِهِۦۚ ذَٰلِكُمۡ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمۡ تَتَّقُونَ ﴾ [الأنعام: ١٥٣]. **وقال تعالى:** ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ فَرَّقُواْ دِينَهُمۡ وَكَانُواْ شِيَعًا لَّسۡتَ مِنۡهُمۡ فِي شَيۡءٍۚ إِنَّمَآ أَمۡرُهُمۡ إِلَى ٱللَّهِ ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا كَانُواْ يَفۡعَلُونَ ﴾ [الأنعام: ١٥٩]. ﴿ وَلَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ تَفَرَّقُواْ وَٱخۡتَلَفُواْ مِنۢ بَعۡدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلۡبَيِّنَٰتُۚ وَأُوْلَٰٓئِكَ لَهُمۡ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴾ [آل عمران: ١٠٥].

وقال صلى الله عليه وسلم: ((.. فإنه من يعش منكم بعدي فسيرى اختلافاً كثيراً فعليكم بسنتي وسنة الخلفاء الراشدين المهديين من بعدي، تمسكوا بها وعضوا عليها بالنواجذ وإياكم ومحدثات الأمور، فإن كل بدعة ضلالة)).

وقال صلى الله عليه وسلم: ((إن أهل الكتابين افترقوا في دينهم على ثنتين وسبعين ملة، وإن هذه الأمة ستفترق على ثلاث وسبعين ملة، يعني الأهواء، كلها في النار، إلا واحدة وهي الجماعة)).

وقال عبد الله بن مسعود: من كان مستناً فليستن بمن قد مات، فان الحي لا تؤمن عليه الفتنة، أولئك أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم كانوا أفضل هذه الأمة، أبرها قلوبًا، وأدقها عِلمًا وأقلها تكلفاً، قوم اختارهم الله لصحبة نبيه وإقامة دينه، فاعرفوا لهم فضلهم واتبعوهم في آثارهم، وتمسكوا بما استطعتم من أخلاقهم ودينهم فإنهم كانوا على الهدى المستقيم.

---

(١) قال ابن تيمية: فإنهما متلازمان فكل من شاق الرسول من بعد ما تبين له الهدى فقد اتبع غير سبيل المؤمنين، وكل من اتبع غير سبيل المؤمنين فقد شاق الرسول من بعد ما تبين له الهدى، فإن كان يظن أنه متبع سبيل المؤمنين وهو مخطئ فهو بمنزلة من ظن أنه متبع للرسول وهو مخطئ.

وهذه الآية تدل على أن إجماع المؤمنين حجة من جهة أن مخالفتهم مستلزمة بمخالفة الرسول، وإن كان ما أجمعوا عليه فلا بد أن يكون فيه نص عن الرسول، فكل مسألة يقطع فيها بالإجماع وبانتفاء المنازع من المؤمنين فإنها مما بين الله فيه الهدى، ومخالف مثل هذا الإجماع يكفر كما يكفر مخالف النص البين. الفتاوى (٧/ ٣٨).

المبحث الثاني:حرمة الفرقة

قال المصنف رحمه الله تعالى:.. ونجتنب الشذوذ والخلاف والفرقة.

وقال: ولا نخالف جماعة المسلمين.

وقال: ونرى الجماعة حقا وصواباً، والفرقة زيغاً وعذاباً.

قال تعالى: ﴿ وَٱعْتَصِمُواْ بِحَبْلِ ٱللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُواْ ﴾ [آل عمران: ١٠٣]. **وقال:** ﴿ وَلَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ تَفَرَّقُواْ وَٱخْتَلَفُواْ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ ۚ وَأُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴾ [آل عمران:١٠٥]. **وقال:** ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ فَرَّقُواْ دِينَهُمْ وَكَانُواْ شِيَعًا لَّسْتَ مِنْهُمْ فِى شَىْءٍ ۚ إِنَّمَآ أَمْرُهُمْ إِلَى ٱللَّهِ ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا كَانُواْ يَفْعَلُونَ ﴾ [الأنعام: ١٥٩]. **وقال:** ﴿ وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ ۝١١٨ إِلَّا مَن رَّحِمَ رَبُّكَ ﴾ [هود: ١١٨-١١٩]. **فجعل أهل الرحمة مستثنين من الاختلاف.**

وروى أحمد عن معاذ بن جبل أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: ((إن الشيطان ذئب الإنسان كذئب الغنم، يأخذ الشاة القاصية، والناحية، فإياكم والشعاب، وعليكم بالجماعة والعامة والمسجد))[1].

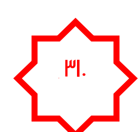
قال صلى الله عليه وسلم: ((إن أهل الكتابين افترقوا في دينهم على ثنتين وسبعين ملة، وإن هذه الأمة ستفترق على ثلاث وسبعين ملة، يعني الأهواء، كلها في النار إلا واحدة وهي الجماعة)) .

وفي رواية قالوا ما هي يا رسول الله؟ قال: ((ما أنا عليه وأصحابي))، فبين أن عامة المختلفين هالكون إلا أهل السنة والجماعة.

وفي الصحيحين أنه قال صلى الله عليه وسلم لما نزل قوله تعالى: ﴿ قُلْ هُوَ ٱلْقَادِرُ عَلَىٰٓ أَن يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا مِّن فَوْقِكُمْ أَوْ مِن تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ ﴾ **[الأنعام: ٦٥]، قال: ((أعوذ بوجهك))** ﴿ أَوْ يَلْبِسَكُمْ شِيَعًا

---

(١)حم: ٥/٢٣٣ و ٢٤٣. كنز العمال: ١/٢٠٦، ح ١٠٢٧ . الديلمي ٢/٣٧٨، ح ٣٦٨٦. عن معاذ بن جبل.



﴿وَيُذِيقَ بَعۡضَكُم بَأۡسَ بَعۡضٍ﴾ [الأنعام: ٦٥]. قال: ((هاتان أهون))[1]. فدل على وقوع ذلك لا محالة! مع براءته صلى الله عليه وسلم من هذه الحال، وهم فيها في جاهلية.

والأمور التي تنازعت فيها الأمة في الأصول والفروع، وصارت فيها على غير بينة من أمرها إن رحم الله المتنازعين فيها أقر بعضهم بعضاً، ولم يبغ بعضهم على بعض، وهدوا إلى العدل، فيعمل كل فريق بما وصل إليه من آثار الأنبياء ولا يظلم غيره. وإن لم يرحموا وقع بينهم الاختلاف المذموم، فيبغي بعضهم على بعض إما بالقول، مثل تكفيره وتفسيقه، وإِمّا بالفعل مثل حبسه وضربه وقتله، كالذين امتحنوا الناس بخلق القرآن حيث ابتدعوا بدعة، كفَّروا من خالفهم فيها، واستحلوا منع حقه وعقوبته. وأكثر هؤلاء إما يظلمون مع علمهم بأنهم يظلمون. قال تعالى: ﴿وَمَا ٱخۡتَلَفَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ إِلَّا مِنۢ بَعۡدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلۡعِلۡمُ بَغۡيَۢا بَيۡنَهُمۡ﴾ [آل عمران:١٩] وذلك كمن يدعي من المقلدين أن قول مقلده هو الصحيح بلا حجة يبديها، ويذم من خالفه مع أنه معذور. ولو سلكوا ما علموه من العدل لأقر بعضهم بعضاً، ولم يظلم أحدهم الآخر أو يعتدي عليه.

أنواع الاختلاف:

أنواع الاختلاف في الأصل قسمان: اختلاف تنوع واختلاف تضاد.

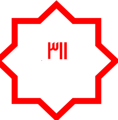
(١) اختلاف التنوع:

اختلاف التنوع على وجوه: فمنه ما يكون كل واحد من القولين أو الفعلين مشروعاً، كالقراءات التي اختلف فيها الصحابة حتى زجرهم صلى الله عليه وسلم وقال: ((كلاكما محسن))، وكاختلاف الأنواع في صفة الأذان والإقامة والاستفتاح والتشهد وصلاة الخوف وتكبيرات العيد ونحو ذلك، فقد شرع جميعه، وإن كان بعض أنواعه أرجح وأفضل، وتعجب إذ يقتتل بعض الناس على مثل ذلك.

ومنه ما يكون كل من القولين في معنى القول الآخر، لكن العبارتين مختلفتان، وذلك كالاختلاف في ألفاظ الحدود وصوغ الأدلة ونحو ذلك، ثم يحمل الجهل أو الظلم على حمد إحدى المقالتين وذم

---

(١)خ: تفسير سورة الأنعام، ح ٤٣٥٢، و التوحيد، ب٦ ١، ح ٦٩٧١. عن جَابِر بن عبد الله.



الأخرى والاعتداء على قائلها.

وقد دل القرآن الكريم على حمد كل واحدة من الطائفتين في مثل ذلك إذا لم يحصل بغي. قال تعالى: ﴿ مَا قَطَعْتُم مِّن لِّينَةٍ أَوْ تَرَكْتُمُوهَا قَآئِمَةً عَلَىٰٓ أُصُولِهَا فَبِإِذْنِ ٱللَّهِ ﴾ [الحشر: ٥]. وكانوا قد اختلفوا في قطع الأشجار، فقطع قوم، وترك آخرون. وقال تعالى: ﴿ وَدَاوُۥدَ وَسُلَيْمَٰنَ إِذْ يَحْكُمَانِ فِى ٱلْحَرْثِ إِذْ نَفَشَتْ فِيهِ غَنَمُ ٱلْقَوْمِ وَكُنَّا لِحُكْمِهِمْ شَٰهِدِينَ ﴿٧٨﴾ فَفَهَّمْنَٰهَا سُلَيْمَٰنَ ۚ وَكُلًّا ءَاتَيْنَا حُكْمًا وَعِلْمًا ﴾ [الأنبياء: ٧٨- ٧٩].

فخص سليمان بالفهم وأثنى عليهما بالحكم والعلم. وقد أقر النبي صلى الله عليه وسلم يوم بني قريظة من صلى العصر في وقتها، ومن أخرّها إلى أن وصل إلى بني قريظة.[١]

وقال صلى الله عليه وسلم : ((إذا اجتهد الحاكم فأصاب فله أجران، وإذا اجتهد فأخطأ فله أجر))[٢]. وإنما يقع الذم في هذا الاختلاف على من بغى على الآخر فيه.

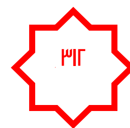
(٢) اختلاف التضاد:

وأما اختلاف التضاد فهو القولان المتنافيان، إما في الأصول، وإمَّا في الفروع عند الجمهور الذين يقولون: المصيب واحد. والخطب هنا أشد لتنافي القولين، لكن قد يرد صاحب الحق قول منازعه وإن كان فيه شيء من الحق فيبقى مبطلاً في البعض كما كان منازعه مبطلاً في الأصل، وهذا يجري كثيرًا لأهل السنة، وفي هذا الاختلاف تحمد إحدى الطائفتين وتذم الأخرى، كما في هذه الآيات: قال تعالى:

﴿ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا ٱقْتَتَلَ ٱلَّذِينَ مِنۢ بَعْدِهِم مِّنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ وَلَٰكِنِ ٱخْتَلَفُوا۟ فَمِنْهُم مَّنْ ءَامَنَ وَمِنْهُم مَّن كَفَرَ ﴾ [البقرة:٢٥٣]. وقال: ﴿ هَٰذَانِ خَصْمَانِ ٱخْتَصَمُوا۟ فِى رَبِّهِمْ ۖ فَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ قُطِّعَتْ لَهُمْ ثِيَابٌ ﴾[الحج: ١٩].

وأكثر الاختلاف الذي يؤول إلى الأهواء بين الأمة من القسم الأول، لأن إحدى الطائفتين لا تعترف للأخرى بما معها من الحق، ولا تنصفها، بل تزيد على ما مع نفسها من الحق زيادات من الباطل

(١)خ: الخوف، ب ٥، ح ٩٠٤، والمغازي، ب ٢٨، ح ٣٨٩٣. م: الجهاد، ب ٢٣، ح ٦٩- عن ابن عمر.
(٢)خ: الاعتصام، ب ٢١، ح ٦٩١٩. م: الأقضية، ب ٦، ح ١٥. د: الأقضية، ب ٢، ح ٣٥٧٤، ت: الأحكام ب ٢، ح ٢٣٢٦. س: القضاة، ب ٣، ح ٥٣٨٣. ق: الأحكام، ب ٣ ح ٢٣١٤. حم: ٢/١٨٧- عن عمرو بن العاص وأبي هريرة.



والأخرى كذلك، ولذلك جعل الله مصدره البغي في قوله: ﴿ وَمَا ٱخْتَلَفَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْعِلْمُ بَغْيًۢا بَيْنَهُمْ ﴾ [آل عمران: ١٩]، لأن البغي مجاوزة الحد.

الاختلاف في الكتاب :

الاختلاف في الكتاب نوعان:

- اختلاف في تنـزيله، وذلك كاختلافهم في تكلم الله بالقرآن، وتنزيله، وقد سبق بيانه.

- اختلاف في تأويله،كما في هذا الحديث:

روى عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده قال: خَرَجَ رسول الله صلى الله عليه وسلم على أصحابه ذات يوم وهم يختصمون في القدر، هذا ينـزع بآية، وهذا ينـزع بآية، فَكَأَنَّمَا فقئ في وجهه حب الرمان فقال: ((أبهذا أمرتم؟ أم بهذا وكلتم؟ أن تضربوا كتاب الله بعضه ببعض، انظروا ما أمرتم به فاتبعوه وما نهيتم عنه فانتهوا))[(١)]

وروى مسلم في صحيحه عن عبد الله بن عمر قال: هَجَّرتُ إلى النبي صلى الله عليه وسلم يَوْمًا فسمعت أصوات رجلين اختلفا في آية، فخرج علينا رسول الله صلى الله عليه وسلم يُعرف في وجهه الغضب فقال: ((إنما هلك من كان قبلكم باختلافهم في الكتاب)). [(٢)] وكلا الاختلافين فيه إيمان ببعض دون بعض.

أهل البدع كافة مختلفون في تأويل الكتاب، مؤمنون ببعضه دون بعض:

وجميع أهل البدع مختلفون في تأويله مؤمنون ببعضه دون بعض، يقرون بما يوافق رأيهم من الآيات، وأما ما خالفه فإنهم يقابلونه إما بالتأويل الذي يحرفون به الكلم عن مواضعه، أو بالتفويض كقولهم: هذا مما لا نفهم من معانيه، وهو في معنى الكفر بذلك، لأن الإيمان باللفظ بلا معنى هو من جنس إيمان أهل الكتاب. قال تعالى: ﴿ مَثَلُ ٱلَّذِينَ حُمِّلُوا۟ ٱلتَّوْرَىٰةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ ٱلْحِمَارِ يَحْمِلُ

---

(١)ت: القدر، ب ١، ح ٢١٣٣، ق: المقدمة، ب ١٠، ح ٨٥. حم ٢/١٧٩. عن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده وأبي هريرة، وقال الترمذي: حسن.

(٢)م: العلم، ب ١.، ح ٢.



﴿ أَسۡفَارٗا ﴾ [الجمعة:٥]. وقال تعالى: ﴿ وَمِنۡهُمۡ أُمِّيُّونَ لَا يَعۡلَمُونَ ٱلۡكِتَٰبَ إِلَّآ أَمَانِيَّ ﴾ [البقرة: ٧٨] أي تلاوة بلا فهم. وليس هذا كالمؤمن الذي يعمل بما فهم من القران، ويفوض إلى الله ما اشتبه عليه،كما أمره بذلك النبي صلى الله عليه وسلم .

قال صلى الله عليه وسلم: ((.. فما عرفتم منه فاعملوا به، وما جهلتم منه فردوه إلى عالمه))[1].

---

(١) مجمع الزوائد باب القراءات رقم (١١٥٧٤).

المبحث الثالث:وجوب الحج والجهاد مع البر والفاجر

قال المصنف رحمه الله تعالى: والحج والجهاد ماضيان مع أولي الأمر من المسلمين، برهم وفاجرهم إلى قيام الساعة، لا يبطلهما شيء ولا ينقضهما.

فيه رد على الرافضة حيث قالوا: لا جهاد حتى يخرج الرضى من آل محمد، وينادي مناد من السماء اتبعوه، وبطلان هذا القول لا يحتاج إلى دليل. كذلك اشترطوا أن يكون الإمام معصوماً اشْتِرَاطًا بغير دليل.

ففي صحيح مسلم عن عوف بن مالك الأشجعي قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: ((خيار أئمتكم الذين تحبونهم ويحبونكم، وتصلون عليهم ويصلون عليكم، وشرار أئمتكم الذين تبغضونهم ويبغضونكم، وتلعنونهم ويلعنونكم)) قال: قلنا يا رسول الله أفلا ننابذهم عند ذلك؟ قال: ((لا ما أقاموا فيكم الصلاة، إلا من ولي عليه وال ورآه يأتي شيئاً من معصية الله فليكره ما يأتي من معصية الله ولا ينـزعن يَداً من طاعة))[1].

والرافضة من أخسر الناس صفقة في هذه المسألة، فقد جعلوا المعصوم هو اَلإمَام المعدوم، فإنهم يدعون أنه الإمام محمد بن الحسن العسكرى الذي اختفى في السرداب سنة ٢٦٠ هـ، أو قَرِيبًا من ذلك بسامرا، فهم يقفون بباب السرداب في أوقات عينوا فيها من ينادي عليه أخرج يا مولانا! اخرج! مجهزين له دابة ليركبها إذا خرج، شاهرين أسلحتهم إلى غير ذلك من الأمور التي يضحك عليها العقلاء.

وقوله: (مع أولي الأمر برهم وفاجرهم) لأن الحج والجهاد فرضان متعلقان بالسفر، فلا بد من سائس يسوس فيهما ويقاوم فيهم العدو، وهذا يحصل بالبر والفاجر.

---

(١) م : الإِمَارَة، ب ١٧، ح ٦٥، ٦٦. حم ٦/٢٤. عن عوف بن مالك.

المبحث الرابع:عدم الخروج علي ائمة الجور

قال المصنف رحمه الله تعالى: ولا نرى الخروج على أئمتنا وولاة أمورنا، وإن جاروا، ولا ندعو عليهم ولا ننزع يداً من طاعتهم، ونرى طاعتهم من طاعة الله عز وجل فريضة، ما لم يأمروا بمعصية، وندعو لهم بالصلاح والمعافاة.

دل الكتاب والسنة على وجوب طاعة أولي الأمر ما لم يأمروا بمعصية. قال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَأُوْلِي ٱلۡأَمۡرِ مِنكُمۡ ﴾ [النساء : ٥٩]. **فقال: وأطيعوا الرسول، ولم يقل: وأطيعوا أولي الأمر منكم، لأن أولي الأمر لا يطاعون إلا فيما هو طاعة لله ورسوله، فليست لهم طاعة مستقلة، بخلاف الرسول فإنه لا يأمر بغير طاعة الله فهو معصوم في ذلك فثبتت له طاعة مستقلة.**

وفي الصحيحين قال صلى الله عليه وسلم : ((على المرء المسلم السمع والطاعة فيما أحب وكره إلا أن يؤمر بمعصية، فإن أمر بالمعصية فلا سمع ولا طاعة))[(١)].

عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: قال صلى الله عليه وسلم : ((من رأى من أميره شيئاً يكرهه فليصبر فإنه من فارق الجماعة شِبْرًا فمات فميتته جاهلية)). وفي رواية: ((فقد خلع ربقة الإسلام من عنقه))[(٢)].

عن أبي سعيد الخدري قال: قال صلى الله عليه وسلم: ((إذا بويع الخليفتان فاقتلوا الآخر منهما))[(٣)].

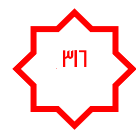
لقد دلت النصوص السابقة على وجوب طاعة أولي الأمر- وإن جاروا- ما لم يأمروا بمعصية، والحكمة من ذلك أنه يترتب على الخروج من طاعتهم من المفاسد أضعاف ما يحصل من جورهم، بل في

---

(١)خ: الجهَاد، ب ١٠٧، ح ٢٧٩٦، والأحكام، ب ٤، ح ٦٧٢٥. م الإمارة، ب ٨، ح: ٣٨. ت الجهاد، ب ٢٩، ح ١٧٠٧. ق: الجهَاد، ب ٤٠، ح ٢٨٦٤. عن ابن عمر.

(٢)خ : الفتن، ب ٢، ح ٦٦٤٥ و ٦٦٤٦، والأحكام، ب ٤، ح ٦٧٢٤. م الإمارة، ب ١٣، ح ٥٥ و ٥٦. حم: ٤/٦٣٠- عن ابن عباس.

(٣)م: الإمارة، ب ١٥، ح ١٦. ك: ٣/١٥٦. عن أبي سعيد.



الصبر على جورهم تكفير السيئات، ومضاعفة الأجور، فإن الله ما سلطهم علينا إلا لفساد أعمالنا، والجزاء من جنس العمل، فعلينا الاجتهاد بالِاسْتِغْفَارِ والتوبة، وَإِصْلَاح العمل.

قال تعالى: ﴿ وَمَآ أَصَٰبَكُم مِّن مُّصِيبَةٖ فَبِمَا كَسَبَتۡ أَيۡدِيكُمۡ وَيَعۡفُواْ عَن كَثِيرٖ ﴾ [الشورى: ٣٠]. وقال: ﴿ وَكَذَٰلِكَ نُوَلِّي بَعۡضَ ٱلظَّٰلِمِينَ بَعۡضَۢا بِمَا كَانُواْ يَكۡسِبُونَ ﴾ [الأنعام: ١٢٩]. وقال:﴿ مَّآ أَصَابَكَ مِنۡ حَسَنَةٖ فَمِنَ ٱللَّهِۖ وَمَآ أَصَابَكَ مِن سَيِّئَةٖ فَمِن نَّفۡسِكَ ﴾ [النساء: ٧٩]. فإذا أراد الرعية أن يتخلصوا من ظلم الأمير الظالم فليتركوا الظلم.

عن مالك بن دينار أنه جاء في بعض الكتب: أنا الله مالك الملك، قلوب الملوك بيدي، فمن أطاعني جعلتهم عليه رحمة، ومن عصاني جعلتهم عليه نقمة، فلا تشغلوا أنفسكم بسب الملوك لكن توبوا أعطفهم عليكم[1].

(١)مجمع الزوائد: ٥/٢٤٩. وقال رواه الطبراني في الأوسط وفيه إبراهيم بن راشد وهو متروك.

المبحث الخامس: جواز المسح علي الخفين في السفر والحضر

قال المصنف رحمه الله تعالى: ونرى المسح على الْخُفَّيْنِ في السفر وَالْحَضر، كما جاء في الأثر.

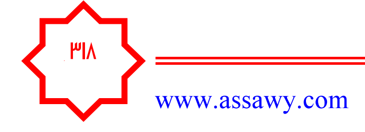
تواترت السنة عن رسول الله صلى الله عليه وسلم بالمسح على الخفين وبغسل الرجلين، وخالفت ذلك الرافضة، مستدلين بقراءة الخفض في آية المائدة. قال تعالى: ﴿ وَٱمۡسَحُواْ بِرُءُوسِكُمۡ وَأَرۡجُلَكُمۡ إِلَى ٱلۡكَعۡبَيۡنِ ﴾ [المائدة: ٦].

الرد على الرافضة: يقال لهم: إن الذين نقلوا عن النبي صلى الله عليه وسلم الوضوء قولاً وفعلاً أكثر عَدَدًا من الذين نقلوا لفظ هذه الآية، لأن جميع المسلمين كانوا يتوضؤون على عهده، ولم يتعلموا الوضوء إلا منه، وقد نقلوا عنه غسل الرجلين في ما شاء الله من الحديث، حتى نقلوا عنه من غير وجه في كتب الصحيح وغيرها: ((ويل للأعقاب وبطون الأقدام من النار))، فلو جاز الطعن في تواتر صفة الوضوء لكان في نقل لفظ الآية أقرب إلى الجواز!!

فإن قالوا: لفظ الآية ثبت بالتواتر الذي لا يمكن فيه الكذب، ولا الْخَطَأ.

قلنا: إن ثبوت التواتر في نقل الوضوء عنه أولى وَأَكْمَل.

ولفظ الآية لا يخالف ما تواتر من السنة، فإن المسح قد يراد به الإصابة، وقد يراد به الإسالة كما تقول العرب: تمسحت للصلاة. وفي قوله:﴿ إِلَى ٱلۡكَعۡبَيۡنِ ﴾ دليل على أن المراد بالمسح هنا هو الغسل، لأن من يمسح المسح الخاص يجعل المسح لظهور القدمين، فجعل الكعبين في الآية غاية، يرد قولهم. وفي الآية قراءتان مشهورتان النصب، والخفض، وقراءة النصب نص وجوب الغسل لأن الْعَطْف على المحل إنما يكون اذا كان المعنى وَاحِدًا. وليس المعنى: (مسحت برأسي ورجلي)هو معنى (مسحت رأسي ورجلي) بل ذكر الباء يفيد معنى زَائِدًا على مجرد المسح وهو إلصاق شيء من الماء بالرأس، فتعين العطف على قوله: (وأيديكم).



فالسنة المتواترة تقضي على ما يفهمه البعض من ظاهر القرآن، فإن الرسول صلى الله عليه وسلم قد بين للناس لفظ القرآن ومعناه.

وفي ذكر المسح في الرجلين تنبيه على قلة الصب في الرجلين، لأن السرف يعتاد فيهما كَثِيرًا وتفصيل هذه المسألة في كتب الفروع.

الفصل الثالث: حقيقة الدين وتوسطه بين الإفراط والتفريط

قال المصنف رحمه الله تعالى: ودين الله في الأرض والسماء واحد، وهو دين الإسلام، قال تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلۡإِسۡلَٰمُ ﴾ [آل عمران: ١٩]، **وقال تعالى:** ﴿ وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلۡإِسۡلَٰمَ دِينًا ﴾[المائدة: ٣]. وهو بين الغلو والتقصير، وبين التشبيه والتعطيل، وبين الجبر والقدر، وبين الأمن والإياس.

المبحث الأول:حقيقة الدين

قال المصنف رحمه الله:ودين الله في الأرض والسماء واحد،وهو دين الإسلام.

الدين هو ما شرعه الله لعباده على ألسنة رسله، وهو ظاهر غاية في الظهور يدخل فيه اَلْإِنْسَان بأقصر زَمَان ويخرج منه بأسرع من ذلك؛ من إنكار كلمة، أو تكذيب، أو معارضة، أو كذب على الله تعالى أو ارتياب في قوله، أو رد لما أنزل، أو شك فيما نفي عنه الشك، أو غير ذلك مما في معناه.

ودين الله في الأرض والسماء واحد، وهو عام في كل زمان، ولكن الشرائع متنوعة. قال تعالى: ﴿ وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَٰمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ ﴾ [آل عمران: ٨٥].

وقال صلى الله عليه وسلم :((إنا معاشر الأنبياء ديننا واحد))[١].

وقال تعالى: ﴿ لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا ﴾ [المائدة: ٤٨].

ظهور الدين وسهولة تعلمه:

وقد دل الكتاب والسنة على ظهور دين الإسلام وسهولة تعلمه، وأنه يتعلمه الوافد ثم يولي في وقته، واختلاف تعليم النبي صلى الله عليه وسلم في بعض الألفاظ بحسب حال من يتعلم.

فمن كان بعيد الموطن كوفد عبد القيس علمهم ما لا يسعهم جهله.

ومن كان قريبًا يمكنه الإتيان في كل وقت بحيث يتعلم على التدرج، أجابه بحسب حاله وحاجته كالذي قال له: ((قل آمنت بالله ثم استقمْ))[٢].

وسطية الدين:

كَوْنه وَسَطًا بين الغلو وَالتَّقْصِير: قال تعالى: ﴿ قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لَا تَغْلُوا۟ فِى دِينِكُمْ غَيْرَ ٱلْحَقِّ ﴾ [المائدة: ٧٧]. **وقال تعالى:** ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تُحَرِّمُوا۟ طَيِّبَٰتِ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوٓا۟

---

(١)خ: الأنبياء، ب ٤٩، ح ٣٢٥٩. م: الفضائل النبوية، ب ٤٠، ح١٤٥ باختلاف يسير.

(٢) مسند أحمد من حديث سفيان بن عبد الثقفي.

﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ ﴿٨٧﴾ وَكُلُوا۟ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ حَلَٰلًا طَيِّبًا ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ٱلَّذِىٓ أَنتُم بِهِۦ مُؤْمِنُونَ ﴾[المائدة ٨٧، ٨٨].

وقد ذكر في سبب نزول هذه الآية الكريمة أن عثمان بن مظعون وعلي بن أبي طالب، وابن مسعود والمقداد بن الأسود وَسَالِمًا مولى أبي حذيفة في أصحابه تبتلوا فجلسوا في البيوت، واعتزلوا النساء ولبسوا المسوح، وحرموا طَيِّبَات الطعام واللباس، الا ما يأكل، ويلبس أهل السياحة من بني إسرائيل وهموا بالاختصاء وأجمعوا لِقِيَام الليل وصيام النهار فنزلت هذه الآية. فبعث إليهم النبي صلى الله عليه وسلم فقال: ((إن لأنفسكم عليكم حقا، وإن لأعينكم حقا، صوموا وأفطروا، وصلوا وناموا، فليس منا من ترك سنتنا))، فقالوا: اللهم سَلَّمْنَا وَاتَّبَعْنَا مَا أنزلت[1].

وفي الصحيحين عن عائشة: أن نَاسًا من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم سألوا أزواج رسول الله صلى الله عليه وسلم عن عمله في السر؟ فقال بعضهم: لا آكل اللحم، وقال بعضهم: لا أتزوج النساء، وقال بعضهم: لا أنام على فراش، فبلغ ذلك النبي صلى الله عليه وسلم فقال: ((ما بال أقوام يقول أحدهم كذا وكذا؟ لكني أصوم وأفطر، وأنام وأقوم، وآكل اللحم، وأتزوج النساء، فمن رغب عن سنتي فليس مني))[2].

وبين التشبيه والتعطيل: فيجب أن يوصف الله عز وجل بما وصف به نفسه، وبما وصفه به رسول الله صلى الله عليه وسلم.

من غير تشبيه، فلا يُقَال سمع كسمعنا ونحوه.

ومن غير تعطيل، فلا ننفي عنه ما وصف به نفسه أو وصفه به رسول الله صلى الله عليه وسلم فإن ذلك تعطيل.

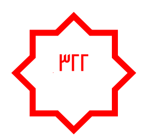
وهذا المعنى مستفاد من قوله: ﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴾ [الشورى: ١١]. فقوله: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾ رد على المشبهة. وقوله:﴿ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ رد على المعطلة.

وبين الجبر والقدر: فالعبد ليس مَجْبُورًا على أقواله وأفعاله، وليس بخالق لها، بل هي فعله وكسبه، وخلق الله تعالى.

---

(١) لم نعثر عليه.

(٢) خ: النكاح، ب ١، ح ٤٧٧٦. م: النكاح، ب ١، ح ٥. س: النكاح، ب ٤، ح ٣٢١٩- عن أنس به مالك.



وبين الأمن والإيَاسِ: فيجب أن يكون العبد خائِفًا من عذاب ربه، رَاجيًا لرحمته، فالخوف والرجاء بمنزلة الجناحين للعبد في سيره إلى الله تعالى والدار الآخرة.

المبحث الثاني:أهل القبلة بين الخوف والرجاء

قال المصنف رحمه الله : ونرجو للمحسنين من المؤمنين أن يعفو عنهم ويدخلهم الجنة برحمته، ولا نأمن عليهم، ولا نشهد لهم بالجنة، ونستغفر لمسيئهم، ونخاف عليهم، ولا نقنطهم.

وقال: والأمن والإياس ينقلان عن ملة الإسلام، وسبيل الحق بينهما لأهل القبلة.

يجب على المؤمن أن يعتقد هذا الذي قاله الشيخ رحمه الله في حق نفسه وفي حق غيره.

فيجب أن يكون العبد خائفاً راجياً؛ فإن الخوف المحمود ما حال بين صاحبه وبين محارم الله، فإذا تجاوز ذلك خيف منه اليأس والقنوط. والرجاء المحمود رجاء رجل عمل بطاعة الله على نور من الله، فهو راج لثوابه، أو رجل أذنب ذنباً ثم تاب منه إلى الله فهو راج لمغفرته، أما إذا كان الرجل متمادياً في التفريط والخطايا يرجو رحمة الله بلا عمل فهذا هو الغرور والتمني والرجاء الكاذب.

وقد مدح الله أهل الخوف والرجاء بقوله : ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ يَبۡتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ ٱلۡوَسِيلَةَ أَيُّهُمۡ أَقۡرَبُ وَيَرۡجُونَ رَحۡمَتَهُۥ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُۥٓۚ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحۡذُورٗا ﴾ [الإسراء:٥٧]، **وقال:** ﴿ أَمَّنۡ هُوَ قَٰنِتٌ ءَانَآءَ ٱلَّيۡلِ سَاجِدٗا وَقَآئِمٗا يَحۡذَرُ ٱلۡأٓخِرَةَ وَيَرۡجُواْ رَحۡمَةَ رَبِّهِۦ ﴾ [الزمر:٩] **وقال:** ﴿ تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمۡ عَنِ ٱلۡمَضَاجِعِ يَدۡعُونَ رَبَّهُمۡ خَوۡفٗا وَطَمَعٗا ﴾ [السجدة:١٦] **وقال:** ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ هُم مِّنۡ خَشۡيَةِ رَبِّهِم مُّشۡفِقُونَ ۝٥٧ وَٱلَّذِينَ هُم بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمۡ يُؤۡمِنُونَ ۝٥٨ وَٱلَّذِينَ هُم بِرَبِّهِمۡ لَا يُشۡرِكُونَ ۝٥٩ وَٱلَّذِينَ يُؤۡتُونَ مَآ ءَاتَواْ وَّقُلُوبُهُمۡ وَجِلَةٌ أَنَّهُمۡ إِلَىٰ رَبِّهِمۡ رَٰجِعُونَ ﴾ [المؤمنون:٥٧-٦١]، **وفي المسند والترمذي عن عائشة قالت: قلت: يا رسول الله**﴿ وَٱلَّذِينَ يُؤۡتُونَ مَآ ءَاتَواْ وَّقُلُوبُهُمۡ وَجِلَةٌ ﴾**هو الذي يزني ويشرب الخمر ويسرق؟ قال: ((لا يا ابنة الصديق ولكنه الرجل يصوم ويصلي ويتصدق ويخاف أن لا يقبل منه)). قال الحسن: عملوا والله بالطاعات واجتهدوا فيها وخافوا أن ترد عليهم، إن المؤمن جمع إحسانا وخشية والمنافق جمع إساءة وأمنا.**

قال تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱلَّذِينَ هَاجَرُواْ وَجَٰهَدُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ أُوْلَٰٓئِكَ يَرۡجُونَ رَحۡمَتَ ٱللَّهِۚ وَٱللَّهُ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ﴾ [البقرة:٢١٨].

فجعل رجاءهم مع إيمانهم بهذه الطاعات. فالرجاء إنما يكون مع الإتيان بالأسباب التي اقتضتها حكمة الله تعالى شرعه وقدرته وثوابه وكرامته ؛ فلو أن رجلا رجا أن يجني غلة أرضه من غير حرث وزرع وتعاهد للأرض، أو أن يجيئه ولد من غير جماع، أو يصير أعلم أهل زمانه من غير طلب العلم وحرص تام وأمثال ذلك، لعده الناس من أسفه السفهاء. فكذلك من حسن ظنه وقوي رجاؤه في الفوز بالدرجات العلى والنعيم المقيم من غير طاعة ولا تقرب إلى الله تعالى بامتثال أوامره واجتناب نواهيه.

ومما ينبغي أن يُعلم أن من رجا شيئا استلزم رجاؤه أموراً : أحدها: محبة ما يرجوه، الثاني: خوفه من فواته، الثالث: سعيه في تحصيله بحسب الإمكان. وأما رجاء لا يقارنه شيء من ذلك فهو من باب الأماني، والرجاء شيء والأماني شيء آخر فكل راج خائف. والسائر على الطريق إذا خاف أسرع السير مخافة الفوات.

قال أبو علي الروذباري رحمه الله : الخوف والرجاء كجناحي الطائر إذا استويا استوى الطير وتم طيرانه وإذا نقص أحدهما وقع فيه النقص وإذا ذهبا صار الطائر في حد الموت. فالرجاء يستلزم الخوف ولولا ذلك لكان أمنا والخوف يستلزم الرجاء ولولا ذلك لكان قنوطا ويأسا، وكل أحد إذا خفته هربت منه إلا الله تعالى فإنك إذا خفته هربت إليه، فالخائف هارب من ربه إلى ربه.

وقد قال صلى الله عليه وسلم : ((يقول الله عز وجل أنا عند ظن عبدي بي فليظن بي ما شاء))،[1] وقال قبل موته بثلاث : ((لا يموتن أحدكم إلا وهو يحسن الظن بربه)).[2] ولهذا قيل إن العبد ينبغي أن يكون رجاؤه في مرضه أرجح من خوفه بخلاف زمن الصحة فإنه يكون خوفه أرجح من رجائه.

قال بعضهم: من عبد الله بالحب وحده فهو زنديق، ومن عبده بالخوف وحده فهو مرجئ.

وأما المشرك فلا ترجى له المغفرة لأن الله نفى عنه المغفرة، وما سواه من الذنوب في مشيئة الله إن شاء الله غفر له وإن شاء عذبه ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ ﴾ [النساء:٤٨].

وقد يقترن بالكبيرة من الخوف والحياء ما يلحقها بالصغائر، وقد يقترن بالصغيرة من الاستهانة وعدم المبالاة ما يلحقها بالكبائر، وهذا أمر مرده إلى ما يقوم بالقلب.

---

(١) مجمع الزوائد كتاب الجنائز باب حسن الظن بالله (٣٨٨٧).
(٢) مسلم باب الأمر بحسن الظن بالله تعالى عند الموت (٢٨٧٧).

قال المصنف رحمه الله تعالى: فهذا ديننا واعتقادنا ظاهراً وباطناً، ونحن برآء إلى الله تعالى من كل من خالف الذي ذكرناه وبيَّناه، ونسأل الله تعالى أن يثبتنا على الإيمان، ويختم لنا به، ويعصمنا من الأهواء المختلفة والآراء المتفرقة والمذاهب الردية، مثل المشبهة، والمعتزلة، والجهمية، والجبرية، والقدرية، وغيرهم، من الذين خالفوا السنة والجماعة، وحالفوا الضلالة، ونحن منهم برآء، وهم عندنا ضلال وأردياء، وبالله العصمة والتوفيق.

الإشارة بقوله: (فهذا) إلى كل ما تقدم من أول الكِتاب إلى هنا.

- **المشبهة: هم الذين شبهوا الله بخلقه في صفاته كداود الجَوَارِبي وأشباهه، وقولهم عكس قول النصارى الذين شبهوا المخلوق بالخالق وجعلوه إِلَهًا.**

- **المعتزلة: والمعتزلة هم عمرو بن عبيد وواصل بن عطاء وَأتبَاعهمَا. وسموا بذلك لاعتزالهم الجماعة بعد موت الحسن البصري في أوائل المائة الثانية.**

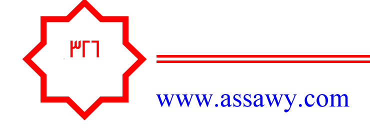
وأصول مَذْهَبهم خمسة أطلقوا عليها :

(١) العدل (٢) التوحيد (٣) إنفاذ الوعيد.

(٤) المنـزلة بين المنـزلتين (٥) الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

١. أما العدل: فقد ستروا تحته نفي القدر، وقالوا لا يخلق الله الشر، ولا يقضي به، إذ لو خلقه وعذب عليه لكان ذلك جَوْرًا والله مُنَزَّه عن ذلك. ويلزم على هذا الأصل الفاسد نسبة العجز إلى الله إذ يقع في ملكه ما لا يريده.

٢. وأما التوحيد: فقد ستروا تحته القول بخلق القرآن، إذ لو كان غير مخلوق لزم تعدد القدماء، ويلزمهم القول بأن سائر صفاته مخلوقة، أو التناقض.



٣. وأما الوعيد: فقد قالوا بوجوب نَفَاذ ما أوعد الله به لأنه لا يخلف الميعاد ويلزمهم أنه عز وجل لا يعفو عمن يشاء، ولايغفرلمن يريد.

٤. وأما المنـزلة بين المنـزلتين: فعندهم أن من ارتكب الكبيرة خرج من الإيمان، ولم يدخل في الكفر.

٥. وأما الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر: فقد قالوا: إنه يجب علينا أن نأمر غيرنا بما أمرنا به وأن نلزمه بما يلزمنا. وضمنوه أنه يجوز الخروج على الأئمة بالقتال إذا جاروا. وهم مشبهة الأفعال، لأنهم قاسوا أفعال الله تعالى على أفعال العباد.

فقالوا ما يحسن من العباد يحسن منه، وَمَا يقبح من العباد يقبح منه، ويجب عليه أن يفعل كذا ولا يجوز له أن يفعل كذا. وهو فاسد، فان السيد من البشر لو رأى عبيده تزني بِإِمَائِهِ ولم يمنعهم، يعد إما مُسْتحْسِنًا للقبيح، أو عَاجِزًا عنها فكيف يصح قياس أفعاله تعالى على أفعال عباده؟! وعندهم أن التوحيد والعدل من الأصول العقلية التي لا يعلم صحة السمع إلا بعدها، فالقرآن والسنة فيها بمنزلة الشهود الزائدين على النصاب، فالاستدلال بهما للاعتضاد بهما، لا للاعتماد عليهما، فهم بمنزلة من يتبع هواه، واتفق أن الشرع ما يهواه.

قال عمر بن عبد العزيز: لا تكن ممن يتبع الحق إذا وافق هواه، ويخالفه إذا خالف هواه، فإذا أنت لا تثاب على مَا وافقته من الحق، وتعاقب على ما تركته منه لأنك إنما اتبعت هواك في الموضعين.

وفي المعتزلة زنادقة كثيرة، وفيهم من ضل سعيه في الحياة الدنيا وهم يحسبون أنهم يحسنون صُنْعًا.

- الجهمية: والجهمية هم المنتسبون إلى جَهْم بن صفوان السمرقندي، وهو الذي أظهر نفي الصفات والتعطيل وكان قد أخذ ذلك عن الجعد بن درهم الذي ضحى به خالد بن عبد الله القسري بعد استفتاء علماء زمانه. وكان الجهم بعده بخراسان، فأظهر مقالته هناك، وتابعه عليها البعض بعد أن ترك الصلاة أربعين يَوْمًا شكاً في ربه إثرْ مناظرة جرت بينه وبين بعض فلاسفة الهند.

- فقد قالوا: ربك هذا الذي تعبده: هل يُرى؟ أو يشم؟ أو يذاق؟ أو يلمس؟ فقال: لا، فقالوا: هو معدوم فلما خلا قلبه من معبود يؤلهه نقش الشيطان اعتقاداً نحته فكره، فقال إنه الوجود المطلق ونفى جميع الصفات، واتصل بالجعد. وقتل الجهم بخراسان، قتله سلم بن أحوز، ولكن مقالته كانت قد

فشت في الناس وتقلدها بعده المعتزلة، إلا أن الجهم كان أدخل في التعطيل منهم، لأنه ينكر الأسماء حقيقة، وهم ينكرون الأسماء بل الصفات.

متى اشتهرت الجهمية؟

وَإِنّمَا اشتهرت مقالة الجهمية من حين محنة الإمَام أحمد بن حنبل وغيره من علماء السنة، فقد قويت شوكتهم في إمارة المأمون الذي كان قد أقام بخراسان مدة واجتمع بهم.

أمور تفرد بها الجهم:

ومما انفرد به الجهم ما يأتى:

- القول بفناء الجنة والنار.

- أنْ الإيمان هو المعرفة فقط، وأن الكفر هو الجهل فقط.

- القول بأن فعل العبد بمنـزلة لونه وطوله، وإن نسب إليه فعله فعلى سبيل المجاز،كما يقال: تحركت الشجرة، وزالت الشمس.

وقد تنازع العلماء في الجهمية: هل هم من الثنتين وسبعين فرقة أم لا؟ على قولين. وممن قال: إنهم ليسوا منهم عبد الله بن المبارك، ويوسف بن أسباط.

- الجبرية: أصل قولهم من الجهم، وهم عكس القدرية نفاة القدر فإنهم نسبوا إليه لنفيهم إياه، وقد تسمى الجبرية قدرية لأنهم غلوا في إثبات القدر.

- اَلْقَدَرِيَّة: القدرية هم نفاة القدر، وقد نسبوا إليه لنفيهم إياه، وقد تسمى الجبرية قدرية لأنهم غلوا في إثبات القدر.

وقد ورد في ذم القدرية أحاديث في السنن، منها: ما رواه أبو داود عن ابن عمر عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: ((القدرية مجوس هذه الأمة إن مرضوا فلا تعودوهم، وإن مَا توا فلا تشهدوهم)).

وقد روي في ذمهم أحاديث أخرى تكلم أهل الحديث في صحة رفعها، والصحيح أنّهَا موقوفة، بخلاف الأحاديث الواردة في ذم الخوارج، فإن فيهم في الصحيح وحده عشرة أحاديث، أخرج البخاري مِنهَا ثلاثة وأخرج مسلم سائرها.

لكن شبههم بالمجوس ظاهر، بل قولهم أردأ من قول المجوس، فإن المجوس اعتقدوا وجود خالقين



والقدرية اعتقدوا خالقين.

- المرجئة: سميت بذلك لنفيهم الإرْجَاء، وأنه لا أحد مُرْجَأ لأمر الله إمَّا يعذبهم وإما يتوب عليهم ومنهم من سموا بذلك لأنهم لا يجزمون بشيء من الوعد وَالْوَعِيد، بل يغلون في إرجاء كل أمر حتى الأنواع، فلا يجزمون بثواب من تاب، ولا بعقوبة من لم يتب.

وكانت المرجئة الأولى يرجئون عثمان وعلياً، ولا يشهدون بإيمان ولا كفر، وهذه البدع المتقابلة حدثت من الفتن المفرقة بين الأمة.

قال سعيد بن المسيب: وقعت الفتنة الأولى- يعني مقتل عثمان- فلم تبق من أصحاب بدر أحداً، ثم وقعت الفتنة الثانية فلم تبق من أصحَاب الحديبية أحداً، ثم وقعت الثالثة فلم ترتفع وللناس طباخ. أي: عقل وقوة.

- فالخوارج والشيعة حدثوا بعد الفتنة الأولى.

- والقدرية والمرجئة في الفتنة الثانية.

- والجهمية ونحوهم بعد الفتنة الثالثة.

فصار هؤلاء الذين فرقوا دينهم وكانوا شِيَعًا يقابلون البدعة بالبدعة. أولئك غلوا في على (أي: الشيعة)، وأولئك كفَّروه (أي: الخوارج)، وأولئك غلوا في الوعيد حتى خلَّدوا بعض المؤمنين في النار (أي: الخوارج)، وأولئك غلوا في الوعد حتى نفوا بعض الوعيد (أي: المرجئة)، وأولئك غلوا في التنـزيه حتى نفوا بعض الصفات (أى: الجهمية)، وأولئك غلوا في الإثبات حتى وقعوا في التشبيه (أي: المشبهة).

وسبب ضلال هذه الفرق جَمِيعًا عدولهم عن الصراط المستقيم الذي أمرنا الله باتباعه. قال تعالى: ﴿وأن هذا صراطي مُسْتَقِيمًا فاتبعوه ولا تتبعوا السبل فتفرق بكم عن سبيله ﴾[الأنعام: ١٥٣]. فوحد لفظ: صراطه وسبيله وجمع السبل المخالفة له.

قال ابن مسعود: خط لنا رسول الله صلى الله عليه وسلم خَطًّا وقال: ((هذا سبيل الله ((، ثم خط خُطوطًا عن يمينه وعن يساره، وقال: ((هذه سبل، على كل سبيل شيطان يدعو إليه، ثم قرأ:

﴿ وَأَنَّ هَـٰذَا صِرَٰطِى مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِۦ ۚ ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم

بِهِۦ لَعَلَّكُمۡ تَتَّقُونَ ﴾[١].

ومن هنا يعلم اضطرار العبد إلى سؤال الهداية إلى الصِّرَاط المستقيم فوق كل ضرورة، ولهذا شرع الله عز وجل قراءة أم القرآن في كل ركعة في الصلاة وفيها: ﴿ ٱهۡدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلۡمُسۡتَقِيمَ ۝٦ صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنۡعَمۡتَ عَلَيۡهِمۡ غَيۡرِ ٱلۡمَغۡضُوبِ عَلَيۡهِمۡ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ ﴾ . قال صلى الله عليه وسلم: ((اليهود مغضوب عليهم، والنصارى ضالون))[٢].

وقال صلى الله عليه وسلم: ((لتتبعن سنن من كان قبلكم حذو القذة بِالْقُذَّةِ حتى لو دخلوا جحر ضب لدخلتموه))، قالوا: يا رسول الله: اليهود والنصارى؟ قال: ((فمن؟)) [٣].

قال طائفة من السلف: من انحرف من العُلَمَاء ففيه شبه من اليهود، ومن انحرف من العبَّاد ففيه شبه من النصارى.

ولهذا نجد أكثر المنحرفين من أهل الكلام من المعتزلة ونحوهم فيهم شبه من اليهود، وأكثر المنحرفين من العباد من المتصوفة ونحوهم فيهم شبه من النصارى، ولهذا يميلون إلى نوع من الرهبانية والحلول.

مسالك الفرق الضالة في الوحي:

وللفرق الضالة في الوحي طريقتان: طريقة التبديل، وطريقة التجهيل.

(١) أما أهل التبديل فهم نوعان:

أهل الوهم والتخييل.

وأهل التحريف والتأويل.

فأهل الوهم والتخييل يقولون: إن الأنبياء أخبروا عن الله واليوم الآخر، والجنة والنار بأمور غير مطابقة للواقع، بل خاطبوهم بما يتخيلون به ويتوهمون به أن الله شيء عظيم كبير، وإن كان الأمر ليس كذلك، وإن كان كَذِبًا فهو لمصلحة الجمهور! وقد وضع ابن سينا وأمثاله قانونهم على هذا الأصل.

---

(١)س: تفسير سورة الأنعام، ح ١٩٤ و١٩٥. ك: ٢/٣١٨. حب: ١/ ١٠٥، حم: ١/٤٣٥ – عن أبن مسعود.

(٢)ت: تفسير سورة الفاتحة، ح ٢٩٥٣ – عن عدي بن حاتم، وقال الترمذي حسن.

(٣) خ : الأنبياء، ب ٥١، ح ٣٢٦٩، والاعتصام، ب ١٤، ح ٦٨٨٩. م: العلم، ب ٣، ح ٦. ق: الفتن، ب ١٧، ح ٣٩٩٤. جامع الأصول: ١٠/٣٥، ح ٧٤٩٣. حب: ٨/٢٤٨، ح ٦٦٦٨.



أما أهل التحريف والتأويل فإنهم يقولون: إن الأنبياء لم يقصدوا بهذه الأقوال ما هو الحق في نفس الأمر، بل الحق ما علمناه بعقولنا، ثم يَتأولونَ هذه الأقوال بما يوافق رأيهم ومعقولاتهم.

(٢) وأما أهل التجهيل والتضليل فحقيقة قولهم أن الأنبياء جاهلون ضالون، لا يعرفون ما أراد الله بما وصف به نفسه من الآيات، وأقوال الأنبياء، ويجوزون أن يكون للنص تأويل لا يعلمه إلا الله وحده، فلا يعلمه جبريل ولا محمد ولا غيره من الأنبياء! وأن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يقرأ آيات الصفات فلا يعرف معانيها لأن ذلك لا يعرفه إلا الله، وَيَظُنُّونَ هذه طريقة السلف.

ومنهم من يقول: إن المراد بها خلاف مدلولها الظاهر، ولا يعرفه أحد كما لا يعلم وقت الساعة.

ومنهم من يقول تجرى على ظاهرها وتحمل على ظَاهِرِها، ومع هذا فلا يعلم تأويلها إلا الله فيتناقضون حيث أثبتوا لها تأويلاً يخالف ظاهرها، وقالوا مع هذا: إِنَّهَا تحمل على ظَاهِرِها.

فهؤلاء مشتركون في القول بأن الرسول لم يبين المراد بالنصوص التي يَجْعَلُونَهَا مشكلة متشابهة.

ثم منهم من يقول: لم يعلم معانيها، ومنهم من يقول: علمها ولم يُبَيِّنهَا بل أحَالَ في بيانها إلى الأدلة العقلية.

فهم مشتركون بأن الرسول صلى الله عليه وسلم لم يَأتِ بها بمَا يوافق عقولنا، وأن الأنْبيَاء لا يعرفون العقليات ولا يفهمون السمعيات، وكل ذلك ضلال وتضليل عن سواء السبيل.

نسأل الله السلامة والعافية، من هذه الأقوال الواهية، المفضية بصاحبها إلى الهاوية.

الخلاصة

- حب أصحاب النبي محمد صلى الله عليه وسلم كلّهم دين، على أن يكون بغير إفراط كالشيعة، ولاتفريط كالروافض، وبغض الصحابة جملة وسبهم جملة كفر.

- السابقون الأولون من المهاجرين والأنصار هم كل من أسلم قبل بيعة الرضوان، وهم أخص بصحبة النبي صلى الله عليه وسلم ممن أسلم بعد البيعة.

- ثبتت خلافة أبي بكر بنصوص السنة، وخلافة عمر بن الخطاب بتفويض أبي بكر الخلافة إليه، أما عثمان بن عفان فقد كان أحد الستة الذين أوصى عمر أن تكون الخلافة فيهم، ثم بايع الناس علي بن أبى طالب للخلافة بعد عثمان.

- دامت الخلافة الراشدة ثلاثين سنة على يد الخلفاء الراشدين المهديين الأربعة، وترتيبهم في الفضل كترتيبهم في الخلافة، كما دلت على ذلك السنة.

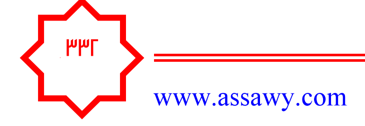
- سمى النبي صلى الله عليه وسلم عشرة من أصحابه، وبشرهم بالجنة، وهم: أبو بكر، وعمر، وعثمان، وعلىّ، وطلحة، والزبير، وسعد بن أبى وقاص، وسعيد بن زيد، وعبد الرحمن بن عوف، وأبو عبيدة بن الجراح.

- الرافضة يتبرأون من معظم الصحابة، ويغالون في محبة أهل البيت، وعلى رأس هذه الفرقة الزنديق عبد الله بن سبأ الذى قصد بفتنته إبطال دين الإسلام

- علماء السلف هم خيار هذه الأمة، بهم قام كتاب الله، وبلغت سنة رسوله صلى الله عليه وسلم، فينبغي توقيرهم، وموالاتهم، واتباعهم.

- اتباع السنة والجماعة هدى، وخلافهم ضلال، فأهل السنة والجماعة هم الفرقة الناجية، وتتمثل في الصحابة، والتابعين لهم بإحسان إلى يوم الدين.

- الاختلاف الذى وقع بين الطوائف قسمان : إما اختلاف تنوع لايقع فيه الذم مالم يحصل بغي، أو اختلاف تضاد بين قولين متنافيين فتحمد الطائفة التي تحمل الحق، وتذم الأخرى.



- أهل البدع كافة مختلفون في تأويل القرآن، فيقرون بما يوافق رأيهم من آياته، ويقابلون ما يخالف رأيهم إما بالتحريف أو بالتفويض.

- الحج والجهاد فريضتان ماضيتان مع أولي الأمر من المسلمين، برهم وفاجرهم إلى قيام الساعة. وقد ضل الرافضة في هذه المسألة إذ اشترطوا عصمة الإمام.

- طاعة أولي الأمر للمسلمين واجبة وإن كانوا من الجائرين مالم يأمروا بمعصية.

- تواترت السنة عن النبي صلى الله عليه وسلم بالمسح على الخفين، وبغسل الرجلين، إلا إن الرافضة طعنت في تواتر غسل الرجلين وأنكرته.

- الدين هو ماشرعه الله تعالى لعباده على ألسنة رسله، وهو عام في كل زمان، ولكن الشرائع متنوعة، وهو وسط بين الغلو والتقصير في شرائعه، وبين التشبيه والتعطيل في الصفات، وبين الجبر والقدر في أفعال العباد، وبين الخوف والرجاء في أحوال القلوب.

- الخوف المحمود هو الذي يحول بين صاحبه وبين محارم الله، وتجاوزه يؤدي إلى اليأس والقنوط، والرجاء المحمود هو المقرون بالعمل الصالح، والتوبة من الذنوب، فإن انفك عن العمل صار غروراً وأماني كاذبة.

- أهل السنة والجماعة برآء من العقائد الفاسدة وأصحابها، فهم فرق ضالة لعدولهم عن الصراط المستقيم الذي أمرنا الله باتباعه.

- للفرق الضالة في الوحي طريقتان : طريقة التبديل: سواء بالوهم والتخييل، أو بالتحريف والتأويل، وطريقة التجهيل.

الاختبار البعدي للوحدة

س١- اذكر أدلة الكتاب و السنة على فضل الصحابة كلهم رضوان الله عليهم ، ووجوب محبتهم ، ثم بين كيفية هذا الحب ، و نماذج للزيغ فيه .

س٢- كيف ثبتت الخلافة لكل من الخلفاء الراشدين ؟ اذكر نبذة عن فضائل كل منهم ، وعن فضل الخلافة الراشدة عموماً .

س٣- من العشرة المبشرون بالجنة ؟ وما عقيدة كل من أهل السنة ، والرافضة فيهم؟

س٤- مذهب الرافضة أخبث و أضل من اليهود و النصارى . اشرح ذلك مبيناً عقيدتهم الفاسدة في الصحابة ، وطريقتهم في إفساد الدين؟

س٥- ما منـزلة علماء الأمة ؟ وما الحال إذا قال أحدهم ما يخالف صحيح السنة؟

س٦- اذكر أدلة الكتاب والسنة على وجوب اتباع السنة والجماعة ، واجتناب الفرقة، مع بيان من هم أهل السنة والجماعة ؟

س٧- ما أقسام الاختلاف بين الطوائف المتنازعة ؟ اذكر أمثلة على كل منها؟

س٨- اذكر عقيدة كل من أهل السنة والرافضة في مسألة الحج والجهاد مع أولي الأمر؟

س٩- ضع علامة (✓) أو (×) أمام العبارات الآتية :

أولو الأمر لهم طاعة مستقلة توجب على المسلم السمع والطاعة لهم. (   )

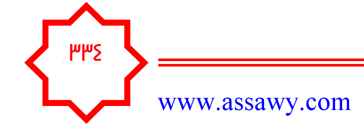
يجب طاعة أئمة الجور ، وإن لم يقيموا الصلاة في الأمة . (   )

الظلم الذي يقع من ولاة الأمور يستلزم الخروج عليهم . (   )

يجب طاعة أولي الأمر – وإن جاروا – مالم يأمروا بمعصية . (   )

س١٠- لِمَ أدخل المصنف رحمه الله قوله : ﴿ونرى المسح على الخفين ...﴾ في متن عقيدته، رغم أن المسألة فقهية ؟

س١١- دين الله الذي جاءت به الرسل واحد ، وهو وسط معتدل . وضح ذلك؟



س١٢- متى يكون حال العبد بين الخوف والرجاء محموداً ؟ ومتى يصير مذموماً ؟

س١٣- ما عقيدة أهل السنة في الفرق الضالة ؟ اذكر ثلاث من هذه الفرق ، ونبذة عن معتقداتهم الفاسدة .

س١٤- ما مسالك الفرق الضالة في الوحي؟ وما السبب في ضلال هذه الفرق عموماً ؟

الفهرس

